

التفسير الموضوعي

لسورة القرآن الكريم

إعداد

مختار من علماء والتفهم وعلم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى سني

جامعة الشارقة

المجلد الرابع

إبراهيم - طنطا

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة





الإصدار رقم

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

هاتف: (+971-6-5050550)، فاكس: (+971-6-5050555)

E-mail: pb@sharjah.ac.ae

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: (+971-6-5585000)، فاكس: (+971-6-5585099)

Web site: <http://www.sharjah.ac.ae>

إِلَهِ الْجَنَّةِ وَالسَّقِيمِ وَالْمُتَوَكِّلِ

بِرَأْسِيَّ

أ. د. بَهْطَمِي مَسْلَمِي

بِعَضْوَل

أ. د. عِيَادَةُ الْكَبِيرِي

بِعَضْوَل

أ. د. أَحْمَدُ الْبَدَوِي

بِعَضْوَل

أ. د. عَبْدُ اللَّهِ الْخَطِيبِي

بِعَضْوَل

د. مُحَمَّدُ عَصَا الْقِضَاة

بِعَضْوَل

د. قَاسِمُ مَسْعُود

بِعَضْوَل

د. عَوَادُ الْخَلْفَاة

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

- د. عبد الرحيم الزقمة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف مرجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي
د. مصطفى مسلم محمد
د. عيادة أيوب الكيسي
د. أحمد محمد الشراوي
د. ناص سليمان العمس
د. أحمد عباس البدوي
د. محمد أحمد عيد الكندي
د. مساعد مسلم آل جعفر
د. شحادة حميدي العمري
د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناص الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة إبراهيم

بين يدي السورة

سورة إبراهيم مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر، وقال ابن عباس وقتادة إلا آيتي ٢٨ و٢٩ فمدنيتان وهما قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيُبْسِكُ الْقَرَارُ ۗ ﴾. نزلت بعد سورة نوح. (١)

جاء ترتيبها في المصحف العثماني السورة الرابعة عشرة. عدد آياتها اثنتان وخمسون آية موضوعها: الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وإثبات الرسالة والبعث والجزاء وذكر القيامة وأهوالها والنار وعذابها والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية. اشتملت: على ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لكفار قريش حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم.

ولجو السورة: من بيان حقيقة نعمة الله على البشر، وزيادتها بالشكر نصيب ملحوظ ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران، وفيها يعدد الله عز وجل نعمه على البشر مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، طائعهم وعاصيهم لعلمهم يشكرون، ورد فيها تشبيه الإسلام بالكلمة الطيبة والكفر بالكلمة الخبيثة.

وتيسيراً لتفسيرها موضوعياً روعي في تقسيمها إلى سبعة مقاطع، يحتوي كل منها على طائفة من القواعد والمبادئ والعظات والعبء التي سنقف عندها بالتحليل والتعليق والمقابلة والقياس، مع بيان ما ترشد إليه من هدايات، وتوضيح وجه ارتباط كل مقطع بغيره مما تقدم أو تأخر.

وتشكل مقاطع السورة قالباً واحداً يمكن تصنيفها على النحو التالي:

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري: ٥١٦/٢.

- المقطع الأول ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٤ .
- المقطع الثاني ويمتد من الآية ٥ إلى الآية ٨ .
- المقطع الثالث ويمتد من الآية ٩ إلى الآية ١٧ .
- المقطع الرابع ويمتد من الآية ١٨ إلى الآية ٣١ .
- المقطع الخامس ويمتد من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٤ .
- المقطع السادس ويمتد من الآية ٣٥ إلى الآية ٤١ .
- المقطع السابع ويمتد من الآية ٤٢ إلى الآية ٥٢ .

ومحور السورة هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور بالقرآن الكريم على يد النبي ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وهذا مكرور في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويقدم محور السورة التعريف بمكانة الكتاب ووظيفة الرسول، ونصر الله للمؤمنين المستخلفين في الأرض، لأجل عمارتها على قواعد الهدى الرباني في نظم الحياة كافة، وبيان وحدة تكامل الرسائل السماوية إلى أن بلغت النضج في القرآن الكريم خاتمة الكتب الربانية وهذا بالكلية من أصول قواعد التوحيد.

ومما تجدر ملاحظته في مناسبة السورة مع غيرها تناغم العلاقة ووجه الارتباط بين سورة إبراهيم وسورتي الرعد التي قبلها والحجر التي بعدها.

فهذه السور مكية افتتحت بحروف التهجي التالية ﴿الر﴾ في سورة الرعد و﴿الر﴾ في سورتي إبراهيم والحجر. كما جاء فيها تسمية القرآن بالكتاب. جمعت ضوابط القرآن المكي وخصائصه الموضوعية وتشابهت هذه السور في المقاصد التالية:

- الإشارة إلى آيات الله في الكون لأجل توظيف العلم في الدعوة للإسلام من خلال أعمال

العقل والفكر.

- ذكر بعض صفات الله تعالى وأثار قدرته ورحمته.
- بيان غاية خلق الله للإنسان في تحقيق العبودية والاستخلاف في الأرض ومسؤولية الإنسان عن أعماله التي تفضي به بالطاف الله للهداية أو الضلال.
- عرض الأدلة العقلية على وجود الله تعالى بالبراهين والحجج القوية.
- تسرية النبي ﷺ وتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر على ما يواجهه من صعاب بما اتفق للأنبياء قبله مع أقوامهم.
- القدح في سلوك الكفار المذموم لإثارتهم الشبهات ضد رسلهم وانتحالهم ألواناً من الشرك.
- الإخبار عن مصير الماضين من الأمم والشعوب للعتة والعبرة.
- توصيف جانبٍ من سمات شخصية المشركين وتنكرهم للإيمان بالرسول.
- الاستشهاد بضرب الأمثال للوعيد والترغيب والترهيب وللتحبيب أو الإكراه في الشيء.
- بيان أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.
- وصف أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم لو كانوا مسلمين.
- التأكيد على إقرار الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله عز وجل.
- التأكيد على إقرار العبودية لله عز وجل الوحيد المستحق للعبادة فهو الخالق الرازق المحيي المميت المعز المذل.
- بيان أن القرآن حجة على الخلائق فيه المنهج القويم والصراط المستقيم.

- دعوة الناس كافة إلى تدبر معاني القرآن الكريم وفهم أحكامه.
- التذكير بنعم الله على الإنسان، وبيان أن النعمة إذا استأنست من صاحبها الشكر تأهبت بإذن الله تعالى للمزيد من المنح المبارك فيها والعطايا والمكرمات تعظيماً لشكرها. وإن النعمة إذا وقعت من صاحبها موضع الريبة والشك والجحود والنكران تكون مجلبة للنقم، فمن قام بشكرها دخل الجنة ومن أنكرها أو ردها أو كفر بها دخل النار.
- دعوة الكفار للتعاطف بما أصاب من قبلهم من الأمم بسبب كفرهم، ودعوة المؤمنين للثبات على دينهم وعدم الوهن والضعف في مواجهة قوى الكفر والشرك.

وانفردت سورة إبراهيم عليه السلام، ببيان أن محمداً وموسى عليهما السلام قد بعثا بالقرآن والتوراة لأجل الهداية شأن الرسل كلهم، وتكفلاً بما أنزله الله عليهما لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد فصلت مقاطع السورة لخاتم الأنبياء والمرسلين ما لم تفصله لأولي العزم من الرسل الوارد ذكرهم في السورة كنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام، وهذا من أسلوب العرض القرآني، فقد يصرح في مقطع بأشياء ما لم يصرح به المقطع الآخر، والمثال ذاته ينسحب على السور، وحكمة هذا التفصيل هنا أن الله عز وجل قد فضل بعض الرسل على بعض في مراتب ودرجات كما فضل بعض الكتب على بعض، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وعليه فإن أجلهم وأرفعهم منزلة عند الله محمد عليه السلام، لأجل هذا خصته العناية الإلهية ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، وللناس كافة إلى قيام الساعة. وأعظم الكتب السماوية منزلة القرآن الكريم، فقد تكفل الله بحفظه من التحريف والتصحيف مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وأنبياء الله إلى الناس رسلاً كثيرين، ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين رسولاً منهم، وطلب منا الإيمان بهم جميعاً دون أن نفرق بين رسولٍ ورسول، وهؤلاء الرسل هم: (آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وشعيب وأيوب وذو الكفل

وموسى وهارون وداود وسليمان وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام). أمرنا الله تعالى أن نؤمن بهم، فلا يصح إيمان المسلم إلا إذا آمن بجميع هؤلاء الرسل الذين خصهم الله بالذكر، وغيرهم مما لم يأت القرآن على ذكرهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٧١] وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

لم تذكر كتب أسباب النزول سبباً في نزول سورة إبراهيم عليه السلام إلا في الآيتين المشار إليهما آنفاً ٢٨ و٢٩، فقد نزلتا في أهل مكة حيث أسكنهم الله تعالى حرمة الأمن وبسط لهم العيش الكريم وبعث فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، وقيل نزلتا في قتلى المشركين يوم بدر. ^(١)

والمناسبة بين افتتاحية السورة في مقطعها الأول والمقطع السابع الأخير قوية إذ في كليهما دعوة للتوحيد، وقد جاء هذا الارتباط إلزاماً للحجة، وكررت لتكون أبلغ في التحدي والتبكيث والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، كأن السورة قد غلفت بسياج التوحيد لله تماماً كإحاطة السوار بالمعصم. وفي الختام سنورد مزيداً من المناسبات بين محور السورة ومقاطعها وبين المقاطع بعضها ببعض عند الحديث عن المقاطع استقلالاً.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٦٤/٩، والتفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٩٤/٧، والكشاف، للزمخشري: ٥٣٤/٢، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي: ص ٢٥.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الأول

ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٤

(ويفيد بيان منزلة القرآن الكريم وحجتيه على العرب والخلائق جميعاً بصرف النظر عن أجناسهم ولغاتهم)

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

افتتحت السورة بقوله تعالى ﴿الر﴾ وتقرأ ألف لام راء، لم يكن هذا مألوفاً في افتتاح الكلام عند العرب، وقد حاول العلماء معرفة أسرار هذه الفواتح للكشف عن الحكمة في استهلال بعض السور بها، ولهم فيها مذاهب شتى من الاجتهادات أقواها حجة أنها مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني، ليكون في غرابتها أبلغ الأثر في قرع أذن السامع لحملة على الإصغاء والانتباه إن كان من أهل الإيمان. وهي من المتشابه الذي على المسلم أن يؤمن بظاهر الآية ويكمل المضمرة الخفية فيها إلى الله عز وجل لأنها غير واضحة الدلالة.

والاستفتاح في هذا الضرب من الحروف الهجائية ﴿الر﴾ لم يقتصر على سورة إبراهيم فحسب، بل جاء في سور يونس وهود ويوسف والحجر.

وقد بين الله تعالى بعد هذا الاستفتاح أن هذا الكتاب العظيم الخالد على مر الأزمان والدهور إلى قيام الساعة، أنزله الله على نبيه ﷺ ليخرج البشرية كلها ابتداءً بقومه، من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى، ولم تقتصر هذه الحقيقة الإيمانية على سورة إبراهيم بل انتظمت غير مرة في العديد من السور تعضيدياً لمنزلة القرآن الكريم كقوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمُ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحديد: ٩] وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وبعد بيان وظيفة القرآن في إخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر، ومذموم الخلق، وحوارم المروءة، وضروب المعاصي، إلى نور العلم والهداية والإيمان، والخلق الحسن المحمود الذي يفضي إلى جادة الصواب في القول والعمل والسلوك، نرى توعد آيات المقطع بالدليل والبرهان أهل الكفر والشرك بالويل (وهي كلمة تقال للهلكة والعذاب الشديد والموت لأنهم يولولون من عذاب نار جهنم ويقولون يا ويلاه).^(١)

وهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واطمأنوا إليها وقدموها عن الحياة الآخرة التي تنكبوا طريقها إما إنكاراً وجحوداً وإما غفلة، فهؤلاء هم أهل الضلالة الذين استبدلوا الذي أدنى بالذي هو خير، وسعوا في الأرض فساداً بإثارة الشبهات حول رسل الله وتشكيكهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ونفيهم للبعث والحساب والجنة والنار، ونابدوا ربهم بالعداوة والمحاربة، وهذه صفات من ضل وأضل وشاق الله ورسوله، فأى ضلال أبعد من هذا؟؟

وقد وصف الله تعالى الكافرين بصفات ثلاث: الأولى أنهم آثروا الحياة الدنيا بلذاتها القصيرة الفانية على نعيم الآخرة، حيث تناسوها وتركوها وراء ظهورهم بالإيثار والاختيار الطوعي فكانوا من أهل ظلمات الكفر والضلالة والجهل.

والثانية إصرارهم على منع الناس عن شريعة الله وانتحلوا لذلك ألواناً شتى من المكابرة والعناد التي لم يسبقهم إليها سابق إشباعاً لرغباتهم وأهوائهم.

(١) الكشاف، للزمخشري: ٥١٦/٢.

والثالثة سعيهم المشبوه في تحويل شريعة الله عن مرادها الصحيح التي تنزلت لأجله، لتكون معوجة لا استقامة فيها لينفروا الناس منها، لأجل هذا فهم أهل ضلالة لا يرجى منهم صلاح لا في حاضرهم ولا في الغد من أيامهم ولكن الله لهم بالمرصاد لمكرهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّآ أَن يُضَيِّقَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وهو الهادي لمن قُدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث للناس كافة، فالله عز وجل هو المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعته وأمره ونهيه، لا يضره من خالفه ولا من خذله، وهو العزيز الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أفعاله فيفضل من يستحق الإضلال، ويهدي من كان أهلاً للهداية بتيسيره وتسهيله وتوفيقه ولطفه.

وفي الآيات شهادة من الله عز وجل بتأييد رسوله ﷺ، وإقراره عز وجل أنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله مما يجعل الأحاد منهم محموداً في أموره الدنيوية حسناً في خاتمة عاقبته الأخروية، ومن لم يتبعه فله النار وعليه سخط الله، وهذا وذاك لا يحصل إلا بإرادة الله الحكيم في أحكامه وتدييره وتقديره لأموال الخلائق.

ثم ذكرت آيات المقطع أن من صفات أهل الإيوان أنهم يؤمنون بأركان الإسلام، ويستحبون الآخرة على الدنيا غايتهم في حياتهم تحقيق الاستخلاف في الأرض على مراد الله وشريعته في نظم الحياة كافة، يدعون إلى سبيل الله في حلهم وترحالهم ليل نهار، ما انفكوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وأبرزت آيات المقطع أيضاً خطاباً للنبي ﷺ، أن من لطف الله عز وجل بعباده أنه ما أرسل رسولاً من رسله الكرام الوارد ذكرهم في القرآن الكريم إلا بلسان قومه ليقوم عليهم الحجة أمراً ونهياً بألستهم.

ويستدل من هذا الخطاب أن الرسول الذي يبعث بلسان قومه لحملهم بالإيضاح والتفسير للعمل بحقائق دعوة شريعته أنه مع عظيم دعوة رسالته إلا أنه لا يقدر أن يهدي أحداً، فالمفضل والهادي هو الله، فليس على الرسول هدايتهم، فالله تعالى يضل من يشاء لعدم سلوكه سبل

الهداية، ويهدي من يشاء لفتح قلبه لنور الهداية، فقلوب الناس بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها كيف يشاء، حسب إقبالهم، أو صدهم.

واشتمل المقطع على ثلاث صفات لله عز وجل وهي العزيز والحמיד والحكيم، للدلالة على أن الله عز وجل لا يهدي ولا يضل إلا للحكمة، وهو القوي الذي لا يغلب على مشيئته، له التفرد بالهداية والإضلال وتقليب القلوب، فالله عز وجل لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا على مراد حكمته، وعلمه الأزلي بسلوك خلقه، وهذا من تمام قدرته وعدله، فحققت بذلك كلمته سبحانه وتعالى على أهل الإيمان من عباده بأن مصيرهم الجنة، وأهل الشرك مصيرهم النار. ويفيد اسم العزيز: الغالب الذي يغلب لكمال قوته وقدرته.

والحميد: الموصوف بجميع الصفات التي يحمده بها الأولون والآخرون، وهو المحمود بعظيم صفاته سبحانه، وهو الحامد يحمده أهل طاعته من عباده، ويشي عليهم بما هم عليه من خير وحسن الخاتمة. ويفيد اسم الحكيم: الحاكم الذي لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه فإنه يضع الأحكام في مواضعها بعلمه وحكمته وتديبه وتقديره، بصورة موافقة للحكمة والرشاد. ولعل حكمة اشتغال المقطع على هذه الأسماء يعزى إلى بيان أن ما خفي عنا من الحكمة في بعض أفعاله سبحانه وتعالى، فذلك من قصور نظرنا وضيق تفكيرنا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الله عز وجل وصف نفسه في آخر المقطع حكيماً، وحكمته سبحانه وتعالى تنافي كونه خالقاً للكفر مريداً له، وفي هذا يعلق الفخر الرازي قائلاً: (لقد وصف الله عز وجل نفسه عزيزاً بمعنى الغالب القاهر فلو أراد الإيمان من الكافر مع عدم قدرة الكافر على ذلك لما سمي عزيزاً غالباً).^(١) والعزيم هنا إشارة إلى كمال قدرته سبحانه وتعالى وعدله.

وأخيراً فإن المناسبة بين افتتاحية المقطع الأول وخاتمة السورة في المقطع الأخير، خير شاهد على وحدة هدف ومحور السورة. ففيها أصول دعوة التوحيد بإخراج الناس من الظلمات إلى النور على يد النبي ﷺ.

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٦٤/٧.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة من المقطع الأول

١- افتتحت آيات المقطع الأول بقوله تعالى: ﴿الر﴾ وهي ثلاثة حروف هجائية مقطعة، تلفظ:

ألف، لام، راء. ابتداءً الله سبحانه وتعالى بها السورة للتنبيه ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات عند سماعها لأجل الإصغاء لما سيرد بعدها. وهي مع ذلك تشير إلى عظمة المؤلف من هذه الحروف التي يلفظ بها العرب كلامهم.

تعددت آراء العلماء في جواز أو حرمة تأويلها إلى قولين:

- جماعة ترى وجوب تدبر آيات القرآن الكريم بما فيها فواتح السور من الحروف المقطعة

مصدقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِّاتِ أَمْرًا عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ويعتقد أنصار هذا الرأي أنه كلما تقدم العلم الإنساني كشف عن بعض وجوه إعجاز القرآن التي لم يقف عليها الأوائل.

ولقد أورد صاحب البرهان عشرين رأياً اجتهاداً جمعها من أقوال علماء علوم القرآن

والتفسير الذين سبقوه، ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي محمد ﷺ. ومن أشهر وجوه تفسيرها أنها مفاتيح لأسماء الله الحسنى، وكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، ومثاله في قوله تعالى ﴿الر﴾ فالألف مفتاح اسم (الله) واللام مفتاح اسمه (لطيف) والميم مفتاح اسمه (مجيد) والراء مفتاح اسمه (الرزاق)^(١).

- وبالمقابل فإن جماعة ثانية من العلماء ترى حرمة الخوض في تأويلها وهي من المتشابهة

نقيض المحكم. علم مستور وسر محجوب استأثر الله به وهو العالم بمراده منها، وهي من أسرار القرآن التي لا يدركها البشر حتى قيام الساعة.

- وترى طائفة منهم ليس من الدين في شيء أن يجترأ أحد من الخلق على تفسيرها خشية

(١) للمزيد انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد علي الصابوني: ١/٢٧.

الزلل في الاجتهاد.^(١)

ومما تجدر ملاحظته هنا أن فواتح السور من الحروف المقطعة وردت كآيات مستقلة في تسع عشرة سورة هي: (البقرة وآل عمران والأعراف ومريم وطه والشعراء والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة ويس وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجمانية والأحقاف)، وجاءت غير مستقلة مدرجة مع سياق الافتتاح في عشر سور هي: (يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنمل وص وق والقلم).

ويعزى ذلك إلى الاختلاف بين البصريين والكوفيين حول اعتبارها آيات مستقلة أم لا، فالبصريون لم يصنفوها آيات منفردة بذاتها، أما الكوفيون فقد صنّفوا بعضها آيات مستقلة دون بعضها الآخر.

والاستفتاح بالحروف المقطعة ورد في القرآن الكريم في تسع وعشرين سورة كلها مكية عدا البقرة وآل عمران فهما مدنيتان.

وتباينت فواتح السور من حيث عدد الحروف، فبعضها مؤلف من حرف واحد ومثاله ص، ق، ن، ومن حرفين ومثاله حم، طس، طه، يس. وبعضها مؤلف من ثلاثة أحرف ومثاله (الم) و(الر) و(طسم)، ومنها ما ورد من أربعة أحرف ومثاله (المز) و(المص) كما ورد بعضها من خمسة أحرف ومثاله (كهيعص) و(حم عسق).

واللافت للانتباه أن عدد أحرف فواتح السور من الحروف المقطعة أربعة عشر هي: (ا، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، ه، ي). وقد جاء في كافة السور التي استهلّت بالحروف المقطعة التأكيد على الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله تعالى.

وإتماماً للفائدة فيما يلي جانبٌ من وجوه اجتهادات العلماء في تأويل فواتح السور من

(١) يعد كتاب الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح، لابن أبي الأصبع ت ٦٥٤ هـ، من أشهر المؤلفات التي أفردت لفواتح السور ومعرفة أسرارها.

الحروف الهجائية أو المقطعة أو النورانية، الأربعة عشر حرفاً المشار إليها آنفاً، والتي يجمعها تسهياً للحفظ قولك (نصّ حكيمٌ قاطعٌ له سرٌّ)، وهي في عرف البعض أجل وأشرف من النصف الآخر المتروك من حروف اللغة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أقوال العلماء ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، وإنما يغلب عليها الظن الاجتهادي، ليس فيها إجماع وليس أحدها بأولى من الآخر، وفيما يلي جانب من أقوالهم:

أ - هي أسماء للسور ولا يمانع أصحاب هذا الرأي تسمية السور المتشابهة في فواتحها بمسمى واحد غير أسمائها المعروفة به، كسورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر ونحو ذلك في البقرة وآل عمران في مقطع ﴿آل﴾.

ب - اسم من أسماء الله الأعظم.

ج - قسم أقسم الله به أسماءه تعالى إذ يدل كل حرف منها على اسم من أسمائه أو صفة من صفاته.

د - استفتح بها لأجل التحدي والإعجاز اللغوي، وكررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيث كما كررت قصص كثيرة، ولهذا فإن كفار قريش عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من جنس الحروف التي يتخاطبون بها، ومن أنصار هذا الرأي القرطبي والرازي والزخشري وابن تيمية، وهو أكثر الأقوال قبولاً وهذا المذهب عليه إطباق أكثر المفسرين قديماً وحديثاً.

هـ - أنها دالة على معرفة المٌدد التي يستخرج منها أوقات الحوادث ومددها الزمنية، ويقاس عليها أيضاً استخراج كل كلمة من كلمات القرآن، فالألف تفيد واحد واللام ثلاثون والميم أربعون، وهذا حساب فواتح البقرة ﴿الر﴾، $٧١ = ٤٠ + ٣٠ + ١$.

وفيما يلي حساب الأرقام عند العرب وقيمة كل رقم العددية في نظام حساب الجُمَّل:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠

س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

ولإيضاح حساب الجمل في قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ﴾ = الألف واحد واللام ثلاثون والميم وأربعون والصاد تسعون فهذه تمثل إحدى وثلاثين ومائة.

وفي قوله تعالى: ﴿الرَّ﴾ = الألف واحد واللام ثلاثون والراء مائتان، فيكون هذا المقطع في حساب الجمل إحدى وثلاثين ومائتين.

وفي قوله تعالى: ﴿الْمَرَّ﴾ = الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان، فيكون هذا المقطع في حساب الجمل إحدى وسبعين ومائتين.

وتعطي كلمة القرآن العدد ٣٨٢ وتعطي كلمة الكتاب العدد ٤٥٤ وكلمة الحق ١٣٩ وكلمة الإنسان العدد ١٩٣ وهكذا.

غ- الله أعلم بمراده منها، وباعتقادي أن القول بهذه العبارة أجل من الاجتهاد في إخضاع القرآن إلى حساب الجمل، وهي في منزلة شطحات لأرقام جوفاء. (١)

ك- ومن الدراسات الجديدة حول فواتح السور محاولة د. رشاد خليفة إبراز الإعجاز العددي للرقم ١٩، فقد وجد أن عدد أحرف البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هو تسعة عشر حرفاً، له علاقة وثيقة بالحروف المقطعة التي استهلكت بها بعض السور القرآنية، إذ اكتشف أن كل سورة افتتحت بحرف أو أكثر من هذه الحروف قد تكرر في السورة نفسها، وفقاً لعدد دقيق

(١) للمزيد حول فواتح السور انظر: تفسير الطبري والقرطبي وابن عطية الأندلسي والزخشي والرازي وابن كثير في تفسير (الم) من سورة البقرة. وانظر أيضاً: الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح لابن أبي الأصعب ت ٦٥٤ هـ. والبرهان للزركشي.

هو عبارة عن مضاعفات للعدد ١٩. (١)

٢- إن في قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في منزلة الإنعام عليه من حيث أنه فوض الله إليه هذا العمل العظيم لحمل الناس كافة على الإسلام لكونه خاتم الأنبياء والمرسلين، والكتاب الذي نزل عليه خاتمة الكتب السماوية. وإنعاماً على الخلق أيضاً من حيث أنه أرسل إليهم صفوة رسله ليخلصهم من ظلمات الكفر، ويرشدهم إلى نور الإيوان، وخصه دون غيره بالعموم والعالمية في رسالته.

ويعد هذا الإنعام للنبي ﷺ هو الأفضل والأكمل خلاف من سبقه من الرسل، ومن الآيات الدالة على عالمية شريعته وعموم دعوته للبشرية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. ويستفاد من ذلك أن الشرائع التي تقدمت رسالة محمد ﷺ كانت محصورة في أقوام معينة وأزمان محددة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. في حين كانت رسالته ﷺ عالمية لصلاحيتها لكل زمان ومكان، فلا نبي بعده ولا كتاب سماوي بعد القرآن الكريم، وبموته انقطع وحي السماء عن الأرض، وبهذا يكون الدين عند الله الإسلام بمنطوق الرسالة والدعوة والشريعة التي تنزلت على محمد ﷺ. ولأجل ذلك فإن القرآن الكريم هو أشرف الكتب السماوية، أنزله الوحي على أشرف رسول بعثه الله في أهل الأرض، نزل في أقدس بقعة لأفضل وخير أمة، إذا التزمت شرع الله وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر.

وبهذا فإن عملية الإخراج من الظلمات إلى النور لا تتم إلا بالقرآن الكريم، أصل كل هداية ومنبع كل نور. وأضيف الفعل في قوله تعالى ﴿لِتُخْرِجَ﴾ إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمنذر

(١) في تاريخ القرآن وعلومه، د. محمد الدسوقي: ص ١١٧.

الهادي بأمر ربه.

٣- تقرر آيات المقطع عدم استواء الظلمات والنور، وأن نعمة الإيمان هي أجلّ نعمة في الوجود.

وبمناسبة قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣]، جاء وصف الضلال بالبعد مع أن البعد للضال، لأنه هو الذي يباعد صاحبه عن طريق الحق، وفعل الضلال ملازم له لا يفارقه.

وهذا التعبير القرآني يدخل في باب الإسناد المجازي في التمثيل، ويندرج في سياق الإعجاز البلاغي واللغوي. ^(١) ودليله في المقطع أيضاً أن الظلمات والنور، استعارتان للضلال والهدى كناية عن الكفر والإيمان، وهذا محمول على التمثيل لأن الكفر بمنزلة الظلمة والإسلام بمنزلة النور ^(٢).

وقد جاء تشبيه الجهل والكفر والباطل بالظلمات وهي على صيغة الجمع، وبالمقابل عبرت الآيات عن الإيمان بالنور والهداية بلفظ المفرد، مما يدل على أن طرق الجهل كثيرة وطريق الإيمان واحد. ^(٣)

٤- إن من لطف الله عز وجل اختصاص كل رسول بلغة قومه، ليكون إدراكهم لمضمون الخطاب في الدعوة أسهل، ووقوفهم على أوامر الأمر والنهي والحلال والحرام والوعد والوعيد والثواب والعقاب أكمل، بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه، لأجل أن يكون فهمهم للدعوة أعمق حتى لا يكون لهم حجة على الله، منعاً لقولهم لم نك نفقه لغة ما خوطبنا به.

وعلى خلفية هذا فإن القرآن الكريم وإن نزل بالعربية فقد جاء للعالم كله، ولا حاجة هنا لنزوله بجميع الألسن واللغات لأن الترجمة تنوب عن ذلك، فاستوجب على المسلمين ترجمته إلى لغات العالم كله، فتعلمه بمعانيه وعند ترجمته يتشعب عنه جلال الفوائد وعظيم المنافع لغير الناطقين بالعربية، فيلزم عندئذ كل من بلغه ترجمته حجته، وخاصة إذا ما علمنا

(١) الكشف، للزمخشري: ٢/٥١٧، والأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/٢٧٧٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/٣٣٨.

(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/٥٨.

أن أكثر من ثلثي سكان العالم وثنيون، يحتاجون إلى ترجمة تفسيرية معنوية للقرآن الكريم، لأن إبلاغ الدعوة من واجبات الإسلام، وما يتوقف على تفعيل هذه الدعوة من دراسة اللغات ونقل أصول الإسلام إليها فواجب، كما أن مخاطبة أهل الكتاب من الغرب بلغتهم فواجب كذلك، لإيضاح أسس الدعوة إلى الله وإظهار مصداقية الرسول ﷺ في دعوته، ومقارعتهم بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى وحرفوه من مواضع الكلم في كتبهم.

٥- إن استحباب الحياة الدنيا وحده لا يكون مذموماً إلا بعد أن يضاف إليه إثارها على الآخرة، فأما من أجلها ليصل بها إلى الآخرة كجسر موصل للجنة، من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحقيق الاستخلاف في الأرض على مراد الله فلا يكون مذموماً.

أما إذا أثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته، فهذه المحبة مذمومة لمخالفتها قول الله عز وجل ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۗ ﴾ [الأعلى: ١٧].

(ومن كان موصوفاً بحب الدنيا فهو ضال، ومن منع الخير عن نفسه وحبس الآخرين عن فعله فهو مضل).^(١) ومن فعل ذلك كان غافلاً عن الحياة الآخرة وعن معايب الحياة الدنيا الزائلة، وحسبك أن القرآن يتحدث عن الحياة الدنيا من حيث قيمتها الحقيقية وعلاقتها بها وراءها، وما يجب أن تكون عليه حالة الإنسان تجاهها ومدى ما ينبغي أن يستفيده منها حسب ما تقتضيه مصالحه وسعادته، فالحياة الدنيا من حيث قيمتها فانية، معبر إلى الحياة الأبدية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَسِيحُ فَرِنَّهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴾ [الحديد: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. والمتأمل للنصوص القرآنية يرى أن الله عز وجل قد سخر ما في الأرض خدمة للإنسان لإسعاده شريطة ألا تكون همه الأول مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَنْتَعِ فِيْمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٦٣/٧.

مِنَ الدُّنْيَا ﴿ [القصص: ٧٧].

ويحذر الله عز وجل من معارضة الفطرة الإنسانية بعدم الانتفاع من متع الحياة الدنيا وطيباتها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧].

وهكذا يأمر الله الإنسان بالإقبال على الحياة الدنيا بشروط للتمتع بطيباتها للإفادة من نعيمها وعدم الاغترار بمظهرها، وهذه نظرة القرآن للإنسان في الكون والحياة. ^(١)

٦- إن كل من أدخل بدعة محرمة ودعا إلى منكر من قول أو عمل أو سلوك، وحمل الناس على اتباع ذلك بالترغيب أو التهيب ليصرفهم عن الدين الحق كإشاعة الفن الهابط وتدشين الفضائيات المشبوهة، ومحاربة الدعاة إلى الله والاستقواء بالأجنبي والدعوة للسفور وملاحقة صيحات الأزياء ونحو ذلك، داخل بالكلية في مضمون قوله تعالى: ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [إبراهيم: ٣].

وصفة أهل هذا الضرب من الناس أنهم في ذهاب عن الحق بعيدون عنه عليهم وزر من عمل بها كما ورد في الحديث الشريف: (من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء) ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء). ^(٢)

٧- إن في قوله تعالى: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٤] دعوة للإيمان بالقضاء والقدر، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، ولا يكتمل إيمان الإنسان إلا به، ولا مسوغ في الإسلام أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أوامر الله ثم يتعذر بالقدر، لأن الله عز وجل خلق للإنسان عقلاً وإرادة تجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر والكفر والإيمان والظلمات والنور.

(١) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص ٢٥٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة، حديث رقم: ٤٨٣٠.

وقد انقسم الناس في القضاء والقدر إلى ثلاث جماعات:

- طائفة ترى أن الإنسان مخير دائماً وهي جماعة القدرية، وقد نفت هذه الفئة تأثير القدر على الإنسان.
 - طائفة ترى أن الإنسان مسير دائماً لأنه لا إرادة له وأن الله وحده هو الفاعل لكل شيء وهم جماعة الجبرية.
 - جماعة ترى أن الإنسان مخير في أموره الإرادية ومسير في أموره اللا إرادية التي لا تدخل في نطاق قدرته، وترى هذه الجماعة أن القدر لا ينفي مسؤولية الإنسان عن عمله كما يمكن رده في الأمور الإرادية للإنسان، أما الأمور اللا إرادية كالموت مثلاً فهذا خارج عن نطاق قدرته، وأهل هذا الضرب هم الأرجح صواباً.
 - وعلى خلفية هذه التوطئة في القضاء والقدر نقول: إن الفعل في الكفر واقع باختيار الكافر وإرادته، لأن الله تعالى لم يرد الشر ولم يأمر به، بل أراد الخير للإنسان وأمر به، ولم يسلبه القدرة على الانتقال من الظلمات إلى النور وأنه لو أعمل العقل لفعل ذلك.
 - ولا صحة لمن يزعم أن الله عز وجل هو الذي يجبر عباده ويقرر أزلاً من سيكون منهم مؤمناً ومن سيكون كافراً، ومما يعضد هذا القول اتفاق الشرع والعقل على تقرير أن الإنسان فاعل حر ومختار لأموره الإرادية، بدليل أن الشارع قد دفع المسؤولية عن المكره ومن لم يبلغ الرشد والمجنون.
- وفي آيات المقطع دلالة على إبطال القول بالجبر ويعضد ذلك قول الفخر الرازي في تفسيره:
(إن الله تعالى لو كان يخلق الكفر في الكافر فكيف يصح إخراجه منه بالكتاب المنزل.... ومن حق الكافر على سبيل الافتراض القول هنا إذا كان الله خالق الكفر فينا فكيف يصح للرسول إخراجه منّا).^(١)

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٥٧/٧.

ومما يدل على أن أهل الكفر والإضلال اختاروا كفرهم بإرادتهم قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّصِينَ﴾ [الشعراء: ٤]. فلو شاء الله لحملهم على الإيمان عنوة وقسراً إلا أن حكمته سبحانه وتعالى قد قضت وقامت حجته ألا يحمل أحداً من خلقه على الإيمان قهراً، تاركاً لهم حرية الإيمان الاختياري، فإن استمروا على كفرهم كانوا من أهل النار، وإن كانوا من أهل الهداية شملهم الله بلطفه وعنايته وهدايته فكانوا للحق والإيمان أقرب وأبعد عن الباطل والغي والضلال بفضل الله، وفق ما قدره من سنن وأسباب، فترك الضال على إضلاله وأخذ بيد المهتدي بعناية لطفه.

يتضح مما سبق أن الإصرار على الكفر والضلال والشرك لا توجب حصول لطف الهداية للضال من رب العالمين، ويعلق الإمام الفخر الرازي على هذه الجزئية قائلاً: (إن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى، مع امتناع أن يكون الضلال والشرك حاصلًا بخلق الله تعالى، وإلا حق للكافر أن يسأل: ما جدوى القرآن والرسول إذا كتب الله علينا الكفر، وهذا يلزم أن يكون الرضا بالكفر إرادياً).^(١)

٨- تقرر آيات المقطع عدم استواء الهداية والضلال، فالهداية: سلوك الطريق الذي يوصل الإنسان إلى غايته وهو اتباع شرع الله تعالى، وسمي اتباع شرع الله تعالى هداية لأنه يرشد الإنسان إلى الحق، ويرشد إلى اتباع كل خير والتحذير من الشرور ما ظهر منها وما بطن. ومن رحمة الله تعالى بعباده أن هيا لهم سبل الهداية، وهي السبل التي تقود المرء إلى الهداية وترشد إليها إذا اهتدى بهديها وسلك وفق ما يرشد إليه ومنها: الاستعدادات الفطرية، والعقل، وإرسال الرسل.

والضلال: هو الانحراف عن شرع الله تعالى بما فيه من تيه وضياح وانحراف، وسمي الانحراف عن شرع الله تعالى ضلالاً والمنحرف عنه ضالاً بسبب مجانبته للحق والهداية.

وأما الضلال فقد جعل الله تعالى له سبلاً، ومن سبيل الضلال اتباع الشهوات والانصياع

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٦٤/٧.

لوساوس الشيطان وغوايته. وقد فطر الله تعالى الإنسان على الاستعداد للإيمان وعلى استعداد للغواية، وجعله قادراً على اختيار الهداية أو الضلال، وبناءً على اختياره هذا يثاب أو يعاقب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣) [الإنسان: ٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) [التكوير: ٢٧-٢٨] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]. فالإنسان حسب منطوق الآيات حكمٌ على نفسه مسؤول عن اختياره وقراره ولا يجازى إلا بما قدم لنفسه من خير أو شرٍّ ومن هدى أو ضلالٍ.

والشيطان في الضلال يزين للإنسان الكفر بما يثيره من شكوكٍ وشبهاتٍ. وبما يثيره في النفس من قنوطٍ ويأسٍ وتزيين الشهوات وتهوين أمرها. ولقد أنعم الله تعالى على الإنسان بالعقل الذي به تعرف الأشياء ويميز بين الخير والشر، فمن أعطي نعمة العقل كان مكلفاً مسؤولاً عن تصرفاته.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الثاني

ويمتد من الآية ٥ إلى الآية ٨

(دعوة الرسل في الإخراج من الظلمات إلى النور)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾

علاقة هذا المقطع بسابقه خير شاهد على تكامل أساليب الدعوة لله بما يخدم هدف السورة ومحورها في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفي المقطعين من أدبيات الدعوة والعبر والعظات والدروس التربوية للأمة، ما يحملها على صدق الإيمان وحسن الاستخلاف في الأرض لو التزمت مسارب الهدايات الربانية.

يخبر الله تعالى في هذا المقطع أنه أرسل موسى عليه السلام إلى قومه من بني إسرائيل وآل فرعون بحججه وبراهينه العظيمة الدالة على مصداقية رسالته، بالآيات التسع كالعصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وقلق البحر وانفجار العيون وإظلال الجبل وإنزال المن والسلوى، وقيل أيضاً أن المراد بهذه الآيات: العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص من الثمرات. ^(١)

وأمره بما أمر الله به خاتمة رسله محمداً صلى الله عليه وسلم، وبما أمر به جميع رسل الله كافة، أن يخرج قومه من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، مع خلاف جوهر دعوة موسى عليه السلام الخاص بقومه ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للناس كافة على وجه العموم والعالمية غير المحدد بزمان ومكان.

ويذكر الله تعالى موسى عليه السلام أن أخبر قومك بأيام الله ونعمه عليهم ووقائعه بالكافرين ليشكروا ونعمه وليحذروا عقابه، فنعم الله وأياديه عليهم كثيرة، وهي أكثر من أن تحصى والتذكير بها واجب نظراً لما ينطوي عليه من عبر ودلالات دالة على عظمة التوحيد لله وكمال قدرته، لا يقف على جوهرها إلا من كان كثير الصبر على المحن والمنح، وهذه من صفات كل عبد أو أوه منيب صابر على البلاء في الضر شاكراً للنعماء والأعطيات في السراء.

ويُراد بأيام الله إنجاء القوم من عذاب وذل واستعباد فرعون لهم وعبودية القوم له، وقتله لأولادهم الذكور بسبب حلم فسره الكهنة له أن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكه على يديه.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٤١/٩، والتفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٦٤/٧.

ومن كرم الله على القوم تطبيق سننه فيهم في مداولته للأيام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَّوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فانتقل حالهم من محنة وبلية إلى منحة وعطية، ومن شدة في الحياة إلى الرخاء والراحة، ومن الشعور بالخوف إلى السلامة والأمان.

وقد خص الله عز وجل الصَّابِرَ الشُّكُورَ بالذكر في هذا المقطع، لأن أهل هذا الضرب من المؤمنين أكثر الناس انتفاعاً بآيات الله هذه وبأيامه في السراء والضراء، وما التذکر بأيام الله إلا لأخذ العبرة والعظة من باب التسرية والترغيب والترهيب وهي موجبة لمحبة الله تعالى، ومقام هؤلاء أعلى مقامات الصديقين. إذ ليس خافياً على أحد أن عنوان السعادة كلها ومنبعها السير على صراط الله، حتى يصبح حب الله مقدماً على كل شيء ويكون حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى نعمه وهذه صفة كل صبار شكور من المؤمنين.

كما أخبرت الآيات أن موسى عليه السلام أعلم قومه بالتصريح العلني أن الاشتغال بشكر نعم الله يوجب تزايدها في الدنيا والآخرة، والانصراف عنها بكفرها يوجب العذاب الشديد الذي يعود على صاحبه بالضرر في آجله وعاجله.

وتفصل الآيات أنكم إن شكرتم هذه النعم، فإن الله يزيدكم نعمة إلى نعمة، وإن كفرتم بها بالشر والجحود فإن عذاب الله شديد.

وكفر النعمة يكون على أوجهٍ منها: عدم شكرها أو إنكارها أو استخدامها بالبطر والكبر. أو توظيفها في شهوات الدنيا الزائلة، أو الزعم أن الأحاد منهم قد احتصل عليها بعلمه وعلى مراده. وحول هذا الشأن يعلق سيد قطب قائلاً: (إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يجب أن يشكر وهذا هو جزاؤه الطبيعي عند أصحاب الفطرة السليمة المستقيمة، والنفس التي تشكر الله على نعمته هي النفس التي تراقب التصرف بهذه النعمة، بلا بطر وبلا استعلاء وبلا استخدام لها في الشر والفساد).^(١) والصبار الشكور هو

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ١٣٩/٥.

الذي يكون الصبر والشكر من سجايه ويدرك هذه الآيات وما وراءها من عبرة وعظة، لتكون نافعة له في حاضره ومستقبله في الدنيا والآخرة.

ويستمر موسى عليه السلام في بيانه وتذكيره لقومه، فدعاهم إلى وجوب تدريب النفس على الشكر وعلى طاعة الله، مع التحذير من كفر النعمة الجماعي المنذر لها بالزوال بالكلية، لأن من يكفر بأنعم الله فإن الله سيذيقهم ألواناً من العذاب الشديد بدءاً من زوالها إلى عذاب نار جهنم الشديد، وقد لوحظ تركيز موسى عليه السلام في هذا المقطع على شكر النعم والتحذير من الكفران والعصيان، وكلمة الكفر هنا عامة تصرف على الكفر الذي يقابل الإيمان وعلى الكفران الذي هو عكس الشكر.

ويجتم المقطع بقول نبي الله لما أيقن كفر قومه: لئن كفرتم أنتم وجميع الخلق فلن تضروا الله شيئاً، وهو غني عن شكر عباده مستحق للحمد في ذاته وهو المحمود وإن لم يحمده من كفره، فهو الغني عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، فلا يتنفع بشكر من شكر ولا يتضرر بضرر من كفر، وكل منها محبوس على صاحبه من السلب والإيجاب وما يوجهه من رضا الله أو غضبه.

وفي هذا الشأن يعلق الفخر الرازي قائلاً: (الله واجب الوجود لذاته بحسب جميع صفاته، فهو المستحق للحمد، وهذه المعاني من لطائف الأسرار، فالله غني عن العالمين في جلاله وصفاته)^(١).

ويعلق الزمخشري على الآية الأخيرة في المقطع ﴿فَاتَّكَّ اللَّهُ لَعْنَى حَمِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٨]، قائلاً: (والله مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه وإن لم يحمده الحامدون).^(٢)

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة من المقطع الثاني

(١) التأكيد على أن المقصود من بعثة الأنبياء واحد، وهو سعيهم إلى نقل أقوامهم من دياجير التخلف ووهدة الضلالة وظلمة الجهالة إلى نور الهدى بتوحيد الألوهية والربوبية

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٦٧/٧.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٥٢٠/٢.

والوحدانية المطلقة لله الواحد القهار، ولا يتأتى نقلهم من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات الربانية، إلا بالحكمة في الدعوة والرفق واللين في الخطاب، مع مراعاة القدرة العقلية للمخاطبين واختيار الوقت الملائم للمدعوين، واختيار الألفاظ الواضحة اللينة التي لا تثير المدعوين ولا تهيج مشاعرهم، مصداقاً لقوله تعالى مخاطباً رسوله موسى وهارون عليها السلام: ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٢﴾ فَقَوْلًا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم أكثر من الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ليشوق المدعو من الاستجابة لدعوة الحق، وتحذيرهم من رفضها، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى، ومن أساليب ذلك تذكير المدعوين بما هم عليه من نعم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَأَذْكَرُوا ۖ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وهذا يتطلب من الداعية المران والدربة على أساليب الدعوة للنجاح في دعوته وتحقيق غايته، وفي مقدمتها الابتعاد عن الاستعلاء على الناس واحتقارهم وإظهار فضله عليهم، وأن يكلمهم بروح الناصح المخلص المتواضع الذي يدلهم على ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، بالجدال المحمود الحسن مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] مع التزام الأدلة المقنعة وتجنب الغضب والصخب في أثناء المجادلة.

(٢) تقرر آيات المقطع أن من وظائف رسل الله:

أ- إرشاد الناس إلى معرفة ربهم معرفة حقة وتحريرهم من العبودية لغير الله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١]، ويتحصل هذا عبر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ب- تنظيم حياة الناس وفق شريعة كل رسول حسب وما ورد فيها من أحكام.

ج- إقامة حجة الله تعالى على الناس بأن دينه وشرائعه قد بلغتهم على السنة رسلهم والدعاة إلى الله تعالى من بعدهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ

لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿النساء: ١٦٥﴾.

د- تصويب ما أعوج من المجتمعات البشرية وتحريرها من الرذائل ومذموم الأخلاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هـ- إصلاح النفوس البشرية بجميع أبعادها الروحية والعقلية والوجدانية والإنسانية.

و- تحقيق الهداية والرحمة المقصودة من إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

ز- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من أعظم قواعد الإسلام، والمقصود الأكبر من بعثة رسل الله، وقد حث عليها القرآن والسنة، ووعد الله تعالى من قام بهما بخير الجزاء وتوعد من تركهما وتهاون فيهما بالعذاب الشديد، فهما خصلتان من أهم خصال المؤمنين، وقد شهد القرآن بالصلاح لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بعد إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٤]. والتخلف عنها يجلب سخط الله وعقابه، ويحول دون استجابة الدعاء ولو كان صادراً عن أناس مؤمنين^(١)، ما داموا لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر مصداقاً للحديث الشريف: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم).^(٢)

(٣) بمناسبة قوله تعالى ﴿وَذَكَّرْهُمْ يَا أَيُّهَا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٥]، فإن للعلماء في تأويلها اجتهادات منها أن اليوم مفرد أيام، ويبدأ اليوم من طلوع الشمس إلى غروبه، ويعبر عن الأيام في لغة العرب مجازاً بالوقائع العظيمة مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَّأُولُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. والمراد منها حصول العبرة بأحوال المتقدمين، ومثاله في المقطع ما نزل بقوم نوح

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥ / ٢٧٨١.

(٢) سنن الترمذي، حديث رقم: ٢٠٩٥.

وعاد وتمادى من الإهلاك لكفرهم. كما يفيد معنى الأيام هنا أن حياة الإنسان لا تستقر على وتيرة واحدة من صعود تارة وهبوط تارة أخرى، في تداول من محنة وابتلاء، إلى نعيم ورفاه وهكذا، ومن الحكمة إن جرى الوقت على ما يلائم طبع الإنسان أن يكون شكوراً، وإن جرى بما لا يلائم طبعه وجب عليه أن يكون صبوراً، فالبلاء والابتلاء من أسماء الأضداد^(١) في اللغة العربية قد يكون بالنعمة تارة وبالمحنة تارة أخرى،^(٢) والنعمة هنا اسم جامع للمال والنفس وصحة البدن وحواسه وغير ذلك مما سخره الله للإنسان في الكون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وللابتلاء مراتب ودرجات قدرها الله لأجل التمحيص للاختبار أو الامتحان والتطهير من الذنوب أو الاصطفاء والترقية ونحو ذلك.

كما ويحتل معنى أيام الله الواردة في المقطع نعم الله، ويدخل في هذا الباب نعمه على قوم ونقمه على قوم آخرين بالحدث نفسه، فنعمة الله على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون رافقها نقمة الله على فرعون،^(٣) ومما يعضد هذا القول ما ذهب إليه ابن عباس: (بأن أيام الله نعمائه وبلاؤه، فأما نعمائه فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وقلق لهم البحر وأما بلاؤه فإهلاك القرون).^(٤) وهذا داخل في العظة والاعتبار بما سلف من أيام الماضين بما كان فيها من النعمة والمنحة.

(٤) بمناسبة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

(١) لا يعني البلاء نزول النوائب والعاديات القارعة بالإنسان فحسب، من مرض عضال أو موت عزيز أو خسارة تجارة أو فقدان رياسة أو مديونية لا قبل له عليها، أو فشل مكرور في حياة زوجية ونحوه، فإن لم تكن المصائب كذلك فإن عقوق الأبناء أو فشلهم أو تعاطي المخدرات أو الكحول حتى السجائر وما يتصف به الإنسان من مذموم الخلق وغيره من الصفات القاذحة، كله ضرب من ضروب أنواع البلاء وإن تعددت وتفاوتت بالأحاد من البشر في شدتها وقسوتها.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٦٦/٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٤٢/٩.

(٤) الكشاف، للزمخشري: ٥١٩/٢.

ما يفيد أن الاشتغال بالصبر والشكر يوجب انفتاح أبواب الخير على صاحبه في الدنيا والآخرة والصبر لا ينتهي لأجره. فالصبار هنا صيغة مبالغة للمؤمن كثير الصبر، والصبر خلق إسلامي يبعث على تحمل المشاق والتعب والأذى في سبيل الله، والرضا بقضائه عند وقوع المصائب وعدم التظلم والتشكي والتذمر مما وقع من بلاء. وقد امتدح الله تعالى الصابرين في الدنيا ووعدهم بالظفر والتأييد كما أعد لهم ثواباً عظيماً في الآخرة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (١٣) [الإنسان: ١٢].

ومن صفات الصبار الشكور هنا:

- الصبر على الطاعة وتحمل المشاق في سبيلها.
- الصبر على المعاصي كمقاومته للشهوات والمغريات طلباً لرضوان الله تعالى.
- الصبر على المصائب، فالصبار الشكور هو المؤمن الذي يواجه مصائب الدنيا والآمها في النفس والمال والولد وغير ذلك بصلافة واقتدار وشجاعة، حتى يكون من الفائزين برضوان الله تعالى يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَاتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ (١٥٦) [البقرة: ١٥٥-١٥٦]. والصبار الشكور يكون مؤمناً بأن أمور الحياة كلها بيده سبحانه وتعالى، مما يجعله راضياً بقضاء الله تعالى، يتحلى بالطمأنينة والرضا، لأنه يعلم أن الصبر طريق النصر وطريق مرضاة الله تعالى، مع الأمل بالله تعالى أن يرفع الشدة في الدنيا ويعطي الثواب في الآخرة.

والصبار هنا صيغة مبالغة للتدليل على صفات المؤمن كثير الصبر على طاعة الله وعن معاصيه، شكور لأنعم الله إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر، مصداقاً للحديث الشريف: (عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خيرٌ وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراءٌ شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراءٌ صبر فكان خيراً له).^(١)

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب المؤمن أمرؤ، حديث رقم: ٥٣١٨

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصبر لا يعني الاستسلام للمصائب إذا كان الإنسان قادراً على مواجهتها وتغييرها، فإن لم يفعل مع قدرته على ذلك فإنه آثم، ومما يعضد هذا القول مع أن القدر لا مفر منه إلا أنه لا يعني أن الإنسان مجبر على القيام بالأعمال أو الاستسلام للواقع في حدود إرادته، فلو صح ذلك لبطلت التكاليف وبطل الثواب والعقاب المترتب عليها ولوقف مستسلياً لكل ما يعصف به من نوازل، فالقدر يمكن رده فيما يتعلق بالأمور الإرادية للإنسان لأنه صاحب إرادة وعقل وفكر يدرك بها الأمور ويميز بينها، إضافة أن الله تعالى خلق للحياة سنناً لا بد للإنسان من أن يسير عليها، وهذه السنن هي أقدار أو أسباب أو دعها الله في الأشياء، وهذه الأقدار أو الأسباب يمكن ردها عن طريق بعضها البعض بإذن الله الذي خلقها.

فالهزيمة العسكرية تدفع بقدر إعداد الأمة للجهاد، والتخلف يدفع بقدر إعداد الأمة للتنمية في مجالاتها كافة، تماماً كالمرض قدر يدفع بقدر العلاج، والرسوب من الامتحان قدر يدفع بقدر الاجتهاد وليس أدل على مصداقية ما أشرنا إليه آنفاً من النقاش الذي حدث بين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة، حين قرر العودة إلى المدينة بعد تسلمه مفاتيح بيت المقدس حين سمع بطاعون عمواس، وقال له أبو عبيدة: أتهرب من قدر الله يا عمر؟ فأجاب لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، ثم قال نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله.

(٥) كشفت الآيات أن حكمته سبحانه وتعالى اقتضت أن لا يصلح لعباده إلا الشدة والرخاء والقبض والبسط، فلو بسط لهم على الدوام لطفوا وتواكلوا، ولم يحصل المقصود لهم من مشاق الدعوة والصبر عليها والأخذ بأسبابها.

لهذا كان يمنحهم بالسراء والضراء، لأجل أن يتقربوا إليه أكثر بالدعاء والاستغاثة للاعتصام بحبل الله. وليعلم بالبلاء والمحنة منازلهم عند الله، فيظهر بالامتحان أهل الإيمان، ليختار من يصلح لموالاته من أهل العقيدة الراسخة، لهذا جعل سبحانه وتعالى الحياة دواً وجولاتٍ بين أوليائه وأعدائه.

(٦) قررت الآيات أن حكمة الله تعالى شاءت في دعوات الأنبياء والرسل أن تكون

واحدة في فلسفة تكاملها وجوهرها وأصولها وعقائدها ومبادئها وغاياتها وتناسقها، وتكامل السابق منها باللاحق، حتى كان إتمام نضجها برسالة محمد ﷺ، لأجل هذا برزت عظمة الرسالة ومنزلة القرآن فيها وعموم عالميتها.

(٧) يحسن بنا إتماماً للفائدة تطبيق منهجية التفسير الموضوعي لقصة موسى ﷺ المكرورة

في القرآن الكريم لأجل أخذ العبرة والعظة منها بشكل شمولي على النحو التالي:

تعد قصة موسى ﷺ من أكثر القصص ذكراً في القرآن الكريم، سواء ما انتظم من قصته مع فرعون الطاغية، أو قصته مع قومه بني إسرائيل قبل الخروج وبعده. فلا تكاد تخلو سورة من السور الطويلة من قصة موسى ﷺ، وقد ورد ذكره في القرآن مائة وستاً وثلاثين مرة. (١) وعدد السور التي ورد اسمه فيها أربع وثلاثون سورة. وفي سورة الشعراء وحدها ثماني مرات. أمّا أخوه هارون ﷺ فقد جاء ذكره تسع عشرة مرة، منها مرتان في سورة الشعراء. وورد اسم فرعون أربعاً وسبعين مرة، وفي الشعراء وحدها ست مرات.

كما تكرر لفظ (بني إسرائيل) إحدى وأربعين مرة، منها أربع مرات في سورة الشعراء. (٢) وأكثر السور حديثاً عن موسى ﷺ وأخيه هارون وبني إسرائيل وفرعون هي: (البقرة والأعراف ويونس وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر والنازعات).

أما السور التي عرضت لقطاتٍ مجملية من قصته فهي (سور النساء والمائدة وهود وإبراهيم والإسراء والأنبياء والمؤمنون والأحزاب والصافات والزخرف والذاريات والصف).

وبقراءة شمولية وبنظرة تحليلية فاحصة للقصص القرآني التي عرضت لقصة موسى ﷺ نرى أن جذوره في مصر تعود إلى يوسف ﷺ، حين أصبح حاكماً على خزائن الأرض فيها في عهد الملوك الرعاة أو الهكسوس، فاستدعى أبويه وإخوانه للإقامة معه في مصر، حسب ما ورد

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٧٧-٧٧٨.

(٢) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٢/ ٢٧٠.

في سورة يوسف.

وقد أشارت الآيات القرآنية في غير موضع أن سلطان مصر من الهكسوس زمن قصة يوسف عليه السلام، كان يلقب بالملك وهم قوم موطنهم الأصلي جنوب بلاد الشام، وفدوا مصر واحتلوها عنوة لمدة قرنين ونيف تقريباً حسب تقديرات المؤرخين،^(١) أذلوا أهلها ورحبوا بكل غريب وافد إليها، فكان وقتئذٍ قدوم بني إسرائيل الذين عاشوا في ظلهم معززين مكرمين مما حمل المصريين على نبذهم وكرههم.

ثم مرت السنون تليها السنون وبنو إسرائيل في توالد مستمر، وبتوالي الأيام استجدت تطوراتٍ ضد الغزاة الهكسوس بقيادة (أحمس) مؤسس السلالة الثامنة عشرة. الذي قام بثورةٍ داخليةٍ لطرد المحتلين فكان له ما أراد، وتم طردهم نهائياً من مصر بعد حروب دامت زهاء نصف قرن من الزمن، وبتغير السلطة استبدل مسمى كل من حكم مصر من ملك إلى فرعون. وفي العهد الفرعوني الجديد عاش بنو إسرائيل معذبين مضطهدين، فتفرعنوا عليهم وتكبروا وتجبروا بسبب اتهامهم أنهم كانوا عيوناً للهكسوس الغزاة، ومن أشهر فراعنة مصر حسب أقوال المؤرخين (أحمس) الذي تقدم ذكره و(أخناتون) الذي حمل المصريين على توحيد ديانتهم بإله واحد هي (الشمس) وأطلق عليها اسم الإله (أتون)، ورمسيس الثاني فرعون موسى عليه السلام، الذي ولد في عهده وعاش في بلاطه وهو صغير وهرب منه بعد قتله للفرعوني ولقب بفرعون الاضطهاد، وقد مات أثناء إقامة موسى عليه السلام في أرض مدين، (ومنتاح أو منفتاح) ابن رمسيس الثاني الذي حكم بعد وفاة أبيه، وهو الذي قابله موسى وأخوه هارون عليها السلام وعرضاً عليه دعوة الإيمان والتوحيد، فأنكر دعوتها وطاردهما وكان من المغرقيين ولقب بفرعون الخروج.^(٢)

(١) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ص ١٦٨.

(٢) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٢/٣٩٣.

وقد سجلت آيات القرآن الكريم في العديد من السور مظاهر كفر فرعون ودعوته لقومه إلى تأليهه وعبادته، وادعائه الألوهية والربوبية. فتغطرس وتجرس وسعى إلى إذلال خصومه واستعبادهم واحتقارهم.

واختتمت قصة موسى عليه السلام في العديد من السور بغرق فرعون وقذفه إلى الشاطئ ليكون للناس آية وعظة على مر الأزمان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً ﴾ [يونس: ٩٢]. وتصور مشاهد الآيات في السور المختلفة قلة المؤمنين برسالة موسى عليه السلام من قوم فرعون ومن أبرزهم آسية امرأة فرعون التي قالت لزوجها الفرعون عند مشاهدتها لصندوق موسى بعد قذف أمواج اليم به باتجاه القصر الفرعوني: ﴿ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٩].

وقد ورد في القصص دعوة فرعون لها بالكفر فأبت فعذبها ولم يزل في تعذيبها حتى فارقت الحياة. وكان منها أن دعت الله عز وجل أن يبني لها بيتاً في الجنة. ومن القلة المؤمنة أيضاً برسالة موسى عليه السلام: الرجل الصالح مؤمن آل فرعون، الذي قدم الموعدة والمشورة والحجة لقومه بشأن رسالة موسى عليه السلام وهو الذي نصح له بالخروج لثلا يقتل عندما فر إلى أرض مدين. ولعله كان متأثراً بدعوة يوسف وأبيه يعقوب عليها السلام، وكان من القلة المؤمنة أيضاً السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون وسجدوا لله وقالوا الفرعون: ﴿ لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ [طه: ٧٢]. وقولهم في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥١].

ولا يفوتنا الإشارة هنا أن الإله الذي كان أنبياء بني إسرائيل يدعون لعبادته هو الله رب العالمين، وديانتهم هي ديانة الإسلام بالمعنى العام في توحيدهم للعبودية والألوهية لله الواحد القهار، فقد جاء على لسان يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وعن يوسف عليه السلام قوله: ﴿ نُوَفِّيْ مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصِّلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] وجاء على لسان موسى عليه السلام: ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]،

وعن حواربي عيسى عليه السلام: ﴿ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ولعل من المفيد الإشارة هنا أن الله رب العالمين هو غير إله اليهود الذي تصفه التوراة والتلمود.

وتعود تسمية (يهود) على جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر ونسبةً إلى مملكة يهوذا فإنه اليهود المزعوم (يهوه) ابتدعه كتبة التوراة المحرفة، في السبي البابلي بعد ثمانمائة عام من وفاة موسى عليه السلام، فطراً عليها التحريف والتصحيف والتبديل باعتراف آيات القرآن. فكان إلههم (يهوه) لا غاية له من العالم سوى اليهود شعبه المختار، الذين خصهم بالخيرية والتمجيد والاصطفاء وجعل النبوة قاصرة عليهم إلى قيام الساعة.

ولعل الناظر في التوراة والتلمود يرى دعوة (يهوه) لقومه الجنوح للبطش والقسوة والشر والمكر والخديعة والعدوان والتدمير وتعطشه للدماء، وله من صفات البشرية من مأكّل ومشرب ومنام وحب وكراهية وغير ذلك الشيء الكثير، فأى إله هذا؟ والله المثل الأعلى، الذي ليس كمثله شيء.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن القرآن الكريم فرق بين مصطلحين هما (بنو إسرائيل) وهم ذرية يعقوب عليه السلام الذي كثرت النبوة في نسله، فكان منهم يوسف وموسى وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام. وبين كلمة (اليهود) التي وردت تسع مرات في القرآن الكريم. ثلاث منها في سورة البقرة، وأربع مرات في سورة المائدة، ومرة واحدة في سورتى آل عمران والتوبة.

ونرى من بديع إعجاز القرآن أنه يطلق اسم بني إسرائيل على قوم موسى عليه السلام في مواضع الرضا في أغلب الحالات، كالذي نراه في ذكر اصطفاء الله لهم، وخصهم بالرسالة وإسباغ الحكمة والنبوة فيهم.

وبالمقابل يطلق اسم اليهود على بني إسرائيل في مواضع السخط عليهم، والتنديد بقبح أعمالهم.

أو عند التحدث عن تمردهم على أنبياء الله ورسله، وما أصابهم جزاء ذلك من الذلة والعبودية لفساد طويتهم.

أو عند تحذيرهم لغلو منكر القول الذي أدخلوه في كتبهم وقالوا هذا من عند الله وكفرهم بأنعمه. وقد اقترن اسم اليهود في آيات القرآن الكريم في غير موضع بالسوء والفحش واللعن والانحراف والشدة في عداوة المؤمنين^(١) لقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

وبنظرة فاحصة لسلوك اليهود في القرآن والسنة نرى أنهم أصحاب الباطل، ما انفكوا يجدون في باطلهم الرابط الذي يشد بعضهم بعضاً، تأبى طبيعتهم العظة والاعتبار. استكبروا على موسى عليه السلام في سيناء وكانوا قوماً مجرمين. استحوذ عليهم الشيطان فأضلهم طريق الرشاد الذي جاءت به الرسل، أتتهم رسلهم بآيات الله فلم ينظروا إليها بعين الاعتبار لغفلتهم، وهم قوم لا يؤمنون بالآيات حتى لو رأوها، لا يؤثر فيهم الإنذار ولا الحجج. مشهود لهم بالكبر والمكابرة والعناد، عقيدتهم فاسدة لا تخضع لأي منطق سليم يتفق وفطرة الإنسان. وأنبياء بني إسرائيل بريئون منهم ومما يعبدون من دون الله، وإنهم وإن علا شأنهم اليوم، فإن مصيرهم الهلاك والدمار في مستقبل الزمن.

ومما تجدر الإشارة إليه في نهاية المقطع أن الآيات الواردة فيه ركزت على التحليل النفسي لقوم موسى عليه السلام من بني إسرائيل، فكشفت سلوكهم وأزاحت الستار عن خباياهم، واختلافهم من بعد ما جاءهم من الحق فضلوا وأضلوا، بسبب كفرهم بأنعم الله عليهم وتمردهم على نبيهم وانتحالهم من ألوان الكفر والضلال مذاهب شتى، ولم يكن لأيام الله في أخبار الماضين من الأمم الهالكة عندهم عبرة وعظة، فانسحب عليهم مثل الله عز وجل في الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة قاتلهم الله أنى يؤفكون.

(١) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ص ٤٦٣.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الثالث

ويمتد من الآية ٩ إلى الآية ١٧

(استفتاح الرسل بالنصر على أعدائهم سلوك ملزم للدعاة في كل عصر)

﴿الَّذِي آتَاكُمْ نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرَكَ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتِحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

يخبر الله تعالى في هذا المقطع على وجه العموم ما وقع بالأمم المكذبة لرسولها من عقاب يستحقونه على سبيل الترهيب لأخذ العظة والعبرة، وهذا ضرب من ضروب القرآن الكريم في عرض الدعوة لله إذ يجمع بين الترهيب والترغيب، فبعد التهديد والوعيد يميل إلى الترغيب حتى يتدارك الإنسان تقصيره في الإيمان ويرجع إلى هداية الشرع وجادة الطريق ليجنب نفسه مصارع السوء وسوء العاقبة.

ويحتمل أن يكون استهلال المقطع ﴿الَّذِينَ نَبَّأْتُكُمْ نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ خطاباً من موسى ﷺ إلى بني إسرائيل ضمن سياق التذكير بأيام الله، وهذا رأي الطبري. ويعتقد أيضاً أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى لأهل قريش تحذيراً لهم عن مخالفة أمره، وإلى هذا يميل ابن كثير وهو أولى القولين بالصواب.

وخصت الآية الأولى ذكر ثلاثة أقوام هم قوم نوح وعاد وثمود، وأسقطت الأقوام التي جاءت بعدهم ولا يعلمهم ويحصي عددهم إلا الله، وما يذكره النسابون فيها مجرد توهم ومحض افتراء، بسبب عدم ذكر القرآن لهم واندراس أخبارهم، كما لا يمكن القطع على مقدار السنين بين هذه الأقوام ورسالة موسى ﷺ أو محمد ﷺ، فهؤلاء وهؤلاء استقبلوا دعوة رسلهم بالشك والارتياب والغيب الشديد، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ليوقفوا رسلهم عن الكلام بسبب كرههم سماع تسفيه ألهتهم.

وبمناسبة قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] فإن للعلماء في تأويلها الاجتهادات التالية:^(١)

- أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة نفرتهم عن رؤية الرسل وكرهية استماع كلامهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩] وهذا أقوى الوجوه حجة رغم تقاربها في المعنى.

- أنهم لما سمعوا كلام الرسل تملكتهم الدهشة من غريب ما سمعوه فضحكوا على سبيل السخرية والتهكم، وما كان منهم أن ردوا أيديهم على أفواههم كما يفعل من غلبه الضحك فوضع يده على فيه لأنه لا يريد أن يكشف عيب أسنانه للآخرين، ولو كانت أسنانه سليمة لما فعل ذلك.

(١) للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٤٥/٩، والكشاف، للزمخشري: ٥٢١/٢، والتفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٦٩/٧.

- أنهم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها إما على أفواه الرسل أو على أفواههم هم ليسكتوا الرسل ويقطعوا كلامهم.

- أنهم ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم.

- أنهم جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم.

- أنهم أومئوا للرسل بالأيدي أن اصمتوا.

- أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم إنا كفرنا بها أرسلتم به ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [إبراهيم: ٩].

- وقيل إن الرسل لما أيسوا منهم التزموا الصمت وآثروا أن يضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم، في إشارة منهم للقوم أنهم بلغوا رسالات ربهم، وأنهم لا يباليون بما قد يقع عليهم من أذى القوم جراء دعوتهم ووعظهم وهدايتهم، وفي هذا كناية على تحمل الأذى بالاصطبار على سفاهة سلوك القوم والله ناصرهم وإن طالت طريق الدعوة.

- أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن أحسنوا صنعاً فاصمتوا، فإن التزمتم الصمت والسكوت كففتنا عنكم الغلظة في القول، لأننا لا نريد سماع قولكم البتة.

- وقيل: إن الأيدي ههنا تفيد النعم، لأن إرسال هؤلاء الرسل بالشرائع نعم للبشرية إلا أنهم كذبوا بأفواههم ما جاءت به رسالهم.

ثم تنتقل الآيات لتخبر عن موقف الرسل من أقوامهم، بعد أن ردوا أيديهم ضجراً وتعنتاً، فأجابوهم على كفرهم: أفي وحدانية الله وألوهيته وربوبيته تشكون على خلاف فطرتكم التي جبلتم عليها؟ أتكفرون بخالقكم وخالق الكون بما فيه من السموات والأرض؟ أتكفرون بالله غفار الذنوب المحيي المميت الفعال لما يريد على مراد حكمته؟ وتساءلوا ما الذي حملكم على معاداة رسل الله؟ فانظروا ما جئناكم به فإن وجدتموه حقاً وهو الحق بعينه فاقبلوه، وإن كان

غير ذلك فردوه بعد مقارعة الحججة بالحجة، فلا تجعلوا بشريتنا سبباً في كفركم وعدم إيمانكم إذ ليس لأحد أن يجبر على الله فضله في اختيار رسله وقد اصطفانا بالرسالة إليكم هدايتكم من الظلمات إلى النور، وما نحن إلا بشر مثلكم يجري علينا ما يجري عليكم من المأكل والمشرب والنوم والحياة والموت ونحو ذلك، وهذا أدعى لقبول الرسالة من نزول ملك عليكم حتى نخاطبكم بلسانكم الذي أفتموه، كما أن في بشريتنا ما يدل على أن منهج الله قابل للتطبيق في الأرض.

ثم أخبر هؤلاء الرسل أقوامهم اعلموا أن مع شرف اختيار الله لنا في الدعوة، إلا أنه ليس لأحد منا القدرة أن يأتي من تلقاء نفسه بمعجزة خارقة مفحمة، إلا بإذن الله ساعة شاء على مراد حكمته، وهو الذي هدانا إلى سبل الرشاد وجادة الطريق والصرائط المستقيم، واصطفانا من عموم خلقه لإزالة الضلال عنكم وهذا أكمل ما يكون عليه التوكل الذي هو مفتاح كل خير، فاعتبروا من حكمة الإرسال إليكم، فالعاقل من اتعظ بغيره والجاهل لا يتعظ إلا بنفسه، وأن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، ودفع مكر وكيد عدوه.

ثم تبين الآيات أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم والنفي بين أظهرهم إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي، فما كان منهم بعد أن أعيتهم الحيلة وعجزوا عن مقاومة الدليل أن قال أهل الرياسة من الكفر لرسلم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]. وهذا ما انتهى إليه تفكيرهم مع رسلم، والمشهد هنا متكرر في كل الرسالات، إذ قالوا ليس لكم علينا من فضل بادعاء النبوة والرسالة، فكيف نؤثركم على ديانة الآباء والأجداد. ومن شواهد ذلك في القرآن:

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]،
 وقوله تعالى عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ (٥٦) [النمل: ٥٦]، وقوله تعالى عن مشركي قريش: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦)

[الإسراء: ٧٦]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وفي الآيتين الثالثة عشر والرابعة عشر يبين الله تعالى أنه أوحى إلى رسله أن العاقبة والنصر لهم وإن طال طريق الدعوة، وأن حكمته سبحانه وتعالى اقتضت أن يسكن المؤمنين مساكن من أهلكتهم الله بذنوبهم، ودليله قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِفَ الْأَرْضِ وَمَعَدْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وإن في هلاك الظالم الكافر، ونصرة المظلوم المؤمن أبلغ ما يكون من الرد على أهل الشرك فخاب بذلك كل جبار متكبر معاند للحق أثيم لأن العاقبة للمتقين.

وتخبرنا الآيات التي تلي ما تقدم ذكرها أن مكر أهل الكفر قد انتهى بهم إلى نار جهنم خالدين فيها، فتصف لنا جانباً من ألوان عذابهم، إذ يسقون من ماءٍ صديد ليس من جنس الماء المألوف فهو غريب في قبحه ولونه ورائحته وكرهه منظره وقذارته وحرارته، يتجرعونه قسراً ولا يكادون يطيقونه أو يسيغون ابتلاعه، ويتمنون الموت وما هم بميتين، رغم أنهم محاطون بأسبابه ليستكملوا درجات عذابهم بمختلف صورها وأشكالها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] صيغة مبالغة واستعارة لما هم فيه من البلايا والكره الشديد يوم القيامة، حيث يتقلبون من عذاب لآخر أشد مما قبله وأغلظ. (والصديد في الآية كل ما يسيل من جلود أهل النار من القيح)^(١) وقيل أيضاً: (ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم)^(٢).

(١) الكشاف، للزمخشري: ٥٢٥ / ٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٥١ / ٩.

ويختتم المقطع بضرب الله مثلاً لأعمال الكفر الحسنة في حياتهم كصلة الأرحام وإغاثة الملهوف وكرم الضيافة ومساعدة الفقراء والمحتاجين ونحو ذلك، إن أعمالهم هذه يوم القيامة بسبب كفرهم محبطة غير مقبولة لا يثابون عليها تماماً كالرماد الذي لا يبقى منه أثرٌ بعد احتراق الشيء في يوم عاصف شديد الرياح، فالله يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق. ^(١)

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثالث

(١) يخبر الله تعالى عن جهالة الكفار على مدار الرسالات كلها الذين وعظوا فلم يتعظوا وأقيمت عليهم الحجة بالبراهين فلم يستجيبوا لها، بل جأروا بالإنكار وتأولوا حلم الله فيهم في عدم معاجلتهم بالعذاب لظنهم السيئ، وبدا لهم بتطاولهم على رسل الله أنهم يحسنون صنعاً فقد أغلقوا عقولهم وقيدوها بالضلال وجزأؤهم يوم القيامة ألوان من العذاب منها أغلال في أعناقهم يقادون فيها إلى نار جهنم خالدين فيها.

(٢) تقرر الآيات مشهد تشابه افتراءات أهل الكفر بالرد على رسل الله، وما كان إنكارهم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة، لا يفيقون منه حتى يعاينوا العذاب بأنفسهم عندئذ يتبدى عليهم الحسرة والندم على ما فات منهم ويتقلبون في النار من حال إلى حال، ويقولون نادمين يا ليتنا أطعنا رسل الله، ويتمنون لو أن لهم كرة أخرى في الدنيا ليكونوا مؤمنين، ولكن هيهات أن يستجاب لهم لأنهم قوم وطنوا أنفسهم على الجحود والعناد مهما رأوا من آيات وبراهين.

(٣) من تمام الحكمة الربانية أن يبعث إلى البشر رسلاً من جنسهم، وهذا من كمال الحكمة ليكونوا حجة عليهم، فيهم جميع طبائع البشر وغرائزهم، وإذ تعجب أهل الكفر ببشرية الرسل فتعجبهم هو الذي يستدعي العجب، فبشرية الرسل أدعى في التأثير والقبول لطول الرؤية

(١) الكشف، للزخشري: ٥٢٦/٢.

والملازمة له والسؤال عن كل طارئ جديد في مجتمعاتهم، وبهذا تتحقق ملامسة عقول المشركين إلزاماً للحجة ومقارعتهم بها.

(٤) إن الأنبياء والرسل مع اصطفايتهم وعلو منزلتهم وعصمتهم. إلا أن الله تعالى لا يأذن لهم بأن تجري المعجزات على أيديهم حسب طلب أقوامهم، وليس استعجال الكفار بالآيات القاهرة موجباً لأن يقدم الله عز وجل ما أخره، مع أنه تعالى فعال لما يريد فهو الذي يدبر الأمور بحسب إرادته وعلمه.

(٥) قررت آيات المقطع على وحدة الرسالة والرسل، ووحدة دعوتهم وحقيقة نعمة الله تعالى على البشر بإرسال الرسل إليهم هدايتهم، بحيث لو تركوا لأنفسهم لانتحلوا ألواناً من الضلالات وظلمات الجهالة فأعفاهم الله منها.

(٦) تؤكد الآيات الثبات على الصبر، والإيمان بالفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، فالله هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه.

(٧) تفيد الآيات القدح في وحدة سلوك الكفار المذموم بإثارة الشبهات ضد رسلهم. من نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا السلوك المرضي هو دأبهم على امتداد العصور وكر الدهور ومن صور إثارتهم للشبهات نعت الرسل بقوادح القول كالتكذيب والجنون والتلبس بالجن والسحر والسفه والطيش والغفلة. ومعلوم أن من استهزأ بواحد من هؤلاء الرسل فهو في منزلة المستهزئ بجميعها.

(٨) تؤكد الآيات على ذم الاستعلاء في الأرض، لأنه يورث الظلم بكل صورته، وعاقبته الذل والهلاك وهذا ما كان من نبي أهل الرياسة في قوم نوح وعاد وثمود، فالطواغيت في كل زمان ومكان صاغتهم القوة ونسجت حولهم أوهاماً وأساطير، فهؤلاء الطغاة على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون وفي آذانهم قر لا يسمعون، وقلوبهم غلف لا يعقلون، والمألوف عن أهل الرياسة في الكفر والضلالة أنهم حين يغلبون على أنفسهم ويخشون افتضاح أمرهم ويعوزهم الدليل والحجة عدلوا عن الجدل والمناظرة مع خصومهم، وعمدوا إلى ترهيبهم

إرضاءً لنفوسهم المتعطشة للقتل والثأر والطرْد والتهجير، عليهم بهذا السلوك الشاذ يسترون عوراتهم ويخفون باطلهم بإخافة الآخرين، ولعل في درس أهل الرياسة في الكفر من قوم نوح وعادٍ وثمرود وغيرهم من الأقوام اللاحقة، وثبات الرسل في دعوتهم، درساً للجهر بقول الحق في الدعوة لله، مع تحذير المؤمنين في كل زمان ومكان من الاستسلام لحكم الطواغيت.

(٩) يحسن بنا إتماماً للفائدة واحتراماً لقواعد منهجية التفسير الموضوعي للقرآن الكريم أن نربط حلقات ذكر قوم نوح وعادٍ وثمرود في سلسلة واحدة للإيضاح والتنوير: ورد ذكر قصة نوح عليه السلام في مواضع متعددة من سور القرآن الكريم وقد تفاوتت طولاً وقصراً بما يتفق مع موضوع السورة وسياقها ومشاهد لقطاتها والعبرة المتوخاة منها. وتكرر اسمه في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة في ثمانٍ وعشرين سورة^(١).

ويلاحظ أن السور التي ذكرت مشاهد طويلة من قصته هي سور مكية هدفها إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. وبيان أن القرآن منزل من الله عز وجل معجز بسرد نبأ الأقدمين من الرسل للعظة والاعتبار^(٢).

وقد وردت أجزاء من قصة نوح عليه السلام في سور كثيرة منها: الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصفوات والقمر، وأنزلت في شأنه مع قومه سورة بتمامها وأشير إلى مضمون قصته في سور أخرى للعبرة^(٣).

وقد تحدثت سورة الأعراف (٥٩-٦٤) عن نبوة نوح ودعوته لقومه، وتفنيد شبهات القوم له. وعجب الملائ من القوم أن يرسل الله بشراً من جلدتهم لهدايتهم.

ثم جاءت سورة يونس (٧١-٧٣) وأبرزت مشاهد من مواجهة نوح عليه السلام لقومه بالتحدي

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص ٨١٥.

(٢) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ١/١٥٦.

(٣) قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل: ص ٤٢.

والثبات ومحاججتهم بالحجج والبراهين الدالة على صدق رسالته وتكذيب القوم له. ثم جاءت سورة هود (٢٥-٤٩) وعرضت مشاهد مطولة من قصته وأبرزت دعوته لقومه، وعدم تصديقهم له، وطلبهم الاستعجال بإيقاع العذاب بهم فكان الطوفان. ثم جاءت سورة المؤمنون (٢٣-٣٠) لتبرز أن الله بعث نوحاً إلى قومه نبياً ورسولاً لهدايتهم، وإنكار قومه عليه ذلك مع القدح بدعوته بإثارة الشبهات ضده. واستنصاره بخالقه ودعوته أن يهلك الكافرين من قومه لضلالتهم وفسادهم.

ثم جاءت سورة الشعراء (١٠٥-١٢٢) فأخبرت بتوسع أن الله عز وجل أرسل عبده ورسوله نوحاً ﷺ لأهل الأرض من قومه. كأول رسول بعثه الله بعد آدم بسبب شيوع الكفر فيهم إذ كان الشرك طارئاً شاذاً غريباً، أول ما تحقق في قوم نوح وكان انحرافهم عبر أجيال متطاولة متعاقبة. انتقلوا خلالها من التوحيد إلى الشرك بالتراخي والتدرج.

ثم جاءت سورة العنكبوت (١٤-١٥) فانفردت دون غيرها من السور، بذكر المدة التي استغرقها نوح ﷺ، بدعوة قومه وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم جاءت سورة الصافات (٧٥-٨٢) وعرضت اللقطات السابقة التي تقدم ذكرها من بداية الدعوة وحتى الطوفان مع الثناء على نوح ﷺ لطول صبره وجلده وحسن حججه وقوة براهينه وإعراضه عن استهزائهم في حلم وأناة صابراً على أذاهم صامداً للغوهم.

ثم جاءت سورة القمر (٩-١٧) لتحدثنا عن دعاء نوح ربه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ وترينا لقطات من مشاهد هلاك القوم كآية باهرة.

ثم جاءت سورة نوح (١-٢٨) فأخبرت أن الله عز وجل أمر نوحاً بإنذار قومه ﴿إِنِّي لَكُرْهُدٌ مُّبِينٌ﴾ وكشفت عن دعوته لهم بالعبادة والتقوى والطاعة، ووعدهم بالمغفرة إن فعلوا ذلك.

ثم عرضت استخدام نوح ﷺ مختلف الأساليب في دعوته حتى الكونية منها، فلفت أنظارهم كيف خلقهم أطواراً وأنبتهم من الأرض، وخلق سبع سموات، وجعل القمر نوراً

والشمس سراجاً. ^(١) وهذا الشاهد مألوفٌ ومشاهدٌ في يومنا هذا، حيث يعمد الدعاة إليه لبيان عظمة الله في الخلق بكشف أسرار الإعجاز العلمي في القرآن ﴿ سَأْتِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. حيث اقتضت سنة الله تعالى أن تكون معجزة الإسلام في القرآن الكريم بلفت العقل إلى النظر والتأمل، بحثاً عن أسرار الكون ومظاهر عظمة الله في الأنفس والأفاق. مع وجوب التفكير في خلق الله للكون، فأثنى على أولئك الذين ينظرون فيعتبرون، وذم أولئك الذين تعمى بصائرهم عن التأمل، فيمرون على آيات الله في الكون غافلين.

وذكرت قصة هود وقومه عادٍ في القرآن الكريم، بعد قصة نوح عليه السلام. بشكل يتفق مع التسلسل التاريخي للأحداث ولقد فصلت قصته بتوسع مع قومه في عشر سور، وإشارات موجزة بشكل متفاوت في ثمان عشرة سورة.

وتكررت كلمة (هود) في هذه السور سبع مرات، وكلمة (عاد) أربعاً وعشرين مرة، ^(٢) وفيما يلي موجز لأبرز ما جاء في هذه السور من نبأ هود عليه السلام وقومه عاد، لإبراز وشائج الوثام والترابط بينها بما يتوافق ومحور السورة.

ففي سورة الأعراف تحدثنا الآيات (٦٥-٧٢) عن دعوته لقومه عبادة الله وحده، وهي دعوة الأنبياء كافة لأقوامهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وإنكارهم لدعوته، ثم نجاة هود عليه السلام والقلة التي آمنت معه. ^(٣)

وفي سورة هود تحدثنا الآيات (٥٠-٦٠) عن إثبات نبوة هود، واتهام القوم له بالسفه والجنون.

(١) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي، الجزء الأول: ص ١٥٦.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص ٨٣٠، ٦٠٥.

(٣) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ص ١/١٢١٨.

وفي سورة المؤمنون تمضي الآيات (٣١-٤١) دون ذكر اسم هود وعاد، وتخبّرنا عن إنكار القوم لنبوة بشر من جنسهم، وتقف عند هلاك القوم بالصيحة.

وفي سورة الشعراء تتوسع الآيات (١٢٣-١٤٠) في ذكر قوم هود وتخبّرنا أن عاداً استكبروا في الأرض وبغوا وظلموا، وجعلوا من قوتهم أداة لظلم الآخرين، ثم تبرز إثبات نبوته وتكذيب القوم له، وإنكار نصحه لهم وعدم قبول دعوته، لمخالفتها عقيدة الآباء الأولين، أو عظم أم لم يكن من الواعظين. وتبرز غرابة بناء القوم للأبراج والقصور، وتكذيبهم للبعث.

وفي سورة الأحقاف تحدد الآيات (٢١-٢٥) المكان الجغرافي لأرض القوم في الأحقاف ثم تبرز استعجالهم العذاب، فكان العارض الممطر الذي أهلك القوم بالريح المدمرة.

وفي سورة الذاريات أخبرت الآيتان (٤١-٤٢) عن مكر الله بالقوم لكفرهم، فحبس عنهم المطر وأصابهم بالقحط، وأرسل إليهم ريح العقيم فكان هلاكهم.

وفي سورة القمر جاءت الآيات (١٨-٢٢) لتخبّرنا عن تعذيب القوم وهلاكهم بالريح الصرصر، شديدة الصوت والبرد تارة والحرارة تارة أخرى، مع وصف النحاس المشؤوم.

وفي سورة الحاقة أشارت الآيات (٦-٨) إلى هلاك القوم بالريح الصرصر العاتية لشدة سرعتها واستمرارها لسبع ليال وثمانية أيام، فكانت حاسمة لخبرهم وآثارهم.

وفي سورة الفجر تتحدث آياتها (٦-٨) عن قوة القوم وشدة بطشهم، ووصف براعتهم في نحت البيوت والأبراج والقصور الشاخمة.

ووردت قصة نبي الله صالح عليه السلام في عدة سور، وتكرر اسمه تسع مرات، في حين وردت كلمة (ثمود) ستاً وعشرين مرة.^(١) وتراوحت مشاهد قصته مع قومه في سور القرآن الكريم بصور ولقطات متفاوتة، بين البسط في التفاصيل إلى التوسط والاعتدال إلى الاكتفاء بالإيجاز بإشارات خاطفة أو مجرد الذكر فقط، حسب ما يقتضيه السياق القرآني من الحكمة والاعتبار.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٩٦-١٩٧ و ٥٠٤-٥٠٥.

ففي سورة الأعراف أُخبرت الآيات (٧٣-٧٩) نبأ دعوته لقومه وطلبه لهم عبادة الله وحده. وتقديمه الناقة معجزة له، واستهزاء الملأ من القوم به وبالذين آمنوا معه، وإقدامهم على قتل الناقة. (١)

وفي سورة هود أُخبرتنا الآيات (٦١-٦٨) عن إثبات نبوته فيهم، وما خصه الله من معجزة الناقة، وإهلاك القوم بالعذاب حيث أخذهم الله بالصيحة. وأخبرتنا سورة الحجر في الآيات (٨٠-٨٤) عن موطن القوم الجغرافي والتي منها اشتق اسم السورة.

وفي سورة الشعراء أُخبرتنا الآيات (١٤١-١٥٩) عن دعوته لقومه بتقوى الله وطاعته ولزوم أمره واجتناب نواهيه، وأبرزت مظاهر ترف القوم وطلبهم لمعجزة مادية وعقرهم للناقة. وفي سورة النمل أُخبرت الآيات (٤٥-٥٣) عن دعوته لقومه وتطير الكافرين به وبالؤمنين الذين معه على قلة عددهم، واستعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، وإبراز مكرهم وما هم عليه من الإفساد في الأرض، فكان عاقبة مكرهم الدمار والصيحة. وفي سورة القمر أُخبرت الآيات (٢٣-٣٢) إلى دعوته في قومه وعقرهم للناقة، ومعاقتهم بالصيحة.

أما السور التي تناولت إشارات خاطفة لقصته عليه السلام فكانت (الإسراء ٥٩، فصلت ١٧-١٨، الفجر ٩-١٠، الذاريات ٤٣-٤٥، التحريم ٥١). وهي في مجملها تخبر عن نبوته ومعجزة الناقة وأخذهم بالصاعقة، وبالمقابل نرى ورود اسم قومه (ثمود) مجرد ذكر فقط في السور التالية:

(التوبة ٧٠، إبراهيم ٩، الحج ٤٢، الفرقان ٣٨، العنكبوت ٣٨، ص ١٣، غافر ٣١، ق ١٢ البروج ١٨).

(١) القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٢٦٧/١.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الرابع

ويمتد من الآية ١٩ إلى الآية ٣١

(مقارنة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار)

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكُمْ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْتَنَا سَوْءًا عَلَيْنَا إَجْرِنَا إِنَّمَا صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيَّنُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ أَلْقَارُؤَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ﴿٣١﴾ ﴿١﴾

(١) قرأ حمزة والكسائي في الآية ٢٠ (خالق السموات والأرض) والباقون (خلق السموات والأرض) كما في المصحف. قرأ حمزة في الآية ٢٢: (وما أنتم بمصرخي) بكسر الباء المشددة وقرأ الباقيون بفتحها كما في المصحف. انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع، لأبي محمد مكي القيسي: ص ٢٥.

يخبر الله تعالى في هذا المقطع أهل قريش ألم تعلموا أن الذي خلق السموات والأرض بالحق على مقتضى حكمته، قادر على الخلق من العدم، وإن قدرته على إهلاك الكافرين واستبدالهم بخلق جديد أسهل، فليس ذلك متعذراً ولا ممتنعاً عليه سبحانه وتعالى.

وتتوقف آيات المقطع في الآيتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين، لتصوير مشهد رهيب إذ تقف جميع الخلائق بارزة بين يدي الله يوم القيامة برها وفاجرها من الأولين والآخرين. وتقع المناظرة بين الرؤساء والأتباع بما فيها من الجدل والملاسنة، ويقول الضعفاء التابعون من عوام أهل الكفر ممن أسقطوا عقولهم، لأهل الرياسة أكابر جماعة الكفر والغواية، لقد كنا تابعين لكم في تكذيب رسل الله، واقتصر دورنا في الحياة على الائتمار بأمركم عملاً بوعودكم وآمالكم: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]. فهل تدفعون عنا اليوم شيئاً من عذاب يوم القيامة؟

وهنا يجيب الذين استكبروا على صغار القوم من الكافرين توبيخاً لهم على جهلهم: لو هدانا الله للهداية لهديناكم وسلكنا بكم طرق النجاة بدلاً من العذاب الذي نجازى به، فليس لنا مهرب مما نحن فيه من عذاب جهنم، ولا جدوى من الخصومة والاحتراب بيننا واتهام بعضنا بعضاً في إضلال صاحبه، وسواء علينا أجزعنا أم صبرنا فلا مفر من عذاب الله وإنه آتٍ لا محالة.

وبعد أن يقضي الله الأمر بالعدل بين الخلائق ويذهب أهل النار إلى عذابهم، يقف إبليس بين أتباعه خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم:

إن الله وعدكم وعد الحق في البعث والجزاء والجنة والنار من خلال رسله فأنجزه بعدله ووعدتكم منكرًا من القول وزورًا من الإفك تدليساً وتزييناً وعداً باطلاً، أن لا بعث ولا حساب فأخلفتمكم وعدي بإضلاي ووسوستي لكم، فما كان منكم أن أسرعتم طوعاً واختياراً لطاعتي، فلا تلو موني على صنيع فعلكم القبيح هذا، بل لوموا أنفسكم على سرعة هرولتكم في الاستجابة لضلاي وشروري، ونحن اليوم جميعاً في نار جهنم مع اختلاف مراتبها ودرجاتها،

وليس لأحدٍ منا القدرة في دفع العذاب عن الآخر.

ثم يصرح إبليس بذلة وانكسار، الآن حصحص الحق فلست أشاطركم الرأي فيما ذهبتم إليه في الدنيا حين أطمعتموني في أعمال الشر وإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة وتدبير الكون توهماً منكم، إني أنكر عليكم اليوم طاعتكم لي وأنتم صاغرون أمام وسوستي، فأنتم أهل ضلالة لأنكم عدلتم عما توجهه هداية الله بكم فانحرفتم من الإيثار إلى الكفر، بسبب الميل الحاصل عندكم من تأثير الشهوة والغضب والوهم والخيال، فالكافر منا (والقول ما زال في سياقه لإبليس) إذا أحس بشيء ترتب عليه شعوره توهماً. فقد أقامت عليكم رسل الله الحجج على صدق ما جاءوا به، بيد أنكم خالفتموهم والتمستم طريق الضلالة فما أنا بمنقذكم ولا أنتم بمنقذي، إن كلينا اليوم لكفره له عذاب شديد.

ويرى بعض المفسرين أن خطبة إبليس هذه تكون بعد الفراغ من القضاء وقبل الدخول إلى النار، بسبب ضغط الكافرين عليه وقولهم له لقد أضللتنا وكنت سبباً فيما نحن فيه. (١) إذ يقف الكافرون بين يدي الله تعالى أذلاء خافضين رؤوسهم بسبب كفرهم، بعد أن رأوا بأعينهم أهوال يوم القيامة، وما أعده الله لهم من العذاب فعرفوا أن وعد الله حق وأن الجنة حق وأن النار حق، فينظرون إلى النار التي أعدت لهم فيظهر على وجوههم آثار الكآبة ويبدو عليهم الحزن والغم ويغشاها الخزي والذل، وعندها يدرك الكافرون أن ما توعدهم الله تعالى به من العذاب الشديد كان حقاً فيتوجهون باللوم إلى إبليس الذي تنازلوا له عن عقولهم وألغوا تفكيرهم لأجل طاعته على غير هدى وبصيرة منهم لجهالتهم وظلمهم لأنفسهم.

وبعد ذكر أحوال أهل النار تفرد الآيات اللاحقة توصيفاً رائعاً في مشهد جميل لأهل الجنة، وما خصهم الله به من النعيم الأبدي وتحيتهم فيها سلام، فالمؤمنون يحيون بعضهم بعضاً بهذه الكلمة، والملائكة يحيونهم بها أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝٢٣﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٥٦/٩، والكشاف للزنجشيري: ٥٢٩/٢.

﴿ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، والله عز وجل يجيئهم بها كذلك^(١) لقوله تعالى: ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ (٥٨) [يس: ٥٨].

وتبرز الآيات أن المؤمن يوم القيامة يكون موضع حفاوة وتكريم، فيدخله الله الجنة وينعم عليه فيها بنعيم دائم، ثواباً على ما قدم من أعمال صالحة في الدنيا، وهذا من تمام عدله سبحانه وتعالى إذ لا يستوي عنده المؤمن والكافر ولا المطيع والعاصي، فيثيب المؤمن على إيمانه ويعاقب الكافر على كفره، وقد جعل لعذاب الكفار ألواناً من صورها شدة الغليان فعندما يطرح الكافرون فيها، يسمعون لها أصواتاً وزفراتٍ مخيفة ويتقلبون فيها وهي تفور من شدة الحرارة، كما تكون النار في حالة غيظ وغضب شديدين يتطاير شررها في كل مكان.

وعندما يلقي الكافرون تبعاً في النار جماعة بعد أخرى، تسألهم ملائكة العذاب لتوبيخهم وتحقيرهم ولتذكرهم بتقصيرهم في اتباع رسل الله، فيقولون لهم ألم يأتكم رسلٌ ينذرونكم ويحذرونكم من هذا العذاب الشديد، فيجيب الكافرون وهم متحسرون بلى قد جاءنا رسلٌ من الله تعالى، ولكن كذبنا الرسل وزعمنا أن الله لم ينزل أحداً منهم، فكنا من الضالين المكذبين، وكان علينا أن نسلك طريق الهداية بدلاً من طريق الشقاء والضلال الذي كان مآله نار جهنم، ويقولون بحسرةٍ وألمٍ شديدين ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١٠) [المالك: ١٠].

وبعد أن أخبر الله تعالى عن أحوال أهل النار والجنة، انتقلت مشاهد المقطع في لطيفة قرآنية إلى تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، في إشارة للكلمة الطيبة بعبارة التوحيد: لا إله إلا الله،^(٢) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشجرة الطيبة بالمؤمن طيب الذكر بفضائل خلقه وحسن عمله الخالص لوجه الله، أما الكلمة الخبيثة فجاءت كناية عن عمله الفاسد الذي لا يراد به وجه الله، وأمره بالمنكر ونهيه عن المعروف. فالكافر لجهله بالله وعمله الفاسد أصل المصائب والابتلاءات والجهالات والشقاوة والفتنة

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٨٩/٧.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٩٢/٧.

والخراب، فلزم اجتثاثه لشركه وفساده كاجتثاث الشجرة التي لا طائل منها، وحكمة هذا التشبيه أن الكلمة الطيبة حاصل النفع بها على الدوام في الدنيا والآخرة، ثابتة في قلب المؤمن تصعد إلى السماء على مدار الوقت ليثاب صاحبها على كريم خلقه، تماماً كالشجرة الطيبة في ثبات جذورها العصية عن الاقتلاع أيًا كانت شدة الأعاصير التي تصطدم بها، وهذا الضرب من الشجر جميل في رائحته وثماره ولونه وأوراقه ولحائه وعصائره وجذوره وأزهاره، مع روعة ارتفاعه السامق إلى الفضاء، لهذا جاء تشبيه المؤمن بها لأنه لا يخلو من العطايا ووجوه الخير والبر في الأوقات كلها. (فالمؤمن كالنخلة إن صاحبه نفعك وإن جالسته نفعك وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيء ينتفع به).^(١) ولا يكتمل السرور إلا بحضرته أو عند ذكره، وتبقى أعماله الصالحة صدقة جارية له بعد موته.

وقد أورد الرازي قول أحد الصالحين في مماثلة تشبيه الشجرة الطيبة بالكلمة الطيبة: (إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة إلا بتوافر ثلاثة أشياء: عرق راسخ وأصل قائم وأغصان عالية، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: معرفة في القلب وقول باللسان وعمل بالأبدان).^(٢)

ويستفاد من ذلك أن الكلمة الطيبة يتأتى عنها كل خير متدفق، ينبغي لكل حصيد فهميم أن يسعى لتحصيلها في أمور حياته الدينية والدنيوية لتكون ملازمة له، والانتقال بها من مقام التنظير في القول إلى مقام التطبيق في العمل، كعمل الشجرة في إنتاج غذاءها بنفسها حسب مراد الله لها في نموها وتحصيل النافع منها، فهي حاضرة في منافعها على الدوام، للإنسان والحيوان والطيور والبيئة المحيطة بها.

ولما بين الله عز وجل صفة الكلمة الطيبة التي يكون أصلها ثابتاً رسوخ الشجرة في تربتها الصالحة، والكلمة الحبيثة التي تتغيا الشك والفتنة والافتتال والإفساد في الأرض، بالشجرة

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٦٠/٩.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٩٢/٧.

الخبثية التي لا قرار لها، مثلاً على الكافر الذي (لا حجة لرأيه ولا ثبات لموقفه ولا خير منه وما يصعد له قول طيب ولا عمل صالح).^(١)

ثم انتقل الخطاب بعد ذلك إلى بيان أن الثبات على طاعة الله ومحبته في الدنيا، توجب الثبات للميت عند سؤال الملكين له في القبر، حين يسألانه: (من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول إن كان مؤمناً ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ)^(٢)،^(٣) وقد ثبته الله تعالى بهذا القول ولقنه إياه بسبب مواظبته على العبادات وعلى الشهادة، وبعده عن مواطن الغلو والزلل والشهوات والفحش في القول والعمل، وتعطر فمه بذكر الله وبتلاوة القرآن، وبالمقابل فإن الكافر إذا سئل هذه الأسئلة أجاب: لا أدري! وكان في ضلال كبير، والله فعال لما يريد إن شاء هدى وإن شاء ضل، أراد الخير لهم إلا أنهم لم يشاءوا ذلك لأنفسهم فتركهم أحراراً لذواتهم.

ثم جاءت الآية الثامنة والعشرون والتي تليها وقد نزلت في المشركين الذين قاتلوا رسول الله يوم بدر، إلى تخصيص الخطاب لأهل مكة وبيان فضل الله على أهلها، حيث أسكنهم حرمة الأمن واجتثت الكفر منها، ولم يعد المشركون يشاركون المؤمنين في حجهم، ووسع عليهم معيشتهم وأكرمهم بأن أرسل فيهم محمداً ﷺ منهم وإليهم بلغتهم، ومع هذا لم يعرفوا قدر النعمة وبدلوا شكرها كفرًا، وجعلوا لله أنداداً فكانت شبهاتهم لرسولهم ومحاربتهم له وما ضربوه من أصنام حول الكعبة وما نحتوه منها خير شاهد على ذلك، وجعلوا من أيديهم معاول هدم لبيوتهم في الدنيا، (فأصابهم الله بالقحط تارة وبالأسر والقتل كيوم بدر تارة أخرى، وأذهب

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩٤/٧.

(٢) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبي شيبة وأبو يعلى من رواية سعد بن عبيدة عن البخاري مرفوعاً في قوله: ﴿يَسْتِئْتِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الشَّائِبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك وما دينك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ.

(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٩٤/٧.

عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم).^(١)

ويختتم المقطع بالتأكيد أن قوماً هذا دينهم، فإن عاقبة أمرهم جهنم خير نُزِّلَ لهم، ساءت مستقراً ونزلاً.

ومما تجدر الإشارة إليه شدة صلة هذا المقطع بمحور السورة، لاشتماله على أحكام وآداب وأساليب تربوية لا نظير لها لحمل الناس على الهداية، وعدم التيسير من رحمة الله بفتح باب التوبة للعائدين إلى الله مهما عظمت الذنوب، ومما يعضد محور السورة في الإخراج من الظلمات إلى النور اشتمال المقطع للعديد من التشبيهات والأمثال لأجل العظة والعبرة.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الرابع

(١) إن الظاهر من سياق الاستشهاد بذكر أقوام نوح وعادٍ وثمود، هدفها أخذ العظة من أحوال الماضين من الأمم التي كفرت بأنعم الله وبرسالاته، حتى تتحصل لدينا تجنب المزالق في أحوال الدين والدنيا من باب قياس الحاضر بالغائب. وفيها من لطائف الحكمة تقرير أن أحوال الأمم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف وتبدل من حال إلى حال على مر الأزمنة والعصور. كما فيها من العبرة والتسرية لتكون سياجاً للحصيف من كل ضعف وانحلال، تخرجه من الغفلة والنسيان من نعمة الاعتبار هذه، فلربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين، ولا يتفطن لما وقع لهم من تغير أحوالهم وانقلاب الدهر بهم، واندراس تاريخهم وانتقال الملك إلى غيرهم، ويفوته في ذلك الكثير من الحكم.

(٢) تقرر الآيات ليس للشيطان على الإنسان من سلطان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، ومن هنا يتبين لنا غلط من يزعم أن للشيطان قوة التأثير بالتهديد والوعيد على مخالفه من البشر، فقولهم هذا من السفاهة ما لا يقوم عليه دليل ولا حجة، وهذا توهم مما أحدثه بعض الناس وابتدعوه ممن تجرت

(١) الكشاف، للزمخشري: ٥٣٤/٢.

عقولهم. وكل قول لا يعضده حجة زائف باطل دل على فسادہ بذاته. وقد أقامت آيات المقطع الدليل المشاهد على عجز الشيطان أمام المؤمنين، الذين وطنوا أنفسهم على مخالفته ودليله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فالشيطان في حقيقته مغلوب مقهور مما يعضد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقد أعطى الله المؤمن الآيات النافعة على مواجهة الشيطان، ما لا يأتي عليها التعدد والإحصاء كالفاتحة والبقرة والمعوذتين ونحو ذلك. وما يؤسف له في هذا الزمان استحكام الجهل بالدين، مما أدى إلى ازدياد أعداد المتوهمين بالتلبس في كل طارئ صحي، وإن في ذلك لعبرة لمن كان له عقل يفكر به.

(٣) أفردت آيات المقطع مناظرتين للشياطين.

الأولى بين رؤسائهم وأتباعهم من كفره الإنس.

والثانية بين إبليس وأتباعه من شياطين الإنس والجن، لأجل بيان أن كليهما يوسوس لصاحبه ويزين له الشر، لقوله تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]. ويفيد ظاهر الآية أن الشيطان لا يكون له مدخل على الإنسان إلا في حالة ضعف الوازع الديني المصحوب بظلمات أمراض القلب، المفضي إلى الغضب والطيش والسفه وانقطاع من الآخرة وإقبال من الدنيا مع استغراق طلب شهواتها، ويكون الأحاد من هؤلاء مغلوباً على أمره طعمة لكل مشعوذ ونصاب، وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم، لما فيهم من طبائع التخيل والاستسلام لوساوس الشيطان، فصار لهم التوهم خلقاً والتلبس سجية تنزل فيهم منزلة الطبيعة والجيلة، فحصل لهم التوهم الانقياد للشيطان بذل وانكسار.

(٤) تبين الآيات أن المؤمنين الذين صحت لهم مقام العبودية وأحوال الصديقين، أبعدهم الناس تأثراً عن أمراض القلب وهوى النفس، وهذا مشاهد ومكرور بين الناس في كل زمان، فالمؤمن أسرع الناس قبولاً للحق لسلامة فطرته التي جُبل عليها. وهذه الصفة متمنعة وعسيرة على غيرهم

من أهل مرضى القلوب، فالقلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا، حصل التنافس وفشا الخلاف بالباطل بينها، بسبب ما تحمله من طول الأمل في الحياة والتطلع إلى الدنيا وأسبابها من جاهٍ وثروةٍ وسلطان، وهذا مفسد للنفس مورث لسقم الأبدان، ومن كان ديدنه ذلك سارعت وساوس الشياطين إليه، فاستحق أن تنسحب عليه الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة. أما إذا انصرفت القلوب إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله بصدق وإخلاص ذهب عنها التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاقد بينها بسبب اتلاف نفوسها، ورسخ فيها العبادة على مقتضى الأحكام الشرعية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) [الذاريات: ٥٦]. وتحقق لها مظاهر استخلاف الله تعالى للإنسان في الأرض، وأهل هذا الضرب هم الذين شبههم الله في المثل بالكلمة الطيبة والشجرة الطيبة.

(٥) بمناسبة قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، تفيد هذه الآية أن حال الكافر في الدنيا أياً كانت: من عسر أو رخاء ونعيم، ومن سقم واعتلال أو صحة وقوة ومن بسط أو ضيق، فإنها قياساً بعذاب الآخرة تمتع ونعيم إلى حين،^(١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر: ٨]، ونظير ذلك في القرآن الكريم كثير منها قوله تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٢٤) [لقمان: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمَ ﴾ [آل عمران: ١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٠) [يونس: ٧٠]. فكل نعيم سوى الجنة حقير وكل عذاب سوى النار هين ميسور. ويفيد ظاهر آيات المقطع أن الله عز وجل لا يغفر الكفر إلا بالتوبة والدخول في الإيمان، فالكافر إذا أسلم صارت ذنوبه مغفورة وجبت ما قبلها، ﴿ فَأَعْتَبْ رُؤُوسَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا كَانُوا يَعْتَبِرُونَ ﴾ [الحشر: ٢].

(٦) إن اشتغال المقطع على ضرب الأمثال يفيد أن المثل في كتاب الله يعتبر إما لونا متميزاً من ألوان التشبيه، أو لونا خاصاً من ألوان الاستعارة، فإن كان المثل له مذكوراً في الكلام كان

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٩٥.

تشبيهاً، وإن كان محذوفاً فهو استعارة^(١).

وحكمة ضرب الأمثال في كتاب الله وردت لتحقيق هدف تنبيه الذهن إلى أخذ العبرة والعظة من خلال قياس الحال على الحال.

أو للترغيب في العمل كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

أو لمدح الممثل كقوله تعالى في تشبيه الصحابة رضوان الله عليهم ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَفَازَهُ، فَنَاسَتْغَلَطَ فَأَسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

أو للتنفير والاستقباح، حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَمَعْضِكُمْ بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

أو لإبراز التهديد والوعيد بالأسلوب الذي يليق به، كمعاداة بني إسرائيل لرسالة موسى عليه السلام ومناذتهم له بالعداوة لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. ومثاله أيضاً تشبيه شجرة الزقوم وهي طعام أهل النار بأن طلعتها كرووس الشياطين، لما استقر في النفس من بشاعة الشياطين،^(٢) لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٤-٦٥]، سبقت هذه الأمثلة للبيان والتقريب لتحمل الناس على التصديق بالعقل والقلب والتفكير والتذكر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧]، ومن العلماء من أفرد للأمثال القرآن بالتأليف كتباً مستقلة كالماوردي، ومنهم من عقد لها باباً في

(١) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص ٢١٠.

(٢) علوم القرآن، د. عدنان زررور: ص ٣١٩.

أحد مصنفاته كابن القيم الجوزية في أعلام الموقعين والسيوطي في الإتقان.

وتقسم الأمثال في القرآن على ثلاثة أنواع: الأمثال المصراحة، التي جاءت بلفظ المثل أو التشبيه، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بَدَأَ بِكُمْ عَذَابًا غَلِيظًا فَهُمْ لَا يُرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُورٌ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٧-١٩]، ثم الأمثال التي لم ترد بلفظ التمثيل كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. وأخيراً الأمثال المرسلة وجاءت بدون التصريح بلفظ التشبيه، لحكمتها أصبحت تجري على ألسن الناس مجرى المثل من باب التدبر والعظة والجدة في القول،^(١) ومثال ذلك كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِبُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر/ ١٤].

ومما يجدر التنبيه إليه هنا احتراماً لقدسية القرآن الكريم تحريم القول في هذه الأمثال، من باب الهزل والسخرية والمزاح، كقول أحدهم تهكماً إذا وجد نفسه في بيئة اجتماعية فاسدة من شرب خمر أو عند سماع فساد قول، لحمل الناس على الضحك مداعبة لهم ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، ويرى الزمخشري أن حكمة ضرب الأمثال في القرآن ما جاءت عبثاً بل: (زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني ليتأتى الفهم التام منها).^(٢)

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان: ٢٨٦.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٥٣٢/٢.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع الخامس

ويمتد من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٤

(عظمة الله في الكون ونعمه على خلقه)

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَإِن تَسَاءَلُوا عَنْ كَلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا الْإِنْسَانَ لَقَلْبُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

أعلم سبحانه وتعالى في نهاية المقطع الرابع الحث والتحريض على الإنفاق الخالص ابتغاء مرضاته من غير من ولا أذى سواء أكان ذلك بالسر لصدقة التطوع والعلن للفرض الواجب منها، ونظير هذه الآية جاء في سور القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لِأَنْبَلُوا بِصَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿البقرة: ٢٦١-٢٦٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٣]، ففي المجاهدة بالمال انتفاع لصاحبه في الدنيا والآخرة، قبل أن يدركه الموت فلا انتفاع وقتئذ ببيع تجارة ولا مخالة لقرابة أو صداقة لأحد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ ءَاتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَبِغُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

بعد هذا الإعلام انتقل الخطاب في المقطع الخامس إلى عرض الدلائل الدالة على كمال قدرة الله عز وجل في الخلق والتدبير، مما يؤكد وحدة الترابط بين مقاطع السورة ومناسبتها،

فالمتقدم منها يمهد للآحق ويؤطر له، وهذا من الأساليب القرآنية في التأكيد على مراد الله من محاور السورة.

ففي هذا المقطع يجبر الله عباده أنه خص كل شيء في الكون بنعمة يقف وراء كل منها حكمة مخصوصة كخلق السموات والأرض وإنزال المطر من السماء وتسخير الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار، للحكمة والمصلحة، بما يكون فيها صلاح أمر عباده واستقامة شؤون حياتهم وهذه المنافع التي يسخرها الله بالكلية للإنسان، لا تحصل له إلا بتحمل المشاق في العمل لإعالة النفس في كسب الرزق، وقد شاءت إرادة الله عز وجل أن جعل الأرض بيئة الحياة الكبرى للإنسان وذلكها بساطاً له، ووفر له فيها كل أسباب الحياة، وقدر له فيها من الأرزاق ما يفي بحاجته وحاجة كل الأحياء التي على ظهرها، بدءاً من الكائنات الدقيقة وانتهاءً بالإنسان نفسه أجل مخلوقات الله، كما سخر الشمس والقمر دائبين لا يفتران، فحصل منهما مع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس والليل والنهار، فجعل من الأولى سكناً ومن الثانية السعي في أمور العمل والمعاش لعباده، كما تحقق لأهل الأرض الانتفاع من الشمس والقمر الاستضاءة بضوئهما، ومن الشمس ظاهرة الفصول الأربعة إلى غير ذلك من المنافع كالتبخر الموجب للسحب وإنضاج الزروع وسلامة الأبدان والبيئة.

وتوقفت آيات المقطع بذكر جانب من فوائد مياه المطر والبحار والأنهار، فجعل من الأولى غيثاً يصيب الكائنات الحية بالخير من إنسان وحيوان ونبات، فنشأ من المطر صوراً لحياة متنوعة في أشكالها وأحجامها وأنواعها وأنماط معيشتها في سلسلة غذائية تعتمد بعضها على بعض في علاقة توصف بالآكل والمأكول باستمرارية وتوازن، يلعب فيه النبات والشجر والزروع المتباين في ألوانه وأشكاله وطعومه وروائحهم ومنافعه فيصلاً في حياة الإنسان والحيوان، ولهذا يطلق على النباتات مصطلح المنتجات، لأنها تنتج غذاءها بنفسها بفعل ما سخره الله لها من التربة ومياه المطر وأشعة الشمس، وعلى سواها من الكائنات الحية المستهلكات، لأنها تعتمد في غذائها على الأولى، والعلاقة الغذائية بينها متداخلة تأخذ صورة سلاسل غذائية بحيث ينتقل

الغذاء من المنتج إلى المستهلك الأول فالثاني فالثالث وهكذا تبعاً للبيئة التي تستوطنها الأحياء كل ذلك على مراد الله وحكمته وتدييره في الخلق، كما جعل الله عز وجل من مياه المسطحات المائية من بحار وأنهار منافع عظيمة، سخرها للإنسان تساعده على الاستخلاف في الأرض ويسر له صناعة السفن بأنواعها لتحمله وأمتعته وتجارته من بلدٍ لآخر يقصده، تجري في المياه بأمره، إلى غير ذلك من منافع مياه الأنهار العذبة في السقاية والري.

وعلى ضوء هذه العجالة في المعنى الإجمالي للمقطع، يتبين لنا أن مجمل ضروب نعم الله كثيرة، مما لا يحصى عدده لو فصلت تفصيلاً دقيقاً، فالواجب علينا مقابلة هذه النعم بشكرها وتعظيمها أثناء الليل والنهار، وتقريع الكافرين الجاحدين بها. فمن كرم الله عز وجل على عباده منذ الخلق الأول، أن ذلل لهم ما سألوه وما لم يسألوه من نعم عامة كخلق السموات والأرض، وما فيها من ظواهر سخرها للإنسان، فلولا السماء لم يصح إنزال الماء منها، ولولا الرياح لم يصح انتقال السحب من مكان لآخر على مراد الله، ولولا الأرض وما عليها من تربة وصخور لم يوجد ما يستقر الماء فيه، ولولا الخيرات الدفينة في باطن الأرض كالبتروول ومختلف أنواع الثروات الأخرى لما قامت حضارة، ولولا التربة لانفتحت حياة النباتات التي تعيش عليها المخلوقات الأخرى، ولولا الشمس لانعدمت الحياة على سطح الأرض بالكلية، ولو اقتربت الشمس في مسافتها قليلاً أو بعدت قليلاً عن الأرض لما قامت حياة عليها بسبب ارتفاع حرارتها أو برودتها، ولولا دورات الكربون والنيتروجين والماء في الطبيعة وقوانين الحرارة والحركة الالكترونية في الذرات لاستغلقت الحياة على الأرض، ولو كان الأكسجين أكثر من نسبته الحالية في الهواء لاحترق كل شيء على سطحها، ولولا الجبال لتناثرت الأرض أثناء دورانها، وهذا بالكلية قياس على باب النعم العامة جاءت بميزان الحكمة والتقدير والتدبير في الخلق والعلم الأزلي بما ستكون عليه احتياجات الخلائق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَيْهِ أَفْنَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، أما نعم الله الخاصة على الإنسان فهي أكثر من أن يحصيها العباد ويأتي على رأسها نعمة الإسلام والصحة والأمن والولد والمال والنجاح في الحياة، فالولد الصالح نعمة والتفاؤل في الحياة نعمة والصبر على الابتلاء نعمة والزوجة الصالحة نعمة إلى ما سواه

ويمتنع حصره من النعم، مما لا نستطيع له عدداً لأنه فوق الحصر والإحصاء، ثم اختتم المقطع بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ما يفيد معنى أن الإنسان رغم وفرة نعم الله عليه إلا أنه ظالم لنفسه شديد الكفران بها، وقد جاء نعت جاحد النعمة على صيغة مبالغة للتشديد والتأكيد في جحوده للنعمة وظلمة لها. وحول هذه الجزئية يعلق الفخر الرازي قائلاً: (لو أن عقول جميع الخلائق ركبت وجعلت عقلاً واحداً، يتأمل في عجائب حكمة الله تعالى في الأفلاك والأنفس وعجائب البحر والبر والنبات والحيوان، لما أدرك منها إلا القليل) ^(١) ثم نراه يقول في موضع آخر: (والعقول قاصرة عن إدراك ذرة من هذه المباحث، دلالة على صحة البرهان القاهر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾. ^(٢)

وختاماً فإن شكر النعمة هنا هو المخلص من مقام الظلم والكفران والشكوى والجزع والتذمر والمحزر للنفس من ظلم جشعها في جمع المال وحبسه عن الآخرين. وإذا كنت في نعمة فارعها، فإن الله سريع النقم، وإن الذاكر لنعم الله حيٍّ وإن حبست منه الأعضاء، والمنكر لها ميتٌ وإن تحركت فيه الأعضاء، فابشر بفضل الله عليك إن كنت من أصحاب شكر النعم.

ومما يجدر التنبيه إليه هنا: ارتباط العلاقة بين هذا المقطع والمقطع الثاني في وجوب شكر نعم الله على الإنسان وعدم الجحود بها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. وفي هذا التشابه دلالة على وحدة ترابط مقاطع السورة بما يخدم محورها، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الخامس

(١) تقرر آيات المقطع أن نعم الله على الإنسان كثيرة، فمتى حاول الواحد منا التأمل في بعضها، غفل عن إدراك الباقي منها لأن الأحاد منا مجبول على النسيان، استغراقاً في طلب

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/٩٨.

(٢) المصدر السابق: ٧/٩٩-١٠٠.

الدنيا، ومثاله إذا تحقق له اليوم نعمة كانت عنه بعيدة المنال بالأمس تجاهل قيمتها، وتطلع إلى غيرها بظلمه ونكرانه وجحوده. ولأجل هذا ورد التأكيد في هذا المقطع على وجوب شكر نعم الله العامة والخاصة بالكلية، ومن يك خلاف ذلك من الخلق فإن مكره عائد عليه. وليس هناك كرامة لإنسان بلا عقل لا يشكر الله نعمائه، ومن ينسحب عليهم كفر النعم عميت بصائرهم عن التأمل، لمرورهم عن آيات الله ونعمه غافلين، لا ينظرون ولا يعتبرون ولا يتعظون، فالأحاد من هؤلاء عاجز عن توظيف عقله وتفكيره على التمييز بين الخير والشر والحق والباطل، ومما يدعو إلى الدهشة أن أهل هذا الضرب من الناس ليسوا غافلين عن نعم الله المادية والمعنوية فحسب، بل يضيفون ذرعاً في العبادات المخصوصة من صلاة وصوم وزكاة وحج لأنها تذكرهم بنعم الله هذه وتحثهم على شكرها.

(٢) إن في آيات المقطع دعوة التحريض على وجوب النظر والتأمل والاعتبار بدلالات عظيمة الله تعالى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَتْرِيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، فعندما يتأمل الإنسان الكون وما فيه من سموات ومجرات وشموس وبروج وكواكب وأقمار، يدرك بعقله أن لهذا الكون خالقاً أحكم نظامه على قاعدة من التوازن الدقيق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان/ ٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْاَعْيَانَ ﴾ [الرحمن: ٧]. وتشابه آيات هذا المقطع مع الآيات الكونية التي انتظمت في سورة الرعد التي تقدمتها في الآيات (٢-٤ و ١٢-١٣) ففيها إخبار من الله عز وجل عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، في خلق السموات والأرض وما بينهما، وهذا دليل على تكامل سور القرآن ووحدة دعوتها لله بالعقل والتدبر.

(٣) بيان الحكمة الربانية من حركة الشمس ومنازل القمر.

إن الناظر في آيات المقطع يرى أن الله عز وجل قد خص هذا المقطع بذكر الشمس والقمر والأرض، والشمس في عرف علماء الفلك نجم فوق القزمي بقليل قياساً مع النجوم العملاقة

تسير في مدار حول محورها لا تتجاوزه، وسوف تستمر في حركتها إلى يوم القيامة حيث تنتهي وظيفتها، وهذا مما استأثر الله بعلمه وعندئذ يتوقف سيرها وتسكن حركتها وتنتهي طاقتها إيدانا بنهاية الحياة الدنيا. وهي مركز المجموعة الشمسية التابعة لمجرة درب التبانة، تدور الكواكب التابعة لها حولها بفعل الجاذبية، وهي مصدر الحياة على سطح الأرض للكائنات الحية ولولاها لانعدمت الحياة على سطح الأرض. ولقد أقسم الله عز وجل بالشمس في سورة حملت اسمها ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١﴾ في إشارة ربانية إلى مكانتها.

كما قدر الله عز وجل للقمر السير في ثمانية وعشرين منزلاً ينزل في كل ليلة منزلاً يتخطاه لأجل ذلك يتم معرفة الشهور والأيام وتحديد بداية ونهاية الأشهر القمرية. ففي الليلة الواحدة يكون القمر ضئيلاً قليل النور ثم يزداد نوره حتى يكتمل في الليلة الرابعة عشرة. ويأخذ بعدها في التناقص بشكل تدريجي حتى إذا كان في آخر منازلها ظهر كغصن النخلة اليابس في دقته وتقوسه بسبب وقوع الأرض بينه وبين الشمس ويعضد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. [يس: ٤٠]، يستفاد من ذلك أن دورة الأرض حول نفسها ينشأ عنه الليل والنهار، ودورها حول الشمس ظاهرة الفصول الأربعة، ودوران القمر حول الأرض الشهر القمري، ومن رؤيتنا للقمر يتم تحديد بدايات ونهايات الأشهر القمرية. وفي هذا برهان قاطع على أن كل أجرام السماء تدور في دوائر خاصة بها، لا تحيد عنه حتى لا يدرك الآخر صاحبه. (١)

(٤) بيان الحكمة الربانية من خلق الأرض وتعاقب الليل والنهار.

لقد انتظم في القرآن الكريم عدة آيات تتحدث عن الأرض وما عليها لتلفت أنظار الناس إلى التأمل في قدرة الله تعالى على الخلق، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا

(١) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية: ص ٢٣٣.

مَآذًا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ [يونس: ١١]، اختارها الله عز وجل لتكون الكوكب الذي يفيض بالخير والبركة، أعطيت من الخصائص ما حرمت منه الكواكب الأخرى، اختارها الله عز وجل لأدم وذريته من بعده، وأرسل عليها الأنبياء والرسل فكانت الكوكب الأمثل في الخلق، مرت بحقب وعصور متطاولة في أزمانها حتى أصبحت صالحة للحياة عليها. ثلاثة أرباع مساحتها ماء، تبعد عن الشمس حوالي خمسين ومائة مليون كيلو متر تقريباً، تصل إليها أشعة الشمس في ثماني دقائق ضوئية. لها دورتان الأولى حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة ينشأ عنها تعاقب الليل والنهار، وبمقتضى حكمته سبحانه وتعالى يولج الليل في النهار والنهار في الليل، ودورة ثانية حول الشمس بشكل إهليلجي في فلك محدد مرسوم لها من رب العالمين، بسرعة تسعة وعشرين كيلومتر في الثانية وتكمل دورتها حول الشمس في ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً تقريباً وست ساعات وبضع دقائق تقريباً. يتج عنها الفصول الأربعة. وقد أحصى العلماء مؤخراً مجموع عناصر الأرض مائة وستة وعشرين عنصراً، وهذه العناصر في مجملها مكون من الذرة ومنها تكون كل شيء في الكون بإرادة الله ومشيئته.

(٥) جاءت كلمة السماء في القرآن الكريم بمدلولات عديدة هي:

- وردت بمعنى السماء الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ﴾ [الملك: ٥].

- احتملت معنى السحب وما يصحبها من مطر وبرق ورعد لقوله تعالى ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ ﴾ [نوح: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

- تفيد معنى العلو والصعود في الفضاء، لقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

- كما وردت بمعنى السقف لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

- وتفيد كلمة السموات بالجمع الكون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولقد أورد ابن منظور في لسان العرب أن السماء: اسم مشتق من الفعل سما يسمو بمعنى الارتفاع، وعليه يقال سموت وسميت بمعنى علوت وعليت، والسماء سقف كل شيء، والسماء أيضاً كل ما علاك فأطلقك. ^(١) والسماء بالمفهوم العلمي: الفضاء اللامتناهي الذي يحيط بمجرات السماء الدنيا من جميع الاتجاهات، ما يرى منها بالعين المجردة وما لم ير إلا بالمرصد الفلكية العملاقة، وما عجزنا عن رؤيته اليوم قد يكشف العلم عنه مستقبلاً من مجراتٍ مجهولة لدينا. ^(٢)

(١) من عظيم سلطان الله عز وجل في الخلق والتدبير، أن عبر بألفاظ صريحة في سور كثيرة، ما يفيد معنى الإيجاد والتكوين والإنشاء والقدرة على فعل ذلك من العدم كألفاظ: الخلق والتسخير والإبداع والفطر والجعل والقضاء ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢].

(١) لسان العرب، لابن منظور: ٢/٢١٠-٢١٣.

(٢) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية: ص ٩٦.

المعنى الإجمالي لأيات المقطع السادس

ويمتد من الآية ٣٥ إلى الآية ٤١

(نبأ إبراهيم ﷺ أبا الأنبياء في دعوته)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾
 رَبِّ إِنَّهُمْ أَصْلَحْنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا
 إِنِّي اسْتَكْتُتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً
 مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا
 تُعْلِنُ وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى
 الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي
 رَبَّنَا وَقَبَلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

يخبرنا الله تعالى في هذا المقطع عن جانب من قصة إبراهيم ﷺ المكرورة في القرآن الكريم لمن أراد أن يتعظ، وما يعتبرها إلا العقلاء الذين يتدبرون، إذ استهلكت الآيات بحكمة أن اذكر يا محمد لقومك من أهل قريش أحفاد إبراهيم ﷺ الذين انقلبوا عن ملته وقصته في قومه، كمثل الصدع بالحق بالكلمة الطيبة التي أينعت الشجرة الطيبة، فأثمرت كلماته بطبيها هداية نقل الناس من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، وذكر أيها النبي قومك عداوة إبراهيم ﷺ للأوثان والأصنام التي كانت سائدة في قومه، وأخبرهم في طلب دعائه من ربه أموراً سبعة هي:

١- الإنعام بنعمة الأمن للبيت الحرام وما حوله، بمعنى أن يجعل مكة بلداً آمناً ذا أمن حتى يأمن أهلها فلا يخافون من شيء ما داموا نزلاء فيها، وأن يصرف عنهم الخوف من الفقر وكيد الجابرة والظالمين، ويأمنها من كل خراب أو دمار أو فتنة ومن ألوان الشرك، ونظيره في آيات القرآن قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وحكمة الابتداء بطلب نعمة الأمن في مجمل دعائه دلالة على أنها من أجل أنواع النعم وأعظمها

إذ لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به، ويرى الرازي في تفسيره أن بعض الحكماء قد فضلها على نعمة الصحة، لأن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد،^(١) وقد استجاب الله عز وجل دعاء إبراهيم عليه السلام فجعل البلد آمناً تتقاطر إليه الخلائق للعبادة رغم جاهليتهم، ومن الأسيف أن أهله سلكت طريقاً مغايراً مخالفاً لملته، فكفروا بنعمة الأمن وجعلوا لله أنداداً وصدوا عن سبيل الله،^(٢) فكان هذا التذكير لهم.

٢- الطلب من الله عز وجل أن ينجبه وولديه إسماعيل وإسحاق على وجه الخصوص، وعموم أحفاده إلى قيام الساعة فتنة عبادة الأصنام على إطلاق مسأها، وما تحتمله من تأويل سواء كانت تلك الأصنام حجرية أم طواغيت بشرية، إذ جاء ذكر إبراهيم عليه السلام في مختلف كتب التفسير مقروناً بعهد الطاغية الكافر (نمرود)، الذي قال بالإلوهية فعبده قومه إلى جانب عبادتهم للكواكب، حيث أبطل بالعقل مزاعمه مدلاً على ربوبية الله وحده لا شريك له وحكمة تخصيص نفسه في قوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، مع أنه معصوم عن خطأ عبادتها كسائر الأنبياء والرسل، إنما وردت في سياقها (هضماً للنفس وإظهاراً للحاجة إلى فضل الله)^(٣) في كل مطلب له أثناء الليل وأطراف النهار. ويعلق سيد قطب في تفسيره على دعاء إبراهيم عليه السلام هذا: (أنه عليه السلام بدعائه أراد التسليم المطلق إلى ربه بالتجائه إليه في أخص مشاعر قلبه، لأجل أن يخرج من القلب ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده فلا معبود إلا الله).^(٤) وقد أجاب الله دعاءه في حق بعض ذريته دون البعض الآخر، ودليل ذلك: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ويرى بعض العلماء أن دعاء إبراهيم عليه السلام هذا خاص

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ١٠٤/٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ١٧٠/٥.

(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ١٠٢/٧.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب: ١٧١/٥.

بالمؤمنين من أحفاد ذريته، بدليل قوله: ﴿فَن تَبَعِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] وفي قوله ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، لم يكن طلبه في الآية الشفاعة للكافرين، وإنما طلبٌ للمغفرة والرحمة لكل من كان عاصياً دون الكفر والشرك، لأن من مات على الكفر لا شفاعة له. ^(١) كما يفيد مضمرة الدعاء التماسه من الله أن يؤخر قبضهم إليه وعدم تعجيل عذابهم حتى يؤمنوا طواعية، أو يصرف قلوبهم بالإلطف من الكفر إلى الهداية والتوبة إن كانوا من أهلها، لأجل هذا اتصف إبراهيم عليه السلام أنه حليم أو اه منيب متسامح عطوف.

٣- ويمضي إبراهيم في دعائه الثالث فيقول: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ويذكر فيه إسمكانه بعض أبناءه إسماعيل وأمه هاجر في هذا الوادي المقفر من ضروب الزروع وألوان الفلاحة، إذ لم يكن فيه يومئذ ماء وليس فيه من الخلائق أحد، فلا أنيس للنزيلين من أهل بيته إلا الله الغفور الرحيم القادر على كل شيء، فالتمس من ربه أن يدركهما بفضله وكرمه، وأن يكلاهما برعايته في آية من آياته فكانت ماء زمزم، ثم جعل الخلق تستوطن هذا الوادي بدءاً بقبيلة (جرهم) اليمانية التي تنتسب إلى العرب العاربة من أهل قحطان، ومن يومذاك أخذ الناس يتقاطرون إليها، خاصة بعد أن أخذ إبراهيم عليه السلام في زيارته الثانية برفع قواعد البيت وإسماعيل، لحمل الناس على الحج وأداء شعائر العبادات المفروضة. وكان من لطف الله وبركة هذا الدعاء، أن جلبت الخيرات إلى مكة مذ ذاك الزمان إلى يومنا هذا، ولم تزل وفرة الخيرات فيها إلى قيام الساعة بإذن الله. وبمناسبة قوله في الدعاء ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فإن (من) هنا تفيد التبعية، بمعنى أنه عليه السلام أسكن إسماعيل ولده الأكبر وهو من بعض ذريته في هذا المكان، واحتبس ولده الآخر إسحاق عليه السلام معه في أرض كنعان بفلسطين في بلدة حبرون (الخليل)، ينتظر أمر الله بشأنه، وهذا في غاية التضحية والفداء لأجل الله عز وجل.

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٠٣.

٤- ويتتابع دعاء إبراهيم عليه السلام في هذا المقطع حتى بلغ مطلبه الرابع في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا خَفَىٰ وَمَا نُعَلِّمُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾ [إبراهيم: ٣٨]. وحكمة هذا الدعاء ما تضمنه من أدب الإشارة، لقوله أنه ما أنزل بعض ذريته في هذا المكان، لهدف دنيوي يصيبه بل لإقامة شعائر العبادة على مراد الله من خلال وحي الله وإلهامه له بهذا العمل، رغم ما في ظاهره من قسوة الحنو على فراق ولده الأكبر، والله شهيد على طاعته وامتناله وأمره، العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ونظير ذلك في القرآن مكرور منها قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ ﴿١٩﴾ [غافر: ١٩].

٥- وفي الدعاء الخامس يتضرع إبراهيم عليه السلام بالحمد والشكر لله عز وجل الذي رزقه، بعد أن بلغ من الكبر عتياً واشتعل الرأس شيباً، بولديه إسماعيل من هاجر وإسحاق من سارة، إذ كانت عاقراً لعقود استطال العهد عليها، ومما تجدر ملاحظته من واقع حال بعض الناس أن هبة الذرية مع التقدم في السن بعد طول انتظار، أوقع في النفس، موجب لمضاعفة الحمد والشكر والدعاء للظفر برضى الله على نعمائه، التي لا منتهى لقيمتها في نفس صاحبها بعد أن أدركه اليأس عقوداً، مع العلم بأن لا يأس مع رحمة الله، فالصبر في مثل هذه المواقف أصدق الامتحانات لكشف معادن الناس، والركون إلى اليأس مع فقدان الأمل ليس من الإسلام في شيء. وقد شاءت حكمته تعالى أن يكون الرزق بالذرية، في وقته وستته ويومه وظروفه وأسبابه، على مراد الله مقدر بترتيب إلهي للحكمة، وبالمقابل قد يجعل من يشاء عقياً لحكمة ومقدرة عنده سبحانه وتعالى.

٦- ويتوقف عند دعائه السادس بالقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ ﴿٤٠﴾ [إبراهيم: ٤٠]، يفيد هذا الدعاء بالطلب إلى ربه الذي أكرمه بالرسالة أن يثبت قلبه وذريته على الإيمان بالله، وأن يخلع عليهم من ضروب الصبر على الطاعة والصبر عن المعاصي والصبر على المصائب ما يعينه على أداء الرسالة، ويعين المؤمن من ذريته على ديمومة الحفاظ على الشعائر بأوقاتها على مراد الله منها، بعد أن علم بإعلام

الله له أنه سيكون في ذريته المؤمن والكافر.

٧- واختتم دعاءه في هذا المقطع بقوله: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٤١) [إبراهيم: ٤١]، إذ أراد به الالتجاء إليه سبحانه وتعالى وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته، بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً يوم يقوم الحساب، وقصد إبراهيم عليه السلام من دعائه لأبيه حمله على الإسلام، فلما تبين خصومته وعداوته لدين الله تبرأ منه. (ويلاحظ في الدعاء حرصه على استمرار الخير في ذريته، وهذا خلق ينبغي أن يتحقق في كل مؤمن).^(١)

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة من آيات المقطع السادس

(١) يحسن بنا إتماماً للفائدة وتوافقاً مع قواعد منهجية التفسير الموضوعي التعريف بإبراهيم عليه السلام: إن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام هو أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، أثبت الله نبوته في آيات عديدة من سور القرآن الكريم، وكرمه تكريماً خاصاً، وشهد له بأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً، شاكراً لأنعمه بالحمد والولاء، يذكر اسمه في القرآن والسنة مقروناً بالكرم والدعاء والتضحية، وهو صاحب الفداء بالذبح العظيم، آتاه الله رشده في صغره مذ عقل، واختاره رسولاً واتخذه خليلاً^(٢)، وفضله على كثير من خلقه، متسامح حلیم أو اه منيب، جاء ربه بقلب سليم، وهو أول من أطلق على ملته المسلمين، وأمرنا الله تعالى باتباع ملته، وجعل في ذريته من نسل هاجر وسارة النبوة والكتاب والحكمة. ويعد حج البيت العتيق من أعظم آثار اتباع ملته، يتفق المؤرخون أن مولده كان في العراق في القرن التاسع عشر ق. م. منذ أربعة آلاف عام.^(٣) عاش في قوم اعتادوا عبادة الكواكب السيارة والنجوم كالشمس وعطارد والقمر والزهرة، ومنهم من توجه إلى عبادة الأصنام

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٥/ ٢٨١٤.

(٢) ورد في الحديث (يا أيها الناس، إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً) صحيح مسلم ٥٣٢/ ٢٣.

(٣) العرب واليهود في التاريخ: د. أحمد سوسة: ص ٧٤، ٤٨٠.

والتماثيل، فأحس بفطرته تفاهتها فأنكرها وأعلن براءته منها وحطمها، وتوجه صادقاً لفاطر السموات والأرض. وهنا بدأ صراعه مع أبيه وقومه، فما كان منهم بعد أن غلبهم في جداله ومناظراته حول آلهتهم المحطمة، أن طرحوه في النار ليقتلوه قصاصاً لفعلته. فأنجاه الله منها وكانت له برداً وسلاماً. وحتى لا يؤذيه بردها، قال تعالى: وسلاماً إذ لو لم يقل الله لها كوني سلاماً عليه لكانت برداً قاتلاً وهذا من لطيف التعبير القرآني، وكان من المفروض أن تنتقم آلهة القوم لنفسها ممن حطمها، ولكنهم حين أرادوا إحراقه لم تحرقه النار وخذلتهم آلهتهم. وتعطل قانون خاصية الإحراق. (وهنا تحجرت قوانين الكون وأصبحت عاجزة أمام قدرة الله وإرادته فكانت المعجزة).^(١)

وبعد تلك الواقعة قصد بلدة (حاران) مولياً ظهره لمسقط رأسه بصحبة زوجته سارة، وابن أخيه لوط. ومنها توجه إلى أرض كنعان (فلسطين) فمكث فيها مدة من الزمن، ثم انطلق بعدها إلى مصر وكل حركاته مقدره له من رب العالمين حسب حكمته ومشيئته، فما لبث أن غادرها عائداً إلى أرض كنعان مع أهله وجاريته هاجر، ونزل في بلدة (حبرون) وهي الخليل اليوم ولعل اسم المدينة مشتق من خليل الله.

ولم يمض وقت طويل حتى رزقه الله ولده الأول إسماعيل من جاريته المصرية هاجر، فأسكنه وأمه مكة وشيد معه البيت الحرام. وعهد الله عز وجل لها عليهما السلام أن يطهرا البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود.

ثم ولدت له زوجته سارة لاحقاً ابناً في شيخوخته أسماه إسحاق بعد أن بشرت الملائكة به حين زيارتهم له وإعلامه بمصير هلاك قوم لوط.

ومما يجدر ذكره أن اسم إبراهيم مكرور في القرآن تسعاً وستون مرة في خمس وعشرين

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم. الشيخ محمد متولي الشعراوي: ١٠/١.

سورة. (١) وكان ذكره في كل سورة يأتي مناسباً لسياقها العام وما يعرض منها يتفق وموضوع كل سورة، ومناسبة الآيات في السورة تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع، والمناسبة التي تساق القصة من أجلها هي التي تحدد مساق القصة والمشهد الذي تعرض له ومدته، ومعلوم أن كل قصة مجملة أم مفصلة أم قصيرة، جاءت تفي بالغرض الذي سيقت من أجله، وقد يذكر في القصة ما لا يرد في غيرها من الصور والمشاهد. كأن يذكر إنكار إبراهيم على أبيه وقومه عبادة الكواكب والأصنام في سورة، ويرد تحطيمه للأصنام ومحامته على أعين الناس في سورة أخرى، ومحاجته للملك الكافر المنكر لوحداية الله وربوبيته وألوهيته وتحديه له أن يأتي بالشمس من المغرب في سورة ثالثة، وطلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى في سورة رابعة، وحمده أن وهب الله له على الكبر إسماعيل وإسحاق وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة وذريته وأن يقبل دعاءه ويغفر لوالديه يوم يقوم الحساب في سورة خامسة. ونجاته ولوط إلى الأرض المباركة في سورة سادسة، والأمر باتباع ملة إبراهيم في سورة سابعة.

ويتضح لنا مما سبق اختصاص كل سورة بحدث معين. والنهج ذاته مكرورٌ في قصص الأنبياء والرسل كافة، مما يتطلب على من يأخذ بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم أن يربط بين مختلف الصور والمشاهد والأحداث المشتركة التي يقتضيها السياق الواحد.

وورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: التوسع في ذكر بعض تفاصيل ومشاهد قصته، وتعد سورة البقرة خير دليل على ذلك. إذ ذكر نبأه في الآيات ١٢٤-١٤١ و ٢٥٨ و ٢٦٠. كما ورد ذكره في آل عمران بشيء من التفصيل أيضاً في الآيات ٣٣ و ٦٥ و ٦٧-٦٨ و ٨٤ و ٩٥ و ٩٧.

الحالة الثانية: التوسط والإعتدال في بعض المشاهد واللقطات وهذا القول ينسحب على

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي: ص ٢-٣.

سور إبراهيم والشعراء والزخرف والحديد.

الحالة الثالثة: الاكتفاء بذكر اسمه بإشارات بسيطة ضمن بعض الأنبياء، وهي كثيرة منها على سبيل المثال: الأحزاب ووص والشورى والنجم. وفيما يلي مجمل السور التي ورد فيها ذكر إبراهيم عليه السلام حسب العدد: البقرة خمس عشرة مرة، وآل عمران سبع مرات، والنساء وهود والأنبياء أربع مرات لكل منها، والتوبة ومريم والحج والصفافات ثلاث مرات لكل منها، ويوسف والنحل والعنكبوت والممتحنة مرتان لكل منها. وورد ذكره عليه السلام مرة واحدة في السور التالية بعضها بإيجاز بسيط وبعضها بتفصيل: الشعراء وإبراهيم ووص والشورى والزخرف والذاريات والنجم والحديد والأحزاب والحجر والأعلى ^(١).

(٢) بيان أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء الأولين من غير دليل أو برهان. فالتقليد بغير عقل واقتناع هو شأن الكافرين، ﴿بَلْ نَسَبُ مَا آَلَفْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، فأهل الكفر والشرك - صم بكم عمي فهم لا يعقلون - صم عن سماع دعوة الحق، بكم عن إجابة رسل الله، عمي عن رؤية آيات الله الباهرة في الكون. ^(٢)

(٣) التأكيد أن لا مجاملة في العقيدة لأحد ولو كان من ذوي القربى. كما حصل لإبراهيم عليه السلام حين تبرأ من أبيه لشركه بالله، وما وقع لنوح عليه السلام مع ابنه وامرأته عند الطوفان، وما تحقق للوط عليه السلام مع امرأته من الشرك قبل الهلاك. فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله وليست قرابة النسب. ولقد بينت آيات القرآن عدم جواز الاستغفار للمشركين ولو كانوا من أولي القربى. فإبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه بناء على موعده وعداها إياه - فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه. وتعد رابطة العقيدة بين المؤمنين إحدى مقومات التربية في الإسلام

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص ٢-٣.

(٢) روح الدين الإسلامي، عفيف طباره: ص ٢٧١.

ولا تقوم صلة بين اثنين إلا على أساسها. (١)

(٤) التأكيد على مكانة البيت الحرام وقدسيته الذي جعله سبحانه وتعالى مثابة للناس وأمنأ، فهو أول بيت وضع للناس للعبادة، وتحققت فيه دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فأذن الله عز وجل لنوره أن يشرق على أرض جزيرة العرب من جديد. فاقتضت حكمته تعالى أن تكون مكة مهداً لرسالة الإسلام، فقد جعل فيها الكعبة المشرفة واختار محمداً ﷺ العربي رسولاً إلى الناس كافة. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولم تكن رسالة محددة يختص بها جيل من الناس شأن الرسالات السابقة، بل جاءت عامة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. والعرب هم أولاد إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام، توارثوا ملة أبيهم ومنهاجه في توحيد الله وعبادته، وفي تعظيمهم للبيت الحرام وتقديسه وخدمته، ومن الحكمة الإشارة هنا أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب عن سائر الناس في الرسالة، وفضل قريشاً عن سائر القبائل وفضل اللغة العربية على اللغات الأخرى.

(٥) لوحظ في آيات المقطع تكرار توظيف كلمتي (ربنا ورب) في الدعاء تادباً، ففيهما القول الفصل لمقصد توحيد الربوبية والألوهية والوحدانية المطلقة لله الواحد القهار، وفي تكرارها التأكيد على سحر فعلها في نقل الناس من الظلمات إلى النور. (٢)

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٢٢١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٧٤.

المعنى الإجمالي لآيات المقطع السابع

ويمتد من الآية ٤٢ إلى الآية ٥٢

(صورٌ من مشاهد يوم القيامة)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ یَوْمَ یَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فِیقولُ الَّذِینَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنَ الْجِوَارِ إِلَى أَجَلٍ قَرِیبٍ مُجِبٌ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّن ذَوَالِ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْکَنِ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَیُرْزَأُ لِلَّهِ الْوَالِدِ الْفَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِینَ یَوْمَئِذٍ مُّقْرَبِینَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّن فَطْرَانٍ وَتَعَثَّى وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِیَجْزَى اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ لِیُنذَرُوا بِهِ. وَلِیَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِیَذْکُرُوا أُولَ الْأَنْبِیِّ ﴿٥٢﴾ ﴾^(١)

بعد أن بين الله عز وجل في المقطع السادس دلائل التوحيد والتماس إبراهيم عليه السلام من ربه صونه عن الشرك بالله عز وجل، وأن يوفقه للأعمال الصالحة ويخصه بالرحمة والمغفرة يوم القيامة، انعطف الخطاب بعدها في المقطع الأخير إلى التأكيد أن الله عز وجل يمهل الكافر ولا

(١) قراءات: قرأ أبو عمرو في الآية ٤٢: (إنما يؤخرهم) بالنون وقرأ الباقون كما في المصحف. وقرأ الكسائي في الآية ٤٦: (لتزول) بفتح اللام الأولى وضم الأخيرة، وقرأ الباقون بكسر اللام الأولى وفتح اللام الأخيرة كما في المصحف. وحجة من قرأ هذه القراءة أنه جعل (إن) بمعنى (ما) وجعل اللام الأولى لام نفي، والتقدير هنا ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، ونظيره في القرآن (ما كان الله ليلدر المؤمنين) آل عمران/ ١٧٩، بهدف تصغير مكر الكافرين تحقيراً لهم وشهاتة في إهلاكهم. انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع، لأبي محمد مكِّي القيسي: ص ٢٧-٢٨.

يهمله. وللمخشري هنا تعليق لطيف على افتتاح هذا المقطع إذ يقول: (إن الله عز وجل يتعالى عن السهو والغفلة في عقابهم عما يعملون، ومراد الله من إرجائهم تحقيق الوعيد والتهديد، فهو الرقيب عليهم والحاسب على ظاهر وباطن أعمالهم، وفي هذا الاستفتاح تسرية للمظلوم وتهديد للظالم).^(١)

وتضي آيات المقطع لتبرز بعضاً من مشاهد يوم القيامة التي تحيط بالكافرين إذ يستجيبون لله في تسارع (مهطعين) شاخصة أبصارهم في استطالة التحديق إلى السماء بذهول وانكسار، كل في انتظار تسلّم صحيفة حياته الدنيا بشماله، ويرجون الله تعالى أن يردهم للحياة الدنيا في كرة ثانية ليتداركوا ما فرطوا في أمر الله، بسبب ما كانوا فيه من الغفلة واستيلاء الجهل والسفه على عقولهم، ويعملوا الصالحات بعد أن رأوا أهوال هذا اليوم وما أعده الله لهم فيه من العذاب، وشواهد تمنيههم هذا مكرور في آيات عديدة منها: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] فيجيب الله عز وجل على مطلبهم هذا توبيخاً وتحقيراً وتهكماً وتبكيئاً، ألم تقسموا غير مرة في الحياة الدنيا أن لا بعث ولا حساب وإن هي إلا حياتنا وما يهلكنا إلا الدهر، ألم تقولوا أن البعث والحشر ممتنع بالكلية، فهذا هو دليل زعمكم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَذُنًا لِّمَن يَخْلُقُ جَدِيدًا﴾ [السجدة: ١٠]، كما تبين الآيات ما أصاب الأمم السابقة من العذاب بسبب كفرهم بالله تعالى، وتكذيبهم رسله وإعراضهم عن دينه، وفي هذا تنبيه للعقلاء لأخذ العبرة من إرسال الله على تلك الأقوام ألواناً من العذاب التي أهلكتهم بها، ولم يبق منهم إلا آثار تشهد على ما حل بهم من العذاب الأليم وفي ذلك دليل على قدرة الله تعالى، فليعتبر الكافرون بما حدث لمن سبقهم ويتعظوا من عاقبتهم إذ بوأهم منازل تلك الأقوام يستقرون بها.

والمأمل لسور القرآن الكريم التي تناولت مشهد أهل النار يوم القيامة يمكنه رصد خمس دعوات لهم، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون: ﴿رَبَّنَا أَمَنَّائِنِينَ وَأَحْيَيْتَنَا أَتْلَتَيْنِ

(١) الكشاف، للزمخشري: ٥٤١/٢.

فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿ [غافر: ١١]، فيجيهم الله ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ [غافر: ١٢] ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فيجيهم الله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [السجدة: ١٤].

ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرَّسُلُ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فيجيهم الله تعالى: ﴿ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. فيقولون: ﴿ رَبَّنَا أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيجيهم الله تعالى: ﴿ أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

ويقولون: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فيجيهم الله تعالى: ﴿ أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها أبداً، فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْنَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المرسلات/ ٣٥-٣٦] ^(١).

وتتابع الآيات في اتساق هادف تفصيل الله عز وجل شيئاً من عظيم مكر الكفار الذين استفرغوا جهدهم في معاداة رسول الله، وهذا مكرور مع رسل الله كافة، حتى أن مكرهم لشدته ما تزول منه الجبال، ومع هذا فإنه عند الله أوهن من بيت العنكبوت في ضعفه، لأن الله محبط أعمالهم ومفسدها. والله سيجازيهم بمكر أعظم من مكرهم، ويراد بمكر الكافر هنا الشرك بالله ومناذرة رسل الله بالعداوة، والشك في رسالاتهم، بما في ذلك من خسة ونذالة واحتيال وخديعة وإفك في القول. أما مكر الله فهو تقدير وتدبير على مراد حكمة الله عز وجل

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٨٠-٣٨١.

ولله المثل الأعلى وشتان بين المكرين، فمكرهم معول هدم أما مكر الله فأداة بناءٍ لصرح عظيم لنقل الناس من الظلمات إلى النور، وقد ورد تخصيص الجبال لاستحالة زوالها، فالأولى بالقياس عليها استحالة طمس شريعة الله ورسالته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١]، والعاقبة للمتقين والله لا يخلف وعده بنصر أوليائه، فمن أساءته أنه عزيز ذو انتقام.

وبعد هذا الوصف لمكر الكفار ينتقل سياق الخطاب ثانياً إلى تصوير مشاهد أخرى من يوم القيامة، كتبدل الأرض إلى أخرى مغايرة لها، مبسوطة مستوية كالأديم لا تضاريس لها ولا يرى فيها اعوجاجاً، وتبدل السموات بتناثر مجراتها وتكوير شمسها، كمقدماتٍ وتوطئة لبروز الخلائق للحساب مؤمنهم وكافرهم في أرض المحشر. ولعل في حكمة تكرار مشاهد القيامة إبلاغ الإنذار والتهديد والوعيد للظالمين، بما توعدهم الله تعالى به.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة (برزوا) قد وردت بصيغة الماضي لتفيد الاستقبال على التأكيد في وقوع هذا المشهد.

كما تنقلت آيات المقطع في لقطاتها فأبرزت صوراً من مشاهد عذاب الكفار، ففي المشهد الأول يكون بعضهم مقروناً بالأصفاد إلى بعضهم البعض مع شياطينهم الذين أضلّوهم، وفي مشهد آخر يقرنون بالأصفاد والأغلال إذ تقرن أيديهم إلى أرجلهم مغلّين، وفي مشهد ثالث تدهن جلود الكفار بالقطران فتبدو للناظر ثياباً (سراويل) يلبسونها، لتضاعف من عذابهم بسبب شدة تفاعلها مع النار وأثرها الحارق على الجلد، مع كراهية رائحتها النتنة باحتراقها على الجسم، فتصبح مصدراً للقيح والصدید، منبع شراب أهل النار، وكلما احترقت أجسادهم وتفحمت أعادها الله إلى سيرتها الأولى ليقاسوا العذاب من جديد بديمومة في عذاب أبدي خالدٍ فيه، يجزي الله فيه كل نفس كافرة ما كسبت، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نُصَبَّتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦]، وصور العذاب هذه وغيرها مما أتى القرآن على ذكرها،

تختلف باختلاف درجات ومراتب أهل النار. وقد خصت الآية في هذا السياق الجلد بذكر الحرق دون سائر الأعضاء مع أن العذاب ممتد إلى الجسد كله، لأجل كشف إعجاز طبي يفيد حقيقة أن الجلد هو المسؤول عن حاسة اللمس والإحساس والألم إلى عموم الجسد وإلى النفس، وبهذا تتم المزاوجة بين عذاب الجسد وعذاب النفس من خلال الشعور بألم الجلد.

كما خص الله الوجه بالذكر في المقطع بقوله تعالى: ﴿ وَتَعْنَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، لأنه أعز موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه، وهو محط المشاعر والحواس^(١)، والإنسان بلا وجه إيباني مظلم قاتم أصم أبكم أعمى كالأنعام أو أضل، ليس له عقل يتعظ به ويتدبر، ومن كان ديدنه كذلك فالنار أولى به، وهذا ضرب من ضروب العذاب في النار ويعضد ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر: ٤٨]، واختتم المقطع الأخير بقوله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، تبين هذه الآية الكريمة وجوب الإيثار بأن القرآن الكريم كتاب الله تعالى حق لا شك فيه، أنزله على رسوله محمد ﷺ ككتاب هداية يدعو الناس إلى الإيثار وعمل الخير ليفوزوا برضوان الله تعالى، ومن سار على هديه أقر الله عينه وأراحه بنعيم دائم في الجنة جزاءً على صدق إيمانه. وفي هذا الخير كله دعوة للاشتغال بالنظر والتأمل والتذكير والموعظة، ليتحرر الإنسان من عبودية العباد إلى عبودية رب العالمين، ولا يحسن فهم هذا البلاغ القرآني إلا ذوو العقول الراجحة القادرة على التمييز بين الحق والباطل والظلمات والنور.

وبهذا الخطاب انعطف المقطع الأخير ليتحد في هدفه ومحوره مع المقطع الأول في الدعوة إلى الله وتوحيد الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله عز وجل. فهذان المقطعان يؤلفان مع بعضهما البعض وحدة متجانسة فيهما من وشائج الترابط ما يشد عضدهما بمقاطع السورة الأخرى فزادها حسناً وجمالاً، فأكدت هذه الخصوصية أن سورة إبراهيم بمقاطعها السبعة مجموعة واحدة في هدفها وغايتها وإن تعددت مقاطعها، وقد حفل هذان المقطعان بالعديد من

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٢٨١٩/٥.

الدروس والعظات لأهل مكة بما شمله من التذکر والإنذار والبلاغ، ليس من باب التكرار بل على سبيل التأكيد للوفاء بالغرض الذي سيق من أجله المقطعان.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأخير

١ - تحمل آيات المقطع تسرية للنبي ﷺ، لتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر، على ما يواجهه من صعاب في قومه، وفيه درس لشحذ همم الدعاة لتقوية عزمهم في الدعوة، مهما تعاضمت التحديات التي تواجههم، بهدف الاستماتة في الثبات على مبدأ الدعوة أياً كانت المغريات أو المعوقات.

٢ - أكدت آيات المقطعين الأول والسابع الأخير أن الرسول ﷺ شاهد على أمته في تبليغ الرسالة ونصح الأمة وأداء الأمانة، والناس جميعاً على قدم المساواة بين يدي دعوته، لهذا كان الجزاء أثراً من آثار صفة العدل الإلهي بين الخلائق يوم القيامة.

٣ - مع أن الخطاب في المقطع الأخير خاص بالرسول ﷺ وقومه، إلا أن الله عز وجل تشریفاً لمنزلة رسوله ومكانته عند ربه شاءت حكمة الله مخاطبة رسوله الكريم بمضمرة القول، بالتلميح دون التصريح بهمسات رقيقة دافئة المشاعر، تفيد معنى أن إمهاله للكافرين رغم مكرهم يجب ألا يُحمل بالظنون ولو كان عبر حديث النفس من بعض المسلمين، فهذا لا يليق بجلال الله وعظمته مع استبعاد الرسول ﷺ من هذا التوهم لكونه ممتنعاً عليه للعصمة، فهو أكمل الخلق في صفاته وخلقه وصبره وتضحيته، وظنون الغفلة والنسيان محال أن يتصف بها الله عز وجل ولما كان للكلمة في القرآن الكريم وزنها وقدسيتها، فإن أدب الخطاب هنا جاء للمسلمين كافة انطوى على دروس تربوية عظيمة يمكن إجمالها بالنقاط التالية:

أ- في هذا الخطاب تنبيه مبطن للمسلمين وتحذير لهم، من تسلل وساوس الشيطان إليهم بالظن السيئ بالله، أياً كانت النوازل والعوادي التي تعصف بهم جماعات وأفراداً.

ب- أن الدعوة إلى الله مرتبتها عظيمة ليس لأحدٍ بلوغها إلا بقوة العقيدة وما تتطلبه من

الصبر لحصول المقصود منها.

ج- أن الجهاد بالمال والنفس والكلمة من أصدق الامتحانات لنصرة العقيدة.

د - أن الله عز وجل قد يصيب بعض المسلمين مرارة الضعف والهزيمة تارة وبالغلبة والظفر تارة أخرى جولاتٍ لتدبيرٍ إلهي محض، لكشف معادن النفوس وصلابتها حسب درجات إيمانها، ليثاب كل حسب درجته ومنزلته.

هـ- تقرير أن الصبر في الدعوة والثبات عليها وقت الشدائد من مفاتيح النصر والظفر برضوان الله تعالى.

و- أن السبيل لمعرفة منازل المؤمنين لا تتأتى إلا بالبلاء والمحنة، فيظهر الله بها أهل الإيمان من غيرهم.

ز- التحريض على التروي والتحلي بالأناة احترازاً من العجلة في الحكم على ظواهر الأشياء التي عقباها الحسرة والندامة، لأجل ذلك خلق الله للإنسان أذنين ولساناً واحداً ليستمع أكثر مما يتكلم، ومن خالف فطرته هذه كان من أهل فضول الكلام بمرذولة وقوادحه وجب زجره تأديباً.

ح- التأكيد على أن العاقبة للمؤمنين وإن استطالت طريقها، بسبب فضلهم وعدم استوائهم مع غيرهم في نصرة الله.

ط- أن الحكمة من إمهال إهلاك الكافرين لأجل أن يتقرب المؤمنون إليه أكثر بالتضرع والدعاء للاعتصام بحبله.

ي- اقتضت حكمة الله عز وجل أن لا يصلح لعباده إلا الشدة والرخاء، فلو بسط لهم النصر على الدوام لطفغوا وتواكلوا وتجنّبوا الأخذ بالأسباب.

٤- إن وجه الارتباط بين هذا المقطع والمقطع الخامس الذي تقدمه واضحة المعالم والأهداف، فالمقطع الأخير تناول جانباً من الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ

غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ﴿ [إبراهيم: ٤٨]. أما المقطع الخامس فقد اشتمل بالكلية على جوانب متعددة من أوجه الإعجاز العلمي في القرآن، وفي هذا من العبرة والعظة دلالة على عظمة الله في الخلق، ما يحمل الإنسان على التأمل بما يراه وما لا يراه وبما خلق الله وما سيخلق وما يجري في الكون من تبدل وتغير وفق سنن ربانية، وفي هذا التشابه بين المقطعين دعوة لتوظيف العقل والفكر والحواس لإدراك حقيقة الكون وظواهره.

٥- إن ظاهر قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ طَبَّ وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] دالة على فناء الكون يوم القيامة، ودليل هذا الفناء مكرور في القرآن الكريم في السور التالية: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② ﴾ [التكوير: ١-٢]، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ④ ﴾ [الانفطار: ١-٤].

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② ﴾ [الزلزلة: ١-٢]، ﴿ وَسَتَلُونَاكَ مِنَ الْجِبَالِ فَغُورٌ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ①٥ ﴾ [طه: ١٥].

﴿ نَطَوَى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا بِئَانَا كِتَابًا فَعَلِيلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ [القمر: ١].

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ⑥ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ⑦ ﴾ [النازعات: ٦-٧].

ولقد أخبر الله تعالى أن بداية هذا الفناء سيحدث بعد النفخة الأولى وفيه تتعطل سنن الكون وقوانينه لقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورًا رِبَّكُمُ ① زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَوْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾ [الحج: ١-٢].

ثم يعقبا النفخة الثانية وهي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت، ويدل على حدوث هاتين النفختين قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ⑥ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ⑦ ﴾ [النازعات: ٦-٧]، فالنفخة

الأولى هي الراجعة والثانية هي الرادفة، حسب قول ابن عباس.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُورٍ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقد جاء تسمية الصور في القرآن بالناقور.

٦- التأكيد على وجوب الإيمان باليوم الآخر كركن من أركان العقيدة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فعقيدة الإيمان بالله تعالى لا تنفك عن الإيمان باليوم الآخر، فمقتضى الإيمان يوجب تصديق الله في كل ما أخبرنا به في وعده ووعيده.

وقد ورد في القرآن الكريم تسمية اليوم الآخر بنيف وعشرين اسماً منها: يوم البعث ويوم القيامة ويوم الدين ويوم الخروج ويوم الحشر ويوم الجمع ويوم الفصل ويوم الحسرة ويوم الوعيد ويوم الخلود والدار الآخرة ودار الخلد ودار القرار والواقعة والقارعة والحاقة والطامة والآفة والغاشية. ومع أن الإيمان باليوم الآخر من أركان العقيدة، إلا أن الإيمان به ضرورة أخلاقية تقتضيها مفاهيم العدل الإلهي ليشعر المؤمن بسعادة عدم استواء منزلته مع الكافر يوم القيامة.

٧- انتظم في القرآن الكريم والسنة النبوية طائفة من أوصاف الجنة والنار وأن في الجنة أنواعاً من النعيم المادي والروحاني، لا تحظر ببال أحد من الخلق مصداقاً للحديث الشريف: (قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)^(١)، وأن في النار أنواعاً رهيبية من العذاب المادي والروحاني، وأنها دركات ووديان بعضها أشد عذاباً من بعض،^(٢) وما سيق في المقطع الأخير من صور العذاب إلا اليسير منه.

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى يريدون أن يدلوا كلام الله، حديث رقم: ٦٩٤٤.

(٢) العقيدة الإسلامية، د. عبد الرحمن الميداني: ص ٦٦١.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بداية اليوم الآخر تكون بنفخة البعث إلى الحياة الجسدية بعد الموت، ثم بالحشر، فبعد البعث يتم حشر الخلائق لموقف الحساب لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٦﴾ [الزلزلة: ٦].

ثم الحساب والميزان للفصل بين الخلائق لإقامته العدل بينهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٥٦﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

ثم الصراط وهو طريق يسلكه الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمنون يجتازونه إلى جنة الخلد بسرعات تتفاوت على مقدار تفاوت الإيمان والأعمال الصالحة، أما غيرهم من المنافقين والكفار فيسقطون في نار جهنم، وقد أشار القرآن الكريم إلى الصراط في قوله: ﴿وَإِنْ مَنكُمُ إِلَّا وَاَرِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿٧١﴾ [مريم: ٧١]، وهي المرحلة الأخيرة وفيها الثواب والعقاب،^(١) ثم الجنة والنار.

٨ - بمناسبة قوله تعالى في الآية ٤٢ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ ما يفيد أن الكفار إذا دُعو للحساب امتثلوا لأمر الله مهرولين مسرعين مطأطي الرؤوس في ذل وانكسار، وشواهد ذلك مكرور في القرآن الكريم في أكثر من آية كقوله تعالى: ﴿خَشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ [القمر: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ [ق: ٤٢-٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيَبْهًا حَتَّىٰ يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٤﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلَّةٌ يَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٥﴾ [المعارج / ٤٢-٤٤].
وحكمة هذا الشاهد أن هؤلاء الكفار قد سجلوا على أنفسهم التقصير في حق الله وتمنوا لو كانوا على عقيدة التوحيد، منكرين على شياطينهم سبب ما هم عليه من العذاب. ولعل من عجيب

(١) المرجع السابق: ص ٦٥٩.

اللطف القرآنية في هذا السياق تشابه بعض الآيات في أرقامها مع اختلاف سورها.

٩- بمناسبة قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، لقد ورد في كلمة قطران أربع قراءات هي (قَطْرَانٍ) و(قَطْرَانٍ) و(قَطْرَانٍ) و(قَطْرَانٍ)^(١).

تحتل كلمة القطران معنى الزفت والقار وقد تحمل أيضاً ما يشتق من ضربٍ من الشجر يقال له الأهل، يستحلب منه قطرات ثم تطبخ على النار وتوضع بعد ذلك على الإبل وشتى أنواع البهائم المصابة بالجرب، فتحرق جلدها وتقضي على جربها، وهناك من رجح القطران في الآية ما يسكب على الكافر وهو في النار من النحاس المصهور.^(٢)

وبقراءة تأملية تحليلية في هذه الجزئية نرى أن منطق العقل يقتضي القول أن العذاب بالقطران واقع لا محالة، وهو لون من ضروب عذاب أهل النار حسب منزلة الكافر منها، ونرى أن قطران الآخرة مختلف ومغاير بالكلية عن قطران الدنيا، ولا يجمعها إلا الاسم فقط، مع اختلاف في الجوهر، تماماً كعسل الدنيا إذ لا يجتمع مع عسل الآخرة إلا في الاسم فقط، مع اختلاف في ماهيته وتكوينه وطعمه ولونه ورائحته وكثافته ولزوجته ونوع نحلته وأزهاره، والمثال ذاته ينسحب على الفارق بين ماء الدنيا وماء الجنة، فهذا مما استأثره الله بعلمه، وحكمة ضرب هذا الشاهد: هب أنك اجتمعت إلى إنسان هو لعسل الدنيا كاره، فكيف له بعسل الآخرة إن كان من أهل الجنة وهو له في الدنيا كاره ومنكر، فالجواب على هذا الافتراض يكون مما تقدم ذكره، إن عسل الآخرة وماء الآخرة ولبن الآخرة وكل ما ذكره القرآن من نعيم الجنة معروف لدينا بأسمائه، مغاير له في الطبيعة ولا يجمعه إلا الاسم فقط. ولعل سبب ربط المفسرين عذاب أهل النار بقطران الدنيا سببه القياس على شدة اشتعاله وكرهية رائحته وسرعة نفاذه في جوف الجلد، وعلى خلفية هذا القول نرى أن لا قياس في المقابلة والمشابهة بين قطران الآخرة وقطران

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٨٥/٩، والكشاف، للزمخشري: ٥٤٥/٢، والتفسير الكبير، للفخر الرازي: ١١٣/٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣٨٧/٩.

الدنيا، وهو من المتشابه الذي استأثره الله بعلمه، وهي من الأمور التي سكت عنها القرآن في تركيبها وشكلها ومضمونها ومحتواها للحكمة والاعتبار.

١٠- وحول قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، فإن الآية هنا تؤكد على وجوب القدح والتوبيخ الموجب للخلود في النار لإثارتهم الشبهات حول رسول الله ﷺ، فقد أثار الملأ من مشركي قريش لأجل الحفاظ على مكائدهم ورياستهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الاقتراءات حول رسالة الإسلام فأعرضوا عن القرآن كأن ألسنتهم فيها عجمة اللغة، باتوا معها لا يفقهون آيات نذير القرآن لهم، فأغلظوا القول للقرآن وللمرسالة وأثاروا حولها مردول الشبهات، وزعموا منكرات من القول وزوراً من الإفك، طائفة من الاقتراءات نزه الله سبحانه وتعالى رسوله عنها، ومن شبهاتهم التي أثاروها:

- أن القرآن شعر وأن النبي ﷺ شاعر ودليله: ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِشَايِعٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥].

- وقيل إنه ساحر ودليله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مَبِينٌ ﴾ [يونس: ٧٦].

- وقيل إفك افتراه أعانه عليه قوم آخرون، ودليله: ﴿ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ ﴾ [الأنبياء: ٥].

- وقيل كذاب، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ويكفي محمداً ﷺ أن يصفه الله عز وجل بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. وقد وصفته السيدة عائشة أم المؤمنين بقولها: (كان خلقه القرآن) ووصف رسول الله ﷺ نفسه فقال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)،^(١) ودليل افتراءهم هذا ﴿ وَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كٰذٰبٌ ﴾ [ص: ٤]،

(١) مسند أحمد، حديث رقم: ٨٥٩٥.

﴿ أَلَيْقَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ۝٢٥ ﴾ [القمر: ٢٥].

- وقيل: إنه مجنون، ودليل ذلك قولهم ﴿ وَيَقُولُونَ أَيَّنَا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ۝٣٦ ﴾

[الصفات: ٣٦].

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ ﴾ [الحجر: ٦].

- وقيل: إن الرسول ﷺ افتعل القرآن من تلقاء نفسه، وجمعه عن أساطير الأولين وكتبهم

ودليله: ﴿ إِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ۝١٣ ﴾ [المطففين: ١٣].

- وقيل: إن له تابعاً من الجن أو الشياطين أو الكهنة يستكتبهم، فأوقعوه أسيراً لهم،

ودليله ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾

[الفرقان: ٥].

- وقيل: إن بعض آهنتهم أصابته بسوء فأصبح يقول بما لا يعرف ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَبْنَاكَ

بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [هود: ٥٤].

- وقالوا في تهكم: ﴿ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ

إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ [الفرقان: ٧].

- وقالوا باستحالة نبوته كبشر، ودليله: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ ۝١٥٤ ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

- ومن صور إثارتهم للشبهات ضد رسول الله ﷺ الاستهزاء به وهو صابرٌ محتسبٌ،

ودليله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا الَّذِي بِعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ ﴾

[الفرقان: ٤١].

وكانت قريش تستهزئ بالنبى ﷺ وأصحابه، ودليله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا

مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بَصَحْكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ۝٣٠ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠]، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ

مِنَ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١١ ﴾ [الحجر: ١١].

- ومن صورته أيضاً: اتهامه ﷺ أنه مولع بالنساء وقالوا: ما نرى لهذا الرجل من هم إلا النساء والنكاح ولو كان نبياً حقاً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [الرعد: ٣٨].

- ومن أنماط السلوك القبيح التي أثارها كفار مكة ضد نبيهم ﷺ، أنهم لما سمعوا دعوته لهم بالتوحيد ونبد الأصنام عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية، فردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من غلبه الضحك، وهذا الشاهد مكرور مع رسل الله كافة.

وبقراءة تأملية: فإن الإنسان العادي قبل الفطن يرى أن تعدد واضطرابات هذه الشبهات دليل على بطلانها وعدم صحتها، كما أن بداهة العقل تؤكد أن الرسول ﷺ قامت كل الحجج على مصداقية رسالته، وما أوردناه آنفاً من بعض صور الافتراءات تشهد على صحة كفر القوم المستحق ليس للتوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد بل الخلود في نار جهنم، إضافة إلى ما أصابهم من العذاب الأدنى في الحياة الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ حَسَبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنسَ الْأَمْصِرُ ﴾ [المجادلة: ٨].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الافتراءات مكرورة في تاريخ الأنبياء والرسل، والرسول ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وإن كان حجم الافتراءات والشبهات التي أثارها كفار قريش هي الأكثر، ويعزى ذلك لاستحكام عوائد المكر والحقد والجهل وطباع الظلم والعدوان فيهم، وخبث طويتهم وفساد سريرتهم، لمحاكاتهم الآباء والأجداد في تقليد وثنتهم من غير إعمال للعقل والتفكير، فكانوا أشد الناس كفراً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التوبة: ٩٧]، لا يأنسون للهداية ولو كان صاحب الدعوة من ذوي القربى وسيرته فيهم الصادق الناصح الأمين الكيس الفطين الصبار الشكور الحليم الرشيد.

الخاتمة

إن قراءة تأملية تحليلية موضوعية لما بين يدي سورة إبراهيم عليه السلام، بعد هذا التطواف في مقاطعها السبعة، تؤكد تطابق جو السورة وانسجام مقاصدها مع محورها العام وسياقها الخاص. ويراد بالمحور العام هدف السورة وغايتها ومراد الله لها من التنزيل، لتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته ووحدانيته، إذ بينت السورة بالدلائل القاهرة والبراهين الساطعة أن لا معبود إلا الله. ويراد بالسياق الخاص ما يتفرع من المحور الرئيس من روافد ثانوية، تزيدها بهجة وجمالاً، فهذه بالكلية تمهد للمحور العام وتؤطر له وتؤسس بهدف تجسيد مراد الله من تنزيل السورة إلى واقع محسوس، توطئ له بتوطئات تدل على عظمة الخالق في خلقه وتدييره للكون، حتى يكون الناس على الصراط عبر حملهم على التفكير في مظاهر عظمتة سبحانه وتعالى وإفهامهم الدين بالعقل والقلب، وقد مر تقرير هذا مراراً في سياق كل مقطع، وفيما يلي مجمل للمحاور الثانوية التي اشتملت عليها سورة إبراهيم عليه السلام، التي برزت في عرض سياقها الخاص: محور الرسل والرسالات وموقفهم من أقوامهم وموقف أقوامهم منهم.

- أ - محور نعم الله تعالى على عباده وموقفهم منها.
- ب - محور مكانة القرآن الكريم وموقف أهل قريش منه.
- ج - محور نموذج إبراهيم عليه السلام في الدعوة.
- د - محور بيان الإعجاز العلمي فيما اشتملته السورة من الآيات الكونية.
- هـ - محور الهدف من ضرب الأمثال.
- ز - محور إبراز بعض مشاهد يوم القيامة للوعد والوعيد.

وقد تناولت هذه المحاور الثانوية بالمناقشة والتحليل وما شملته من الدروس والعبر والهدايات المستنبطة كل في مقطعه، وما يميز سورة إبراهيم عليه السلام عن غيرها من السور، تناولها للآيات من خلال عرض خاص في عشر صور متقابلة مع عقد المقارنة بينها، لإبراز وجه

العلاقة بينها وغايته وما تحتويه من حكم ولطائف من الترغيب والترهيب وقياس الشيء على نظيره أو أصداده للعبارة والانعاظ.

وفيما يلي إيجاز لهذه الصور المتقابلة التي عقدت الآيات لها بالمقارنة، وقد عولجت في مواطنها بالإيضاح والتعليق:

تناولت الصورة الأولى دور الرسل في إخراج أقوامهم من الظلمات إلى النور، ومقارنة ذلك بدور الشياطين في إخراج الناس من النور إلى الظلمات.

وفي الثانية: وقعت المقارنة بين نعمة الإيثار ونقمة الكفر.

وفي الثالثة: عقدت المقارنة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

وفي الرابعة: تناولت مقابلة فوائد الصبر ومقابلته بالجزع.

وفي الصورة الخامسة: عقدت المقارنة بين التوبة والإصرار على الكفر، وعدم جواز حمل الشفاعة والتوبة للمشرك.

وفي السادسة: توقفت الآيات بإبراز المناظرة بين الملائ من شياطين الإنس والجن مع أتباعهم، ثم خطاب إبليس فيهم وعتبه عليهم جميعاً، ومقارنة ذلك بنعيم أهل الجنة.

وفي الصورة السابعة: عاجلت الأمثال المضروبة المقارنة بين الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة.

أما الثامنة من هذه الصور: فقد قارنت بين مكر الكفار ومكر الله، بما في الأولى من خسة ونذالة وخداع، وما في الثانية من تقدير وتدبير.

وفي التاسعة: عقدت المقارنة بين الهداية والضلال.

وفي العاشرة: استحباب الحياة الآخرة على الدنيا عند المؤمنين، ومقابلتها باستحباب الدنيا على الآخرة عند الكافرين والمشركين والمنافقين، دون أن يعملوا لآخرتهم شيئاً وفي ذلك دروس

وعبر، وقد كان لحكمة هذه الصور في مقابلتها ومقارنتها جليل الفوائد، فقد أكدت بالكلية على حقيقة أن القرآن الكريم أجل خير ساقه الله للبشرية، وأن الله عز وجل أقام بالحجج دليل مشاهد على صدق ما جاء به الرسل، ومن نازع في ذلك كان أقرب الناس للجنون والطيش والسفه وتفاهة الرأي لملازمة وساوس الشيطان له، ولوقوعه تحت غريزة المحاكاة والتقليد لديانة الآباء الأولين من غير إعمال للعقل والفكر. كما وجهت الأنظار أن نبأ قصة إبراهيم عليه السلام واحدة من القصص التي حفل بها القرآن الكريم، أعلمها الله عز وجل لحاتمة رسله، وكان غير عالم بتفصيلاتها قبل أن تنزل وتحبره مضمون أحداثها، وهذا من أبناء غيب الماضي أوحى الله به إلى نبيه ﷺ ليوظفه في أمور دعوته.

كما لفتت صور التسخير والكلمة الطيبة ونعم الله الأنظار إلى الحكمة من تسخير الكون لهذا الإنسان ليفيد من نعم الله هذه في بناء صروح التقدم الحضاري، والمسلم هنا أولى من غيره في عمارة الأرض فيجب ألا يكتفي من الحضارة موقف المتأثر المتلقي المستهلك، بل المؤثر الفاعل القادر على الابتكار والتجديد والمساهم الفاعل في اكتشاف قوانين الكون وظواهره وثوراته، إذ لا يجوز للمسلمين ألبتة تحت راية القرآن أن يكونوا مغلوبين على أمرهم، وليس أدل على أمر الله للأمة الأخذ بأسباب العلم وقوانينه من اشتغال السورة على ألفاظ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ثلاث مرات ﴿ وَإِذْ ﴾ مرتان ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ ﴾ أربع مرات، وكلها ألفاظ دالة على إعمال العقل بالبحث والتنقيب والتمحيص والتطور في جوانب الحياة كافة، وجاء التخصيص لأولي الألباب إعلاءً لشأن من يقيم شرع الله في الاستخلاف على مراد الله وفيها تحريض على العلم النافع وجهاد في سبيل الله ونحو ذلك. ومع أن لفظ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يفيد التعجب والخطاب فيه للأمة، إلا أن العجب العجيب والعجيب العاجب أن الأمة بتخلفها وجودها وانقيادها لغيرها موقفها سلبي في البناء الحضاري، مع أن لهم في تاريخ حضارتهم ما يُقتدى به. فالله عز وجل لا يريد للأمة أن تنزل طائفة مختارة لغيرها من الأمم عن سلطان العلم وأسبابه.

وفي قراءة تأملية فلسفية يمكننا القول أن لفظ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تفيد الرؤيا البصرية والمنامية

والعلمية والتدبر والاتعاظ، فكيف إذا حمل معنى التسخير على تأويل المعاني كلها، ففي ذلك حث للأمة على كل خير ديني ودنيوي مادي ومعنوي لتستقيم حالها وتكون كما أرادها الله خير أمة أخرجت للناس.

ولا يفوتنا التنويه هنا أن بعد الأمة عن العلم النافع داخل في منزلة تبديل نعمة الله كفراً، وما سبب انقياد الأمة اليوم لغيرها ما كان ليتحقق إلا لأن النفس عند حبسها عن العلم مع اغتراب في الدين تعتقد على وهم منها أن القوة والذكاء وقف فيمن غلبها فتتقاد إليه على غير هدى وتسلم الراية له. ويا لقبح حال الأمة إذا مرت الأيام والسنون ولم يزل العلم ممتنعاً عنهم فإن كان كذلك لا سمح الله وهذا محال بإذن الله، استوجب الذم والتعزية فيها، لتقصيرها في متابعة كل ما هيا الله للأمة من أسباب الحياة على أكمل وجه ومنحهم كل ما سألوه وما لم يسألوه، والله قادر على أن يستبدلهم بقوم آخرين أطوع منهم لله في عبوديته والأخذ بأسباب ونواميس ما أودعه لهم في الكون من قوانين، فله في ذلك سنن وأسباب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقَوْمٌ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقد جاء حمل آيات التسخير الواردة في السورة على عموم أحوال التأويل، لصرف الأمة عن مذمومات المحاكاة والتقليد للغرب، وأخذهم بممدوح العلم وما يتطلبه من القضاء على جيوب الجهل، في كافة أحواله لما في ذلك من المصلحة والاعتبار، خدمة لرسالة الإسلام بما ينسجم وعظمة هذه الرسالة.

سورة الحجر

أولاً: بين يدي السورة

أ- اسم السورة:

تسمى هذه السورة سورة الحجر، وذلك لورود هذه اللفظة ضمن آياتها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠)، والحجر اسم واد بين المدينة المنورة والشام كانت تسكنه ثمود قوم صالح عليه السلام، وتسمية هذا المكان بهذا الاسم لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم من الجبال الحجرية لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ (٨٢)، أو لأنها كانت محاطة بالحجارة كحجر الكعبة^(١)، ولا مانع من الجمع بينهما.

ب- فضائل السورة:

لم يرد في فضل هذه السورة حديث خاص، وما ذكره بعض المفسرين في فضلها فهو جزء من حديث موضوع في فضائل السور^(٢).

ج- وقت نزول السورة:

هي سورة مكية، نزلت على الرسول ﷺ قبل الهجرة بالإجماع^(٣)، إلا أن بعض المفسرين^(٤) استثنى من ذلك الآيات الآتية:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ (٢٤)

(١) روح المعاني، الألويسي ٣١٩/٧.

(٢) ذكر البيضاوي وأبو السعود أحاديث في فضل السورة عن ابن عباس، انظر ما قاله السيوطي فيها الإلتقان، ص ١١٢٩.

(٣) غرائب القرآن و رغائب الفرقان، النيسابوري ١٦/١٢، الخازن ٤٧/٣، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٥٧.

(٤) روح المعاني، الألويسي ٧/ ٢٤٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠١.

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

٣- قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

وأما استثناء الآية الثانية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ فبناء على ما جاء عن الحسن من أن معنى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ هي الفاتحة وأنها مدنية، والأصح أنها مكية فلا وجه لما قالوه^(١).

وأما استثناء الآية الثالثة: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فبناء على تفسير المقتسمين بأهل الكتاب وأن المقصود بهم يهود المدينة، وهو باطل لما سيأتي من عدم تلاؤمه مع السياق^(٢) وبذلك يبقى الإجماع على أنها مكية بأكملها.

د- عدد آيات السورة:

عدد آياتها تسع وتسعون آية بلا خلاف في ذلك بين أنواع العد^(٣).

هـ- أسباب النزول:

هذه السورة من سور القرآن التي نزلت ابتداءً بمجملها دون أن يكون لنزولها سبب خاص. وقد ذكر بعض المفسرين^(٤) أسباباً لنزول بعض آياتها، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَخِيرِينَ ﴿٢٤﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَاقِبِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿٤٥﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴿٤٧﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿نَبِيَّةٌ عِبَادِي آتَىٰ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾، وسيأتي الحديث عن ذلك عند بيان معنى الآيات.

(١) البحر المحيط ٢/ ٢١٣.

(٢) انظر تفسير الآية (٩٠) من سورة الحجر.

(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠١، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢٤٩.

(٤) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ص ١٨١-١٨٣.

و- الناسخ والمنسوخ:

هذه السورة بجملتها محكمة لا منسوخ ولا ناسخ فيها، إلا أن بعض المفسرين قال بأنَّ فيها خمس آيات نسخن بآية السيف، وهنَّ:

١- قوله تعالى: ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴾ (٢)

٢- قوله تعالى: ﴿ فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَبِيلِ ﴾

٣- قوله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨)

٤- قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (٨٩)

٥- قوله تعالى: ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٤)

وسياتي الكلام على ذلك، وبيان أن جميع هذه الآيات محكمة غير منسوخة، عند بيان معاني الآيات.

ز- محور السورة:

محور سورة الحجر الرئيس هو: إبراز المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذبين. ويدور السياق حول هذا المحور بعدة أشكال، سواء في ذكر سنن الله في المكذبين، أو إبراز عظمة الله وقدرته في ما يشاهد من الكون، أو وصف مشاهد يوم القيامة، أو ذكر قصص السابقين وعاقبتهم كقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر، وما تخلل ذلك كله من تعقيبات والذي يرجع إلى المحور الرئيس ويدور حوله^(١).

(١) النكت والعيون، الماوردى ٣/ ١٤٧، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٥٨.

ح- المناسبات في السورة :

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

الصلة بين اسم السورة ومحورها هو أن اسم السورة يشير إلى ذكر أصحاب الحجر الذين كذبوا المرسلين بتكذيبهم لصالح ﷺ، وكيف كانت عاقبتهم، وهو نموذج يمثل محور السورة الذي يدور حول إبراز مصير الكافرين المخوف الذي ينتظرهم.

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

تحدثت بداية السورة ونهايتها عن كيفية التعامل مع الكافرين ففي بدايتها قال تعالى: ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيَلْتَمِئُوا إِلَيْهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وفي نهايتها جاء قوله سبحانه: ﴿ فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَمِيلِ ﴾ (٨٥).

كما اشتركت البداية والنهاية بالحديث عن القرآن الكريم ففي بدايتها تحدثت عن حفظ الله عز وجل للقرآن، وهو قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩)، وفي النهاية قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (٨٧) (١).

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

وجه الصلة بين افتتاحية سورة الحجر وخاتمة السورة التي قبلها- وهي سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام- هو: أنه سبحانه وتعالى لما قال في خاتمة سورة إبراهيم في وصف يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٤٨) وترى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) [إبراهيم: ٤٨-٥٠]، قال هنا: ﴿ زَيْمًا يُّودُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (٢) فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين قد أخرجوا من النار تمنوا لو كانوا في الدنيا من المسلمين (٢).

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦/ ٢٨٩٩.

(٢) أسرار ترتيب القرآن، ١/ ١١١، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٠٦.

كما أن طرفي السورتين تشابها إذ إن سورة إبراهيم اختتمت بوصف الكتاب بأنه كفاية للناس في العظة والعبرة والتذكير وهداية الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، نجد أن هذه السورة افتتحت بذكر القرآن وبوصفه أنه كتاب بين الهداية وظاها لمن تأمله، وذلك في قوله تعالى: ﴿ الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانِ مُبِينِ ۝١ ﴾ (١).

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

وجه المناسبة بين مضمون هذه السورة لسورة إبراهيم التي قبلها أن في كليهما وصف للسموات والأرض، وإيراد جزء من قصة إبراهيم عليه السلام، وبعض قصص السابقين، تسلياً للرسول ﷺ عما تعرض له من أذى قومه بتذكيره بها تعرض له الأنبياء من قبله (٢).

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة

المقطع الأول: ١-١٥: سنة الله عز وجل في إرسال الرسل

﴿ الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانِ مُبِينِ ۝١ رَبِّمَا يُوذُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ۝٣ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝٤ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ۝٥ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧ مَا نَزَّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَفَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ۝١٥ ﴾

﴿ الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانِ مُبِينِ ۝١ ﴾ تفتح السورة بهذه الحروف الهجائية

(١) المرجعين السابقين.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٣/٥، تفسير المراغي، المراغي ١٤/٣.

المقطعة، وهي إشارة إلى لغة القرآن وكلامه التي هي بمتناول الجميع والتي يتكون منها ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي القرآن المبين الواضح المميز بين الحق والباطل^(١)، وعلى الرغم من كونه بحروف وكلام عربي واضح إلا أن الناس عجزوا عن الإتيان بمثله.

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ ثم بين الله تعالى حال الكفار من قريش وغيرهم يوم القيامة بأنهم سيندمون على كفرهم ويتمنون لو كانوا مسلمين، وذلك إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار أو إذا ما رأوا الجهنميين يخرجون من النار إلى الجنة^(٢). كما جاء في ما روي عن الرسول ﷺ: «إن أناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وانتم معنا في النار؟! فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين» وفي رواية أخرى قريبة المعنى عن الرسول ﷺ «فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا»^(٣).

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿٣﴾﴾ ويخاطب الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يدعهم يأكلوا ويتمتعوا في الدنيا حالهم حال الأنعام، ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي يشغلهم أمالهم الكاذبة عن إتباع النبي ﷺ، وعن التوبة والإنابة، ﴿فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ وبال فعلهم ذلك في وقت لا ينفع فيه الندم^(٤)، وفي هذا تهديد لهم^(٥).

وقيل إن هذه الآية منسوخة^(٦)، وبالتحقيق نجد أنها تهديد ووعد كما مرّ، وذلك لا يتنافى

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٠٥، روح المعاني، الألوسي ٧ / ٢٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٣.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٠٥، روح المعاني، الألوسي ٧ / ٢٥٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٦٥.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٤.

قتالهم، فلا وجه للنسخ.

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ ﴾ بين الله سبحانه أنه لم يهلك أهل

قرية من القرى السابقة إلا بعد أن حان الأجل الذي كتب لهم أنهم سيبلغونه^(١).

﴿ مَا تَسْئَلُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَسْخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ دون تقديم لذلك الأجل أو

تأخير.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ أي قال المشركون للرسول ﷺ

الذي أنزل عليه الذكر- أي القرآن- على وجه الإنكار والاستهزاء، ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ في

دعواك النبوة والرسالة وإنزال القرآن عليك، وفي توهمك أننا ستبعك^(٢).

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ كَمَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ يعنون هلا جئت بالملائكة يشهدون

على صحة وصدق ما تدعيه.

﴿ مَا نُنزِّلُ الْمَلَكِ كَمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ هذا جواب من الله تعالى لما

يطلبونه من شهادة الملائكة بأنها لا تنزل إلا بالحق وهو الرسالة أو الموت وعذاب الاستئصال،

﴿ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ ولو نزلت الملائكة كما طلبوا أو أنزلناها نحن لما أمهلوا ولما أخوا.

لأنها لو نزلت حال التكذيب لما أتت إلا بالعذاب، وهو ما يستحقونه في تلك الحالة^(٣).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ يعقب الله أنه يريد لهم خيراً مما في أنفسهم

مما طلبوه من إنزال الملائكة التي تأتي بالعذاب بأنه أنزل لهم ما هو خير من ذلك وهو القرآن^(٤)

المحفوظ من التحريف والتبديل، وقد يكون المراد بقوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ أي الرسول

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٠٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٥.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ١٩٤.

يحفظه الله سبحانه من كيد المشركين وأذاهم^(١).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك الرسل في الأمم السابقة وفرقهم.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ بإخباره أن هذا هو حال الأمم السابقة مع أنبيائهم ومن أرسل إليهم، بأنهم كانوا يستهزئون بهم لأنهم يستبعدون ما دعوهم إليه ويستكبرونه، حتى توهموا أنه مما لا يكون ولا يصح، لمخالفته ما وجدوا عليه آباءهم^(٢).

﴿ كَذَلِكَ نَسَلُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ إشارة إلى إلقاء الوحي مقروناً بالاستهزاء في الأمم السابقة. ﴿ نَسَلُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ندخل الذكر في قلوب الكفار من أهل مكة بإلقائه فيها وتفهمهم إياها. مقروناً بالاستهزاء كحال الأمم السابقة^(٣)، وقيل: نسلك الشرك في قلوب الكافرين^(٤)، وهذا لا يتناسب مع قوله تعالى بعدها ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إذا لو كان الأمر كذلك وأنهم لا يؤمنون بالشرك لكانوا ممدوحين على فعلهم، ولكن الآية وردت على سبيل الذم لهم^(٥).

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ أي مضت طريقة الأمم المتقدمة في تكذيب المرسلين عند دعوتهم إياهم إلى الحق^(٦) أو قد علم ما فعل الله تعالى بمن كذب رسله من الهلاك

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٦، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٧٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٠٨.

(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٠٨، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٧٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٦.

(٥) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٠٩.

(٦) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٠٩.

والدمار، وكيف أنجى الأنبياء وأتباعهم.^(١)

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾^(١٤) هنا يذكر سبحانه ما تقدم من اقتراحهم إنزال الملائكة بأننا لو فعلنا ما هو أكثر من ذلك بأن فتحنا لهؤلاء المشركين باباً من أبواب السماء يصعدون فيه^(٢)، أو ينظرون إلى الملائكة وهي تصعد وتنزل من ذلك الباب.^(٣)

﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾^(١٥) أي لنفوا ذلك وما صدقوا به ولقالوا: سكرت وسدت وغطيت أبصارنا، بل سحرنا، فلا ننظر ببصرنا حقيقة وإنما سحرنا ساحر فيخيل إلينا ذلك، وهذا بيان لشدة كفرهم وعنادهم.

وعلاقة مضمون هذا المقطع بمحور السورة هي:

أن هذا المقطع يتضمن بيان سنة الله عز وجل التي لا تتخلف في إرسال الرسل والرسالات وإيمان الناس وتكذيبهم بها، ومحور هذه السورة يتحدث عن تلك الطائفة من الناس الذين كذبوا الرسل، ووجه صلة هذا المقطع بمحورها ظاهرة للعيان.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٤.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البضاوي ٢ / ٣٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٤.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٧٠، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٠٩.

المقطع الثاني: ١٦-٢٥: إقامة الحجّة على الكافرين

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَاتٍ لِّلنَّظِيرِينَ ۗ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَن لَّسْتُمْ لَهُم بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَنَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِمُعْذِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمُ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِفِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِن رَّبِّكَ هُوَ بِحِشْرِهِم مُّبِينٌ ۗ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

لما بين الله سبحانه في المقطع الأول سنته التي لا تتخلف في إرسال الرسل والرسالات والإيمان والتكذيب بها، وكيف كذب المشركون رسول الله ﷺ، ولما كانوا بهذا التكذيب يستحقون العقاب، كان لابد من إقامة الحجّة عليهم ببيان صدق الدعوة وما فيها، ومن أجل هذا جاء المقطع الثاني يعرض بعض آيات الله في الكون ودقّة نظامه، وأن كل شيء مرجعه إلى الله لعلهم يعودون عن تكذيبهم.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَاتٍ لِّلنَّظِيرِينَ ۗ ﴿١٦﴾ ﴾ أي منازل للشمس والقمر ﴿ وَرَازِبَاتٍ لِّلنَّظِيرِينَ ﴾ بالكواكب الثوابت والسيارة النيرة لمن نظر وتأمل ذلك^(١) من أجل التفكير والاستدلال بذلك على وجود الله عزّ وجلّ وقدرته.^(٢)

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ أي حفظنا السماء من دخول كل شيطان ملعون إليها.

﴿ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ والاستثناء هنا إما أن يكون منقطعاً بمعنى حفظناها من دخول الشياطين إليها ومن استراق السمع أي اختلاس المعلومة اليسيرة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٤.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٧٠.

منها فمن حاول منهم ذلك ردّ خائباً بشهاب ميين، وهي نار ممتدة ظاهرة لأهل الأرض - لشدة ضوئها - تحرق الشيطان أو تخبله أو تقتله فلا يتمكن من السماع أو إذا سمع لا يتمكن من إبلاغها لغيره^(١).

وقد يكون الاستثناء متصلاً والمعنى حفظنا السماء من كل شيء إلا من استراق الشياطين السمع منها فمن فعل أحرقتة الشهب أو خبلته. وبالقول الأول قال القرطبي^(٢) والرازي^(٣) وبالثاني قال الطبري^(٤) والبيضاوي^(٥).

بعد أن ذكر الله سبحانه السماء وما فيها من الأدلة اتبعه بذكر ما في الأرض من أدلة فقال عز وجل: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١١﴾ ﴾ أي بسطانها، وهي من نعم الله بأن جعلها مبسوطه ومهيأة لعيش الإنسان ﴿ وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ ﴾ أي جعلنا فيها جبلاً راسخاً تجعلها ثابتة غير مضطربة أثناء دورانها السريع^(٦). ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ أي أنبتنا في الأرض ما أنبتناه مقدرأ بقدر وحكمة، بحيث لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، فيطغي بعضه على بعض^(٧).

﴿ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لِمُرْزِقَيْنِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي وصيرنا في الأرض من أسباب الطعام والشراب الذي يعتاش ويتغذى به الإنسان^(٨). ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لِمُرْزِقَيْنِ ﴾ وكذلك هيأنا لكم فيها من العبيد والإماء والدواب والأنعام لمصلحتكم، ورزق هؤلاء ليس عليكم وإنما على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩ / ٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩ / ٥.

(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٣٤.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٣ / ٢٠.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٧٤.

(٦) الأساس في التفسير، سعيد الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦ / ٢٨٦٨.

(٧) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥١٢، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦ / ٢٨٦٨.

(٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٧٥.

الله سبحانه وتعالى، ولكم منهم المنفعة^(١).

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾^(٢) وليس من شيء ينبت من الأرض أو ينزل من السماء^(٣)، وغير ذلك^(٣)، ﴿ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ أي مالكوه أو مالكو مفاتيحه أو قادرون على إيجاده. ﴿ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ بحكمة وبحسب مصلحة العباد وحاجتهم أو بحد معلوم عندنا ومقدر، لا يزيد عنه ولا ينقص^(٤).

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾^(٥) أي أجرينا الرياح ملقحة- أي محملة- بالسحاب^(٥)، وليس أنها تحمل اللقاح من شجرة إلى أخرى لأن السياق لم يجر فيه ذكر للنبات^(٦)، ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أي أنزلنا من السحاب لأن كل ما على الإنسان فهو سماء، مطراً فجعلناه شرباً لكم ولأنعامكم وأرضكم تنتفعون به متى شئتم^(٧)، لا أنه أنزل من أجل سقياكم منه مرة واحدة كما لو كان التعبير به فسقيناكموه التي تدل على ذلك^(٨). ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ وما أنتم أيها الناس بحافظين له بل الله هو الذي يحفظه ثم يخرج من الأرض بقدر الحاجة فلا يستطيع أحد أن يحرز ما يحتاج إليه من الماء في موضع^(٩)، أو أن المعنى وما أنتم بخازني ما أنزلت من الماء فتمنعوه من أسقيه لأن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٤٥ / ٢.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٥١٣ / ٦.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٢ / ٥.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٢ / ٥، روح المعاني، الألوسي ٢٧٧ / ٧، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٢٨٦٨ / ٦.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٢٧ / ١٤.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ١٩٨ / ٦ في الهامش.

(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٢ / ٥.

(٨) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٤٠ / ١٩.

(٩) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٤٠ / ١٩، مجمع البيان، الطبرسي ٥١٣ / ٦.

ذلك بيدي وإليّ أسقيه من أشاء وأمنعه من أشاء^(١)، وكلا المعنيين صحيح.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ (٣٢) فيه تأكيد على أن إحياء الموتى وإماتة الأحياء كلها بيد الله ومشيئته^(٢)، وقدرته على ذلك^(٣)، ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ يرث الله الأرض ومن عليها بإماتتهم فلا يبقى سواه عز وجل^(٤).

وهذه الآية إخبار منه سبحانه عن علمه تمام علمه بهم أولهم وآخرهم^(٥)، فهو سبحانه يعلم المستقدمين منكم ولادة وموتاً والمستأخرين ولادة وموتاً^(٦)، وهو بيان لكمال علمه بعد بيان كمال قدرته^(٧).

وما قاله بعض المفسرين من إن المستقدمين هم من تقدم في الطاعات والمستأخرين هم المتخلفين عنها، أو من أنها نزلت بشأن صفوف الصلاة لا يتناسب مع السياق كما نرى^(٨)، إذ إن السياق يتحدث عن الإحياء والإماتة، والرواية بشأن الأخير ضعيفة بل منكرة كما تقدّم عن ابن كثير.

إلا أن تكون الآية تنبيهاً على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم فيدخل فيه القولان الأخيران فلا نخص حالة دون أخرى^(٩).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٠.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٧٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٦.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣١، مجمع البيان، الطبري ٦ / ٥١٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٦.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٧٣.

(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٧٣.

(٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٧٣.

(٩) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٤٢.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ يجمع المتقدم والمتأخر^(١)، أي يوم القيامة بعد أن أماتهم من أجل الحساب^(٢). ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فالحكمة تقتضي وجوب الحشر والنشر من أجل الحساب^(٣)، وهو العالم بما استحق كل واحد منهم^(٤).

وعلاقة هذا المقطع بمحور السورة هي:

أن هذا المقطع يعرض بعض آيات الله في السماء والأرض وما بينهما، وتقديره لذلك بحكمته، وأن كل شيء مرجعه إلى الله عز وجل.

وبما أن محور هذه السورة يتحدث عن مصير الكافرين المخوف، وما سيقع لهم من العذاب، وبما أن العذاب لا يكون إلا بعد إقامة الحجة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] جاء هذا المقطع ليقدم الحجة على الكافرين ببيان مظاهر قدرة الله عز وجل في الكون الدالة على وجوده والداعية إلى الإيمان به سبحانه وتعالى^(٥).

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٥.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥١٤.

(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٤٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٧٣.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥١٤.

(٥) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٠٩، الأساس في التفسير، سعيد حوى ٦ / ٢٨٧٤.

المقطع الثالث: ٢٦-٤٨: بيان أصل الغواية والهداية

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا بَلِيسَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَرْتِنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّكَ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

بعد أن أقام الله سبحانه الحجة على الكافرين جاء المقطع الثالث لبيان أصل الغواية التي لحقت بالكافرين فأدت إلى تكذيبهم ومصدرها إبليس، على الرغم من قيام الحجة عليهم ووضوح الأدلة أمام ناظرهم، وأصل الهداية وهي العبودية لله تعالى.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ فيه إخبار عن أصل خلق الإنسان، وأنه مخلوق ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ ﴾ وهو الطين اليابس الذي يسمع له عند النقر صلصلة أي صوتاً متردداً^(١). ﴿ مِنْ حَمَلٍ ﴾ طين متغير نحو السواد^(٢)، أي أن الصلصال من طين^(٣). ﴿ مَسْنُونٍ ﴾ أي

- (١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٣٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥١٦.
- (٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥١٦.
- (٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٦.

مصبوب على هيئة الإنسان كما تفرغ الجواهر في القوالب^(١). وقيل بمعنى أملس^(٢)، أو متغير^(٣)، ولا مانع من الجمع بينهما فإذا صُبَّ في القوالب تغيرت هيأته وأصبح أملسا.

﴿وَلَجَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ (٢٧) المقصود به إبليس ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل خلق الإنسان المبدوء بخلق آدم ﷺ. ﴿مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ من نار لها ريح حارة تقتل^(٤) وسميت ريحها بذلك لأنها تنفذ إلى مسام الجلد للطفها^(٥).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْتُورٍ﴾ (٢٨) المعنى واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة أي سأخلق بشراً، والمقصود آدم ﷺ، وسمي بذلك أي بشراً لأنه ظاهر الجلد لا يواريه صوف ولا شعر^(٦).

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩) بإتمام خلقته وإكمال خلقه^(٧)، على الصورة الإنسانية والبشرية^(٨). ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ أجريت فيه من روعي التي هي ما يحيا بها الإنسان^(٩)، وإضافة الروح إلى نفسه تعالى تكريماً للإنسان وتشريفاً^(١٠) وهي من باب إضافة الملك إلى المالك، كقوله (ناقة الله) (وبيتي)^(١١). ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي خروا ساجدين

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٣ / ٥

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٤٦ / ٢

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٣٧ / ١٤

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٣٩ / ١٤، مجمع البيان، الطبرسي ٥١٦ / ٦

(٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٤٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨ / ٥

(٦) مجمع البيان، الطبرسي ٥١٦ / ٦

(٧) مجمع البيان، الطبرسي ٥١٦ / ٦

(٨) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٤ / ٥

(٩) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٤ / ٥

(١٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ٥، مجمع البيان، الطبرسي ٥١٦ / ٦

(١١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ٥

له تحية وتكريماً لا سجود عباده^(١).

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ كلهم تنفيذاً للأمر الإلهي. ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تدل على اجتماعهم في السجود فلم يتأخر أحد^(٢).

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ استثناء متصل فإذا كان من جنس الملائكة فالانصال ظاهر، ومنقطع إذا لم يكن من جنسهم وكان فرداً مغموراً بينهم وكان داخلياً في الخطاب على وجه التغليب^(٣)، وعلى أي حال فلا شك أنه كان مأموراً بالسجود^(٤).

﴿ قَالَ يَبْنَئُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي ما منعك أن تكون من الساجدين، وهو تعالى يعلم سبب عدم سجوده لكن ليقيم الحجة عليه وليعلمنا بالسبب.

﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَافٍ مِمَّنْ حَمَلِ مَسْئُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ وهذا جواب إبليس، فعلى عدم السجود بأن آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون، فاقصر هنا على الإشارة الإجمالية إلى إدعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاءً بما صرح به حين قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]^(٥).

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي عاقبه الله بإخراجه من الجنة أو السماء أو زمرة الملائكة، مطرود من كل خير وكرامه^(٦).

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ وهذا الطرد والإبعاد سيمتد أمره إلى يوم

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٥ / ٥.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٥١٦ / ٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٥ / ٥.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٥ / ٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ / ٥.

(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٦ / ٥، روح المعاني، الألوسي ٢٩١ / ٧.

(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٣٧٨ / ٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٦ / ٥.

القيامة^(١)، وفيه إشعار بتأخير عقوبته إلى ذلك اليوم^(٢).

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾^(٣) أي أخر موتي إلى يوم القيامة، وذلك لثلاث يموت إذ يوم القيامة لا يموت فيه أحد^(٣).

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾^(٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ^(٣٨) فأخّره الله عز وجل إلى آخر أيام التكليف المنتهية بالنفخة الأولى حين يموت الخلائق، فيموت إبليس معهم ثم يبعث^(٤)، فلم يتحقق له ما أراده من النجاة من الموت كما دلّ عليه ظاهر الآية السابقة.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٣٩) يقول إبليس مقسماً بإغواء الله تعالى له^(٥)، أي بإضلاله له، فالباء فيها للقسم^(٦)، وقد تكون الباء سببيه، والمعنى بسبب ما أغويتني وأضللتنني^(٧). ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٧) لأحسننّ لهم معاصيك ولأحببناهم إليهم في الأرض^(٨). ﴿وَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٨) ولأضللنهم أجمعين^(٩)، عن طريق الهدى^(١٠).

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴾^(٤٠) استثنى من الغواية والإضلال عباد الله الذي

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٧٨.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٧٦، روح المعاني، الألوسي ٧ / ٢٩١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٠، مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٤٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ١٩، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥١٨.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٧٩.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبرسي ١٤ / ٤٢، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٧٩.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٧.

(٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبرسي ١٤ / ٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٧.

(٩) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبرسي ١٤ / ٤٢.

(١٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ١٩.

أخلصهم الله لطاعة، وطهرهم من الشوائب لأن كيد إبليس لا يعمل فيهم^(١).

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ أي حقُّ عليٍّ أن أراعيه لا انحراف عنه وهذا الحق هو ما تضمنه الاستثناء السابق من تخلص من إغواء الشيطان^(٢)، أو أن الإخلاص السالف الذكر هو طريق يؤدي إلى ثواب الله وإكرامه^(٣).

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ أي عباد الله الذين قدر لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم لإغوائهم^(٤). ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ الاستثناء إما أن يكون منقطعاً بمعنى أن إبليس ليس له على أحد من الناس سواء من المخلصين أو الغاوين من سلطان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ويكون منتهى تزيينه التحريض والتدليس^(٥).

أو أن يكون الاستثناء متصلًا بمعنى إن لإبليس سلطان على الغاوين فقط دون المخلصين واختار القول الأول غير واحد من المفسرين^(٦).

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي موعود إبليس ومن اتبعه جميعاً^(٧).

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ سبعة مداخل يدخلون منها بحسب

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/ ١٥٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٠، إرشاد

العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٩، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢٩٥.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٤٧.

أعمالهم^(١)، أو أن لها سبع أطباق واحدها فوق الآخر^(٢)، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي لكل مدخل من هذه المداخل أو الطبقات قسماً ونصيباً معلوماً من الغاوين^(٣).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ سبب نزول الآية هو ما أخرجه الثعلبي عن سلمان الفارسي أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فر ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى النبي ﷺ، فسأله فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ فبعد أن ذكر سبحانه عقاب الغاوين اتبعه بذكر ثواب المخلصين^(٤)، وأنهم في بساتين فيها عيون ماء وخر وعسل ولين^(٥).

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يقال لهم ذلك يوم القيامة أي ادخلوا الجنان بسلامة من العقاب^(٦)، ومن كل خوف وفزع^(٧)، ومن الآفات والمكاره والمضرات^(٨)، ومن الموت^(٩).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مَُّنْقَلَبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي أزلنا ما في قلوبهم من حقد على بعضهم كان في الدنيا^(١٠). وقيل إن سبب نزول هذه الآية هو ما أخرجه ابن أبي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٧.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٤، مجمع البيان، الطبري ٦ / ٥٢٠.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٦.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٤٨.

(٨) مجمع البيان، الطبري ٦ / ٥٢٠.

(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٤.

(١٠) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨٠.

حاتم عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ﴾ قيل: وأي غل؟ قال: غلّ الجاهلية، إن بني تيم، وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة (وهو مرض يصيب صاحبه بالوجع في خاصرته) فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

وهذه الرواية لها نظائر أخر منها: ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنها نزلت في أهل بدر، وأخرى أنها نزلت في أبي بكر وعمر، وأخرى أنها نزلت في علي وطلحة والزبير، وغير ذلك^(١). وفي كون هذه الأحداث سبباً لنزول الآية نظر إذ أن الآية تتحدث عن أمر يقع في الجنة وهو نزع الغل، كما أنها سورة مكّية نزلت قبل الهجرة أي قبل غزوة بدر، وقبل النزاع الذي حدث بين علي وطلحة والزبير الذي وقع بعد تمام نزول القرآن، ولا يكون السبب متأخراً عن المسبب أي الآية، ولو كانت تتحدث عن نزع الغل في الدنيا لكن أقرب الأقوال في سبب نزولها هو ما قيل إنها نزلت في أبي بكر وعمر وعلي ولكن ظاهر الآية لا يدل على ذلك.

وهذا ما يدل على أنها تنزيل أو تطبيق من الرواة أو المفسرين على هؤلاء المذكورين لا أنها أنزلت بسببهم^(٢).

﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ فيكونون بعد نزع الحقد كالأخوان المتوادين جالسين على سرر ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ ينظر بعضهم إلى وجوه بعض^(٣)، وهي أشرف الأحوال^(٤)، أي مقابلة الإنسان أخاه بوجهه لا بظهره.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لا يلحق بهم في الجنة مشقة ولا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٥٤٩، الدر المنثور، السيوطي ٤/١٠٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ١٢/١٧٦.

(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦/٥٢١.

(٤) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/١٥٣.

أذى ولا تعب^(١). ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ بيان لتنام النعمة بالخلود في الجنة بلا زوال وبقاء بلا فناء^(٢).

وعلاقة مضمون هذا المقطع بمحور السورة هي:

إن هذا المقطع جاء ليعرض قصة البشرية، وأصل هداية من اهتدى وغواية من غوى، في تركيبها وأسبابها، ومصير المهتدين والغاوين في النهاية المتمثلة بيوم القيامة. ولهذا علاقة بمحورها الذي يدور حول مصير قسم من الناس، وهم الكافرون المكذبون فجاء هذا المقطع ليوضح محور السورة ويبيّن سبب كفرهم وتكذيبهم، مكملًا له ببيان مصير المهتدين، وهذا من أساليب القرآن التي توازن بين الترغيب والترهيب.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/، مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/١٥٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩/١٥٣، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/٣٨٢.

المقطع الرابع: ٤٩-٨٤ مصارع الغابرين

﴿ نَبَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبَيْتُهُمْ
عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ
بِعَلِيِّ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا تَبْشُرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشْرَتِكَ بِالْحَقِّ فَلَا
تَكُنْ مِنَ الْقَنِيطِيبِ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْطُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ
أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَا لُوْطُ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ. فَدَرْنَا إِنَّهَا لِحَنِ الْعَنَابِ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ مَا لُوْطُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِنَّتَكَ يَمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾
فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْيَرَهُمْ وَلَا يَلْنِفْتَ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَآمِنُوا حَيْثُ تَوَمَّوْنَ ﴿٦٥﴾ وَفَضَّلْنَا
إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ
هَؤُلَاءِ صِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَسْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ
هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَالِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّاكَ إِنَّمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْهَمُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِفِينَ ﴿٧٣﴾
فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّمَا
لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْقَمْنَا
مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَأْمُرُ مُبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَايَيْنْتَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه مصير الكافرين والمتقين في المقطع السابق ذكر سبحانه وتعالى في هذا المقطع نماذج دنيوية على ذلك كله، فذكر ترغيباً: رحمته إبراهيم عليه السلام ببشارته بالولد، وتخليصه لوطاً عليه السلام وآله من العذاب، وليذكر في المقابل ترهيباً ما وقع للكافرين من العذاب كقوم لوط وشعيب وصالح، ليكون ذلك أبلغ في الترغيب والترهيب.

﴿ نَبَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

(٥٠) سبب نزول الآية هو ما أخرجه الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: مرّ رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون فقال: «أتضحكون وذكر الجنة والنار بين أيديكم؟!» فنزلت هذه الآية: ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ۝ ».

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: أطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه، فقال: «لا أراكم تضحكون»، ثم أدبر، ثم رجع القهقري، فقال: «إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله يقول لك: لم تقنط عبادي؟ ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ۝ ».

ومعناها أخبرهم يا محمد - ﷺ - أن الله كثير المغفرة والعفو والستر لذنوب المؤمنين، وكثير الرحمة لهم^(٢)، وأخبرهم عن شدة عذابي، وروى أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه»^(٣) أي أملكها. والمعنى لا تعولوا على محض غفراني ورحمتي، وخافوا عقابي^(٤).

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ ۝ ﴾ أي وأخبرهم يا محمد ﷺ عن ضيوف إبراهيم عليه الصلاة والسلام^(٥).

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا مِنكُمْ وَجَلُونَا ﴿٥٢﴾ ۝ ﴾ أي إذ جاءوا عليه فسلموا عليه سلاماً على وجه التحية، فبين لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام خوفه منهم، وقيل أن خوفه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٠، الدر المشور، السيوطي ٤ / ١٠٢.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢١.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٠.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٠.

عليه الصلاة والسلام لأنهم دخلوا عليه بغير إذن^(١)، أو لأنه أنكر منهم السلام فلم يكن يُعرف في بلادهم^(٢)، أو أنه قال ذلك بعدما قدّم إليهم العجل المشوي فلم يأكلوا منه^(٣)، والقول الأخير هو الأولى بالصواب لوجود الدليل عليه من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ فَتَأْرَأْ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠].

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾^(٤) أي لا تخف، ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ بيان وجه نهي الملائكة له عن الخوف؛ فإن المبرر لا يُخاف منه^(٥). ﴿ بِغُلَامٍ ﴾ أي ولد، وهو إسحاق عليه السلام، ﴿ عَلِيمٍ ﴾ أي يكون عليا إذا بلغ^(٦).

﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُمُنِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بَشِّرُونَ ﴾^(٧) وهذا تعجب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام من البشارة، التي تخبر بأنه سيولد له مع كبر سنه^(٨). ﴿ فِيمَا بَشِّرُونَ ﴾ أي فبأي شيء تبشرون فان البشارة تكون بما يتصور وقوعه عادة، فإذا كانت بغير ذلك كانت بشارة بغير شيء^(٩).

﴿ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴾^(١٠) أي بأمر واقع لا محالة ولا رجعة فيه^(١١)، ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴾ أي لا تكن من الآسين من ذلك^(١٢).

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨١.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨١.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٢، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨١.

(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٢.

(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨١.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٦، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٣.

(٩) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٣.

﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ جواب إبراهيم عليه الصلاة والسلام لهم على وجه الاستفهام والاستنكار^(١)، وكأنه يقول لهم إنه استبعد الولد لكبر سنه لا لأنه قانط من رحمة الله^(٢)، فذلك لا يكون إلا من المخطئين الذين لا يعرفون سعة رحمة الله^(٣).

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ أي فما الشأن الخطير والمهم الذي أرسلتم به سوى البشارة، وذلك لأن البشارة لا تحتاج إلى هذا العدد^(٤).

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ ﴿٥٨﴾ يعنون بذلك قوم لوط عليه السلام، ووصفهم بالإجرام ذماً لهم^(٥).

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٥٩﴾ فلم نرسل إليهم لأنهم ليسوا بمجرمين^(٦).

﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لخلصوهم من العذاب جميعاً.

﴿ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لَوْنَ الْعَرِيِّينَ ﴾ ﴿٦٠﴾ استثنيت من آل لوط، ﴿ قَدَرْنَا لَهَا لَوْنَ الْعَرِيِّينَ ﴾ أي قضينا أنها تهلك مع الهالكين^(٧).

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ أي وصلوا إلى داره.

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾ أي تنكركم نفسي وتنفر عنكم، مخافة أن تطرقوني

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٧.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٣.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٣.

(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨٢.

(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٣.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٧، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٤، مجمع

البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٤.

بشر^(١)، أو بمعنى إني لا أعرفكم^(٢).

﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾^(١٣) أي جئناك بالعذاب الذي كنت تتوعد به قومك، وكانوا يشكون فيه^(٣).

﴿ وَأَيُّنَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾^(١٤) أي وجئناك بالصدق واليقين من عذابهم ونحن صادقون فيما نقول^(٤).

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾^(١٥) هذا بيان لكيفية نجاتهم من العذاب بأن يسير بأهله ليلاً^(٥)، ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أمروا لوطاً عليه السلام بأن يكون خلفهم ليطلع على أحوالهم، ويحثهم على المسير^(٦)، فلا يتخلف أحد منهم فيكون أحفظ لهم^(٧)، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ ﴾ أي لا ينظر أحد منكم وراءه فيرى من الهول ما لا يطيق، فيصيبه ما أصابهم من العذاب^(٨)، ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ إلى المكان الذي أمركم الله بالانتقال إليه^(٩).

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾^(١٦) أي وأوحينا إليه الأمر بأن قومه سيتأصلون في وقت الصباح^(١٠).

- (١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٣.
- (٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٨.
- (٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٥.
- (٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٨.
- (٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٤.
- (٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
- (٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٥١، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٥.
- (٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥، مجمع البيان، الطبرسي ٦/ ٥٢٥.
- (٩) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥.
- (١٠) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢/ ٣٨٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٨٥.

﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٦٧) المدينة هي سدوم (في غور الأردن، ويقع فوقها اليوم البحر الميت) جاءوا مبشرين بعضهم بعضا فرحين، طامعين أن ينالوا الفجور منهم^(١)، لما علموا من صباحة وحسن وجوههم^(٢).

﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (٦٨) أي قال لهم لوط ~~الطاهر~~ إن هؤلاء ضيافي فلا تفضحوني بفضيحة ضيفي فإن من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه^(٣)، والفضيحة هي إلزام العار والشنار بالإنسان^(٤).

﴿ وَأَنْتُمْ أَلَّهِ وَلَا تَخْزُونِ ﴾ (٦٩) ذكرهم بتقوى الله بعدم ارتكاب الفاحشة^(٥)، ﴿ وَلَا تَخْزُونِ ﴾ وتلحقون بي الخزي بسببهم^(٦)، بالإنقاع بالعيب الذي يُستحى منه^(٧).

﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٠) أي ألم ننهك أن تجير أحداً من الناس، وتحول بيننا وبينه، فقد كانوا يتعرضون لكل من مرَّ بهم، وكان لوط يمنعهم بقدر استطاعته، أو بمعنى ألم ننهك ومنعك من ضيافة الناس^(٨).

﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٧١) إشارة إلى نساء قومه فهو بمنزلة الوالد لهن^(٩)

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥١.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٥.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٦.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٥.

(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٥.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٢٨، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٦.

(٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٥، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٦، إرشاد العقل

السليم، أبو السعود ٥ / ٨٥.

(٩) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٦.

أو إلى بناته من صلبه^(١)، وهنَّ داخلات في القول الأول، وذلك ليدلهم على الطريق المباح بتزوجهن^(٢).

﴿ لَعَنَّاكَ إِنَّمَمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ بِعَمَهُونَ ﴾^(٧٢) يقسم الله سبحانه بحياة النبي ﷺ - تشریفاً له - أي وحياتك يا محمد، ومدة بقائك حياً^(٣)، ﴿ إِنَّمَمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي في ضلالهم وغيهم، ﴿ بِعَمَهُونَ ﴾ يتحIRON، فكيف يسمعون نصحك^(٤).

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾^(٧٣) هذا إخبار عن كيفية هلاك قوم لوط بأنهم أخذتهم الصيحة؛ وهي الصوت العالي الهائل حال شرق الشمس^(٥).

﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾^(٧٤) أي قلبت مدينتهم بمن فيها رأساً على عقب، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي أنزلنا عليهم من أجل تعذيبهم، ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي من الطين المتحجر^(٦).

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾^(٧٥) أي إن في سماع تلك القصة، وما حلَّ بقوم لوط ﷺ من العذاب عبرة وعظة للمتفكرين المتفرسين الذين يمعنون النظر في الأمر حتى يعرفوا حقيقته^(٧).

﴿ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾^(٧٦) أي وإنَّ المدينة تقع على طريق ثابت يسلكه الناس فيرون آثار

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٥٢٦/٦.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨٦/٥.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبرسي ١٤ /، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٦.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨٦ / ٥.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٦، مجمع البيان، الطبرسي ٥٢٧/٦، روح المعاني، الألويسي ٣١٧ / ٧.

(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨٦ / ٥.

(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨٦ / ٥.

ذلك^(١). والتي تحولت إلى بحيرة مالحة تعرف اليوم باسم البحر الميت.

﴿ إِنَّا فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٧٧) أي دلالة واضحة لمن كان يؤمن بالله ورُسُلِهِ، وخصَّ

المؤمنين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بها^(٢).

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴾^(٧٨) يخبر سبحانه وتعالى أن أصحاب الأيكة وهم

قوم شعيب^(٣) - والأيكة الشجر الكثيف الملتف المجتمع^(٤) - يخبر أنهم كانوا ظالمين، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان^(٥).

﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُم وَإِنَّهُمَا لِيَأْمَارِ مُبِينٍ ﴾^(٧٩) أي فعاقبناهم على أفعالهم بتعذيبهم وإهلاكهم

في يوم الظلَّة؛ وهو أن الله سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام ثم بعث سحابة - فالتجئوا إليها يطلبون الرُّوح والبرودة فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم^(٦). ﴿ وَإِنَّهُمَا لِيَأْمَارِ مُبِينٍ ﴾ أي وإنَّ سدوم - قرية لوط^(٧) - والأيكة قرية شعيب^(٨)، أو الأيكة ومدین - وهما القريتان اللتان بعث إليهما شعيب^(٩)، لبطريق واضح ظاهر يؤم ويسلك ويتبع^(١٠). (وهي تقع اليوم في الأردن إلى الجنوب من عمان العاصمة، وتبعد عنها ١٤٠ كيلو متر، وإلى الجنوب الشرقي من سدوم البحر الميت اليوم، ويبعد عنه ٥٠ كيلو متراً).

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٨٠) ويخبر سبحانه عن تكذيب أصحاب الحجر

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٦، مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٨.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٣٨٦، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٦.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبرسي ١٤ / ٥٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٢.

(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨٧.

(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨٧.

(٨) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٨.

وهم ثمود قوم صالح له عليه السلام، ومن كذب نبياً واحداً فكأنها كذب الجميع^(١)، والحجر وإد بين المدينة والشام، كما مرَّ في مقدمة السورة.

﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٨١) وقد كان الله آتاهم الحجج والبراهين والأدلة على صدق الأنبياء والرسل^(٢)، ومنها الناقة التي أخرجها الله سبحانه لهم من الصخرة الصماء بدعاء صالح عليه السلام، فأعرضوا عن التفكير فيها والاستدلال بها^(٤)، وعن العمل بما تقتضيه^(٥) من الإيثار.

﴿ وَكَانُوا يَتَحَوَّنَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْتًا ءَامِنِينَ ﴾ (٨٢) أي يصنعون لأنفسهم بيوتاً من الجبال الصخرية بنحتها لشدة قوتهم، آمنين من أن تسقط عليهم^(٦).

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴾ (٨٣) أي فأهلكوا بالصيحة في أوّل الصباح^(٧).

﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٤) فما دفع عنهم العذاب ما كانوا يتخذونه من البيوت الوثيقة المحكمة، والأموال الوفيرة والأعداد المتكاثرة^(٨)، ولا ما أعطوه من القوة^(٩).

وعلاقة هذا المقطع بمحور السورة هي:-

أن هذا المقطع يتضمن الحديث عن مصارع بعض الغابرين الكافرين المكذبين، وهم قوم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٢، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٧.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٣.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٩.

(٥) روح المعاني، الألوسي ٧ / ٣١٩.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبرسي ١٤ / ٤٠.

(٧) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٢٦.

(٨) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨٨.

(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٤٠.

لوط عليه السلام، وقوم شعيب عليه السلام (أصحاب الأيكة)، وقوم صالح عليه السلام (أصحاب الحجر)، وبين رحمة الله سبحانه وتعالى لإبراهيم ولوط عليهما السلام.

ولما كان المحور يدور حول بيان مصير الكافرين، فقد اتصل به هذا المقطع بيانه لنماذج دنيوية لما حلَّ بالكافرين من العذاب، كما جاء فيه نماذج دنيوية لمن غشيهم الله برحمته كإبراهيم عليه السلام ولوط عليه السلام وآله، مبيناً في ذلك أسلوب القرآن في الموازنة بين الخوف والرجاء.

المقطع الخامس: ٨٥-٩٩

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيَّةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهِنَّ أجمعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

يأتي المقطع الخامس لبيان أن ما سبق من إرسال الرسل وإقامة الحجج، وبيان مصير الكافرين والمتقين، وعرض نماذج على ذلك هو ما يقتضيه الحق الذي من أجله خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض، وليوجه الخطاب لرسوله الكريم بالمضي بأمر الدعوة، وبيان ما ينتظر الناس وأن لا يلتفت إلى ما يقوله المكذبون، فهذا هو ديدنهم كلما جاءهم رسول يبين لهم طريق الحق والنجاة.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيَّةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ

الْحَمِيلِ ﴿٨٥﴾ أي ما خلقناها عبثاً بل بما تقتضيه الحكمة، وهي تعبد أهلها ثم مجازاتهم بما عملوا^(١)، ومما تقتضيه الحكمة عدم استمرار الفساد ودوام الشر، ولذلك أهلك أمثال هؤلاء^(٢). ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ﴾ لكائنة وواقعة لا محالة، ولا شك في ذلك. ﴿فَأَصْفَحْ أَلَصَّفَحَ الْحَمِيلِ﴾ وهنا يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ﷺ ويأمره بالإعراض عنهم إعراضاً جميلاً لما فيه من الحلم بالإغضاء^(٣)، أو الخلو من العتاب^(٤).

وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف، وهي: ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، وقد ذكر القرطبي القول بأنها ليست منسوخة، وأنه أمر بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم^(٥)، وقال الزمخشري: يجوز أن يراد به المخالفة، فلا يكون منسوخاً^(٦)، فالمقصود إظهار الخلق الحسن بالعمو والصفح، وهي أمور لا تنسخ^(٧).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ أي إن الله سبحانه الذي خلقك وخلقهم وخلق الأشياء كلها عالم بحالك وحالم، فاترك الأمر له ليحكم بينكم^(٨).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ أي ولقد أعطيناك يا محمد ﴿سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ سبع آيات هي سورة الفاتحة أو سبع سور وهي الطوال ﴿الْمَثَانِي﴾ مأخوذ من التثنية أي الذي يكرر قراءته في الصلاة، أو من الثناء أي التي يُثنى فيها على الله سبحانه بما

(١) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٣٠.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٧.

(٣) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٦٤.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٣٠، لروح المعاني، الألوسي ٧ / ٣٢٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٤٠.

(٦) الكشاف، الزمخشري ٢ / ٣٩٧.

(٧) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٦٤، روح المعاني، الألوسي ٧ / ٣٢٠.

(٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨٨، روح

المعاني، الألوسي ٧ / ٣٢١.

هو أهله^(١)، ﴿وَالْقُرَّاتِ الْعَظِيمِ﴾ أي ولقد آتيناك القرآن العظيم، وقد وصف بالعظيم لأنه يتضمن جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين بأوجز لفظ وأحسن نظم وأتم معنى^(٢)، وعطف القرآن العظيم على السبع المثاني مع أنها جزء من القرآن من باب عطف الكل على البعض أو العام على الخاص^(٣)، وفي ذلك دلالة على امتياز هذا البعض أو الخاص على الكل أو العام كأنه غيره^(٤)، تنويهاً بشرفه وفضله^(٥).

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨٨) يأمر الله سبحانه نبيه بأن لا ينظر نظر الطموح والراغب^(٦)، إلى ما أنعم به على أصناف الكفار من زينة الدنيا وزخرفها، ولا تغبطهم عليها^(٧)، فلقد أنعم عليه بما هو أفضل من ذلك كالنبوة والقرآن والإسلام^(٨). ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا بك^(٩). ﴿وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ألن جانبك لهم^(١٠)، وتواضع لهم وأرفق بهم^(١١).

وقيل إن الآية منسوخة، وقد ردَّ ابن الجوزي القول بنسخها، لأن المعنى: لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا، وقيل: لا تحزن بما أنعمت عليهم في الدنيا، ولا وجه للنسخ^(١٢).

- (١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨٨.
- (٢) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٣١.
- (٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٨.
- (٤) روح المعاني، الألويسي ٧ / ٣٢٢.
- (٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٦٥.
- (٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٨.
- (٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٨٩.
- (٨) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٣١.
- (٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٣، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٨.
- (١٠) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٣.
- (١١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٣٨.
- (١٢) نواسخ القرآن، ابن الجوزي، ص ١٨٤.

﴿ وَقُلْ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٨١) أمر الله سبحانه ونبيه ﷺ أن يقول للناس بأنه النذير الواضح الإنذار للناس من عذاب أليم يحل بهم^(١)، إن هم أصروا على التكذيب.

قال ابن الجوزي: زعم بعضهم أن معناها نسخ بآية السيف لأن المعنى عنده اقتصر على الإنذار، وهذا خيال فاسد لأنه ليس في الآية ما يتضمن هذا، ثم هي خبر فلا وجه للنسخ^(٢).

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ اختلف المفسرون في معنى هاتين الآيتين، والذي أراه أن معناها: قل يا محمد أنذركم عذاباً كما أنزلنا على المقتسمين الذين اقتسموا طريق مكة ليصدوا عن السماع لرسول الله ﷺ والإيمان به، وكانوا ستة عشر رجلاً^(٣)، فأنزل الله عز وجل بهم عذاباً فأتوا شراً مية. ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ (٩١) صفة للمقتسمين، وهي أنهم جعلوا القرآن أجزاء؛ فقالوا عنه: إنه سحر، وبعضهم قال: إنه أساطير الأولين، وبعضهم قال: إنه مُفترى.

وهذه الآية تجعل القول بأن المقتسمين هم أهل الكتاب لأنهم قَسَمُوا كتبهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ بُدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾، أو أنهم قوم صالح لأنهم تقاسموا على قتله ﷺ لما جاء في قوله تعالى إخباراً عن قوم صالح: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ لا يتناسب مع السياق إذ أن أهل الكتاب فرقوا كتبهم ولم يفرقوا القرآن، كما أن السورة مكية نازلة في أوائل البعثة ولم يتلى الإسلام يومئذ باليهود والنصارى ذلك الابتلاء^(٤)، حتى يجري ذكرهم هنا، وأما قوم صالح ﷺ فلم يتعرضوا للقران أصلاً بعينه.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعِينَ ﴾ (٩٢) يقسم الله سبحانه برَبِّ محمد ﷺ - تشريفا له - أنه سيسأل جميع أصناف الكفرة سؤال توبيخ وتقريع، ويدخل فيه دخولاً أولياً المقتسمين الذين

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٤.

(٢) نواسخ القرآن، ابن الجوزي، ص ١٨٤.

(٣) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٣١.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ١٢ / ١٩٣.

جعلوا القرآن عظيمين^(١)، وذلك يوم القيامة.

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٣) عن أعمالهم التي كانوا يقومون بها في الدنيا من الكفر والمعاصي وتكذيب الرسل.

﴿فَأَصْدَعُ يَا تُومُرُوعُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٤) يخاطب الله سبحانه نبيه ﷺ أمراً إياه بإبلاغ ما بعث به^(٢)، جاهراً ومُفَرَّغاً به بين الحق والباطل^(٣). ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدُّوك عن التبليغ، ولا تهتم باستهزائهم ولا تبالي بقولهم^(٤).

وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية السيف، والراجح أنها غير منسوخة لأن معنى الإعراض هنا ترك المبالاة^(٥)، وليس ترك قتالهم.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(١٥) سبب نزول الآية ما أخرجه البزار والطبراني عن أنس بن مالك قال: مرَّ النبي ﷺ على أناس بمكة، فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل. فغمز جبريل بإصبعه فوق وقع مثل الظفر (أو الظفر) في أجسادهم، فصارت قروحاً حتى انتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(١٥)^(٦).

ومعناها أن الله سبحانه بعد أن أمر نبيه بالإعراض عنهم بين له أنه سيكفيه المستهزئين منهم بتوالي أمرهم وبمنعهم عن أذاه، وذلك بقمعهم وإهلاكهم، لكي يستطيع الرسول ﷺ الجهر بالدعوة كما أمر دون خوف من شرهم وأذاهم.

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٦٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٩٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٦.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٨٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٩٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٤٦.

(٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٧١.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٦، الدر المنثور، السيوطي ٤ / ١٠٨.

والمستهزئون هم نفر من قريش اختلف المفسرون في عددهم وأسمائهم وكيفية استهزائهم، ولا حاجة لنا إلى شيء منها، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع رسول الله ﷺ في علو قدره وعظم منصبه^(١).

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾^(١٦) وهذه صفة أخرى لهم غير الاستهزاء بالرسول وهي الشرك بالله، وذكر هذه الصفة لهم تسليية للرسول ﷺ وتهوينا للخطب عليه بإعلامه أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به بل إنهم اجترءوا على الإشراف بالله^(٢). ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة^(٣)، وهذا تهديد ووعيد لهم^(٤).

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾^(١٧) وإنا لنعلم يا محمد أنه يحصل لك ضيق صدر وانقباض من أقوالهم^(٥)، كالشرك والطعن في القرآن والاستهزاء^(٦).

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾^(١٨) فافزع إلى الله فيما يحصل لك من ضيق الصدر بالتسبيح والتحميد فإن الله سبحانه يكفيك ويكشف عنك الغم^(٧)، وقد يكون المراد بذلك الصلاة فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس، وهو ما يناسب نهاية الآية من قوله: ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾^(٨).

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(٩).

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١٩ / ١٧١.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٩٢.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٢١.

(٤) مجمع البيان، الطبرسي ٦ / ٥٣٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٦.

(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٩٠.

(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٢١.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥ / ٤٧.

(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٥٥٧.

وقد يكون المعنى إذا سمعت ما يقولون من الشرك فنزّه الله عما يقولون حامداً له على هدايتك للحق^(١)، وكلها معان متقاربة.

﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقًّا يَا أَيُّكَ الْبَاقِيَاتُ ﴾ (٩١) أي استمر ودم على ما أنت عليه من العبادة حال حياتك^(٢) إلى أن يأتيك الموت الذي أنت موقن به^(٣).

وعلاقة هذا المقطع بمحور السورة هي:

أن هذا المقطع يكشف عن الحق الكامن من خلق السماوات والأرض المنتهي بقيام الساعة، وما يليها من ثواب المطيعين وعقاب العاصين، والمتصل بالحديث عن دعوة سيدنا محمد ﷺ، وهذا يتناسب مع محورها التحدث عن مصير الكافرين بأن ذلك حق وواقع بقيام الساعة فيثاب المطيع ويعاقب الكافر، وليس للرسول ﷺ في ذلك سوى الإنذار والتحذير والتبشير.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٢١.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢ / ٣٢١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٩٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ١٤ / ٨٩.

سورة النحل

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة:

سميت سورة النحل بهذا الاسم لاشتغالها على قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ امْتَحِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل / ٦٨)، ففيها العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق وتدل على الوجدانية بهذا الصنع العجيب. ^(١) وسميت بسورة النعم؛ لأن الله ذكر فيها من النعم الكثيرة التي امتن بها على العباد ^(٢). فمن الملاحظ أن كثيراً من سور القرآن جاءت تسميتها بالأمر المهم الوارد فيها؛ ليتفطن إلى الغرض الذي يرمى إليه من إنزال تلك السور، « فمثلاً سميت سورة الجمعة بهذا الاسم؛ لأهمية الاجتماع الأسبوعي، والعنكبوت والنحل، للتفطن إلى صغار الحيوانات الحكيمة الصنع ». ^(٣)

ب - فضائل السورة:

بما أن سورة النحل تعد من أكثر السور التي ذكرت نماذج عدة من نعم الله، وهي بحق تسمى سورة النعم، فإنها تصلح مثلاً جامعاً لسائر نعم الله عز وجل الواردة في سائر سور القرآن الكريم. وما اشتملت عليه من أمثال وحقائق، جامعة لما ذكر في السور الأخرى أو قريباً من ذلك.

ج - سبب نزول السورة:

وأما سبب نزولها فشأنها شأن السور المكية التي تناولت: تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتثبيت المؤمنين إذ كانوا حديثي عهد بالإسلام، والرد على المشركين، وقد نزلت آياتها منجمة حسب

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣ / ٨٣ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية ج ٣ / ص ٣٧٧.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ج ٦ / ص ٣٤٩.

الوقائع والأحداث. ويوجد أسباب نزول لبعض آيات في السورة سيعرض لها في حينها إن شاء الله.

د - مكية السورة أو مدنيتهما:

جميع آيات السورة مكية ما عدا آخر ثلاث آيات فهي مدنية نزلت بعد غزوة أحد، بين مكة والمدينة^(١) وهي من قوله تعالى: ﴿وَإِن عَاقِبَتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١١٣) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٣٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٣٨) ﴿١٢٦ - ١٢٨﴾ جاءت تعقياً على غزوة أحد، والغزوة وقعت بعد الهجرة، وجبل أحد في المدينة، فعلى هذا تكون هذه الآيات مدنية حسب المعايير التي اعتمدها العلماء عند تقسيمهم للمكي والمدني من حيث اعتبار الزمان والمكان والموضوع. وفي رواية هي: مكية إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة وهي: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١) مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴿٩٥ - ٩٧﴾، وقال قتادة: هي مكية إلا خمس آيات: آخر ثلاث آيات من السورة والآيتان: ٩٦ - ٩٧ وقال ابن السائب: هي مكية ما عدا آخر ثلاث آيات وآيتان رقم ٤١ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ ورقم ١١٠ ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ بينما قال مقاتل: سبعة وأضاف إلى الثلاث الأخيرة: رقم ١٠٩ و ٤١ و ١١٢ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ وانفرد جابر بن زيد بقوله: إن سورة النحل أنزل من أولها أربعون آية مكية وبقيتها مدنية^(٢).

(١) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٧ / ص ٦٦٤.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، الجوزي ٤ / ٤٢٥ - ٤٢٦.

هـ - عدد آيات السورة :

وأما آيات السورة فعددها هو مائة وثمان وعشرون آية باتفاق العلماء وقد نزلت سورة النحل بعد سورة الكهف وقبل سورة نوح عليه السلام فهي السورة التاسعة والستون من حيث النزول^(١) إلا أن ابن عاشور قال إنها نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة، وقد عدت الثانية والسبعين في ترتيب النزول^(٢) ولعله استند إلى الرواية التي وردت في الإتيان إذ ذكر السيوطي من رواية جابر بن زيد: أنها نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة نوح وليس قبل السجدة^(٣) فاتفقا على نزولها بعد سورة الأنبياء واختلفا في السورة التي بعدها.

والحق أنه من خلال الإستقراء تبين أنها نزلت قبل سورة نوح؛ لأن السيوطي عقب على الرواية التي ذكرها بقوله: « هذا سياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر، وجابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن »^(٤).

و - محور سورة النحل :

يدور المحور الرئيس للسورة حول أصول العقيدة الإسلامية، وهي الوجدانية والألوهية والوحي والبعث. ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسة وأقامت الحجج والبراهين الدالة على ذلك.

وورد في السورة العديد من الإشارات الكونية التي صيغت صياغة علمية غاية في الدقة والشمول والكمال مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق ، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشى، ج ١ / ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ١٤ / ص ٩٣.

(٣) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي،، ج ١ / ص ٨١.

(٤) السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ص ٨١-٨٢.

وكان للتركيز على ذكر النعم في هذه السورة أكبر الأثر في الدفاع عن العقيدة، وفي السورة ضرب الأمثال لإثبات التوحيد، لذا تعرضت السورة لمذح إبراهيم عليه السلام بسبب ثباته على التوحيد الخالص^(١).

وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر والعفو عما يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله.

ز - المناسبات في السورة :

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

النحل مخلوق من مخلوقات الله ومنه يستخرج العسل كما سيرد عند تفسير الآية ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ ففي خروج العسل من بطونها مختلف ألوانه.. معجزة دالة على قدرة الله ووحدانيته والسورة تتحدث عن الوحدانية فيبينها ترابط وتناسق .

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

افتتحت السورة بالحديث عن اليوم الآخر ﴿ أَفَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ فأمر الله أت لا محالة فلا بد من اتباع دينه والدعوة إليه لذا ختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ مع الصبر على تبليغ الدعوة (واصبر وما صبرك إلا بالله) لتكون معية الله مع الموحدين نصراً وتأييداً وهو المحور الرئيس الذي افتتحت به السورة ليتناسب مع ختامها ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ﴿١٢٨﴾ ووعد الله قريب فالنصر إن شاء الله قريب.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

يظهر الترابط بين آخر آية من سورة الحجر قال تعالى: ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ﴿ [الحجر: ٩٩]. وهو صالح لموت الكل ولكشف الغطاء عنهم بعد الموت بإتيان ما

(١) ، بتصرف. - الظلال، سيد قطب ١٢ / ٢١٥٧.

يوعدون به، لذا ابتدأ سورة النحل بهذا المعنى الذي ختم به سورة الحجر، فقال تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١].

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

المناسبة بينها وبين سورة الحجر التي سبقتها؛ كلاهما تشتركان في موضوع واحد حيث نزلت سورة الحجر في وقت اشتد فيه أذى المشركين على الرسول ﷺ والمسلمين، وبلغ العناد والصدود مبلغاً كبيراً، فنزلت الآيات تسليه وتواسيه، وتحثه على الصبر. قال تعالى: ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]. فهي تتحدث عن توحيد الألوهية والبعث والرسول واليوم الآخر وقضايا العقيدة عموماً.

ونلمس الترابط بين السورتين من قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَأْتِيَنَّهِنَّ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٩٢] وفي هذا إشارة إلى حشرهم يوم القيامة، وسؤالهم عما أجرموا في دار الدنيا ومن قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ١]، وهو يوم القيامة^(١).

٥ - المناسبة بين خاتمة سورة النحل وافتتاحية السورة التي بعدها:

أشار الله في ختام سورة النحل إلى معيته سبحانه وتعالى مع المتقين وحفظه لهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]. وافتتح سورة الإسراء بمعجزة الإسراء والمعراج المنحة الإلهية لسيد المرسلين ﷺ والتي دلت على معية الله معه ونصرته له تأكيداً لما ذكرته سورة النحل.

هذا وسنعرض لمناسبات أخرى أثناء تفسير السورة، وهي: المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها في نهاية كل مقطع. وبين مقاطع السورة بعضها مع بعض في بداية كل مقطع.

(١) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور، ص ٧٩.

٦ - تقسيم السورة إلى مقاطع كالآتي:

المقطع الأول: إثبات وحدانية الله: (الآيات ١ - ٢)

قال تعالى: ﴿أَفَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾

سبب نزول الآية:

كان المشركون يستعجلون ما وعدهم الرسول ﷺ به من قيام الساعة، أو حكم الله بهلاكهم، ويقولون إن صح ما يقوله فالأصنام تشفع لنا، وتخلصنا منه، فنزلت الآية، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿أَفَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكنوا. (١)

التفسير الإجمالي للمقطع الأول:

تحدثت هذه الآيات عن قرب قيام الساعة، وينبه إلى عدم الاستعجال، فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد ﷺ وأتى الخطاب بصيغة الماضي، إشارة إلى أنه واقع لا محالة، «لما كان واجب الوقوع لا محالة عبر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث: جاءك الغوث فلا تجزع، وعبر باسمه الأعظم الجامع لجميع معاني الأسماء لأن ذلك أليق بمقام التهديد، وعبر عن الآتي بالماضي إشارة إلى تحققه تحقق ما وقع ومضى وإلى أن كل آت ولا بد قريب» (٢). وفسر بعض المفسرين ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾: «يعني القيامة وقيل النصر على الكفار وقيل عذاب الكفار في الدنيا ووضع الماضي موضع المستقبل لتحقيق وقوع الأمر ولقربه وروي أنها لما نزلت وثب رسول الله ﷺ قائما فلما قال ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ سكن». (٣)

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣ / ٨٣.

(٢) الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ٢ / ١٥٢ ابن جزري.

والآيات تنزّه الله وتقده عن شركهم وعبادتهم غيره من الأنداد والأوثان. لذا شاءت إرادة الله أن ينزل الملائكة بالوحي والنبوة على من يصطفي من خلقه، وسمى الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان، ليندروا أنه لا معبود إلا الله.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

١ - جاء مطلع السورة حاسماً جازماً: أتى أمر الله. وهذا يكفي لتحقيقه في الموعد الذي قدره الله لوقوعه؛ فإن سنة الله تمضي وفق مشيئته، لا يقدمها استعجال. ولا يؤخرها رجاء. فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضي وانتهى، أما وقوعه ونفاذه فسيكون في حينه المقدر في علم الله لا يستقدم ساعة ولا يتأخر؛ فلا يجوز لمسلم أن يستعجل عذاب الله أو يدعو على نفسه بل يدعو بدعاء الرسول ﷺ: « لا يتمنين أحدكم الموت من مرض أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي »^(١). من أجل مخالفة مشركي مكة الذين كانوا يستعجلون الرسول ﷺ ليأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة استهتاراً. ولم يدركوا حكمة الله في إمهالهم ورحمته بهم، ولم يحاولوا تدبر آياته في الكون وآياته في القرآن.

٢ - يجب تنزيه الله عن الشريك: عن الولد والوالد، والأوثان والأنداد، والتنزيه يقتضي إثبات الوحدانية والقدرة المطلقة لله.

٣ - التنزيل والنزول للوحي لا يكونان إلا بأمره تعالى، وأن الوحي إلى رسل الله لا يكون إلا بواسطة الملائكة؛ فيجب الإيمان بالوحي واتباع الهدى، وانكاره كفر لأن الله ينزل على الناس من السماء ما يحييهم وينجيهم: فهو لا ينزل من السماء ماء يحيي الأرض والأجسام وحدها بل ينزل ما يحيي به القلوب؛ فالوحي حياة ومبعث حياة وهو أول ما ينزله الله من السماء للناس، وأول النعم التي يمن الله بها على العباد.

(١) أخرجه البخاري، رقم / ٦٣٥٧.

٤ - الإنسان بحاجة إلى الإيمان لتستقيم الحياة فلا قيمة لعيش الإنسان بجسده إذا كان قلبه ميتاً، قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۗ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۗ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان: ٤٤]، والحياة الحقيقية لا تكون إلا بالهداية، فمصدر الهداية الحقيقية من عند الله سبحانه.

مناسبة المقطع الأول لمحور السورة:

افتتاحية السورة وثيقة الصلة بالمحور؛ فذكر الساعة والملائكة والأنبياء من أجل التركيز على الوحدانية وهو محور السورة الأساس، لذا ذكرها بترابط وتناسق « حيث بدأ سبحانه بذكره ثم أتبعه بذكر الملائكة؛ لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله ابتداء من غير واسطة وذلك الوحي هو الكتب التي يوصلونها إلى الأنبياء والرسل فكان الترتيب متناسباً متدرجاً موضحاً رتبة الملائكة والأنبياء الذين أرسلوا للدعوة إلى وحدانية الله. (١).

المقطع الثاني: أدلة إثبات وحدانية الله تعالى، الآيات: (٣ - ١٦)

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لِمَ تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا يَسِيقَ ۝٧ الْإِنفُسِ ۝٨ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ۝٩ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٠ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١١ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٢ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۝١٣ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٤ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣/٨٧.

وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَنَ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ الْبَالَغَةَ وَالنَّجْمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

بعد أن قرر الله سبحانه أن الألوهية له وحده في المقطع الأول أقام عليها الأدلة في المقطع الثاني، يعرضها فوجاً فوجاً، ومجموعة مجموعة وهي أدلة متعددة ومتنوعة يقف العقل أمامها حائراً، ولا يملك إلا التسليم المطلق لله تعالى كما يأتي بيانه:

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني:

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾. الحق قوام خلقهما، والحق قوام تدبيرهما، والحق في تصريفهما؛ فما خلق الله شيئاً عبثاً، إنما كل شيء قائم على الحق ومتلبس به ومفوض له وصائر في النهاية إليه. ﴿ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تعالى عن شركهم، وتعالى عما يشركون به من خلق الله الذي خلق السماوات والأرض، وخلق من فيها وما فيها فلا أحد وليس شيء شريكاً له وهو الخالق الواحد

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ لم يزل يدبرها ويرقيها وينميها حتى صارت بشراً تاماً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا أعجب بنفسه ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول وما أنعم الله عليه به، من النعم فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الأدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور، إلى طور حتى صار عاقلاً متكلماً، ذا ذهن ورأي: يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي

أوصله إلى هذه الحال التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ ﴾ ﴿ يمتن الله على عباده بما خلق لهم من الأنعام لمنافعهم ومصالحهم، ومن جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب والفرش والبيوت، وغيرها من المنافع الأخرى كالركوب ونقل المتاع، وخص وقت راحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها بالذكر، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَيْثُ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ ﴾ «وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك، وخص الله هذين الوقتين بالذكر لاهتمام الرعاة بهما حين الذهاب والإياب وفي ذلك مفاخرة بالقطيع يذكر بنعمة الله على الإنسان، وقدم الرواح على الذهاب؛ لأن الفائدة فيها أتم فمجئها يدل على الشبع وكثرة الحليب مما يملأ النفوس بهجة وسروراً والعين متعة، فهي عنصر للغذاء وأداة إنتاج في الاقتصاد»^(١).

﴿ وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ «والله ذلها لكم؛ فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه وسعة جوده وبره»^(٢).

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن الله تعالى ذكر في كتابه ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره: كالنخل والأعناب والرمان، وأجل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢ ﴾ [الرحمن: ٥٢]، فكذا هنا ذكر ما نعرفه

(١) التفسير المنير، الزحيلي ج ١٤ / ص ٩٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، الجوزي، ر، ج ٤ / ص ٤٢٩.

من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسنن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١) الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله، ونهى عن الطريق الجائر في عقائده وأعماله وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاؤون عنه، وسلخوا الطرق الجائرة مع أن الله قادر أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين ولكنه كرمهم فجعل لهم الاختيار، فهدى الذين اهتدوا كرماً منه وفضلاً، وأضل الضالين، حكمة منه وعدلاً.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (١٠)
والماء ينزل من السماء وفق إرادة الله وهو نعمة من نعم الله للشراب وللراعي التي تربون فيها السوائم، وذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها، ﴿يُنْتِجُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾ ثم الزروع التي يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعنان وغيرها من أشجار الثمار، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وكل هذا يدفنا معرفة تدبير الله لهذا الكون، ونواميسه المواتية لحياة البشر، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته، موافقة لفطرته، ملبية لحاجاته.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢) وسخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض، وللأبدان، وغير ذلك

من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر وفي النجوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر فيما هي مهياة له مستعدة تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ فيما خلق الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض، من حيوان وأشجار ونبات، وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه، آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَآكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَاكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهياها لمنافعكم المتنوعة، كأكل السمك والحوت الذي يصطادونه منه واستخراج الحلى التي تزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم، ولتركبوا السفن والمراكب ﴿مَوَآخِرَ فِيهِ﴾ تمخر في البحر العجاج الهائل حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾ خلق الله الجبال العظام لثلاث تميد بهم الأرض وتضطرب، ولتتمكنوا من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، أنهارا على وجه الأرض، وأنهارا في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلا، أي: طرقا توصل إلى الديار المتناثية ﴿لِعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ السبيل إليها حتى إنك تجد

أرضاً مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها وقد جعل الله فيها بينها منافذ ومسالك للسالكين. فأما الجبال الرواسي فالعلم الحديث يعلل وجودها ولكنه لا يذكر وظيفتها التي يذكرها القرآن هنا.

وفي مقابل الجبال الرواسي يوجه النظر إلى الأنهار الجوارية، والسبل السواك والأنهار ذات علاقة طبيعية في المشهد بالجبال ففي الجبال في الغالب تكون منابع الأنهار، حيث مساقط الأمطار والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار، وذات علاقة كذلك بجو الأنعام والأحمال والانتقال، ﴿ وَعَلَّمَنَّا بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١٦)

وإلى جوار ذلك معالم الطرق التي يهتدي بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومنفراجات، وفي السماء من النجم الذي يهدي السالكين في البر والبحر سواء.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني :

١ - التفكير في مخلوقات الله أمر تعبدية؛ فالذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين الظواهر الكونية كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار، والبحر وما يحتويه، وسائر الظواهر وبين النواميس العليا للوجود، ودلالاتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته ووحدانية تدبيره. أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الظواهر وهم غافلون، لا يتفكرون ولا يعتبرون.

٢ - خلق الله السماوات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقهما، ووحدانيته، وقدرته، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا يجب تنزيه الخالق عن شرك المشركين به.

٣ - من نعم الله على المسلم أن جعل له من مخلوقاته ما يبعث في نفسه السرور والارتياح كالنظر إلى الأنعام؛ لأن الناظر لها يرى جمال خلق الله، صنع الله الذي أتقن كل شيء. « فالجمال عنصر أصيل وليس الأمر متوقف على تلبية الضرورات من الطعام والشراب والركوب وسائر وجوه الانتفاع. وفي مقابل هذا يجب على المسلم أن يذكر الله ويشكره.

٤ - الركوب نعمة تستوجب الشكر لأنها توفر كثيراً من الجهد والتعب، «وإذا نظرنا إلى الخيل نجد أن لها أثراً كبيراً في الجهاد، ونشر دعوة الإسلام، والدفاع عن الأوطان وعن الحرمات والأعراض، وكانت من وسائل نصر المسلمين على أعدائهم»^(١).

وأما من حيث جواز أكل لحومها وعدمه؛ فهي مسألة فقهية مختلف فيها: فمالك وأبو حنيفة قالوا: بعدم الجواز لأن الآية ذكرت الركوب والزينة، ولم تذكر الأكل، وللحديث «نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير... الحديث»^(٢) وقال الإمام القرطبي: يجوز أكل لحومها، لأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة، وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، للحديث «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل»^(٣) وأرى أنه يجوز أكلها، وإن كان الأولى تركها لأن مهمتها أعظم من جواز ذبحها وأكلها.

٥ - - الله أباح الزينة في حدود الحلال وهذا يدل على أن المسلم لا يجوز أن يتمتع بالزينة الحرام لأن الله جعل له بديلاً عنها بالزينة الحلال وتجاوز الحلال يدل على السلوك المنحرف الذي ينبغي أن يتنزه عنه المسلم. فمن مظاهر الانتفاع التزين بهذه الأنعام «فالتزين ضمن الحدود المشروعة أمر مباح»^(٤).

٦ - وتعلم الحكمة في الخطاب مع الناس فالآيات لم تذكر وسائل التنقل غير الموجودة لثلاثي يكدب الناس فالحكمة هي مخاطبة الناس بما يعقلونه ولكنها حثتهم على العلم والاستكشاف لقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فحدثهم بما هو موجود في بيئتهم وترك لهم آفاقاً يكتشفونها في المستقبل، وليظل المجال مفتوحاً في التصور البشري، لتقبل

(١) الخيل والفروسية، سلامة، محمد أحمد، ص ٩٨.

(٢) رواه أبو داود والنسائي والدارقطني وفي مصنف أبي شيبة ج ٧، رقم ٣٩٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠ / ٧٦ - ٧٧.

(٤) التوحيد والشكر في سورة النحل، طهراز ص ١٦.

أنماط جديدة، من أدوات النقل والحمل والركوب والزينة، فلا يغلق تصورهم خارج حدود البيئة وخارج حدود الزمان الذي يظلمهم، فوراء الموجود في كل زمان ومكان صور أخرى يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد، أو حين تكتشف، فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها، والإنتفاع بها^(١). وهذا كله من فضل الله على الناس ليشكروه.

٧- الآيات تعلم إكتساب الموعظة والعبرة؛ فإذا كانت الأنعام التي سخرها الله لخدمة الإنسان طيعه ولا تتمرد عليه فكذا حري بالإنسان أن لا يتمرد على الله ومن أجل هذا جاء التعبير بلفظ العبرة لتتعلم الطاعة لله ولا نعصيه البتة.

٨- مما يدل على كمال قدرته سبحانه: نزول المطر لأن الماء سبب الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مذلات لمعرفة الأوقات، والزروع والإهتداء بالنجوم في الظلمات، وتسخير البحر وما فيه من الأسماك والكنوز آيات للعباد، وتسخير الأرض ما فيها وما عليها كل ذلك يدل على الخالق وحده لا شريك له.

(١) في ظلال القرآن، سيد، قطب، ٤ / ٢١٦١.

المقطع الثالث: الله الخالق المنعم القادر وعجز المعبودين من دونه (١٧ - ٢١)

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرٌ أَحْيَاءُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث والثاني:

بعد استعراض آيات الخلق، وآيات النعمة، وآيات التدبير في المقطع الثاني يعقب السياق عليه في هذا المقطع بما سبق هذا الاستعراض من أجله. فقد ساقه في صدد قضية التعريف بالله سبحانه وتوحيده وتنزيهه عما يشركون، وهي من خصائص الألوهية: الخلق والإبداع، وعلم السر والعلن، والحياة الدائمة، وناسب أن يذكر أسباب الشرك مع أن أدلة التوحيد التي سبقت في المقطع السابق ظاهرة وقوية لا يزيغ عنها إلا هالك.

التفسير الإجمالي للمقطع الثالث:

الله سبحانه لا يشبهه أحد ولا كفاء له ولا ند له لذا قال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، والمراد بمن لا يخلق كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلباً فيه أولو العلم شبيهاً بها.

والمراد بمن لا يخلق: كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلباً فيه أولو العلم منهم أو الأصنام وأجروها مجرى أولي العلم لأنهم سموها آلهة، ومن حق الإله أن يعلم أو للمشكلة بينه وبين من يخلق، أو للمبالغة وكان قيل: إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفوا فساد ذلك فإنه جللته كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكر، والتفات جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد ^(١) « فإن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قلت: فيه أوجه:

(١) تفسير البيضاوي، للبيضاوي ٣ / ٣٩١.

أحدها أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم ألا ترى إلى قوله على أثره ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۗ﴾ (٢١).

والثاني المشاكلة بينه وبين من يخلق.

والثالث أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بها لا علم عنده^(١).

﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عددا مجردا عن الشكر ﴿لَا تُحْصَوْهَا﴾ فضلا عن كونكم تشكرونها فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد، من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون أكثر من أن تحصى، والتعبير جاء بلفظ نعمة ولم يقل النعم بالجمع؛ ليدل على أن النعمة الواحدة يتفرع منها نعم كثيرة فإن كانت النعم بالجمع لا تحصى فكيف بالفروع لذلك عقب الله بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير لأنكم لا تطيقون شكرها.

وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد فعلمه محيط بهم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (١٩) بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟ ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم، ولا غيره.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أموات أي هي أموات غير أحياء وما يشعرون يعني الأصنام أيان متى يُبعثون عبّر عنها كما عبّر عن الآدميين وقيل وما يدري الكفار عبدة الأوثان متى يبعثون^(٢) فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين.

(١) الكشف، الزخشري، ٢ / ٥٦٠.

(٢) تفسير الثعالبي، للثعالبي ج ٦ / ١٣.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث:

- ١ - لا يجوز لإنسان أن يسوي في حسه وتقديره بين من يخلق ذلك الخلق كله ومن لا يخلق مثقال ذرة؟ فتباً لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسواها بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها.
- ٢ - الإنسان قد يتعرض للنسيان فهو بحاجة للتذكير فليجعل القرآن خير مذكر له، وأكثر النعم لا يذكرها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها. وهذا تركيب نفسه ووظائفها لا يشعر بها فيه من النعم إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال لفقد بعض النعم، فما يسعه إلا غفران الله لتقصيره ورحمته لضعفه. لذا يجب شكر الله في السراء والضراء.

المقطع الرابع: ذم المتكبرين ومدح المتقين الآيات (٢٢ - ٣٥)

﴿ إِلَهكُمْ إِلَهٌ وَحِدٌ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخَذِّبُهُمْ وَيَقُولُ أَيَنْ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمَى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا سَلَامٌ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا

خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِأَنَّ الْأَخْرَجَ خَيْرٌ وَلِنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ نُوْقِفُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ .

المناسبة بين المقطع الرابع والثالث:

تم في المقطع الثالث استعراض آيات الخالق في خلقه، وفي نعمته على عباده، وفي علمه بالسر والعلن، بينما الآلهة المدعاة، لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة. ولا تعلم شيئاً، بل هي ميتة لا تنتظر لها حياة. وهي لا تعلم متى يبعث عبادها للجزاء وهذا وذلك قاطع في بطلان عبادتها، وفي بطلان عقيدة الشرك كافة. وفي هذا المقطع تعلق الآيات عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة وتمدح المتقين الذين اهتمت قلوبهم لمعرفة الحق، فستان بين المؤمن والكافر.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع:

يقرر الله وحدانيته ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَحْدٌ﴾ فالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٢﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفواً أحد. فأهل الإيمان والعقول أجلته قلوبهم وعظمتهم، وأحبته حباً عظيماً، وصر فوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة، وأما الكافرون الذين أنكرت قلوبهم الإيمان بالله جهلاً وعناداً وتكبراً ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِثُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ حقا لا بد أن الله يعلم جهرهم وسرهم، ويغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم.

وإذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، وهل تشكرون هذه النعمة وتعتزفون بها أم تكفرون وتعاندون؟ فيكون جوابهم أقبح جواب، فيقولون عنه: إنه ﴿أَسْطِيزُ الْأَوْلِينَ﴾ كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها.

وسبب نزول الآية: أنه كان النضر بن الحارث قد اتخذ كتاب تواريخ وكان يقول إنما يحدث محمد بأساطير الأولين وحديثي أجمل من حديثه. ^(١)

وبهذا الافتراء حملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة، كما جاء في الحديث «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص من آثامهم شيئا» ^(٢)، وقال مجاهد يحملون أفعال ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئا» ^(٣)

ووصف الله مكرهم برسلمهم واحتياهم بأنواع الخيل على رد ما جاء وهم به وبنوا من مكرهم قصورا هائلة، ﴿فَأَقْبَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْفَوَاعِدِ﴾ جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذابا عذبوا به، «يعني مكر نمرود بن كنعان وهو الذي حاج إبراهيم في ربه» ^(٤)

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم وجعلوا لهم أصولا وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالاً عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ ﴿وَلَا يَحِيْقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

(١) التفسير الكبير ج ٢٠ / ١٠٦-١٠٧.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، رقم / ٢٦٧٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ابن كثير ٢ / ٥٦٧.

(٤) تفسير مجاهد، مجاهد ١ / ٣٤٦.

﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، هذا في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

ثم يسألهم لماذا تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله؟ فلم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم والشهادة على أنفسهم وساعتئذ يقول المؤمنون، العلماء الربانيون حين يرون خزي الكفار: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ آيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَالسُّوءَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ عليهم لا علينا^(١) وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارا عند الله وعند خلقه.

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة. عندها استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فيقال لهم لا يفيدكم الجحود شيئا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم، فدخلوا نار جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتّر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

لما ذكر الله قول المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعلموها وعملوا لها ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله فلمهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع، وعيشه هنية، وطمأنينة قلب،

(١) فسير الواحدي، الواحدي / ١ / ٦٠٤.

وأمن وسرور.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتريات، فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة ولهذا قال: ﴿وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾ .
 ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ مها تمتته أنفسهم وتعلقت به إرادتهم حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم.

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت، وعظمة الملك والملكوت، ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ لسخط الله وعذابه بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقه وحق عبادته، وترك ما نهاهم الله عنه. ﴿الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَالِئِكَةَ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرين مطهرين من كل نقص وذنس يتطرق إليهم ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبهه وألستهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه، ﴿يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾ أي: التحية الكاملة حاصلة لكم والسلامة من كل آفة. وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنتته عليهم لا بحولهم وقوتهم. «قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك، فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، ويبشرك بالجنة. ويقال لهم في الآخرة: ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون بعملكم»^(١) ويعود السياق للمستكبرين، يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا،

(١) تفسير النسفي، النسفي ٢ / ٢٥٥.

وذكروا فلم يتذكروا، ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم، ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمْ﴾ إذ عذبهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا﴾ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزأوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

ثم يجادل المشركون في ربهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئاً من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يجب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله. فإن الله أمرهم ونهاهم ومكنهم من القيام بما كلفهم وجعل لهم قوة ومشية تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريد من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية، ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغت الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسول من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع:

١ - كل ما سبق في السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدي إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة، وهي وحدانية الله (إلهكم إله واحد)؛ فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة تنقصهم البراهين، إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم. فقلوبهم منكرا جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات، وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول. فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب والله الذي خلقهم يعلم ذلك منهم.

٢ - كشفت الايات عن سبب شرك المشركين وهو تحجر قلوبهم، فالجحود صفة كامنة فيها تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات، وهم مستكبرون، فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم. بينما المؤمن يسارع إلى التصديق بربه. وفساد في تفكيرهم لأن الأصنام مخلوقة وعاجزة عن خلق غيرها، فهي لا تضر ولا تنفع فكيف تتخذ آلهة؟ وبسبب إنكارهم لنعم الله وإحسانه لهم، والأجدر بهم شكرها.

٣ - الخالق يعلم ما خلق في السر والعلانية مما يوجب على المسلم أن يعبده كأنه يراه لأن الله يراه. والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لا بد أن يعلم موعد البعث وهو علم استأثر الله به، فينبغي الإعداد والاستعداد لأنه قريب.

٤ - جمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة. بل جعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء؛ فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء، تعذيب الكفار يوم القيامة ليس ظلماً من الله بل هم ظلموا أنفسهم فأهلكهم الله، وجازى المتقين المحسنين بإحسانهم.

٥ - ظهور الإعجاز في أسلوب القرآن من خلال تشبيه الذنوب بأحمال ذات ثقل، وساءت أحمالاً وأثقالاً؛ فهي توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور، وهي تثقل القلوب، كما تثقل

الأعمال العواتق، وهي تتعب وتشقى كما تتعب الأثقال حاملها بل هي أدهى وأنكى ! وهذا كله من أجل التنفير من الذنوب والمعاصي.

٦ - وصف الكفار للقرآن بأنه أساطير الأولين لما يحويه من قصص الأولين بعيد عن الحقيقة لأن القرآن الذي يعالج النفوس والعقول، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل. وورود قصص الأولين في القرآن لأخذ العبرة والموعظة.

٧ - ذكر عاقبة الكفار وجزاء المؤمنين أسلوب من أساليب الترغيب والترهيب يستحسن أن يوظفه الداعية في الدعوة إلى الله؛ فمن أساليب القرآن: ضرب المتقابلات المتعكسة كذكر صفات الكفار ومقابلتها بصفات المتقين، وكذكر الجنة والنار.... الخ.

المقطع الخامس: عاقبة المكذابين بالرسول وبالأيوم الآخر وجزاء المؤمنين بهما

(٣٦ - ٥٠)

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا نُجْزِي الْأَخْرَىٰ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ

يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ فَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٦﴾ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْلَتْ
 يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيوْنَ ظِلْمَهُ. عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلِلَّهِ
 يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ
 فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿

المناسبة بين المنطع الخامس والمقطع الرابع:

تم في المقطع الرابع بيان موقف كل من المشركين والمؤمنين تجاه القرآن الكريم وجزءهما
 عن موقفها وفي هذا المقطع يقارن بين موقفيهما تجاه الرسل، وذكر الرسل مناسب بعد ذكر
 القرآن، لأن الرسل هم الذين كلفوا بتبليغ الكتب.

التفسير الإجمالي للمقطع الخامس:

يخبر الله تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث
 الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك
 له، فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾
 فاتبعوا المرسلين علما وعملا، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فاتبع سبيل الغي.

فناسب أن يوجههم إلى السير في الأرض لأخذ العبرة ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون مكذبا إلا كان عاقبته الهلاك.
 ولكن الجاحد ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، شريطة أن يبدأ الإنسان بأسباب الهداية وإلا
 فلا ناصر لهم ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه.

ويخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب
 الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابا، فيؤكد الله أنه سيبعثهم
 ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لا يخلفه ولا يغيره، ولكن الناس من جهلهم
 العظيم إنكارهم للبعث والجزاء.

وهذه الآية لها سبب نزول: قال الربيع بن أنس: عن أبي العالية: «كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت، فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك لتبعث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله هذه الآية»^(١). وذكر الجزاء والبعث من المسائل التي بين الله حقائقها.

ويخبر الله عن أحوال الكافرين حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم أهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون حطباً لجهنم، وتكور الشمس والقمر وتتناثر النجوم، فيتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، لا حول لها ولا قوة. يخبر تعالى بفضل المؤمنين المتحنين ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته الذين تعرضوا للأذى والمحنة من قومهم، ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثوابا عاجلا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عيانا بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة. ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا، وورد أنهم هم الذين: «عذبوا وأوذوا في الله نزلت في بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وجبير وأبي جندل بن سهل أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم وقال قتادة هم أصحاب النبي ﷺ ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتى لحق منهم طائفة بالحبشة ثم بوأ الله لهم المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين لنبوئتهم في الدنيا حسنة وهو أنه أنزلهم المدينة روي عن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية وقيل معناه لنحسن إليهم في الدنيا وقيل الحسنة في الدنيا التوفيق والهداية ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون وقوله لو كانوا

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣ / ١٢٩.

يعلمون ينصرف إلى المشركين لأن المؤمنين كانوا يعلمونه»^(١).

ثم ذكر فضل الصبر، فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلدة، وعلى الأذى في سبيل الله وعلى المحن، وزادهم هو التوكل على الله لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

والله يذكر بالصبر تسلياً لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وهذا حال الرسل السابقين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ لست بيدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالاً كاملين لا نساء. ﴿تُوحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، وذكر ﴿فَتَسَلَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ الكتب السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ﴾ نبأ الأولين، وشككتهم هل بعث الله رجالاً؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبيانات فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحي إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، في كل شيء، بالتفكير في آياته؛ لأن القرآن دستور الحياة ثم ناسب أن يخوف الله من يعرضون عن القرآن فإنهم لا يأمنون مكر الله، وهذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرّة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

(١) تفسير البغوي، البغوي / ٣ / ٦٩.

« أو يأخذهم على تخوف فيه وجهان: أحدهما: أن معناه على تنقص أي يتنقص أموالهم وأنفسهم شيئاً بعد شيء حتى يهلكوا من غير أن يهلكهم جملة واحدة ولهذا أشار بقوله فإن ربكم لرؤوف رحيم لأن الأخذ هكذا أخف من غيره وقد كان عمر بن الخطاب أشكل عليه معنى التخوف في الآية حتى قال له رجل من هذيل التخوف التنقص في لغتنا.

والوجه الثاني: أنه من الخوف أي يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا هم ذلك فيأخذهم بعد أن توقعوا العذاب وخافوه ذلك خلاف قوله وهم لا يشعرون»^(١) ولكنه رؤوف رحيم لا يعاجل العصاة بالعقوبة لعلمهم يرجعون.

ولكي يوقنوا بقدرته على إنزال العذاب بهم دعاهم للنظر فيما حولهم إلى جميع مخلوقاته وكيف تنفياً أظلتها، عن اليمين والشمال، كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿وَهُمْ دَخِرُونَ﴾ ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده. لذا مدح الله عباده الخاضعين له بالسجود ومنهم الملائكة الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم، لذا مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، ومدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره يمثلون لأمره، طوعاً واختياراً.

وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان:

سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره.

وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢ / ١٥٤.

الهدايات المستنبطة من المقطع الخامس:

- ١ - إن بعثة الرسل في كل الأمم عامة، وهدفها واحد وهو الدعوة إلى الله وحده، وترك عبادة الطواغيت، والناس أمام دعوة الله فريقان: فريق اهتدى وفريق اختار الضلال.
- ٢ - شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين، ومنحهم بعد ذلك العقل ليهدوا به، فهو مناط التكليف، ووضع لهذا العقل ميزاناً ثابتاً في شرائعه التي جاءت بها رسله، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر، صواب تقديره أو خطئه.
- ٣ - لم يجعل الله الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيوان، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان، ففريق استجاب، وفريق سلك طريق الضلال. وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله، وكلاهما لم يقصره الله قسراً على هدى أو ضلال، إنما سلك طريقه الذي شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة في سلوكه، بعد أن هداه الله النجدين؛ فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه، بل وظيفته البلاغ.
- ٤ - إثبات بشرية الرسل؛ فهم بشر ليسوا ملائكة، ليسهل الاقتداء بهم لأن صفات الملائكة غير صفات الرسل، وكانوا رجالاً لتحمل مشاق الدعوة.
- ٥ - فندت الآيات شبهات المشركين حول البعث وبيان حكمته؛ فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور، فوعده الله لا يتخلف بحال من الأحوال فهو يتم حالما تتوجه إليه الإرادة دون إبطاء.
- ٦ - مدح الله أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله.

٧ - الله سبحانه يكرم المؤمنين المصدقين، الذين يحملهم يقينهم في الله والآخرة على هجر الديار والأموال، في الله، وفي سبيل الله. جزاء المهاجرين الذين ضحوا بأموالهم وديارهم جزاء عظيم، ومنزلة حسنة، لذا على المسلم أن يبحث عن المكان الذي يتمكن فيه من عبادة ربه وأما إن كان وجوده في ديار الكفر فيه منفعة لصالح دعوة الإسلام فله البقاء بل قد يجب لتبليغ دعوة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

٨ - من سنن الله سبحانه أنه يمهل ولا يهمل، فيجب الخوف من مكر الله الذي لا يأمنه أحد في ساعة من ليل أو نهار، بل يمهلهم ويعافهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة، وإذا لم يرجعوا إليه فإنه يأخذ العاصين أخذ عزيز مقتدر، فالبدار البدار إلى رحمة الواسعة وبره العميم وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

٩ - يجب مشاركة هذا الوجود في عبادة الله وتسبيحه ؛ فالأرض كلها ساجدة لله، ومعها ما في السماوات وما في الأرض من دابة، والملائكة قد برئت نفوسهم من الاستكبار، وامتألت بالخوف من الله، والطاعة لأمره بلا جدال . فليس إلا الإنسان هو الذي يستكبر ويمكر وكل ما حوله يحمد ويسبح، وأعجب العجب في البشر أن يد الله تعمل من حولهم وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر، فلا يغني عنهم مكرهم وتدبيرهم، ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم وما لهم.

المقطع السادس: أدلة أخرى على توحيد الألوهية الآيات: (٥١ - ٦٤)

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥١﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِلَّا مَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْتُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٥٤﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلَّفُ لَشَتَانٍ عَمَّا كُتِبَ ﴿٥٧﴾ تَفْتَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٦٠﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦١﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ وَلَوْ يَوَاجِدُ اللَّهُ النَّاسَ ظَالِمِينَ لَأَعْلَنَ مِنْهُمْ مَثَلًا لِمَنْ يَتَذَكَّرُ مِنْهُمْ إِنْ أَجَلَ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦٣﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُشْفَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٦٤﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وِلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع السادس والمقطع الخامس:

تم التأكيد في المقاطع السابقة على وحدانية الله واثباتها وفي هذا المقطع يعرض مزيداً من الأدلة لتأكيدهما وليستيقن الذين كفروا ويزداد المؤمنون إيماناً.

التفسير الاجمالي للمقطع السادس:

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، فقال: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِلَّا مَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين ثم أثبت أن الإلهية منحصرة في إله واحد وهو الله سبحانه « وقد قيل إن الثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية والإفراد في إله قد دل على الوحدة فما وجه

وصف إلهين باثنين ووصف إله واحد فقيل في الجواب إن في الكلام تقديماً وتأخيراً والتقدير لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله وقيل إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك وقيل إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها وإنما خلاف المشركين في الواحدية ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب فقال فيأي فارهبون أي إن كنتم راهبين شيئاً فيأي فارهبون لا غيري»^(١).

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوا له. لأنكم إذا عبدتم غيره فإنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، فحين يمسكم الضر تضجون بالدعاء والتضرع لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده. ولكن كثيراً من الناس يظلمون أنفسهم، ويحقدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة؛ فيجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيباً مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَكَذَا إِنَّ اللَّهَ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٣٦] فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

وقالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله وأبقوا لأنفسهم الذكور حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم إذا بشر بالأنثى أصابه الحزن والأسف لدرجة أنه يفتضح عند أبناء جنسه ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣: / ١٦٨.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها هل يتركها من غير قتل على إهانة وذل أم يدفنها وهي حية؟ وهو الواد الذي ذم الله به المشركين، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه؛ فنسبوا له أقل القسمين نفعاً في المهات الجسم، وهو الإناث اللاتي يأنف العرب بأنفسهم عنها ويكرهونها، فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

وردت الآيات بأن هذا المثل الناقص والعيب التام لهم، والله سبحانه له كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه. لأنه هو الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه ويشنى على كماله فيه. « ولما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه ذكر كمال حلمه بخلقه وصبره عليهم مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، تبعاً لإهلاك بني آدم ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً»^(١) فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه. وأخبر تعالى عن فساد معتقد المشركين ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة وهو الشرك بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله، فكما أنهم يكرهون، ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟ في حين أنهم يزعمون أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، والله يقرر أن لهم النار قادمون إليها ما كثون فيها غير خارجين منها أبداً.

بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّب بل أرسل من قبله رسلاً يدعون إلى التوحيد، فكذبوهم قومهم، وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق المنجي من كل مكروه وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار وليهم في الدنيا

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير ٢ / ٥٧٤.

فأطاعوه واتبعوه وتولوه، وتولوا عن ولاية الرحمن، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

الهدايات المستنبطة من المقطع السادس:

١ - لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين اثنين، إنما هو إله واحد لا ثاني له. ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد. ويعقب على النهي والقصر بقصر آخر ﴿فَأَتَى فَأَرْهَبُونِ﴾ دون سواي بلا شبيه أو نظير. ويذكر الرهبة زيادة في التحذير. ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها، لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض.

٢ - الآيات تبرز قيمة العقيدة الإسلامية في تصحيح التصورات والأوضاع الاجتماعية؛ فهذه الآيات تصحح نظرة المجتمع للمرأة، فالأنثى نفس إنسانية، إهانتها إهانة للعنصر الإنساني الكريم، وأدها قتل للنفس البشرية، وإهدار لشطر الحياة، ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة.

وكلما انحرفت المجتمعات عن العقيدة الصحيحة عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها من جديد؛ فالأنثى لا يرحب بمولدها كثير من الناس، ولا تعامل معاملة الذكر من العناية والاحترام. وهذه وثنية جاهلية في إحدى صورها، نشأت من الانحراف الذي أصاب الناس في عقيدتهم، ومن عجب أن ينعت الناعقون بلمز العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية - في مسألة المرأة. في حين أن الإسلام أمر بالإحسان للبنات ففي الحديث «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له ستراً من النار»^(١)، وقال ﷺ «واستوصوا بالنساء خيراً»^(٢).

٣ - اقتضت حكمة الله أن يؤخر العذاب إلى أجل. لعلهم يهتدون، والله قادر أن يأخذ الناس

(١) فتح الباري ١٠ / ٤٤٣.

(٢) رواه البخاري رقم / ٥١٨٥، ومسلم برقم / ١٤٦٨.

بظلمهم الذي يقع منهم ولو فعل لدمرها عليهم تدميراً.

٤ - جعل الله موقفاً خاصاً للرسول ﷺ شاهداً على قومه، شافعياً للمؤمنين، فالله أنزل معه الكتاب تبياناً لكل شيء فلا حجة بعده لمحتج، ولا عذر معه لمعتذر؛ فمن شاء الهدى والرحمة فليسلم قبل أن يأتي اليوم المرهوب، فلا عذر ولا عتاب للذين كفروا .

٥ - وظيفة القرآن والرسالة الأخيرة هي الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم. إذ الأصل هو التوحيد، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك في صورة من الصور، ومن تشبيه وتمثيل. كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه. وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه . وإنزال الكتاب - هو خير ما أنزل الله للناس لأن فيه حياة الروح - فهو يتبعه بإنزال الماء من السماء، وفيه حياة الأجسام والروح أهم.

المقطع السابع: نعم دالة على الوحدانية تنمة النعم التي ذكرت في المقطع

الأول (الآيات من ٦٦ - ٨٩)

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُنذِرَكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ ذُرِّيَّتِكُمْ وَمِمَّا يَلْتَمِسُونَ سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْزُقُكُمْ وَإِنَّكُمْ لِرِزْقِهِ لَأَنكَارُونَ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَيْنَ وَحَفَدَةٍ وَرِزْقًا مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَالْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَعَبُدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ

﴿٧٣﴾ فَلَا تَصْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَنْعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤدُّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴿

المناسبة بين المقطع السابع والسادس

لما ذكر سبحانه افتراء أهل الجاهلية على الله بنسبة الأثني إليه، ووأداها ناسب أن يذكر في هذا المقطع أدلة تفرده سبحانه وتنزيهه عن الشريك والولد.

التفسير الإجمالي للمقطع السابع:

تعود الآيات للتذكير بنعمه لستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وأنه على كل شيء قدير وسخر الأنعام لمنافعكم ولتستدلوا بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبنا خالصاً أي: سهلاً في الشرب لا يشجى به شاربه ولا يغص وقال بعضهم سائغاً أي: لا تعافه النفس وإن كان قد خرج من بين فرث ودم^(١) فأى شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنا خالصاً سائغاً للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد، ومصالح من أنواع الرزق الحسن، ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حلَّ المسكرات، واستبدالها بالطيبات من أنواع الأشربة اللذيذة المباحة. «قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما حل من ثمرها»^(٢) وهذا كله دليل كمال قدرة الله حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذیذة وفاكهة طيبة وعلى شمول رحمته حيث عم بها عباده ويسرها لهم وأنه الإله المعبود وحده حيث إنه المنفرد بذلك. وتقييد الرزق بالحسن وعدم وصف السكر به دليل إباحة الرزق وتحريم المسكرات.

وفي خلق النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايتها لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه «وقيل لبعضها كما دل عليه تنكير شفاء أو لكلها بضميمته إلى غيره أقول وبدونها بنيتها

(١) زاد المسير، الجوزي، ج ٤ / ٤٦٣ .

(٢) تفسير الصنعاني ج ٢ / ٣٥٧ .

وقد أمر به ﷺ من استطلق عليه بطنه، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون في صنعه تعالى»^(١).

ثم أخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره إلى أرذل العمر أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل، فالله سبحانه قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ومن ذلك ما ينقل به الأدمي من أطوار الخلقة، خلقاً بعد خلق كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

« والله فضل الخلق في الرزق بعضهم على بعض، فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق لا يردون ما رزقهم الله على عبيدهم، ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟ وهذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله؟ فلو أقرؤا بالنعمة ونسبوا إلى من أولاهها، لما أشركوا به أحداً»^(٢).

ويخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها من جنسكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم والحفدة جمع حافد وهو الذي يحفد أي يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت وإليك نسعى ونحفد .

«واختلف في الأحفاد، فقيل: هم الأختان على البنات وقيل أولاد الأولاد وقيل أولاد المرأة من الزوج الأول وقيل المعنى وجعل لكم حفدة أي خدما يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ويجوز أن يراد بالحفدة البنون أنفسهم، كأنه قيل وجعل لكم منهن أولاداً هم بنون

(١) تفسير الجلالين ج ١: ص ٣٥٥.

(٢) تفسير السعدي ج ١: ص ٤٤٤.

وهم حافدون أي جامعون بين الأمرين»^(١)، ورزقهم من الطيبات من جميع المأكّل والمشرب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها. فهل بعد هذا يؤمنون بغير الله؟ وأخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطراً، ولا رزقا ولا ينبتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بملك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها؟ «وجمع الضمير فيه وتوحيده في لا يملك لأن ما مفرد في معنى الآلهة ويجوز أن يعود إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئاً من ذلك فكيف بالجهد»^(٢).

الهدايات المستنبطة من المقطع السابع:

١ - تؤكد الآيات على وحدة الألوهية الواحدة التي لا تتعدد، يبدأ فيقرر وحدة الإله، ووحدة المالك، ووحدة المنعم في الآيات الثلاث الأولى متواليات، تأكيداً لما سبق في الآيات المتقدمة وهي دلائل الألوهية لا سواها: فالله أنزل من السماء ماء فاحيا به الأرض بعد موتها فالذي يحول الموت إلى حياة والذي يسقي الناس لبنا سائغاً يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم. ببديع صنع الله العجيب، فالله الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الذي يستحق أن يكون إلهاً.

٢ - وصف الرزق بالحسن وعدم وصف الخمر به، فيه توطئة لما جاء بعد من تحريمها، وإنما كان يصف الواقع في ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب، وليس فيه نص بحلها، بل فيه توطئة لتحريمها.

٣ - العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين في الطب . شرحاً فنياً. وهو ثابت

(١) الكشاف ج ٢: ص ٥٧٩.

(٢) تفسير البيضاوي ج ٣: ص ٤١١.

بمجرد نص القرآن عليه. وهكذا يجب أن يعتقد المسلم استناداً إلى الحق الكلي الثابت في كتاب الله؛ كما أثر عن رسول الله. وروى أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال له رسول الله ﷺ: «اسقه عسلاً» فسقاه عسلاً. ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً. قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقاً. فقال رسول الله ﷺ «صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرىء^(١). ويروينا في هذا الأثر يقين الرسول ﷺ أمام ما بدا واقعاً عملياً من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه. وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له في النهاية. وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت في كتاب الله. مهما بدا في ظاهر الأمر أن ما يسمى الواقع يخالفها. فهي أصدق من ذلك الواقع الظاهري، الذي ينثني في النهاية ليصدقها.

٤ - القرآن يدعو الإنسان إلى التفكير، حينما يرتد إلى مثل الطفولة من العجز والنسيان والسذاجة. هذه الصورة قد ترد النفس إلى شيء من التأمل في أطوار الحياة، وقد تغض من كبرياء المرء واعتزازه بقوته وعلمه ومقدرته؛ لأن العلم الشامل الأزلي الدائم لله، وأن القدرة الكاملة التي لا تتأثر بالزمن هي قدرة الله. وأن علم الإنسان إلى حين، وقدرته إلى أجل، وهما بعد جزئيان ناقصان محدودان.

٥ - الله فضل بعض الخلق على بعضهم في الرزق وجعلهم متفاوتين فيه، وفق الأسباب الخاضعة لسنة الله وقد يكون الإنسان مفكراً عالماً، ولكن موهبته في الحصول على الرزق وتنميته محدودة، لأن له مواهب في ميادين أخرى. وقد يبدو غيباً جاهلاً ساذجاً، ولكن له موهبة في الحصول على المال وتنميته، ومن الرزق الأزواج والأبناء والأحفاد، وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقاً. ويجعلون له الأشباه والأمثال وأنتم لا تساوون أنفسكم مع أصنامكم التي تعبدونها من دون الله

(١) البخاري

فلماذا تساؤون بين الله وعباده ؟

٦ - كشفت الآيات عن ظلم العباد لأنفسهم لأن الله خلقهم، ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجاً لا يعلم شيئاً. والله فضل بعضهم على بعض في الرزق وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة. وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السماوات والأرض ولا يقدرون على شيء، ويجعلون لله الأشباه والأمثال.

المقطع الثامن: ضرب الأمثلة لاثبات الوحدانية لله: الآيات (٧٤ - ٧٧)

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْآ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هَوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثامن والمقطع السابع

لما ذكر سبحانه أن المشركين ساواوا بينه وبين الأصنام في الرزق والملك ناسب في هذا المقطع أن يضرب لهم الأمثال الدالة على وحدانيته والتي تبين عجز الآلهة المزعومة.

التفسير الإجمالي للمقطع الثامن:

« التفات إلى الخطاب للإيدان بالاهتمام بشأن النهي أي لا تشركوا به شيئاً والتعبير عن ذلك بضرِب المثل للقصْد إلى النهي عن الإِشْرَاك به تعالى في شأن من الشؤون فإن ضرب المثل

مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أي لا تشبهوا بشأنه تعالى شأننا من الشؤون»^(١) فعلياً أن لا نقول عليه بلا علم وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولن يعبد من دونه.

أحدهما عبد مملوك أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئاً. والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سراً وجهراً.

هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنها مخلوقان، غير ممكن استواؤهما. فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟

ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه، فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوى المشركون آلهتهم بالله؟ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم.

والمثل الثاني: ضرب مثلين أحدهما أخرس وهو الصنم لا يقدر على شيء من مال ولا منفعة وهو كل على مولاه أي ثقل على وليه وقرابته يعني الصنم عيال ووبال على عابده أينما يوجهه لا يأت بخير أي حيث يبعثه لا يجيء بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل يعني بالتوحيد وهو على صراط مستقيم، يدل الخلق إلى التوحيد ويقال هذا المثل للكافر مع النبي ﷺ يعني الكافر الذي لا يتكلم بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالتوحيد ويدعو الناس إليه وهو على صراط مستقيم يدعو الناس إليه وهو على دين الإسلام وقال السدي المثلان ضربهما الله لنفسه وللآلهة»^(٢).

(١) تفسير أبي السعود ج ٥ / ص ١٢٨.

(٢) السمرقندي، تفسير السمرقندي ٢: / ٢٨٣.

يخبر الله عن قرب الساعة في قرب كونها إلا كلمح البصر إذ قال له كن فيكون أو هو أقرب بل هو أقرب إن الله على كل شيء قدير
وسبب نزول قوله تعالى نزلت في الكفار الذين يستعجلون القيامة استهزاء^(١) فهو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثامن:

- ١ - ضرب الأمثال في هذه الآيات أكد بشكل قاطع الوجدانية لله وأبرز عجز المدعويين من دونه، ذات إيقاعات عميقة، تؤثر في النفس، وينبغي أن يكون المثل المضروب مأخوذاً من واقع الناس لتقريب الفهم.
- ٢ - قضية البعث إحدى قضايا العقيدة التي لقيت جدلاً شديداً في كل عصر، ومع كل رسول. وهي غيب من غيب الله الذي يختص بعلمه. وإن البشر ليقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا وقت الساعة؛ ليعملوا ويعبدوا في كل وقت.

المقطع التاسع: نعم دالة على وحدانية الله تنمة للنعم المذكورة في المقطعين

الأول والسابع الآيات (٧٨ - ٨٣)

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ

(١) تفسير البغوي، البغوي ٣ / ٧٩.

أَكْنَنَّا وَجَعَلْ لَكُمْ سَرِيلاً تَقِيكُمْ أَلْحَرَ وَسَرِيلاً تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

المناسبة بين المقطع التاسع والمقطع الثامن:

لما ذكر الله في الآيات السابقة الأمثال للدلالة على وحدانيته وذكر أن مرد علم الساعة إليه، ذكر لهم في هذا المقطع نعماً يرونها ولكنهم لا يدركون سرها وكنهها فكيف بها هو غيبي؟ فالأولى لهم التوحيد والطاعة وعدم إنكار نعم الله بدلاً من الافتراء على الذات الإلهية ووصفه بالنقص والتعدد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وذكر هذه النعم في هذا المقطع يكون تأكيداً وتتمة لما ذكر في المقطعين الأول والسابع.

التفسير الإجمالي للمقطع التاسع:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء «وفيه ثلاثة أقاويل:

أحدها لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم.

الثاني لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء.

الثالث لا تعلمون شيئاً من منافعكم وتم الكلام ثم ابتدأ فقال وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة أي تعلمون بها وتدركون لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته وقد قيل في ضمن قوله وجعل لكم السمع إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق»^(١)،

(١) تفسير القرطبي ج ١٠: ص ١٥١.

وذلك لأجل أن يشكروا الله.

ودعاهم للتفكير في الطير: ﴿الْمَرِيْرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ألم ينظروا إليها مسخرات مذلات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المساعدة له،^(١)

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ يُذكر تعالى عباده نعمه ومنها: السكن في الدور والقصور ونحوها تكنكم من الحر والبرد وتستركم أتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، تصنعونها إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر.

وتكون خفيفة الحمل في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، «وجعل لكم من الأنعام من الصوف والشعر والوبر مما هو شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك مما تتمتعون بذلك في هذه الدنيا وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعتة وعمله». ^(٢)

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ جعل لكم مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ظلالاً، وذلك كأظلة الأشجار والجبال والأكام ونحوها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ جعل لكم ألبسة وثيابا تقيكن الحر ولم يذكر الله البرد لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم

(١) تفسير أبي السعود ج ٥: ص ١٣٢.

(٢) السعدي / ٤٤٥.

وآخرها في مكملاتها وتماماتها، ووقاية البرد من أصول النعم فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ﴾. وقيل: لم يذكر البرد لأن الوقاية من الحر أهم عندهم وقلما يهمهم البرد لكونه يسيراً محتملاً وقيل ما بقي من الحر يقي من البرد فدل ذكر الحر على البرد.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢) إذا لم يستجيبوا للرسول ﷺ فليس عليه من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أدت ما عليك، فحسابهم على الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣) فإنهم يرون الإحسان ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويحذونها وهذه الآية لها سبب نزول: «فروي أن أعرابياً أتى النبي صلى الله فسأله، فقرأ عليه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ قال الأعرابي نعم، ثم قرأ عليه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ ثم قرأ عليه كل ذلك، وهو يقول: نعم حتى بلغ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولى الأعرابي فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات لفساد مشاعرهم، وسوء قصدتهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم متمرد على الله وعلى رسوله»^(١).

الهدايا المستنبطة من المقطع التاسع:

١ - من نعم الله السمع والأبصار والأفئدة والقرآن يعبر بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية، وهي تشمل ما اصطلاح على أنه العقل، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعقل، وهذه النعم تستوجب الشكر، وأول الشكر الإيثار بالله الواحد.

٢ - ضرب الله لهم من أمور الدنيا التي يرونها ولكنهم لا يعلمون من أسرارها شيئاً فكيف بها لا

(١) الكشاف، الزمخشري ٢ / ٥٨٤.

يروونه؟ فهذه أطوار الجنين قد يراها الناس، ولكنهم لا يعلمون كيف تتم؟ لأن سرها هو سر الحياة المكنون، وطيران الطيور الدال على كمال قدرة الله لا يمسهن إلا هو، والعلم الذي يدعيه الإنسان ويتناول به ويريد أن يختبر به أمر الساعة وأمر الغيب، علم حادث مكسوب.

٣ - المؤمن يزداد إيماناً وتوحيداً، بتأمله في مخلوقات الله؛ فمشهد الطير مسخرات في جو السماء يزيده تعظيماً وتسيحاً لله وحده الذي لا يمسهن في جو السماء إلا هو.

٤ - والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة، وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب، وظل السكن ليس غريباً عن ظل الغيب، فكلاهما فيه خفاء وستر. والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة.

٥ - تستعرض الآيات النعم التي تلبى الضرورات فيذكر المتاع إلى جانب الأثاث، والمتاع يطلق على ما في الأرحال من فرش وأغطية وأدوات إلا أنه يشي بالتمتع والارتياح: وللنفس في الظلال راحة وسكن، ولها في الأكنان طمأنينة، ولها في السراويل التي تقي الحر من الأردية والأغطية راحة وفي السراويل التي تقي البأس من الدروع وغيرها وقاية . . وكلها بسبيل من طمأنينة البيوت وأمنها وراحتها وظلها؛ فهذه نعم معروفة لا ينبغي لعاقل إنكارها.

المقطع العاشر: من مشاهد اليوم الآخر، الآيات (٨٤ - ٨٩):

﴿ وَيَوْمَ نَبَعُثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّامَةَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبَعُثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع العاشر والمقطع التاسع:

لما ذكر في المقطع التاسع إنكار الكفار لنعم الله، وتكذيب الرسول ﷺ ناسب أن يبين في هذا المقطع حالهم يوم القيامة والجزاء الذي ينتظرهم، لأن الرسول ﷺ قد أدى وظيفته فبلغهم ما أنزل إليه من الهدى والرحمة.

التفسير الإجمالي للمقطع العاشر:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٨٤)

الكافرون في يوم القيامة لا يقبل لهم عذر ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم ويقولون على أنفسهم بالكفر والافتراء، لذا جعل الرسل عليهم شهوداً ثم الذين إذا شهدوا، ثم لا يؤذن لهم فيعتذرون وذلك حين تطبق عليهم جهنم لأن اعتذارهم بعد ما علم يقينا بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئاً.

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (٨٥) عند معاينة العذاب لا يجدون من يخففه عنهم أو ينقذهم منه، ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٨٦) يوم القيامة عندما يرى المشركون شركاءهم ويعلمون بطلان كون الشركاء آلهة فإنهم يلقون باللوم على شركائهم فيقولون هؤلاء الذين كنا نعبدهم أو نطيعهم «ولعلمهم قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم» فيرد شركاؤهم إليهم القول: إنكم لكاذبون، فإن تكذبيهم إياهم فيما قالوا ليس إلا للمدافعة والتخلص من غائلة مضمونه وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم (بل كانوا يعبدون الجن) ويطيعونهم لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكان عبادتهم لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام^(١).

﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٨٧) واستسلموا له وفي

(١) تفسير أبي السعود، ٥ / ١٣٤.

المشار إليهم قولان: «أحدهما: أنهم المشركون. قاله الأكثرون، ثم في معنى استسلامهم قولان: أنهم استسلموا له بالإقرار بتوحيده وربوبيته أو: أنهم استسلموا لعذابه. والثاني: أنهم المشركون والأصنام كلهم قال الكلبي والمعنى أنهم استسلموا لله منقادين لحكمه.

وفي قوله تعالى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ فيه قولان: أحدهما: بطل قولهم أنها تشفع لهم.

والثاني: ذهب عنهم ما زين لهم الشيطان أن الله شريكا وولدا ردت عليهم شركاؤهم قولهم فقالت لهم: { إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية فاللوم عليكم^(١).

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (٨٨) وذم الله الذين كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في الأرض.

وبعث الله في كل أمة رسولا ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا ﴾ على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمة لأنه أعظم اطلاعا من غيره على أعمال أمة. ﴿ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه الناس من أمر الشريعة^(٢) ما يحتاجونه في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم فهو هدى ورحمة وبشرى.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤ / ٤٨١.

(٢) تفسير الجلالين ١ / ٣٥٨.

الهدايات المستنبطة من المقطع العاشر:

- ١- الرسول شاهد على الجميع ولا شفاعة للكفار وهم واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب. ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل.
- ٢- يتلاوم الكفار فيما بينهم يوم القيامة، ويكذب بعضهم بعضاً، ولا يجدي اللوم والمعاتبه شيئاً، لأن المتبوعين يتخلون عن اتباعهم يوم القيامة، فلا يملكون لهم نصراً.
- ٣- القرآن الكريم كتاب الله الذي أنزله على رسوله ﷺ، تبياناً لكل شيء وموعظة، وهدى من الضلالة.

المقطع الحادي عشر: توجيهات حول مكارم الاخلاق (٩٠ - ٩٧)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَفْضُلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَشْتَأَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَنْخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ بُوْضِهَا وَتَذُقُوا أَلْسُوَءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَفْضُلُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الحادي عشر والمقطع العاشر:

عرضت الآيات السابقة مزيداً من الأدلة على إثبات وحدانية الله، وختم المقطع العاشر بالحديث عن نزول القرآن الكريم وفي هذا المقطع بيان لبعض ما في الكتاب من التبيان والهدى والرحمة والبشرى. كالأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى... وغيرها، من مبادئ السلوك الأساسية التي جاء بها هذا الكتاب المنزل من الواحد الأحد.

التفسير الإجمالي للمقطع الحادي عشر:

أمر الله بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منها في حقه وحق عباده.

«والإحسان هو فعل كل مندوب إليه فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ومنها ما هو فرض إلا أن حد الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان»^(١)، فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كمنع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى: - وإن كان داخلاً في العموم - لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبتهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

ونهى عن الفحشاء ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤١٥.

والزنا والسرقه والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش. ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى. وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض. « فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمرنا به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء. ولعل ما ذكره لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرركم فإنكم إذا تذكروتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها^(١).

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه من العهود التي بينكم وبين الله تعالى والعهود التي بينكم وبين الناس فلا تنكثوا العهود بعد تغليظها^(٢).

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والندور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برا، ويشمل أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها، ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلا. فكما ائتمنتك وأحسن ظنه فيك فأوف له بما قلته وأكذته.

(١) تفسير المنان، السعدي ١/ ٤٤٧.

(٢) تفسير السمرقندي ج ٢: ص ٢٨٨.

والله يجازي كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ أَنْ تَأْتِيَكُمْ آيَاتُنَا دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۖ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فلا تكونوا في نقضكم للعهد كالمراة التي تغزل غزلاً قوياً فإذا استحکم وتم ما أريد منه نقضته، فجعلته أنقاضاً من بعد غزله وإحكامه. قال الكلبي ومقاتل: هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها ربطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وتلقب بجعر وكان بها وسوسة وكانت اتخذت مغزلاً بقدر ذراع، وصنارة مثل الأصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، وكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر، وتأمّر جواربها بذلك فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن، فهذا كان فعلها، ومعناه أنها لم تكف عن العمل ولا كفت عن النقض بعد العمل، فكذلك أنتم إذا نقضتم العهد لا كفتن عن العهد، ولا حين عاهدتم وبيتن به، أنكأنا يعني أنقاضاً، واحدها نكت، وهو ما نقض بعد الفتل غزلاً كان أو حبلاً ﴿ تَتَّخِذُونَ آيَاتُنَا دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أي دخلاً وخيانة وخديعة والدخل ما يدخل في شيء للفساد، وقيل الدخل والدغل أن يظهر الوفاء ويبطن النقض ﴿ أَنْ تَكُونَ ﴾ أي لأن تكون أمة هي أربي، أي أكثر وأعلى من أمة قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قوماً أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء، وحالفوا الأكثر، فمعناه: طلبتم العز بنقض العهد، بأن كانت أمة أكثر من أمة فنهاهم الله عن ذلك فالله يختبركم بأمره إياكم بالوفاء بالعهد وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون في الدنيا^(١) فيجازي كلا بما عمل، ويخزي الغادر. وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به حيث قيض من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي. قال رسول الله ﷺ: « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان^(٢) ».

(١) تفسير البغوي ٣ / ٨٢.

(٢) صحيح البخاري ٣١٨٨، وصحيح مسلم، ١٧٣٥، ومسند الإمام أحمد، ٤٠٤٥.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَشْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ فالله قادر على جمع الناس على الهدى، وجعلهم أمة واحدة ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً. ويحاسبكم على أعمالكم من خير وشر فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ لا يجوز لكم أن تتخذوا عهودكم ومواثيقكم تبعا لأهوائكم متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم، وتذوقوا العذاب الذي يسوءكم ويجزئكم حيث ضللتكم وأضللتكم غيركم فيضاعف لكم العذاب.

﴿ وَلَا تَشْرِكُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ يجذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها « ولا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسول الله ﷺ ثمناً قليلاً عرضاً من الدنيا يسيراً، كان قوم ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان جزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ.

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ فثبتهم الله إنما عند الله من ثواب الآخرة هو خير لكم إن كنتم تعلمون من أعراض الدنيا ينفد وما عند الله من خزائن رحمته باق لا ينفد فالذين صبروا على أذى المشركين ومشاق الاسلام أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى يتناول النوعين إلا أن ظاهره للذكور فبين بقوله من ذكر أو أنثى ليعم النوعين وهو مؤمن شرط الإيثار لأن أعمال

الكفار غير معتد بها وهو يدل على أن العمل ليس من الإيمان فلنحيينه حياة طيبة أي في الدنيا ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً فظاهر وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى وأما الفاجر فأمره بالعكس إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه وقيل الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة أو المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والاعراض عما سوى الله»^(١).

الهدايات المستنبطة من المقطع الحادي عشر:

١ - أمر الله بمكارم الأخلاق وأمر بالالتزام بها ومنها: العدل والإحسان والوفاء والنهي عن الفحشاء والمنكر ونقض العهد؛ لأن الكتاب الكريم جاء لينشئ أمة وينظم مجتمعاً على الفضيلة والأخلاق، ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب.

وإلى جوار العدل (الإحسان) يلطف من حدة العمل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحاً لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثاراً لود القلوب، والإحسان أوسع مدلولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعاً.

٢ - قد تشدد الإسلام في مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبداً، لأنها قاعدة الثقة التي ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم، والنصوص القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهي عن النقص إنما تستطرد لضرب الأمثال، وتقبيح نكث العهد، ونفي الأسباب التي قد يتخذها بعضهم مبررات كأن تكون دولة أقوى من دولة فتغدّر بسبب قوتها وضعف الأخرى.

(١) تفسير النسفي، ٢ / ٢٩٦ - ٢٧٠.

٣ - الذكر والأنثى متساويان في قاعدة العمل والجزاء، وفي صلتهما بالله، وفي جزائهما عند الله. ومع أن لفظ (من) حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل: من ذكر أو أنثى لزيادة تقرير هذه الحقيقة. وذلك في السورة التي عرض فيها سوء رأي الجاهلية في الأنثى، وضيق المجتمع بها، واستياء من يبشر بمولدها، وتواريه من القوم حزناً وغمماً وخجلاً وعاراً.

٤ - العمل الصالح لا بد له من قاعدة أصيلة يرتكز عليها، قاعدة الإيمان بالله، فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته؛ فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية، فتجعل الخير أصيلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير. لا عارضاً مزعزعاً يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.

٥ - الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً. ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ... ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة إلا بالإيمان.

المقطع الثاني عشر: التآدب بأداب القرآن ورد الإفتراءات الآيات (٩٨ - ١١١)

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ١٨ ﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ١٩ ﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ٢٠ ﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكُّ الْقُلُوبَ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢١ ﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ٢٢ ﴾ وَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِيَاتِيَ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَتَعْلَمُونَ ٢٣ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤ ﴾ إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ٢٥ ﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰٓئِلُونَ ﴿١١٨﴾ لَا جَرَءَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰٓسِرُونَ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هٰجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جٰهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنۢ نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهَمَّ لَا يُظَلَمُونَ ﴿١٢١﴾ ﴿

المناسبة بين المقطع الثنتي عشر والمقطع الحادي عشر:

لما ذكر الله جملة من توجيهات القرآن الكريم في المقطع الحادي عشر ناسب في هذا المقطع ذكر الآداب التي ينبغي للمسلم أن يتأدب بها حين يقرأ القرآن وأن يكون مدافعاً عن كل فرية تحاك ضده.

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني عشر:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطٰٓنِ الرَّجِيمِ ﴿١٢٨﴾ ﴾ وجهت الآيات المسلم إذا أراد قراءة كتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة إلى الاستعاذة من الشيطان الرجيم؛ فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها. فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، متدبراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه.

﴿ إِنَّمَا سُلْطٰٓنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ويقتصر سلطانه على أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم، ومنهم من يشرك به. ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ يخبر الله تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو

أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رآه كذلك قدحوا في الرسول وبها جاء به و كانوا يقولون إن محمداً يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق بل أكثرهم لا يعلمون الحكمة في ذلك»^(١) «ومعنى مفتر أي: تأتي بشيء وتنقضه فتأتي بغيره قال وهذا التبديل ناسخ ولا نبذل آية مكان آية إلا بنسخ»^(٢).

﴿ قُلْ نَزَلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ذكر تعالى حكمته في إنزال روح القدس وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيته، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿ لِيُنَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ لتثبيت قلوب المؤمنين عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتاً بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضاً فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكماً من الأحكام ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية.

والقرآن يهديهم إلى حقائق الأشياء ويبين لهم الحق من الباطل والهدى من الضلال ويشرهم أن لهم أجراً حسناً، ماكتين فيه أبداً. وأيضاً فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة وتفرق الفكر فيه؛ ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأولين والآخرين.

(١) تفسير النسفي، ٢ / ٢٧١.

(٢) تفسير الطبري ١٤ / ١٧٦.

وهذه الآية لها سبب نزول: حيث نزلت حين قال المشركون: «إن محمداً عليه الصلاة والسلام سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم وما هو إلا مفترى يقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية»^(١).

﴿وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بَشَرٌ﴾ وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصويره.

وسبب نزول هذه الآية ما جاء عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان صقليان، يقرآن كتابها، ويعلمان علمهما، واستمع الرسول صلى الله عليه وسلم لقراءتها فقال المشركون: إنما يتعلم منهما فنزلت الآيات^(٢). وذكر في اسميهما أكثر من رواية وأشهرها أنه حداد الرومي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ قضى الله على الذين لا يؤمنون بآياته الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها، حيث جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بحرمانه وخذلان الله لهم. أن لهم في الآخرة عذاب أليم.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يخبر الله عن مصدر افتراه الكذب من المعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٣ / ٢٣١.

(٢) التفسير المنير ٢٣٢ وهبة الزحيلي ١٣ / ٢٣١.

فمحال أن يكذب على الله ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحهم، فله تعالى الحمد.

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ وهذا تصوير لشناعة حال المرتد بعد الإيمان، ﴿إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها، وهذه الآية نزلت في عمار بن ياسر في قول أهل التفسير لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه قال بن عباس أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم وربطت سمية بين بعيرين ووجأ قُبُلُهَا بِحَرْبَةٍ، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال. فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تجذب قلبك قال: مطمئن بالإيمان فقال رسول الله ﷺ: فإن عادوا فعد»^(١).

﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْتِهِمُ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فعمى بعد ما أبصر ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضيا به مطمئنا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وغضب عليهم كل شيء، عذاب عظيم، في غاية الشدة مع أنه دائم أبدا، حيث ارتدوا على أدبارهم طمعا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه وزهدا في خير الآخرة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتِهِمْ وَأَبْصَرَتِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية فلم يهدمهم لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي

(١) تفسير القرطبي، القرطبي ١٠ / ١٨٠.

وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها،

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٠٩) ﴿ فهم حقاً الذين خسروا

أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة وفاتهم النعيم المقيم وحصلوا على العذاب الأليم. (١)

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ

رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١١٠) ومرة أخرى في نفس السورة يذكر الله فضل المهاجرين

في سبيله ثم إن ربك الذي ربي عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلي دياره وأمواله طلباً لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب

صغارها وكبارها المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم وديارهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَدِّدٌ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ كلُّ يقول نفسي نفسي لا يهيمه سوى نفسه،

ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير. ﴿ وَتُؤَفَّقُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ ﴾ من خير وشر ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فلا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني عشر:

١ - تسوق الآيات جملة من آداب تلاوة القرآن والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان. فالذين يتوجهون إلى الله وحده، ويخلصون قلوبهم لله، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم مهما وسوس لهم فإن

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي / ٤٥٠.

صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادوا إليه، وقد يخطئون لكنهم لا يستسلمون فيطردون الشيطان عنهم ويثوبون إلى ربهم من قريب.

٢ - كلام المشركين عن القرآن الكريم افتراءات غير صحيحة ردها القرآن، لأن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب. لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول ﷺ فحسبها افتراء منه وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذباً قط، فما يمكن أن يكون افتراء. وقد نزله روح القدس بالحق لا يتلبس به الباطل.

ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة لأن هؤلاء الذين لا يؤمنوا بآيات الله لم يهدمهم الله إلى الحقيقة في أمر هذا الكتاب، ولا يهديهم إلى الحقيقة في شيء ما. بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى ولهم عذاب أليم» بعد ذلك الضلال المقيم. ثم يثني بأن الافتراء على الله لا يصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون.

٣ - الرخصة في النطق بكلمة الكفر مع إطمئنان القلب بالإيمان مباح، والصبر على الإيمان أولى كما فعل بعض الصحابة مثل خبيب بن زيد وغيره.

والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه. لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إثارة للحياة الدنيا على الآخرة. فرماهم بغضب من الله، وبالعذاب العظيم، والحرمان من الهداية. ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار؛ وحكم عليهم بأنهم في الآخرة هم الخاسرون.. ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة، وحساب للربح والخسارة.

٤ - ولقد كان مجموعة من ضعاف العرب، الذين فتنتهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب وغيره، ولكنهم هاجروا بعد ذلك عندما أمكتهم الفرصة، وحسن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله صابرين على تكاليف الدعوة. فإله يبشرهم بأنه سيغفر لهم ويرحمهم.

٥ - يوم القيامة تشغل كل نفس بأمرها، لا تتلفت إلى سواها عن نفسه وهو تعبير يلقي ظل الهول الذي يشغل كل امرئ بنفسه يجادل عنها لعلها تنجو من العذاب ولا غناء في انشغال ولا جدال. إنما هو الجزاء، كل نفس وما كسبت.

المقطع الثالث عشر: ضرب أمثلة تتمة للأمثلة المذكورة في المقطع الثامن

الآيات (١١٢ - ١١٩)

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا لِعِنْمَتِ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لَعَلَيْكُمْ ءَالِيَةً مِّنَ الْمُذْكَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَإِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْيِيرِ وَمَأْكِلَ أَهْلِ الْبَيْتِ فَإِذَا ذُكِرْتُمْ فَتَبَّحُوا ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا كُنتُمْ تَصِفُونَ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعْتُمُوهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِيَتَفَكَّهُوا فإِذَا دُكِّرُوا عَلَيْهَا وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ لَازِمِينَ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث عشر والمقطع الثاني عشر:

سبق أن اشتمل المقطع الثامن مثلين لتقريب حقيقة من حقائق العقيدة، وفي المقطع الثاني عشر عذر الله الذين ينطقون كلمة الكفر بألسنتهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان وفي هذا المقطع الثالث عشر مثل آخر لتصوير حال مكة وقومها المشركين الذين جحدوا نعمة الله عليهم وتصوير لافتراء اليهود الكذب على الله ليتنظروا المصير الذي يتهدهم من خلال المثل الذي ضرب لهم، لعله يكون عبرة لهم ولغيرهم.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع عشر:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٣) وهذه القرية هي مكة المشرفة^(١) التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم، والنصرة العربية فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١١٣) فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب كفرهم وعدم شكرهم فظلموا أنفسهم.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١١٤) يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله أو أثرا عن غضب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعدد. واشكروا نعمة الله بالاعتراف بها بالقلب والثناء على الله بها وصرها في طاعة الله. إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ والله حرم عليكم الأشياء المضرة تنزيها لكم، وذلك: كـ ﴿ الْمَيْتَةَ ﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسماك. ﴿ وَالْدَّمَ ﴾ المسفوح وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر. ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ لقدارته وخبثه وذلك شامل للحمه

(١) الدر المنثور، السيوطي / ٥ / ١٧٤.

وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها لأنه مقصود به الشرك.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلِئَلَّهِ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن اضطر إلى شيء من المحرمات - بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا لم يكن باغيا أو عاديا، أي: إذا لم يرد أكل المحرم وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ (١١٣) ﴿أنكم تحلون وتحرمون لأجل الكذب لا لغيره هذا حلال وهذا حرام يعني البهيرة والسائبة لتفتروا على الله الكذب فتقولون إن الله أمرنا بهذا إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون لا ينجون من عذاب الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيمهم ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١٣) ﴿وإن تمتعوا في الدنيا فإنه متاع قليل ومصيرهم إلى النار، في العذاب الأليم^(١)، فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلا منه، وصيانة عن كل مستقذر.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٨) وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث، يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم، جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرما على آبائهم في عهد إبراهيم، عقوبة لهم خاصة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَدَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩) ﴿ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم، وهذا حض منه لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً وهو يجهل عاقبة ما جناه، فإذا تاب

(١) تفسير البغوي، ٣ / ٨٨.

وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث عشر:

- ١ - توعد الله من جحدوا نعمه بالعقاب الأليم كما ضرب أمثلة في هذا المقطع حيث بدّل أمنهم خوفاً ورزقهم جوعاً، ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباساً؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقاً، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد. وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس. لعلمهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون.
- ٢ - النهي عن التحريم بغير أمر الله، فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله. فهما تشريع. والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر. وما يدعي أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر والمفترون على الله لا يفلحون. ثم يجروا ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله، وبغير نص في شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين، ويتظنون أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله إشارة إلى بعض ما حرمه على اليهود عقوبة لهم.
- ٣ - أمر الله بالأكل مما أحل لهم من الطيبات وشكره على نعمته إن كانوا يريدون أن يستقيموا على الإيمان الحق بالله.
- ٤ - الآيات تفتح باب التوبة، فمن تاب ممن عمل السوء بجهالة ولم يصر على العصية، ولم يلج فيها حتى يوافيه الأجل؛ ثم أتبع التوبة القلبية بالعمل الصالح فإن غفران الله يسعه ورحمته تشملته إلى يوم الدين.

المقطع الرابع عشر: أهمية الدعوة وأساليبها: الآيات (١٢٠ - ١٢٨)

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجَبْتُهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَأَتَيْنَتْهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

مناسبة المقطع الرابع عشر للمقطع الثالث عشر:

في المقطع الثالث عشر ذكر الله حال المكذبين لرسولهم وافتراءهم على الله خاصة اليهود، فناسب في هذا المقطع أن يفند ادعاء نسبتهم إلى إبراهيم عليه السلام، ويوجه الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون متبعاً لملة إبراهيم عليه السلام على الحنيفية السمحاء، ويدعوا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتخلق بآداب الدعوة

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع عشر:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فكان إماماً جامعاً لخصال الخير هادياً مهتدياً. مديماً لطاعة ربه مخلصاً له الدين، مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة والعبودية معرضاً عن سواه. ولم يشرك في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجَبْتُهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ شاكراً ما آتاه الله في الدنيا

حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة، اجتناب ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين. وهداه إلى الصراط المستقيم في علمه وعمله فعلم بالحق وأثره على غيره. ﴿وَمَا تَبْتَلُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٢) فاعطاه رزقاً واسعاً، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقاً مرضية وجعله من الذين لهم المنازل العالية والقرب من الله تعالى.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣) ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمته.

وذكرت الآيات سبب تحريم يوم السبت على اليهود ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤) حين ضلوا عن يوم الجمعة فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمة إليه «قال كانوا يطلبون يوم الجمعة فأخطؤوه وأخذوا يوم السبت فجعله عليهم ليحكم بين هؤلاء المختلفين بينهم في استحلال السبت وتحريمه عند مصيرهم إليه يوم القيامة فيقضي بينهم في ذلك وفي غيره مما كانوا فيه يختلفون في الدنيا بالحق ويفصل بالعدل بمجازاة المصيب فيه جزاءه والمخطئ فيه منهم ما هو أهله»^(١).

ويوجه الله رسوله للتخلق بأداب الدعوة، ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥) فليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده. وفي المراد بالحكمة ثلاثة أقوال أحدها أنها القرآن رواه أبو صالح عن ابن عباس والثاني الفقه

(١) تفسير الطبري ج ١٤ / ١٩٤.

قاله الضحاك عن ابن عباس والثالث النبوة ذكره الزجاج وفي الموعظة الحسنة قولان أحدهما مواعظ القرآن قاله أبو صالح عن ابن عباس والثاني الأدب الجميل الذي يعرفونه قاله الضحاك عن ابن عباس»^(١).

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدتها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاقمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها. لأن الله يعلم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجزيه عليها. ويُعلم عباده المهتدين أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١١٦)

يقول تعالى - مبيحا للعدل ونادبا للفضل والإحسان - إن عاقبتم من أساء إليكم بالقول والفعل فعاقبوا من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم. وإن صفحتهم عن المعاقبة وعتوتم عن جرمهم، وصبرتم هو خير من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة.

﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١١٧)

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤ / ٥٠٦.

أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس هو الذي يعينك عليه ويثبتك. وإذا دعوتهم فلم تر منهم قبولاً لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئاً. ولا تكن في شدة وحرص من مكرهم، فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين.

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١٢٨) والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق يبذل النفع لهم من كل وجه.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع عشر:

١ - بيان العلاقة بين التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام من قبل، وبين رسالة محمد ﷺ المرتبطة بنفس دعوة التوحيد لله تعالى، فقد جاء هذا الكتاب لتبيان العقائد المنحرفة التي يتمسك بها المشركون واليهود. فدعوة الرسول ﷺ هي دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمجادل المخالفين في العقيدة بالتي هي أحسن.

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه، فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنوع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر

والتأنيب في غير موجب، ولا يفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية. فإن الرفق في الموعدة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل والتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له وتقييح. حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبريائها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يطمئن من هذه الكبرياء، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها. في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر! لأن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين. فلا ضرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله.

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة. فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير، فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزازاً لكرامة الحق، ودفعاً لغلبة الباطل، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفطيع، فالإسلام دين العدل والاعتدال، ودين السلم والمسالمة، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي، وليس ذلك بعيداً عن دستور الدعوة فهو جزء منه.

٢ - مع تقرير قاعدة القصاص بالمثل، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان، في الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً. وأكثر فائدة للدعوة. فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر. فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها، فالقاعدة الأولى هي الأولى. ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال، وضبط للعواطف، وكبت

للفطرة، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله). . فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس، والاتجاه إليه هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره.

٣- يوصي القرآن الرسول ﷺ وهي وصية لكل داعية من بعده، ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدى والضلال بيد الله، وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال. وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورائها شيئاً لنفسه، وقد يقع به الأذى لامتحان صبره، ويُطع عليه النصر لا ابتلاء ثقته بربه، ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون.

٤- النصر لدعوة التوحيد قادم بإذن الله؛ لأن معية الله مع المؤمنين المتقين المحسنين والغلبة لهذا الدين ولو كره الكافرون كما وعد الله. ومن أصدق من الله؟

سورة الإسراء

أولاً: بين يدي سورة الإسراء:

أسماء سورة الإسراء:

سُميت هذه السورة بسورة الإسراء لورود قصة إسرائ النبي محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فيها، حيث قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، وتسمى سورة بني إسرائيل لورود قصة تشردهم في الأرض مرتين بسبب فسادهم فيها ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكُتُبِ لَنْفُسِنَا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنْعَلَّ عَلْوًا كَثِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء: ٤].

(وتسمى سورة «سبحان» الذي هو عَلمٌ للتنزيه فمن أظهر ما يكون فيه؛ لأن من كان على غاية النزاهة عن كل نقص كان جديراً بأن لا نعبد إلا إياه، وأنه مستغن عن كل ما سواه لكونه متصفاً بما ذكر)^(١)

فضل سورة الإسراء:

ورد في فضل سورة الإسراء ما أخرجه الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: «بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي».^(٢) و العتاق: جمع عتيق، وهو كل ما بلغ الغاية في الجودة. وهن من تلادي: أي مما حفظ قديماً، و التلاد: قديم الملك وهو بخلاف الطريق.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم البقاعي، ج ٤، ص ٣٢٧، ط ١ دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٥ م.

(٢) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب التفسير: سورة الأنبياء، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ج ٤، ص ١٧٤١، ط ٣، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧ م. وفتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، ج ٨، ص ٣٨٨، دار المعرفة، بيروت.

ومراد ابن مسعود رضي الله عنه: إنهم من أول ما تعلم من القرآن الكريم، وأن هن فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمزم. »^(١)

مناسبة سورة الإسراء لما قبلها:

أ - ذكر سبحانه وتعالى في آخر سورة النحل: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿ [النحل: ١٢٣-١٢٤] وبين في سورة الإسراء شريعة أهل السبت وشأنهم وجميع ما شرعه لهم في التوراة، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ».

ب - أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم في آخر سورة النحل بالصبر على أذى المشركين: ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١٢٧) [النحل: ١٢٧] وسأله في الإسراء وأبان شرفه، وافتتح السورة بذكره تشریفاً له فقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِزَيْدٍ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١)

ج - ذكر في سورة النحل نعم الله الكثيرة حتى سُميت سورة النحل بسورة «النعم» وفصلت في سورة الإسراء أنواع النعم الخاصة والعامة كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ

(١) سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، باب فضائل القرآن، ج ٥، ص ١٨١، دار إحياء التراث العربي، بيروت. والمستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ج ٢، ص ٤٣٤ ط ١ دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ [الآيات ٩-١٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَنْوِقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَوَّلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٧٠﴾ [الآية: ٧٠].

د. في سورة النحل بين الله عز وجل أن القرآن الكريم من عنده لا من عند البشر كما زعم المشركون: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلَّفُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١١١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١١٢﴾ [الآيتان: ١٠١-١٠٢].

وهنا ذكر في سورة الإسراء الهدف الأساسي من نزول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ ﴿١﴾ [الآية: ٩].

في سورة النحل ذكر الله تعالى قواعد الاستفادة من المخلوقات الأرضية من الآية الخامسة: ﴿ وَاللَّهُ أَنْعَمَ خَلْقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ ﴾ إلى الآية الثامنة: ﴿ وَاللَّخْلَ وَالْأَعْنَابَ وَالْحَمِيرَ لِيَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨﴾، وفي سورة الإسراء ذكر قواعد الحياة الاجتماعية من بر الوالدين، وإيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم من غير تقتير ولا إسراف وتحريم القتل والزنا، وأكل مال اليتيم...^(١)

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٢٧-٣٢٨.

زمان نزول سورة الإسراء:

سورة الإسراء مكية النزول، وهناك روايات تقول بأن فيها آيات مدنيت، من تلك الآيات: ﴿وَمَاتِذَا الْقُرْآنُ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التميمي، حدثنا فضيل ابن مرزوق، عن عطية عن أبي سعيد قال: لما نزلت ﴿وَمَاتِذَا الْقُرْآنُ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطها فذك، ثم قال - أي البزار - لا نعلم من حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبا يحيى التميمي وحيد بن حماد بن الخوار، وهذا الحديث مشكل لو صح إسناداه؛ لأن الآية مكية، و«فذك» إنما فُتحت مع خبير سنة سبع من الهجرة، فكيف يلتم هذا مع هذا؟! فهو إذاً حديث منكر والأشبه أنه من وضع الرافضة، والله أعلم^(١).

ومن الآيات التي قيل إنها مدنية^(٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَاءَ الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الآية: ٦٠] وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِطْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الآية: ٧٦] وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الآية: ٨٠]

والراجح ما ذهب إليه الجمهور، وهو قول ابن جرير الطبري وابن كثير والبيضاوي، وأنه لا يثبت أي شيء من ذلك، وأن جميع هذه الآيات مكيات.^(٣)

- (١) أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، د. أحمد عباس البدوي، ص ٩٨ وما بعدها، ط ١، دار عمار، عمان، ١٩٩٩م
- (٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ج ٤، ص ٣٢٨، دار الشعب - القاهرة
- (٣) انظر جامع البيان في تفسير آي القرآن، ابن جرير الطبري، ج ٣، ص ٣، ط ١، دار الفكر، بيروت، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، ج ٣، ص ٥، مؤسسة علوم القرآن، عمان.

ومن الآيات التي وَرَدَ استثناءؤها من هذه السورة المكية آية الروح، وهي قوله تعالى:

﴿ وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الآية: ٨٥]

فقد وَرَدَ في فتح الباري بشرح صحيح البخاري في كتاب التفسير، باب: ويسألونك عن الروح قال: حدثنا عُمَرُ بن حَفْص بن غِيَاثٍ حدثنا أبي حدثنا الأعمش قال: حدثني إبراهيم عن علقمة عن عبد الله - أي ابن مسعود - رضي الله عنه قال: بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حَرْتٍ وهو مُتَكِيٌّ على عَسِيبٍ إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ فَقَالَ: ما رابكم إليه ؟ - ما حاجتكم إليه - وقال بَعْضُهُمْ لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بَشِيءٌ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَقُمْتُ مَقَامِي فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ:

﴿ وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

قال ابن حجر: ولا بن مردويه من وجه آخر عن الأعمش في حرت للأنصار وهذا يدل على أن نزول الآية وقع بالمدينة، لكن روى الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن بن عباس قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾.

قال ابن حجر: ورجاله رجال مسلم وهو عند بن إسحاق من وجه آخر عن بن عباس نحوه ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول بحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك. ^(١)

قلت: ووجدت ابن كثير أيضاً يجمع بين الحديثين، أي: سبب النزول الذي وَرَدَ بشأن سؤال مشركي مكة لليهود، ثم سألهم بعد توجيه اليهود لهم للرسول صلى الله عليه وسلم، والسبب الذي ذُكِرَ بشأن سؤال اليهود للرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة بتعدد النزول، وعلى ذلك فالآية مكية مكرر نزولها في المدينة، وعليه فإني أرجح أنها كلها مكية النزول، والله أعلم.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج ٨، ص ٤٠١.

عدد آيات سورة الإسراء :

إن عدد آيات سورة الإسراء هو مائة وأحد عشرة آية، وقيل: مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيين، و مائة وعشرة عند الباقيين. وسبب ذلك الاختلاف الذي وقع في المصاحف التي نُسخَت على عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وأُرسل بها إلى الأمصار. ^(١)

محور سورة الإسراء :

إن محور سورة الإسراء الأساسي هو ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية مثلها مثل سائر السور المكية

من إثبات التوحيد والرسالة، والبعث والجزاء، وإبراز شخصية الرسول ﷺ، وتأييده بالمعجزات الكافية الدالة على صدقه فيما يُبلغ عن ربه سبحانه وتعالى، وتفنيده شبهات المشركين، وتحلل ذلك من المستطردات و الندر والعظات ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين، ومن الأمثال ما فيه علم وحكم.

كما تناولت الحديث عن القرآن الكريم، وإثبات أنه وحي من الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ، ويمكن أن يلحظ ذلك المتدبر لكلام الله تعالى من افتتاحية السورة، حيث إنها تضمنت الأخبار عن حدث عظيم ومُعجزة لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وهي معجزة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في جزء من الليل، وهي دليل على قدرة الله تعالى وتكريم إلهي لهذا الرسول الكريم.

كما أخبرت عن قصة بني إسرائيل في حالتها الإصلاح والفساد، وذكرت الأدلة الكونية الدالة على قدرة الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ﴾ [الآية: ١٢]

و وضحت أصول الحياة الاجتماعية: ﴿ وَفَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الآية: ٢٣] إلى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج ١٥، ص ٧. دار سحنون، تونس، ١٩٩٧ م.

إِنَّمَا آخِرُ فُلُقَيْنِ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّذْحُورًا ﴿٣٩﴾ [الآية: ٣٩].

ونعت على المشركين نسبتهم البنات لله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتِثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الآية: ٤٠] إلى غير ذلك مما سنبينه أثناء دراستنا للسورة.

المناسبة بين اسم سورة الإسراء ومحورها:

تقدم أن محور هذه السورة الأساسي هو ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية، من إثبات التوحيد والرسالة، والبعث والجزاء،... إلخ.

وبينت آيات السورة الكريمة هذه القضايا في وحدة موضوعية متماسكة من افتتاحيتها لقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ وهو التنزيه الكامل لله سبحانه وتعالى عن كل نقص، وختمت هذه السورة بالتحميد وهو صفة المدح والثناء كما في قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] فأنسب ختام السورة لافتتاحيتها، وبهذا تتجلى الوحدة الموضوعية لهذه السورة فسبحان القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] فأنسب السورة مناسبة لمحورها، كما أن افتتاحيتها مناسبة لخاتمها كما هو مبين فيما تقدم. والله أعلم.

المناسبة بين افتتاحية سورة الإسراء وخاتمة سورة النحل:

في آخر سورة النحل ورد قول الله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي ضَلُوبٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧] أي: اصبر على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذى، وما عانيته من إغراضهم. ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي وما صبرك ملبساً ومصحوباً بشيء من الأشياء إلا بذكر الله تعالى، وفيه من تسلية النبي ﷺ وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه.

وبعد هذا الذي تقدم في آخر سورة النحل، سلاه سبحانه هنا وأبان شرفه وسمو منزلته عند ربه بالإسراء، وافتتح السورة بذكره تشريفاً له وتعظيماً للمسجد الأقصى.

المناسبة بين مضمون سورة الإسراء ومضمون سابقتها وهي سورة النحل:

بما أن سورة الإسراء سورة مكية إجماعاً، فإن مضمونها هو مضمون سورة النحل التي عاجلت موضوع العقيدة. فهي تتحدث عن قدرة الله سبحانه وتعالى في مخلوقاته، وهذه القدرة جعلها الله في نوع من مخلوقاته يصعب الاقتراب منه لشدة بطشه في الدفاع عن مملكته، ومع ذلك جعل فيه سرّاً يطلبه البشر جميعاً ويحرصون على الحصول عليه، وهذه القدرة جعلت في النحل ميزة عن سائر أنواع المخلوقات وذلك إظهاراً لقدرة الخالق سبحانه وتعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٩] لذا سميت السورة باسم هذا المخلوق: النحل.

وفيها ذكّر الله أيضاً كثيراً من النعم التي أوجدها لنفع الناس، ولذا عقب بعد ذكر هذه المخلوقات بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]

وجاءت سورة الإسراء تحمل المضامين نفسها من قضايا العقيدة، من تنزيه الله تعالى والنظر في نعمه الكثيرة التي لا تحصى، وتكريمه لبني آدم. وخُتمت بأمر العقيدة: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الآية: ١١٠]

فمضمون سورة النحل ومضمون سورة الإسراء متشابهان. فقط هناك تنوع في العرض والأساليب لتأكيد أهمية أمر العقيدة.

ثانياً: التفسير الإجمالي لسورة الإسراء

المقطع الأول

قصة الإسراء

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ، مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

سبب النزول:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَتَيْتُ بِالْبُرَاقِ - وَهُوَ دَابَّةٌ أبيضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَعْلِ يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ - قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ - قَالَ - فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ - قَالَ - ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَأَخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ اخْتَرْتِ الْفِطْرَةَ»^(١).

يعني فطرت الإسلام وهناك روايات أخرى^(٢).

فبعد أن عاد النبي ﷺ من الإسراء والمعراج، خرج إلى المسجد الحرام، وأخبر قريشاً فتعجبوا منه لاستحالة ذلك في نظرهم، وسعى رجال إلى أبي بكر الصديق - ﷺ - وذكروا ما قاله لهم رسول الله ﷺ فقال: «إن كان قال لقد صدق. قالوا تُصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك. فسمي الصديق. وطلبت طائفة سافروا إلى بيت المقدس من النبي ﷺ أن ينعت المسجد لهم فجلي له، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن غيرنا. فأخبرهم بعدد جاهها وأحوالها، وقال: تقدّم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، حديث رقم ١٦٢.
 (٢) انظر صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، حديث رقم ٣٨٨٧، وانظر كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج ١، ص ١٠٨.

أورق، فخرجوا ينشدون العير إلى الثنية، فصادقوا العير كما أخبر، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين»^(١).

الإسراء كان بالروح والجسد معاً:

إنه ﷺ أُسْرِيَ به بروحه وجسده، ولا عبرة لقول من قال: إن الإسراء كان بالروح لا بالجسد. ويقول ابن جرير: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يُقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن الرسول ﷺ إن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات، ولا معنى لقول من قال: أُسْرِيَ بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته، ولا حجة على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكان يدفعون به لمن صدق فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل؟! كما أن الله تعالى أخبر في كتابه أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزاً لأحد أن يتعدى ما قال الله تعالى إلى غيره)^(٢).

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾: فيه براعة الاستهلال؛ لأنه لما كان الإسراء أمراً خارقاً للعادة، بدأ السورة بما يُشير إلى كمال القدرة، وتنزهه تعالى عن صفات النقص التي وصفه بها المشركون، حيث نسبوا له من خلقه شريكاً، وإن له صاحبة وولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال ابن كثير رحمه الله: (يمجد تعالى نفسه ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه). ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أي: في

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ج ١٥، ص ١١، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١ م.

(٢) جامع البيان، مصدر سابق، ج ٩، ص ٨.

جنح الليل. - ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾: من المسجد الحرام، وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام^(١) ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فأمرهم في محلّتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: في الزروع والثمار.

﴿لِزَيَّتِهِ﴾ أي: محمداً ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ١٨ [النجم: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.^(٢)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- ثبوت حادثة الإسراء بنص القرآن الكريم (أسرى بعبده).
- كان الإسراء بالروح والجسد يقظة لافي الرؤيا والنام، بدليل (عبده) وهو مجموع الروح والجسد.
- الدلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث أسرى بعبده محمد ﷺ ليلاً من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى بيت المقدس بالشام، ثم عاد إلى مكة المكرمة وأخبر ﷺ قومه بما جرى له وما أكرمه الله به في صبيحة تلك الليلة.
- الرسول ﷺ رأى عجائب قدرته الإلهية المتمثلة في مشاهدته بيت المقدس، وتمثل الأنبياء عليهم السلام له ووقوفهم على مقاماتهم ذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤

(٢) المصدر سابق، ج ٣، ص ٥.

المقطع الثاني

إكرام سيدنا موسى ﷺ

قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا ۚ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما أثبت بهذه المعجزة الخالدة الإسراء ما أخبر به عن نفسه المقدسة، من عظم القدرة على كل ما يريد، أخبر أنه أتى موسى ﷺ التوراة وجعله هدى لبني إسرائيل، فقال: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: أكرمنا محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج، وأكرمنا موسى ﷺ بالكتاب وهو التوراة.

وقيل معنى الكلام: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، وآتى موسى الكتاب.

﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا﴾: معيناً ونصيراً، وقرأ أبو عمرو: «ألا يتخذوا» بالياء وهو العهد الذي في هذا الكتاب، ألا تتخذوا مع الله شريكاً يا ذرية من حملناهم مع نوح، وأنجيناهم من الغرق، وهديناهم إلى الحق والخير، أنتم أولى الناس بالتوحيد الخالص، والسير على سنن الأنبياء والمرسلين، وها هو ذا نوح أبوكم ﷺ كان عبداً شكوراً، فاقتفوا أثره واتبعوا سنته.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إكرام سيدنا موسى ﷺ بالكتاب وهو التوراة.
- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والنهي عن اتخاذ الشريك، فالله وحده هو الولي والنصير والمعين.
- الدعوة إلى السير على سنن الأنبياء والمرسلين.

المقطع الثالث

من أحوال بني إسرائيل في التاريخ

قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ .

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى إنعامه على بني إسرائيل بإنزاله التوراة عليهم لتكون لهم هدى يبتدون بها، ذكر أنهم ما اتبعوا هداها، بل أفسدوا في الأرض بقتل الأنبياء وسفك الدماء، فسلط الله عليهم البابليين بقيادة «بختنصر»، فقتلوه، ونهبوا أموالهم وخرّبوا بيت المقدس، وسبوا أولادهم ونساءهم، وذلك أول الفسادين وعقابه، ثم لما تابوا أعاد الله لهم الدولة والغلبة، وأمدهم بالأموال والبنين، ثم عادوا إلى فسادهم وعصيانهم فقتلوا زكريا ويحيى عليها الصلاة والسلام، فسلط الله عليهم الفرس فقتلوهم وسلبوه، وخرّبوا بيت المقدس مرة أخرى، ثم وعدهم الله تعالى بالنصر إن أطاعوه، وبالعقاب بنار جهنم إن عصوا وأفسدوا...^(١).

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾: أي: وأوحينا إلى بني إسرائيل في التوراة وحياً مقضياً مقطوعاً بحصوله بأنهم يفسدون في الأرض مرتين: في أرض الشام وبيت المقدس، أو في كل أرض تحلون فيها، ولتفسدن نفوسكم بمخالفة ما شرعه لكم ربكم في التوراة.

﴿ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾: أما أولاهما: فبمخالفة التوراة وقتل الأنبياء.

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٢١.

والثانية: بقتل زكريا عليه السلام، وقيل: بقتل يحيى، والعزم على قتل عيسى ابن مريم، وقيل غير ذلك. (١)

﴿وَلَنَعْلَنَ عَلْوًا كَبِيرًا﴾: أي ولتتجاوزن الحدود، حدود الشرع والعقل بالبغي، والظلم والتعالي على الناس.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولُهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾

أي: فإذا جاء وعد المرة الأولى وحن وقت العقاب الموعود به في الدنيا، بعثنا عليكم عباداً من عبيدنا أولي بأس وقوة، وأصحاب عدة في الحروب وعدد، وهؤلاء القوم قد جاسوا خلال الديار، وفتشوا البلاد ونقبوا عليكم؛ ليستأصلوكم بالقتل والتشريد، وهذا مصير كل أمة تُفسد في الأرض بالبغي والظلم حتى تفسد نفوس أبناءها وتطغى، لا بد من أن يُرسل الله عليها من يذلها ويذيقها سوء العذاب جزاء فساده، ولو كان المؤدب لها من الكفار والمشركين، كما أخبر الله تعالى بذلك: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣﴾﴾. وتلك سنة الله تعالى في خلقه لا تتخلف ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إخبار الله تعالى لبني إسرائيل أنهم سيقدمون على الفساد والمعاصي، لما علم منهم في علمه السابق الأزلي أنهم أرباب انحراف وفساد وتخريب، والمراد بالمعاد مخالفة أحكام التوراة.
- تكرر العقاب مرتين والإنقاذ من العذاب مرتين أيضاً فيه رحمة من الله تعالى بعباده لأن العقاب قد يكون سبيلاً للإصلاح والتربية والتهذيب.
- عقاب اليهود أولاً على يد بختنصر وثانياً على يد ملك بابل أو قيصر الروم.

(١) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، ٢م، ص ٣٥٤، ط ١٠، دار الجليل، بيروت ١٩٩٣م.

المقطع الرابع

إعادة الدولة والغلبة لهم

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوُا تَبِيرًا ۗ ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم ۖ وَإِنْ عُثِرْتُمْ مَدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۗ ﴿٨﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه: لما بين سبحانه أنه قادر على إذلال العزيز بعد ضخامة عزه، بين أنه مقتدر على إيداعه على من قهره بعد طول ذله إذا نقاه من درنه وهذبه من ذنوبه، فقال تعالى مشيراً بأداة التراخي إلى عظمة هذه الإدالة بخرقها للعوائد. (١)

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾: جعلنا لكم الدولة والغلبة عليهم حينما تبتم ورجعتم إلى دينكم بعد ذلك البلاء الشديد، ومنحناكم الأموال الكثيرة والذرية الوفيرة، وجعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من أعداءكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم.

ثم عاد اليهود إلى فسادهم والإفساد في الأرض، فقال سبحانه وتعالى لهم:

﴿ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾: أي فعليها كقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾.

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي المرة الآخرة، فإذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ ﴾ بالإهانة والقهر ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي: وليدخلوا بيت المقدس كما دخلوه أول مرة ﴿ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوُا تَبِيرًا ﴾: وليدمروا ويخربوا

(١) نظم الدرر، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٣٧.

كلما ظهر وا عليه.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمۥٓ وَإِنَّ عُذَّتُمْ ۖعُدْنَا﴾: يعني: عسى ربكم أن يصرفهم عنكم، ومتى عدتم إلى الفساد في الأرض، عدنا إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما يدخر لكم في الآخرة من العذاب والنكال. (١)

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾: أي جعلنا جهنم مستقرًا ومحصرًا وسجنًا لا محيد لهم عنه. (٢)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- قوة شوكة بني إسرائيل - بعد الهزيمة الأولى - وذلك بإمدادهم بالأموال والبنين وجعلهم أكثر عددًا وعدة من عدوهم.
- جزاء الإحسان والإستقامة على طاعة الله تعالى عائدة على الإنسان نفسه في الدنيا قبل الآخرة، وكذلك الإساءة والمخالفة لأوامر الله تعالى عائدة للإنسان نفسه.
- رحمة الله تعالى غالبية على غضبه؛ لأنه سبحانه وتعالى لما ذكر إحسانه أعاده مرتين ﴿إِنَّ أَحْسَنَهُ أَحْسَنَتْهُ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ ولما ذكر إساءتهم ذكرها مرة واحدة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٤-٣٥.

(٢) المصدر السابق.

المقطع الخامس

أهداف القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝ ﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما أكرم به نبيه محمداً ﷺ وهو الإسراء، وما أكرم به موسى عليه الصلاة والسلام وهو التوراة، وأنها هدى لبني إسرائيل، وما سلط عليهم بذنوبهم من عذاب الدنيا والآخرة مما يستدعي ردع العقلاء عن معاصي الله، ذكر ما شرف به رسوله ﷺ من القرآن الكريم الناسخ للتوراة وكل كتاب إلهي، وأبان أهدافه من الهداية للطريقة أو الحالة التي هي أقوم، والتبشير بالشواب العظيم لمن أطاعه وإنذار الكافرين بالعذاب الأليم.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾: قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويُسدد من اهتدى به «للتتي هي أقوم» يقول للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه، وهو الإسلام، فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين إلى قصد السبل التي ضل عنها سائر أهل الكتاب المكذبين).^(١)

﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ ﴾: ويُبشر مع هدايته من اهتدى للسبيل الأqvسد، الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله به وينتهون عما نهاهم عنه. - ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾: أي ثواباً عظيماً من الله، وذلك الأجر العظيم هو الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج ٩، ص ٦١-٦٢.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾: ويبي ذلك جزاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يصدقون بالمعاد إلى الله، ولا يتحاشون من ركوب معاصي الله، وهذا الجزاء عذاب جهنم وبئس المصير.

ثم ذكر حال الإنسان عند الغضب والعجلة، يدعو على نفسه بالشر، فقال تعالى:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾: أي يدعو الإنسان بالشر على نفسه مثلما يدعو لها بالخير عند وقوع كرب عليه، ولو استجيب له في ذلك لهلك، وذلك لما جُبل عليه من العجلة وعدم التمهّل. قال ابن عباس رضي الله عنه: (هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده عند الضجر، يقول اللهم أهلكه، اللهم دمره،... ونحو ذلك).^(١)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم سبب اهتداء للبشرية كافة، يُرشد لأقوم الطرق، وأوضح المناهج، وأعدل المسالك وهي توحيد الله، والإيمان برسله عليهم الصلاة والسلام، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.
- كما إن للقرآن الكريم هدف آخر، وهو التبشير والإنذار، تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة، وإنذار الكافرين بالعقاب في نار جهنم، وهما - أي الوعد والوعيد - منهج من مناهج القرآن الكريم الدعوية التربوية.
- ويبيّن النص هذا طبع الإنسان وفيه القلق والعجلة، وبها دعا على نفسه وولده وماله لكن الله رحيم ودود. ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ [يونس: ١١].

(١) انظر التفسير الواضح الميسر، محمد الصابوني، ص ٦٨٩، ط ١، دار الأفق، بيروت، ٢٠٠١م.

المقطع السادس

التذكير بنعم الله في الدنيا ودلائل القدرة الإلهية.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتِي بِضُرٍّ آخِرٍ هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه: لما أثبت سبحانه وتعالى ما لصفته من العلو ولصفة الإنسان من السفول، تلاه بما لأفعاله تعالى من الإتيان ذاكراً ما هو الأقوم من دلائل التوحيد والنبوة في العالمين العلوي والسفلي، ثم ما لأفعال الإنسان من العوج جرياً مع طبعه، أو من الإحسان بتوفيق اللطيف المنان، فقال تعالى مبيناً ما منحهم به من نعم الدنيا بعدما أنعم به عليهم من نعم الدين. (١)

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَجَعَلْنَا لَيْلٍ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فُضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

وجعلنا الليل والنهار علامتين دالتين على قدرتنا وبديع صنعنا، وفي تعاقبهما واختلافهما

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ٤، ص ٣٦٦.

تحقيق لمصالح الإنسان، ففي الليل سكنه وهدوءه وراحته، وفي النهار حركته وشغله وتقلبه في أنحاء الدنيا للمعيشة والكسب والصناعة والعمل...

كما أن في الليل ظلام دامس ومحو للضوء يتلاءم مع راحة النفس والعين والسمع، وفي النهار ضوء ونور يناسب الحركة والعمل وإبصار الأشياء، فهذان متان من الله تعالى على خلقه بجعل الليل ممحو الضوء مطموساً مظلماً لا يُستبان فيه شيء، وجعل النهار مُبصراً أي تُبصر فيه الأشياء وتُستبان.^(١)

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾: ولتعلموا أيضاً باختلافها عدد السنين وانقضاءها، وابتداء دخولها، وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾: أي وكل شيء بيناه بياناً شافياً لكم أيها الناس لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه، وتخلصوا له العبادة دون الآلهة والأوثان، ومثله ما جاء في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَ رَأْسِهِ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُوراً ﴿١٣﴾﴾: وكل إنسان من بني البشر أُلزِمناه ما قُضي له أنه عامله وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه ألا يفارقه.

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾: يقول حسبك اليوم نفسك عليك حساباً يحسب عليك أعمالك، فتحصيتها عليك، لا نبغي عليك شاهداً غيرها، ولا نطلب عليك محصياً سواها.^(٢)

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٣٣.

(٢) انظر جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج ٩، ص ١٥١.

لذلك قال الله تعالى:

﴿ مَن أَهْتَدَى ﴾: أي: من استقام على طريق الحق فاتبعه، وذلك دين الله الذي ابتعث به نبيه محمداً ﷺ - ﴿ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾: فليس ينفع بلزومه الاستقامة وإيمانه بالله ورسوله غير نفسه.

﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾: ومن جار عن قصد السبيل فأخذ على غير هدى وكفر بالله ورسوله محمد ﷺ، وبها جاء من عند الله من الحق، فليس يضر بضلاله وجوره إلا نفسه؛ لأنه يُوجب لها بذلك غضب الله تعالى وألم عذابه.

﴿ وَلَا نُزِرْ وَأَزِرُّ وَزَرَ أُخْرَى ﴾: وقد كانوا يقولون: « نحن لا نَعذب في شيء، وإن كان هناك عقاب فهو على آباءنا، إذ نحن مُقلدون فقط لهم»، فردَّ الله بهذا عليهم أبلغ رد و أكده ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾: يدعوهم إلى الخير، ويُحذِّرهم من الشر، وهذه الآيات تحثنا - نحن المسلمين - على العمل، وتدفعنا إلى الجِدِّ وعدم الكسل.

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾: أي: إذا أردنا أن ندمر قرية من القرى وقد دنا وقت هلاكها، ولم يبق من زمان إهلاكها إلا قليل، أمرنا مُتْرَفِيهَا بالطاعة، ففسقوا عن أمر ربهم، وخرجوا عن طاعته، والأمر هنا للجميع مُتْرَفًا كان أو غير مُتْرَف، غنياً أو فقيراً، ولكن لما كان الأمراء والأغنياء هم القادة وغيرهم تَبِع، والعامَّة شأنها التقليد دائماً، قيل: أمرنا المترفين الأغنياء حتى كأن الفقراء غير مأمورين على ما جاء في سورة إبراهيم: ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَاتُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: (هذا وعيد من الله تعالى ذكره لمكذبي رسوله محمد ﷺ من مُشركي قريش، وتهديدهم لهم بالعقاب، وإعلام منه لهم بأنهم إن لم ينتهوا عما هم عليه مقيمون من تكذيبهم رسوله عليه الصلاة والسلام، أنه يُحِلُّ بهم سخطه، ومُنزِلٌ بهم من عقابه

ما أنزل بمن قبلهم من الأمم الذين سلخوا في الكفر بالله وتكذيب رسلهم سبيلهم).^(١)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقص وتعاقبهما، وضوء النهار وظلمة الليل، دليل على وحدانية الله تعالى ووجوده، وكمال علمه وقدرته.
- النهار وقت مناسب للعمل والحركة، والتقلب في الأرض لكسب المعاش وتحصيل الرزق.
- إن كتاب الإنسان وسجله بما قدمت يداه من خير أو شر يُعرض عليه يوم القيامة، ويُقال له: ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (١٤).
- إن عذاب الاستئصال لا يكون إلا بشيوع المعاصي والذنوب والمنكرات، فإذا أراد الله إهلاك قرية أمر مُترفيها وغيرهم بالطاعة والرجوع عن المعاصي، فإذا فسقوا وظلموا وآثروا المعصية على الطاعة خلافاً للأمر، حَقَّ عليها القول بالتدمير والإهلاك.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج ٩، ص ١٥١.

المقطع السابع

من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّهُ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما تقرر أنه سبحانه خبير بذنوبهم بعد تزيده في الدنيا بما ذكر من مصارع الأولين، أتبعه الإخبار بأنه يعاملهم على حسب علمه على وجه معرف بعلمه بجميع طوياتهم من خير وشر مرغب في الآخرة، مرهب من الدنيا^(١). يقول الدكتور وهبة الزحيلي: (الآيات مرتبطة بما قبلها بنحو واضح، فبعد أن بين الله تعالى ارتباط كل إنسان بعمله، قسّم العباد إلى قسمين:

قسم يريد الدنيا ويعمل لها وعاقبته النار.

وقسم يريد الآخرة ومآله إلى الجنان، وكل من الفريقين يرزقهم ربهم في الدنيا؛ لأن عطاء الله ليس ممنوعاً عن أحد، ولكنهم متفاضلون في الرزق ومراتب التفاوت في الآخرة أكثر من مراتب تفاوت الدنيا...)^(٢).

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾: أي من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يسعى وإياها يبتغي لا يُوقت بميعاد، ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾:

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ٤، ص ٣٧١

(٢) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٤٢.

فَيُعَجِّلُ اللَّهُ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَا يَشَاءُ مِنْ بَسْطِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ أَوْ تَقْتِيرِهَا لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ، أَوْ إِهْلَاكِهِ بِهَا يَشَاءُ مِنْ عِقَابَاتِهِ. (١)

فمن كان همُّه الدنيا فقط لا همَّ له غيرها، ولها يسعى ويتعب، عَجَّلْنَا لَهُ مِنْ نَعِيمِهَا مَا نَشَاءُ نَحْنُ، لَا مَا يُحِبُّ وَيَهْوَى، (فترى أن القرآن الكريم قيّد التعجيل بأمرين: أولاً: يُعَجِّلُ اللَّهُ بِهَا يَشَاءُ هُوَ لَا بِمَا يَحِبُّ الْعَبْدَ، والثاني: يُعَجِّلُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ لَا لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا. أَلَسْتَ تَرَى كَثِيرًا مِمَّنْ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا وَيُرِيدُونَ الْعَاجِلَةَ يَتَمَنُّونَ مَا يَتَمَنُّونَ وَلَا يَعْطُونَ إِلَّا بَعْضَ أَمَانِيهِمْ.

أما الصنف الثاني وهو من لم يجعل الدنيا أكبر همه بل كان قصده المهم الآخرة أرادها وسعى لها سعيها المناسب لما لها من فضل وثواب، والحال أنه مؤمن بالله، واثق فيه مصدق به وبكتبه ويومه الآخر، فأولئك البعيدون في درجات الكمال والجلال كان سعيهم مشكوراً ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ١١ ﴾ انظر إلى هؤلاء يريدون بعملهم الآخرة، ولا يُبَالُونَ بِشَيْءٍ بَعْدَهَا، فَإِنْ أَوْتُوا حِظًّا مِنَ الدُّنْيَا شَكَرُوا رَبَّهُمْ، وَإِنْ مُتَعَوَّضُوا وَصَبَرُوا مَعْتَقِدِينَ أَنَّ مَا هُمْ فِيهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى...

والسعي المشكور والعمل المأجور تقدمه ثلاث، إن تحققت فاز صاحبها وشكر ربه:

أ - قصد الآخرة والاتجاه إليه في كل عمل حتى يكون رائده ثواب الدنيا لا متاع الآخرة.

ب - العمل لها عملاً يناسبها، عملاً كاملاً تاماً خالياً من الرياء والسمعة والغرض الحقيق.

ج - الإيمان العميق بعد الفهم الدقيق، والإخلاص الوثيق، فتلك سفن التجارة ومركب السعادة، وما عدا هذا فمتاع زائل، وعرض حائل لا غنى فيه ولا خير. (٢)

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُودًا ٢٢ ﴾: يقول ابن جرير الطبري رحمه

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج ٩، ص ٧٦.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م ٢، ص ٣٦٢.

الله: (لا تجعل يا محمد مع الله شريكاً في ألوهيته وعبادته، والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك به شريكاً فتتعد « مذموماً » على شركك به»، مخذولاً؛ « لأن الرب تعالى لا ينصرك، ويكلِّك إلى الذي عبدت معه وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً؛ لأن مالك النفع والضر هو الله وحده لا شريك له).^(١)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الناس في مجال العمل في الدنيا صنفان: صنف يريد الدنيا، وصنف يريد الآخرة. أما الصنف الأول: فلا يُعطيه الله من الدنيا إلا ما يشاء ولن شاء، ثم يؤاخذ به عمله، وعاقبته دخول النار حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه إذا اختار الفاني على الباقي.
- وأما الصنف الثاني: وهو الذي يريد الدنيا على الآخرة، ويعمل لها عملها من الطاعات، وكان مؤمناً؛ لأن الطاعات لا تُقبل إلا من مؤمن، فيكون عمله مقبولاً غير مردود.
- اقتضت حكمة الله تعالى أن يرزق المؤمنين والكافرين - رحمة منه - فلا يكون عطاؤه محبوساً ممنوعاً عن أحد، لكن الناس في الدنيا متفاوتون في الرزق بين مُقل ومُكثر والتفاوت في الرزق ليس مُرتبط بالإيمان ولا بالكفر، فقد يكون مؤمناً غنيّاً وآخر فقير، وقد يكون كافرٌ موسراً مترفاً وآخر معسراً معدوم، أما في الدار الآخرة فدرجات تفاضل المؤمنين أكبر وأفضل، فالكافر وإن وسَّع عليه في الدنيا مرة، وقُتر على المؤمن مرة، فالآخرة لا تُقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم.
- إن هذه الآية: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ مُقَيِّدة لإطلاق سورة هود: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ٥١]، وكذلك آية الشورى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج ٩، ص ٧٩.

- إن قبول الأعمال عند الله مشروط بشروط ثلاثة:
- أ- الإيثار الصحيح ب- النية الطيبة الحسنة ج- العمل الصالح الذي يُرضي الله تعالى.
- إن رزق الله تعالى مكفول لكل إنسان بشرط السعي والعمل، وليس الرزق محظوراً عن أحد من المؤمنين والكافرين.
- التحذير من الشرك، وبيان أن عاقبته الندم والخسران.

المقطع الثامن

حق الوالدين

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّطُ الْحَقَّ يَكَلِّمُ مَن يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

تقدم أنه تعالى نهى أن يشرك مع الله غيره، وبين أنه متصف بجميع صفات الكمال، منزّه عن جميع النقصان، (ولما قرع الأسماع بهذا النهي المحتم لتوحيده، أتبعه الإخبار بالأمر بذلك جمعاً في ذلك بين صريح الأمر والنهي تصريحاً بعد التنزيه له عن الشريك بالإفراد له في العبادة في أسلوب الخبر، إعلاماً بعظم المقام فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾. (١)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٧٣.

التفسير الإجمالي للآيات:

يَبِّنُ سبحانه وتعالى في هذا النص أنه المستحق للعبادة وحده خالصة له دون غيره كما جاء في سورة النساء: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ثم عَقَّبَ ذلك بالإحسان للوالدين، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فقرن سبحانه الإحسان للوالدين بتوحيده، وفي هذا إشارة إلى عِظَمِ حقها على الأبناء. وبر الوالدين من أفضل القربات إلى الله تعالى، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم رحمهما الله عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ

عَلَى وَقْتِهَا. قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: ثُمَّ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ. قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١).

فالحديث النبوي ظاهر في أن بر الوالدين من أفضل الأعمال إلى الله تعالى، وهذا البر لا يقتصر على الوالدين المسلمين، بل يجب البر بهما ولو لم يكونا مسلمين، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَاصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ»^(٢).

وهذا يَبِّنُ رحمة الإسلام بالوالدين وإن اختلفا في الدين، فبرهما في الدنيا ومُصاحبتهما بالمعروف أمر حتمي، كما قال سبحانه: ﴿أَنْ أَسْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾^(١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَمَّ إِلَىٰ تَمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(١٥) فلا طاعة لهما في الكفر ومعصية الخالق، ولهما العشرة بالمعروف.

ثم حذَّر سبحانه وتعالى من إهمالهما خصوصاً في مرحلة التقدم في العمر ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق، باب فضل الصلاة لوقتها، ج ١، ص ١٩٧. وصحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى من أفضل الأعمال، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج ١، ص ٨٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) صحيح البخاري، مصدر السابق، ج ٢، ص ٩٢٤.

عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾
 فعند تقدم سن الوالدين يكونا في أمس الحاجة للأبناء، من أجل ذلك كان النهي من تضجر الأبناء والتأفف مما يصدر من الوالدين من أقوال و أفعال، فعلى المسلم ألا يظهر الضجر والملل والاستثقال في تعابير وجهه أو سوء تصرفه، قال مجاهد: (إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويجران فلا تقل لهما أف تقذرهم)^(١) فكذلك كان الإين من قبل.

وزيادة في الإحسان قال الله تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾^(٢) التذلل بالطاعة لهما، وتحقيق متطلباتهما، فالآية الكريمة تدعو الإبن أن يُراجع ذاكرته، فيتذكر تلك الأيام الخوالي عندما كان صغيراً، كيف كانت الرحمة والعطف ينصبان عليه من والديه، فيتألمان بألمه، ويضحكان بضحكه، فتجيش عاطفته تجاههما، فيراحهما في الدنيا ويدعو لهما بالرحمة بعد مماتها قائلاً: ﴿ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾. قال قتادة: (هكذا علمتم، وبهذا أمرتم، خذوا تعليم الله تعالى وأدبه)^(٣).

﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِ غَفُورًا ﴾^(٤): (هذا تذييل يُعلمنا أن العبرة بالقلب وما فيه، فإن بدرت منه بادرة ليست مقصودة منه، فالله أعلم به ولا يُعاقبه عليه ما دامت نيته حسنة وهو من الصالحين، وإذا تُبتم إلى الله وندتم على ما فعلتم فاعلموا أن الله غفور للأوابين رحيم بهم).^(٣)

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له؛ لأنه الأساس الذي تُبنى عليه كل دعائم الإسلام.
- الإحسان إلى الوالدين وبرهما؛ لأنها اللذان تسببا في وجود الأبناء.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج ١٥، ص ٧٦

(٢) المصدر السابق، ج ١٥، ص ٧٦.

(٣) التفسير الواضح، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٦٨

- ومن البر الدعاء لهما بعد وفاتهما.
- وتتوجب الرعاية لهما عند كبر السن، وعدم التأفف لما يصدر عنهما من أقوال وأفعال.
- التنبيه على أن الله سبحانه وتعالى مُطَّلَع على قلوب عباده، وهو يعلم الصالح منها وغير الصالح، وهو كثير المغفرة للأوابين الراجعين إليه.

المقطع التاسع

حق ذوي القربى والمساكين وابن السبيل

قال تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٣٦﴾ إِنَّ التَّبْذِيرَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٣٧﴾ وَإِنَّمَا تَعْرَضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٣٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٤٠﴾ ۞

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما حث سبحانه وتعالى على الإحسان إلى الوالدين خاصة ورغب في ذلك، عمَّ بالأمر به كل ذي رحم وغيره، فقال: «وآت ذَا الْقُرْبَى» من جهة الأب أو من جهة الأم وإن بعد حقه، وآت المسكين وإن لم يكن قريباً، وابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن ماله، لتكون متقياً لله مُحْسِنًا. وقد جمعت هذه الآية أربع وصايا مما أوصى به الله تعالى بقوله: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٣٦﴾ ۞

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾: فأما إيتاء ذي القربى فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين، رعيًا لاتحاد المنبت القريب، وشدًا لأصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة، وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبها عن حوزتها.

وأما إيتاء المساكين: فالمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء، على أن ذلك المسكين لا يعدو أن يكون في الغالب من القبيلة، وأقعه العجز عن العمل، والفقير عن الكفاية. وأما إيتاء ابن السبيل: فلا كمال نظام المجتمع؛ لأن المار به من غير بنيته بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلاً ليقية من عواد الوحوش و اللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلل وقايةً من أضرار الجوع والفقير، أو الحر).^(١)

﴿وَلَا بُذِيرٌ تَبْذِيرًا﴾: التبذير تفريق المال كما يُفَرَّقُ البذر كيفما كان من غير تعمد لموقعه، وهو الإسراف المذموم، قال الشافعي رحمه الله: (التبذير إنفاق المال في غير محله، ولا تبذير في عمل الخير).^(٢)

إن من منهج الإسلام نبيه عن التبذير وحثه على الاقتصاد في الأمر كله، وتدبير وصفه للُبذيرين بأنهم ﴿إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ﴾ إنه تصوير لاذع، أبرز في صورة بشعة، حيث كانوا إخوان الشياطين ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (وهكذا المُبذرون كفروا بنعمة ربه، وفرقوا المال في غير موضعه، وأسرفوا فيه إسرافاً مذموماً لمجاوزتهم الحد المُستحسن شرعاً، والآية تفيد أن المُبذر مماثل للشيطان والشيطان كفور لربه، فالمُبذر كفور لربه جاحداً لنعمته)^(٣)

ثم بين القرآن الكريم الأدب والخلق الذي ينبغي أن يتحلى به من أراد إعطاء من تقدم ذكرهم ولكنه لا يجد أن يخاطبهم بلطف ﴿وَأِمَّا نَعْرِضَنَّهُمْ لَبِئْسَ مَا تَرْجُوهُمَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿١٨﴾﴾. قولاً ميسوراً: لطيفاً يُرَقِّقُ، ووعد بالجميل عند سئوح الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مُطمئنة خواطرهم

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿١٩﴾﴾: هذا قصدٌ بالإنفاق والتوسط في المعيشة على سبيل التمثيل، وذلك أن البخيل وإن امتنع عن الإنفاق

(١) التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج٧، ص ٧٧-٧٨

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج، ص ٩٦١

(٣) التفسير الواضح، مرجع سابق، مع ٢، ص ٣٦٩.

يُشبهه رجلاً يده مغلولة إلى عنقه فلا يقدر بالتصرف على حال، والمُسرف الذي يُضيع ماله شيئاً بغير حساب يُشبهه رجلاً بسط يده كل البسط حتى لم يبق في كفه شيء. حقيقة كل فضيلة وسط بين رذيلتين، فالتقتير مذموم، والإسراف مذموم، والتوسط بينهما محمود عقلاً وشرعاً.

وإذا علمنا أن الأرزاق بيد الله سبحانه وتعالى، وأن كل شيء عنده بمقدار، وأن الأمر كله لله، وهو القائل سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٧) إذا علمنا ذلك فإننا مأمورون بالقصد في الإنفاق لأنه حكمة جليلة، وأما الغنى والفقر فمرجعه إلى الله عز وجل فقط؛ فالله سبحانه يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء، فهو أعلم بهم وبحالهم، وما يصلحهم وما يفسدهم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣).

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الأمر بإيتاء المستضعفين الثلاثة حقهم، وهم فئات من فئات المجتمع يجب برهم والإحسان إليهم ﴿وَمَا تَذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.
- نهى الآيات عن التبذير، ووصفت المبذرين بأوصاف منفرة ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾.
- ظهر من الهدايات القرآنية النهي عن البخل والتقتير، كما نهى عن الإسراف والتبذير، ومنهج الإسلام الوسطية بين الاثنتين.
- كما ظهر من هدايات النص القرآني أن الله سبحانه وتعالى يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

المقطع العاشر

من ثوابت المجتمع الإسلامي

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۝٣١ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْجًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٣٢ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ۝٣٣ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤ ﴾ .

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

لما أتم سبحانه وتعالى ما أراد من الوصية بالأصول وما تبع ذلك، وختمه بها قرر من أن قبض الرزق وبسطه منه من غير أن ينفع في ذلك من حيله، أو صاهم بالفروع لكونهم في غاية الضعف وكانوا يقتلون بناتهم خوف الفقر، وكان اسم البنت قد صار عندهم لطول ما استهجنوه موجباً للقسوة، فقال عن ذلك مواجهاً لهم إعلماً ببعده ﷺ عن هذا الخلق قبل الإسلام وبعده... فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ الآيات.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾: معبراً بلفظ الولد الذي هو داعية إلى العطف والحنو.

﴿ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾: أي فقر متوقع لم يقع بعد.

﴿ تَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾: مقدماً ضمير الأولاد لكون الإملاق مترقياً من الإنفاق عليهم

غير حاصل في حال القتل، بخلاف آية سورة الأنعام وهي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إن سياق الآية يدل على أن الإملاق حاصل عند القتل، والقتل للعجز عن الإنفاق.

وعلى ذلك بما هو أعم منه فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾. والخطأ

- بكسر ثم سكون- لا يكون إلا تعمداً إلى خلاف الصواب، والخطأ - محرّكاً- قد يكون من غير تعمد.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ٣٢ ﴾: حذر سبحانه وتعالى من دواعيه ومسبباته وما يشجع عليه من نظرة وابتسامة وكلمة ولقاء، و﴿ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ والفاحشة ما زاد من القبح، وقد نهى الله عن الفحشاء.

ومن هذه المنهيات التي نهى الله عنها قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ تحريماً صريحاً إلا بحقها الشرعي، فقد عصمها الله تعالى، وحض على صيانتها، وحرم العدوان عليها، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لديته المفارق للجماعة». (١) - ثم جعل الله سبحانه وتعالى فرجاً لولي من قتل مظلوماً بأن سلطه على القاتل بقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطٰنًا ﴾ فإن شاء ولي الدم عفا عن القاتل واكتفى بالدية، وإن شاء عفا عنه دون مقابل، وإن شاء طالب بالقوّد.

﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ وعلى الولي ألا يسرف فيأخذ القاتل، أو يمثل به، فإنه منصورٌ على القاتل ومؤيدٌ بشرع الله فحسبه ذلك..

ومن هذه المنهيات الإلهية الترفع عن أكل اليتامى، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ٣٤ ﴾ ولعل الحكمة - والله أعلم- في النهي عن أكل مال اليتيم بعد النهي عن القتل، أن أخذ مال اليتيم وأكله فيه معنى القتل لليتيم، وذلك بحرمانه من ماله الذي به قوام حياته، كما جاء في سورة النساء: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا إِنَّهَا يَا كُفُونٌ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠ ﴾ [النساء: ١٠].

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٥٢١. وصحيح مسلم، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٣٠٢.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع :

- تحريم قتل الأولاد خشية الإنفاق، وهي عادة جاهلية بغیضة فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.
- ومنها النهي عن الزنا وما يؤدي إليه، وهي أيضاً من عاداتها الجاهلية المذمومة، وقد نهى القرآن عن قربانه وإتيانه.
- كما نهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.
- وجعل لولي الدم سلطاناً، لا يتجاوزه بل يقف عند ما حده له.
- ومن هذه الهدايات القرآنية: النهي عن أكل مال اليتيم حتى يبلغ أشده، وفيها الوفاء بالعهد وأخبر الله سبحانه بذلك: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

المقطع الحادي عشر**توجيهات ربانية في المعاملات والأخلاق.**

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْكِيلِ إِذَا كِلْتُمْ وَرَبُّوْا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾
 وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ
 فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
 مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا
 مَدْحُورًا ۝٣٩﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

لما كان التقدير بالكيل أو الوزن من جملة الأمانات الخفية كالتصرف لليتيم، وكان الائتمان

عليه كالمعهد فيه، أتبعه بقوله: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ (١). الآيات.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٣٥): الواجب على المسلم أن يفي بالكيل والوزن على وجه العدل والسوية من غير نقصان ولا زيادة، و الزيادة على العدل فضل وخير، وقد ندب الرسول ﷺ لذلك فقال: « إذا وزنت فارجح ». (٢) وفي هذا حصول الخير للفرد والمجتمع.

ثم بعد هذا الأمر والأوامر السابقة له، جاءت هذه النواهي الإلهية وفيها إبراز لشخصية المسلم متى ما تحلى بها واستقام على ذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦) كما أن فيها النهي عن تتبع العورات والقول بالحدس.

« فديننا الحنيف يرشدنا إلى أننا لا نتبع في سلوكنا الظن والحدس، ولا نقف ما ليس لنا به علم، فلا يصح أن يقول إنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، ولا يليق بك أن تدم أحداً بما لا تعلم، وعلى هذا فشهادة الزور والقذف والتكلم في الناس بالظن وتبصير العورات كل هذا محرم شرعاً، إن السمع والبصر والفؤاد وكل واحد من ذلك كان صاحبه عنه مسؤولاً فيقال له: لم سمعت ما لا يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه؟ ولم نويت وعزمت على ما لا يحل لك العزم عليه؟ » (٣)

و من هذه الأمور المنهي عنها: الكبر والخيلاء، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨):

(١) نظم الدرر مرجع سابق ج ٤ ص ٣٧٩

(٢) السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، ج ٣٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١ م. ط ١، تحقيق: د. عبد الغفار البنداري.

(٣) التفسير الواضح، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧٣.

لا تمش مشية المتكبر المحتال، فلن تبلغ الجبال طولاً، ولن تحرق الأرض بهذا الاحتيال و هذا المرح الممقوت عند الله تعالى، فإن ذلك المتقدم ذكره سيءٌ عند الله و مكروهٌ.

(و لما تمت هذه الأوامر و الزواجر على هذا الوجه الأحكم و النظام الأقوم، أشار إلى عظيم شأنه و محكم اتقانه بقوله على طريق الاستئناف تنبيهاً للسامع على أن يسأل عنه: ﴿ ذَلِكْ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾: أي «ذلك» الأمر العالی جداً «مما أوحى» أي بعث إليك في حقيقة «ربك» المحسن إليك «من الحكمة» التي لا تستطيع نقضها و الإتيان بمثلها من الدعاء إلى الخير و النهي عن الشر^(١).

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: (هذا الذي بينا لك يا محمد من الأخلاق الجميلة التي أمرناك بجميلها و نهيناك عن قبيحها)^(٢).

﴿ وَلَا يَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَنُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ « لا تتخذ إلهاً شريكاً مع الله فتعاقب بالإلقاء في جهنم ملوماً تلوم نفسك، و يلومك الله و الخلق.

﴿ مَدْحُورًا ﴾ أي: مطروداً مبعداً من رحمة الله تعالى و من كل خير، و الخطاب للأمة بواسطة الرسول صلى الله عليه و سلم، فإنه معصوم فيكون المراد به: كل من سمع الآية من البشر. و قد بدأ الله تعالى هذه التكاليف بالتوحيد و النهي عن الشرك و ختمها بهذا المعنى «بعينه» و المقصود من التنبيه على أن أول كل عمل و قول و ذكر و آخره يجب أن يكون مبتدئاً و مقترناً بالتوحيد و التعمق فيه^(٣).

وقد رتب الله تعالى على الإشراف به و ترك التوحيد في البداية كون الشخص مخذولاً و في آخر الآيات كونه ملوماً مدحوراً، فثبت أنه في أول الأمر يصير مخذولاً، و في آخره يصير

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٨٢.

(٢) تفسير جامع البيان في تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج ١٥، ص ١٠٤.

(٣) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥ ص ٧٨

مدحوراً. والمخذول ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه، والمدحور: إهانته والاستخفاف به.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إفاء الكيل وإتمام الوزن بالحق والعدل دون بخس ولا زيادة ولا نقصان.
- على الإنسان ألا يتبع ما لا علم له به، وما لا يعنيه.
- كل إنسان سيسأل يوم القيامة عن سمعه وبصره وفؤاده.
- النهي عن الخيلاء وتحريمه، والأمر بالتواضع والحض عليه.

المقطع الثاني عشر

إبطال دعوى الشريك لله

قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتِثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤٠ ﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤١ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْنَعُوا
 إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢ ﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٣ ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوٰتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
 فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤ ﴾ .

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما كان ادعاءهم أن الملائكة بنات الله ادعاءً؛ لأن له مناسباً ومجانساً في أخص الصفات و هي الإلهية كانت عبادتهم لهم تحقيقاً لذلك، وكان ذلك أزيد من مجرد الشرك في الجهل، ساقه مساق التقرير والتوبيخ تنبيهاً على ظهور فساده متصلاً بما مضى من النهي عن الشرك بالعطف بفاء السبب على « ما » بعد الاستئناف بهمزة الانكار، فكأنه قيل: لا تفعل ذلك كما فعل هؤلاء الذين أفرطوا في الجهل فنسبوا إليه من خلقه أدنى الجنسين كما في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ . ثم عبدوا ذلك الجزء، وهم لا يرضونه لأنفسهم، ثم التفت إليهم

مخاطباً بها دل على منتهي الغضب فقال: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ ﴾. (١)

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَأَخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا ﴾: «بعد أن فند الله تعالى زعم من نسب لله شريكاً... هنا على من نسب له الولد، وردَّ الله تعالى في هذه الآية على المشركين الذين جعلوا الملائكة إناثاً ثم ادعوا أنهن بنات الله ثم عبدوهن، مفرعاً لهم و منكرراً عليهم و مبيناً خطأهم العظيم قائلاً: أياكمم فيخصكم بالذكور من الأولاد، و يختار لنفسه - على زعمكم - البنات، و أنتم تتدوهن و لا ترضونهن لأنفسكم؟!...» (٢).

﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾: إنكم تقولون قولاً عظيماً يوردكم مورد الهلاك؛ لأن هذا القول مناف لأبسط العقول، و هو كما ورد في سورة مريم: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۗ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ تَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ وَخَجِرُ الْجِبَالُ هَذَا ۗ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ وَمَا يُبْغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ ﴾ [مريم: ٨٨-٩٢].

ثم رد الله على المشركين الذين يتخذون شريكاً لله، فقال: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أُتْبِعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۗ ﴾: قل لهم يا محمد لو كان مع الله - تبارك و تعالى - آلهة و شركاء كما تقولون أيها المشركون إذاً لابتغوا إلى صاحب العرش سبيلاً، و طلبوا طريقاً لقاتلته، و لتنازعا على الألوهية كما ذكر ذلك سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۗ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ثم يبين الله عز و جل مظهراً من مظاهر جلال ملكه و عظيم سلطانه و كمال وحدانيته فقال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ۚ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۗ ﴾: تسبح له السماوات السبع و من فيها، و الأرضون السبع

(١) نظم الدرر، مصدر سابق ج ٤ ص ٣٨٢.

(٢) التفسير المنير، مرجع سابق ج ١٥ ص ٨٢.

ومن فيهن، وليس هناك شيء في الوجود إلا يسبح بحمده، فكل ما في الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد وأجرام يدل دلالة واضحة بينة على وجود الصانع القادر، وكل شيء يسبح بحمد الله وشكره.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد. ومع ذلك الكفر والإنكار والعناد، فهو سبحانه الحليم بعباده، الغفور الذي يغفر السيئات و يقبل التوبة من عباده.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن نسبة الملائكة بجعلها بنات الله افتراء كبير وقول على الله عظيم الإثم.
- بيان الحجج القرآنية الواضحة الدالة على توحيد الله و وحدانيته المطلقة، ومع ذلك فإن المشركين المعاندين لا يزدادون بعد هذا البيان تباعدا عن الحق، والغفلة عن النظر والاعتبار.
- لو كان هناك آلهة مع الله كما يزعم المشركون لكانت هذه الآلهة بحاجة إلى التقرب لله بالعبادة والتعظيم، لتجعل لنفسها مكانة عند الله تلمس عنده الزلفة؛ لأنهم دونه، والمشركون اعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقد في الأصنام أنها محتاجة إلى الله تعالى، فقد بطل أنها آلهة، وكان الأحرى بعبدتها أن يعبدوا الإله الحق، وهو الله جل جلاله.
- ما من مخلوق من مخلوقات الله تعالى إلا يسبح بحمد الله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

المقطع الثالث عشر

السريفة كضر المشركين وعنادهم

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَنبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ۞ .

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

لما تقدم إخبار الله لرسوله محمد ﷺ بقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ و عَقب على ذلك بما اقتضاه السياق من الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة و جوامع الأعمال، و ما تخلل ذلك من المواعظ و العبر، عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالة الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص و تنبيهاً للمشركين على وجوب إقلاعهم عن مكابرتهم و عنادهم، و تأميناً للنبي ﷺ من مكرهم و إضرارهم إضارهم، و قد كانت قراءته للقرآن تغنيهم و تثير في نفوسهم الانتقام، لذا فقد قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ۞ .

« و حقيقة الحجاب الساتر الذي يجب غض البصر عن رؤية ما وراءه و هو هنا مستعار للصرفة التي يصرف الله بها أعداء النبي ﷺ عن الإضرار به... »^(١).

التفسير الإجمالي للآيات :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ۞ : يقول صاحب التفسير الواضح: (إذا قرأت يا محمد القرآن كله أو أي آية منه جعلنا بينك وبين هؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً حاجزاً، و سترأ ساتراً بحيث لا يبصرون ببصائرهم

(١) التحرير والتنوير، مصدر سابق، م ٧، ص ١١٦

نور القرآن وهدايته، وجعلنا على قلوبهم أكنة وأغطية تحول دون تفهم معاني القرآن وتدبر آياته وأمثاله، وجعلنا في آذانهم صمماً حتى لا يسمعون سماع قبول أو تدبر..»^(١)

وهذا الحجاب من غير جنس الحجب المعروفة، فهو حجاب لا تراه العين ولكنها ترى آثاره، (وقد تبين في أخبار كثيرة أن نفراً هموا الإضرار بالنبي ﷺ فما منهم إلا وقد حدث له ما حال بينه وبين ما هم به وكفى الله نبيه ﷺ شرهم، قال تعالى: « فسيكفيهم الله » وهي معروفة في أخبار السير).^(٢)

وتُظهر هذه الآية ما ورد في سورة فصلت: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ذَاتِنَا وَقَدْ أُنزِلَتْ عَلَيْنَا مَقَالَاتٍ ﴾ [فصلت: ٥٠]

﴿ وَإِذَا ذُكِرْتُمْ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾: بمعنى أنه إذا جاء ذكر الله تعالى في تلاوتك، وقلت: لا إله إلا الله، ولم تقل والله والعزى، أدبروا راجعين على أدبارهم نافرين نفوراً تكبراً من ذكر الله وحده كما جاء في سورة الزمر: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [١٧]: نحن أعلم بما يستمعون به حينما يستمعون إليك يا محمد، وسنجازيهم على استهزائهم وكفرهم وقت سماع القرآن؛ لأن ربك أعلم بما يتناجون به في خلواتهم، والشيطان معهم إذ يقول هؤلاء الظالمون الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم: إن تتبعون إلا رجلاً قد سُحر، فاختلط عقله.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [٤٨]: انظر كيف ضربوا لك الأمثال يا محمد؟ فهم قد ضلوا في جميع ذلك عن سواء السبيل، فلا يستطيعون طريقاً إلى الهدى

(١) التفسير الواضح، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٨٠

(٢) التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج ٧، ص ١١٧.

والحق. (١)

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن الله سبحانه وتعالى حجب رسوله ﷺ عن أبصار كفار قريش عند قراءة القرآن، فكانوا يمرون به ولا يرونه.
- حجب الله سبحانه وتعالى القرآن عن أبصار المشركين وعقولهم وأفهامهم، وجعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه.
- عندما يذكر النبي ﷺ ربه في القرآن وحده، ولَّى هؤلاء المشركون على أدبارهم نفوراً عند سماعه.
- الله عز وجل عليم بما يقوله هؤلاء المشركون حينما يستمعون إلى القرآن الكريم، فيتناجون فيما بينهم لتنفير الناس عن النبي ﷺ، ويقولون عنه أنه ساحر أو مسحور.
- والكفار بعملهم هذا تجاه النبي ﷺ وتجاه القرآن الكريم ضلوا عن الحق فلا يجدون إلى الهدى طريقاً.

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٩١.

المقطع الرابع عشر

إنكار المشركين البعث بعد الموت والرد عليهم

قال تعالى: قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَنْظَنُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الَّذِينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

قلنا فيما تقدم إن محور هذه السورة هو العقيدة، ولذا بعد أن تكلم الله تعالى فيها عن الإلهيات، ثم أتبعه فيها بذكر شبه المشركين في النبوات، ذكر في هذا النص شبهاتهم في إنكار البعث والمعاد والقيامة، ورد عليها بما ينفعها، فقال: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ الآيات. (١)

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾: الرفات: ما بولغ في دقه ونفتيته حتى صار كالتراب وقيل: الرفات هو التراب نفسه. وقد قال المشركون حين سماع القرآن الكريم وسماع أمر البعث: أنذا كنا عظاماً بالية في قبورنا ورفاتاً بسبب تكسر هذه العظام - والاستفهام إنكاري فهم يُنكرون ذلك - أننا لمبعوثون عائدون بعد ما بُلينا وصرنا عدماً؟ وقولهم هذا مثله ما جاء في سورة

(١) المرجع السابق، ج ١٥، ص ٩٤.

النازعات: ﴿ يَقُولُونَ آءِئِنَّا لَمَرُدُّوْنَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ آءِ ذَا كُنَّا عِظْمًا نَّخْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ [النازعات: ١٠-١٢]، وكقولهم في سورة يس: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالِ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس: ٧٨] فيرد الله عليهم بأن إعادة الحياة إلى الجسم أمر ممكن، بل هو أهون على الله من خلقه أول مرة - وهو أهون بالنسبة إلى إدراكنا - وإلا فخلق الجبال والناس جميعاً عند الله كخلق ذرة واحدة، ولو فرضتم أيها المشركون أن بدن الميت قد صار أبعد شيء عن الحياة بأن صار حجراً أو حديداً، أو خلقاً آخر مما يكبر في صدوركم وعقولكم كالسما والأرض، فالله سبحانه وتعالى قادر على إحياءه وبعثه من جديد.

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾: فالله تعالى قادر على إعادتكم وإحياءكم بالبعث.

﴿ فَسَيَخْضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾: بمعنى أنهم يُحركونها عجباً مما تقول، ويقولون: متى هذا؟ وفي أي وقت يكون؟ فقل لهم: عسى أن يكون قريباً، فهم من وحي كفرهم وتكذيبهم يستبعدون ذلك كما أخبر الله عز وجل: ﴿ إِنْتُمْ بَرُونَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَزَلَتْهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج: ٦-٧] - ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لِّئِنَّهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾: تستجيبون حامدين طائعين مُنقادين كما أخبر الله تعالى بذلك في سورة القمر: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر: ٦-٨].

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: إن أنت إلا بشير ونذير وربك أعلم بمن في السموات ومن في الأرض جميعاً، علم إحاطه وانكشاف ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾: أي: ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ونحن أعلم بخلقنا، فموسى كلِّيم الله، وعيسى كلمته وروح من عنده، وإبراهيم خليله،

ومحمد حبيبه وخاتم رسله وصاحب الإسراء والمعراج، ولا تتعجبوا من إعطائه القرآن، فداوود عليه السلام أعطينا الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- بيان فساد عقيدة المشركين باتخاذهم آلهة مع الله سبحانه وتعالى، وزادوا على ذلك بإنكارهم البعث بعد الموت.
- تعجب المشركون من إعادة الحياة إلى العظام البالية كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة النازعات: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخِرَّةً ﴿١١﴾﴾ [النازعات: ١١]، وكما أخبر عنهم في سورة الرعد: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ أَلْفَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٥﴾﴾ [الرعد: ٥] وما ذلك إلا لتصور إدراكهم وضعف قدراتهم، فالله لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.
- إن البشر حينها يُدعون إلى الخروج من قبورهم لا يسعهم إلا الإذعان والاستجابة لأمر الداعي.
- تقدير الناس بعد البعث أنهم ما لبثوا إلا يوماً أو بعض يوم.
- أمر الله لجميع المؤمنين فيما بينهم بحسن الأدب وإلانة القول، وخفض الجناح، و طرح نزغات الشيطان فيما بينهم: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٢﴾﴾.
- والقول الحسن مطلوب أيضاً مع غير المسلمين: ﴿وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]
- ليس الأنبياء كلهم على درجة واحدة في الفضل، فقد فضل الله بعضهم على بعض، فقد أتى الله داوود عليه السلام «الزبور» كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود وإنما هو دعاء وتمجيد، وفيه إشارة إلى اليهود وإعلام لهم أنه كما آتينا داوود الزبور فلا تنكروا أن يُؤتى محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم تبيانا لكل شيء. (١)

(١) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٠١-١٠٢

المقطع الخامس عشر

مناقشة المشركين في عقائدهم الفاسدة

قال تعالى: ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا خَوْفًا ۝٥٦ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧ وَإِنْ مِنْ قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٥٨ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَعَآئِنَا لَمُودٌ ۝٥٩ النَّاقَةُ مُبْصِرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٦٠ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّئْيَا آلَئِجَ آرِيتِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُوحُوا لَهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۝٦١ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد أن ندد الله تعالى بإنكار المشركين للبعث، عاد - سبحانه - إلى الرد عليهم في عبادتهم للملائكة والجن والسيح وعزير، فهؤلاء يتوسلون إلى الله بالطاعة والعبادة، ويخافون عذابه، فالمستحق للعبادة هو المالك لهؤلاء، والقادر على النفع والضرر دونهم، وليس المراد الأصنام لأن ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يكون بالأصنام البتة. ثم ذكر وعيد هؤلاء، وأن مصيرهم إما الإبادة أو الاستئصال، أو العذاب دون ذلك كالقتل والسبي واغتنام الأموال. (١)

أهل مكة قد سألوا رسول الله ﷺ أن يصير لهم جبل الصفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم جبال مكة، فأتاه جبريل فقال: إن شئت كان ما سأله قومك، ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يُمهلوا، وإن شئت استأنيت بهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ ﴾ (٢).

(١) المرجع السابق، ج ١٥، ص ١٠٧.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري، ص ١٦٦، ط ١، مصطفى الباي الحلبي.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ (٥٦): قل

يا محمد لهؤلاء المشركين: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله كعيسى ابن مريم، وعزير وطائفة من الملائكة والجن والأصنام، هل يجيئون دعاءكم؟ وهل يستطيعون كشف الضر عنكم أو تحويله إلى غيركم؟ إنهم لا يستطيعون دفع شيء من ذلك، وإنما ذلك خالق الخلق ومالكة، فأولئك الذين عبدتموهم من دون الله، يدعون ربهم ويتبعون الوسيلة إليه والقربى منه بالطاعة، ويخصونه بالعبادة، وهم أقرب إلى الله وأولى به؛ لأنهم عباده الأطهار المخلصون من ملائكة وأنبياء ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٥٧).

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا لَآتِينَ ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا ﴾

بهاً وما نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا ﴾ (٥٨): أخبر سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عندما طلب كفار مكة المعجزات المادية - كما تقدم - أن سبب منع إرسال الآيات الحسية واستجابة طلباتهم التي سألوها هو تكذيبهم للأولين، فإننا إن أرسلناها وكذب بها أولئك، عوجلوا بالعذاب ولم يمهلوا كما هو سنة الله مع الأمم الماضية.

ثم قصَّ الله عز وجل على رسوله ﷺ قصة ثمود وقوم صالح، وفيها أننا آتينا ثمود الناقة كما

طلبوا، فكذبوا بها وعقروها، وهذا مثل ما جاء في سورة الشمس: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَانِهَا ﴾ (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ [الشمس: ١١-١٥] فكانت آية لمن بعدهم ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا ﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى محرضاً رسوله محمد ﷺ على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأن قد عصمه

من الناس: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ فإنه سبحانه قادر على عباده وهم في قبضته وتحت قدره، وقد عصم رسوله من أعداءه.

ثم ذكر الله تعالى آية الإسراء حيث قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ أما الرؤيا التي رآها النبي ﷺ فقيل: إنها بشرى الله له بانتصاره على قريش في بدر وغيرها، وأنه سيهزم الجمع ويولون الدبر، ولذلك كان يقول النبي ﷺ وهو في العريش مع أبي بكر الصديق ﷺ قبل بدء معركة بدر: «اللهم إني أسألك عهدك ووعدك»، ولعل الله أراه مصرع قومه في منامه، فكان يقول: «هذا مصرع فلان و ذلك مصرع فلان»، تسامعت قريش بذلك، وبما رأى في منامه، فكانوا يضحكون ويسخرون، ويستعجلون العذاب. (١)

وقيل الرؤيا هي الإسراء، فقد آمن بها بعض الناس، وكفر بعضهم، وهو ضعيف؛ لأن الإسراء كان يقظة وليس مناماً.

﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾: هي شجرة الزقوم ﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) [الدخان: ٤٤-٤٦] فكان من سخرية المشركين من قصة «شجرة الزقوم» قولهم: إن محمداً يزعم أن نار جهنم وقودها الناس والحجارة، ثم يقول: ينبت فيها الشجر.

﴿ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾: ونُخوف الكفار بالوعيد والعذاب في الدنيا والآخرة، فما يزيدهم التخويف إلا تمادياً في الطغيان، فكيف يؤمن قوم هذه حالهم بإنزال ما يقترحون من الآيات؟!.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- كشف الضر من مرض أو فقر أو بلاء أو أي ضرر، لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ (٥٦).
- بطلان الاستعانة بهذه الآلهة المزعومة من دون الله، كالملائكة وعيسى وعزير، فهم أنفسهم

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، مج ٢، ص ٣٨٢.

- يطلبون من الله سبحانه الزلفى والقربة، ويتضرعون إلى الله في طلب الجنة.
- إخبار الله تعالى بأنه ما من قرية من القرى الظالم أهلها إلا سيهلكها الله أو يعذبها عذاباً شديداً قبل مجيء يوم القيامة. قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا ظهر الزنا والربا في قرية، أذن الله في هلاكهم، ولا يكون الهلاك إلا بظلم من الناس) ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].
 - إخبار الله لنا بأن إتياء ثمود الناقة آية دالة على صدق صالح عليه السلام، وعلى قدرة الله تعالى، ولما ظلموا أنفسهم بتكذيبها وجحدوا بها، استأصلهم الله بالعذاب الأليم.
 - إن آية الإسراء وشجرة الزقوم اختبار للناس، واستهجان لهم، ليكفر من حقت عليه كلمة العذاب، ويصدق من سبق له الإيمان، لذا فإن الله تعالى يُخوف المشركين وغيرهم بالزقوم فما يزيدهم التخويف إلا الكفر، نعوذ بالله من الشرك والكفر. ^(١)

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ٥، ص ١١٣.

المقطع السادس عشر

الحسد أصل الداء

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَزَاءُ مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَظَّتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأُجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

لما تقدم أنهم استبعدوا الإعادة من أجل صيرورتهم من بعد الموت رفاتاً، وأخبر تعالى بقدرته على ذلك، ولو صاروا إلى ما أعسر عندهم من الإعادة من الرفات « بأن يكونوا حجارة أو حديداً » وأشار إلى قدرته على التصرف بخرق العادة في الحديد، بإلآنته لعبد من عبيده، ثم في الحجارة على سبيل الترقى في النشر المشوش بما هو أعجب من ذلك، وهو إفاضة الحياة عليها - أي الحجارة - لعبد آخر من عبيده، أشار إلى تصرفه في التراب الذي هو نهاية الرفات الذي حملهم على الاستبعاد بما هو أعجب من كل ما تقدمه، وذلك بإفاضة الحياة الكاملة بالنطق عليه من غير أن تسبق له حالة حياة أصلاً، وذلك بخلق آدم ﷺ الذي هو أصلهم مع ما في ذلك من حفظ السياق في التسلية بأن الآيات لا تنفع المحكوم بشقاوته، وبأن آدم ﷺ قد سلط عليه الحاسد و اشتد أذاه له مع أنه صفي الله و أول أنبيائه، مع البيان؛ لأن أغلب أسباب الطغيان الحسد الذي حمل إبليس على ما فعل، لذا قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ الآيات. (١)

(١) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق جـ ٤ ص ٤٠٢.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (٦١): و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم امتثالاً لأمرى و إظهار لمحبة بنى آدم لا سجد عبادة و خضوع، فسجدوا جميعاً إلا إبليس أبى و استكبر و قال: أأسجد لمن خلقت من طين، و أنا خلقت من نار، فأنا خير منه فكيف أسجد له ؟ و الاستفهام فى «أأسجد» للإنكار يستنكر اللعين هذا الطلب من الخالق الأحد الفرد الصمد.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٢): قال إبليس: أخبرنى هذا الذى كرمت على بى كرمته على مع ضعفه و قوتى ؟ تالله لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأستولين عليهم بالإغواء و الإضلال جميعاً، آدم و ذريته، إلا قليلاً منهم و هم عبادك المخلصون، و من قبل هذا قول الله تعالى فى سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ [الحجر: ٣٦-٤٠].

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ (٦٣): اذهب فامض لشأنك الذى اتخذته لنفسك فمن تبعك منهم و أطاعك فإن جهنم مأواكم و جزاؤكم جميعاً أنت و من اتبعك جزاءً موفوراً.

(مكماً و افاياً تستحقون على أعمالكم الخبيثة). (١)

﴿ وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَفْزَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٦٤) استفز: أى حظه، وادعه بكل ما تستطيع من قوة و إغراء، و اجمع عليهم خيلك و فرسانك و رجالك، (و المراد اجمع لهم مكائلك

(١) المصدر السابق، حد ٤ ص ٤٠٣.

وما تقدر عليه، وشاركهم في الأموال حتى يتصرفوا بما خالف وجه الشرع من سرقة و غصب و غش و خديعة، أو أخذ بالربا، وشاركهم في الأولاد عن طريق الزنى و تسميتهم بأسماء غير شرعية، و عدم احترام الحقوق الشرعية في الزواج و الطلاق، و عدهم بكل ما تعد به من زخرف القول و باطله.

﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾: كلاماً باطلاً كاذباً، وإظهاراً للباطل في صورة الحق.

و هذا نظير ما جاء في سورة النساء: ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا مَرِيدًا ﴾ (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مُنِيتَهُمْ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيُبْتِغَنَّ مَا دَانُكَ الْأَنْعَامِ وَالْأَمْوَالَهُمْ فَلْيَحْزِرْنَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠].

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (١٢٠): إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، و لا قوة، إلا من اتبعك، و كفى بربك يا محمد و كيلاً يتوكلون عليه، فهو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان، و يعصمهم من إغوائه.

و من هنا نعلم أن الناس - كما يقول صاحب التفسير الواضح - صنفان:

صنف مؤمن تقي إذا مسه الشيطان تذكر نفسه و ما حمل من أمانة، و ما عليه من حساب، و استعاذ بالله فإذا هو مبصر محاسب نفسه، و هؤلاء هم العباد الذين ليس للشيطان عليهم سبيل.

و الصنف الثاني: هو العاصي الذي يتولاه الشيطان و يستولي عليه مستعيناً بالمال و الدنيا و النفس الأمانة بالسوء).^(١)

(١) التفسير الواضح، ج٥ ص ٣٤٨.

من الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن تمادي المشركين وعتوهم على ربهم يذكر بقصة إبليس حين عصى ربه و أبى السجود تعالياً، و تكبر بحجة أن آدم حُلِقَ من طين و هو من نار ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.
- استهانة الحق تبارك و تعالى و استخفافه بإبليس و من تبعه من بني آدم ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾.
- و فيها أن عباد الله الصالحين لا سلطان لإبليس عليهم و لا تسلط، و كفى بالله عاصماً و حافظاً، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾.
- في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ فيها الدلالة على تحريم المزامير و الغناء و اللهو، لأن صوت الشيطان داع يدعو إلى معصية الله تعالى، و كل ما كان من صوت الشيطان أو فعله و ما يستحقه فواجب التنزه عنه، و روى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمارة فوضع إصبعيه في أذنيه، و عدل براحلته عن الطريق و هو يقول: يا نافع أتسمع؟ فأقول نعم، فمضى حتى قلت له: لا، فوضع يديه و أعاد راحلته إلى الطريق و قال: رأيت رسول الله ﷺ سمع (صوت) زمارة راع فصنع مثل هذا^(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، جـ ١٠ ص ٢٩٠. و انظر التفسير المنير، مرجع سابق، جـ ١٥ ص ١١٨.

المقطع السابع عشر

من نعم الله على الإنسان

قال الله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلُكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَبَنُّوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

ولما ذكر أنه الوكيل الذي لا كافي غيره في حفظه، لاختصاصه بشمول علمه وتمام قدرته، أتبعه بعض أفعاله الدالة على ذلك فقال تعالى، عوداً إلى دلائل التوحيد الذي هو المقصود الأعظم بتذكيرهم أحوال البحر الذي يخوضون فيه، في أسلوب الخطاب استعطافاً لهم إلى المتاب، فقال: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلُكَ فِي الْبَحْرِ﴾ (١).

التفسير الإجمالي للآيات:

تقدم لنا أن هذه السورة محورها الأساسي هو التوحيد، فتابع ذلك وأخبرهم فقال: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلُكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَبَنُّوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾: ربكم الذي يستحق العبادة وحده، هو الذي يسير لكم السفن في البحر يدفعها بقوة الريح وتيار الماء أو قوة البخار أو الطاقة الكهربائية أو الذرية لنقل الأشخاص للسياحة أو للترزاق بين بلاد الدنيا، أو نقل البضائع من إقليم إلى إقليم وطلب الرزق من فضل الله، وأنتم أيها المشركون أمركم عجيب إذا

(١) انظر نظم الدر في تناسب الآيات والسور، مصدر سابق، ج ٤ ص ٤٠٦.

مسكم الضر، واضطرب بكم البحر، و عدا على سفنكم هوج الرياح، فانخلع قلبكم من خوف الغرق المحقق، إذا حصل هذا ضل من تدعونه من الآلهة إلا الله، و لم يدر بخلدكم ذكر واحد منهم، فإنكم لا تذكرون سوى الله و حده، فلما كشف الضر عنكم و نجاكم إلى بر السلامة أعرضتم و كفرتم و صرتم تدعون غيره معه، و هذا حال الإنسان ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾.

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ (٦٨): أفأمتتم و قد نجاكم من البحر و صرتم في البر أن يرسل عليكم ريحاً حاصباً تصيبكم بالحصباء؟ فأنتم تحت قبضته في كل مكان في البر و البحر، و إن لم يصبكم من أسفل أصابكم إن شاء من فوقكم كما جاء ذلك في سورة الأنعام:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

بل أفأمتتم و قد نجاكم من مخاطر البحر أن يعيدكم فيه تارة أخرى، بأن يهيم لكم أسباب ركوبه مرة ثانية فيرسل عليكم و أنتم في سفن من الرياح الشديد فتكسر كل ما يقابلها، فيغرقكم بما كفرتم، ثم لا تجدوا لكم بسبب هذا تبيعاً علينا يطلب الثأر منا، كما ورد في سورة الشمس ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ (١١) ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (١٥) [الشمس: ١٤، ١٥] و التبيع: هو الناصر والمعين. (١)

ثم عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾: فضلنا بني آدم، و من مظاهر هذا التكريم و التفضيل خلقه في أحسن تقويم ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٤) [التين: ٤]، و ذلك بحسن الصورة، و المزاج المعتدل، و اعتدال القامة، و التمييز بالعقل و العلم، و الإفهام بالنطق و الإشارة، و الاهتداء إلى أسباب المعاش و المعاد، و التسلط على ما في الأرض و التمكن من الصناعات، و الطهارة بعد الموت، أي أن التكريم بالخلق في أحسن تقويم

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، ٢م، ص ٣٨٦. و التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥ ص ١٢١.

وبالعقل أداة العلم والمعرفة والتقدم والتمدن. (١)

ومن مظاهر هذا التكريم حملة على ظهر السفن في البحر، وعلى الدواب وعلى كل حامل في البر والجو، (على الدابة والسيارة والدراجة والقطار، وفي البحر على السفن وفي الجو بالطائرة والقلاع الجوية، وإنما لم تذكر لأنه سبحانه كان يخاطب العرب الذين لا يمكنهم تصور هذا...) (٢)

يعني وقت نزول القرآن.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: أما الرزق من الطيبات فلأن الله تعالى أهدى الإنسان أن يطعم مما يشاء مما يروق له، وجعل في المطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات أكثر جداً مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾: (وأما التفضيل على كثير من المخلوقات فالمراد به: التفضيل المشاهد؛ لأنه موضع الامتنان، وجماعه تمكين الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات برأيه وحيلته، وكفى بذلك تفضيلاً على البقية...) (٣).

من الهدايا القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- نعم الله على الإنسان كثيرة لا تحصى، منها تسخير السفن في البحار، أو الدواب بمختلف أنواعها في البر والرزق من الطيبات ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.
- ومن هذه الهدايا تفضيل الله للإنسان في تكريمه لبني آدم بخلقهم في أحسن تقويم وبالفعل والتفكير، والحمل له في البر والبحر والجو والرزق من الطيبات والتفضيل على كثير من المخلوقات لا على كلها.

(١) المرجع السابق، ج ١٥ ص ١٢١.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م ٢، ص ٣٨٦.

(٣) انظر التحرير والتنوير، مصدر سابق، م ٧، ص ١٦٦.

المقطع الثامن عشر

من مشاهد يوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْتِيَٰهُ بِقُرْءَانٍ يَّقْرَأُ وَيَمِينُهُ وَلَا يُظْلَمُونَ قِتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

لما بين الله سبحانه - فيما تقدم - قدرته على التفضيل في الحياة الحسية والمعنوية، والمفاضلة بين الأشياء، فثبت بذلك قدرته على البعث، وختم ذلك بتفضيل البشر، وكان يوم الدين أعظم يوم يظهر فيه التفضيل، قال هنا: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ يعني: بمتبوعهم الذي يتبعونه فيقال يا أتباع نوح! ويا أتباع إبراهيم ويا أتباع موسى! ويا أتباع عيسى! ويا أتباع محمد! فيقومون فيميز بين محبيهم ومبطلهم، ويقال: يا أتباع الهوى، يا أتباع النار، يا أتباع الشمس، يا أتباع الأصنام، ونحو هذا، أو يكون المراد بسبب أعمالهم التي ربطناهم بها ربط المأموم بإمامه، كما تقدم في السورة نفسها ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾: اذكر يا محمد ذلك اليوم الذي تحاسب فيه كل أمة بإمامهم - أي بكتاب أعمالهم على ما ذكره ابن كثير، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقوله: ﴿وَوَضَعَ الْكُتُبَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾. [الكهف: ٤٩] فالكتاب يسمى إماماً لأنه يرجع إليه في تعرف أعمالهم، ويحتمل أن يكون «إمامهم» قائدهم كما تقدم في ذكر المناسبة.

﴿فَمَنْ أُوْتِيَٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْتِيَٰهُ بِقُرْءَانٍ يَّقْرَأُ وَيَمِينُهُ﴾: «فمن أوتي كتابه» من هؤلاء المدعوين «بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم» فرحاً وابتهاجاً مما جاء فيه من العمل الصالح.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ : أي: لا يظلمون من أجورهم قدر فتيل وهو الخيط الموجود في شق النواة، فإن الفتيل مثل في القلة.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢) : أي: من كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن الاهتداء إلى الحق، فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق الحق، ولا سبيل النجاة، وأضل سبيلاً من ضلاله في الدنيا.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- إن الحساب يوم القيامة بين الخلق يكون مدعماً بالوثائق والمستندات ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤) ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].
- فرحة من يأخذ كتابه بيمينه، ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) لأنه فاز بالسعادة الأبدية.
- إن الأعمى في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق من خلال الأدلة والبراهين يكون في الآخرة أشد عمى وضلالةً عن سبيل النجاة.

المقطع التاسع عشر

محاولة المشركين فتنه النبي ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَتَّىٰ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۗ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِنُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۗ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۗ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

لما عدد الله سبحانه وتعالى نعمه على بني آدم، ذكر حالهم في الآخرة من إتياء الكتاب باليمين لأهل السعادة، ومن عمى أهل الشقاوة، أتبع ذلك بما هم به الأشقياء في الدنيا من المكر والخداع، والتلبس على النبي ﷺ سيد أهل السعادة، فقال: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ الآيات. (١)

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾: فيها إخبار عن تأييد الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، و تثبيته، وعصمته، وتولي أمره وحفظه، فإن المشركين لكثرة تفتنهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم، وقوة شكيمتهم كادوا أن يفتنوه، ولكن عناية الله وحفظه هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره.

وقد وردت روايات متعددة مختلفة في سبب نزول هذا النص، لكنها كلها مراسيل، ولا يُطمئن إليها، منها: « أن ثقيفاً قالوا: لا نؤمن حتى تُعطينا خصلاً نفتخر بها على العرب، لا نحني في الصلاة، ولا نكسر أصناماً بأيدينا وإن تمتعنا باللات من غير أن نعبدها، فإن خشيت

(١) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ١٣٥.

أن يسمع العرب: « لم أعطيهم ما لم تُعطنا ؟ فقل لهم: الله أمرني بذلك ». قال الإمام الطبري تعقيباً على هذا: (يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر، ويجوز أن تكون غير ذلك، ولا بيان في الكتاب ولا في خبر صحيح يقطع العذر أي ذلك كان، فالأصوب الإيذان بظاهره، حتى يأتي ما يجب التسليم له).^(١)

﴿ لِفَتْرَى عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾: أي غير ما أوحينا إليك، وهو قولهم: الله أمرني بذلك.

يقول الدكتور محمد محمود حجازي في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَتْنَا لَفَدَكْتَ تَرَكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾^(٧٦): فيها إشارات إلى أن التهاون في شأن الدين وأحكامه خطر وأبى خطر وعليه عذاب مُضاعف في الدنيا والآخرة، فيا ويلنا مادمننا نتهاون في شأن الدين وحكمه، وعلى المؤمنين جميعاً إذا قرؤوا هذه الآيات أن يملئوا قلوبهم خشية وخوفاً وتصلباً في دين الله، وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله: « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين »^(٧٧).

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(٧٦): لقد قارب أهل مكة ليزعجوك بعداوتهم ومكرهم، ويخرجوك من أرضهم التي أنت فيها - أي أرض مكة - وإذا أخرجوك لا يبيغون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً، فإن الله مُهلكهم، وقد حدث هذا الوعيد كما قال، فأهلكهم الله بـ « بدر » بعد إخراجه بقليل، وهو ثمانية عشر شهراً بعد الهجرة أو الإخراج.

﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾: أي هكذا سنتنا في الذين كفروا برُسُلنا وآذوهم، بأن، يأتيهم العذاب بخروج الرسول ﷺ من بينهم. ولولا أنه ﷺ رحمة رب العالمين إلى العالمين، لجاههم من النقم في الدنيا ما لا قِبَلْ لأحد به، ولكنه سبحانه هو القائل: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] إلا أنه لا تغيير لسنة الله ونظامه، ولا خُلف

(١) انظر: محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، مج ٦، ص ٢٥٤، ط ٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨ م.

(٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م ٢، ص ٣٨٩.

في وعده.

﴿وَلَا تَحْدِلْ سِنَتَنَا تَحْوِيلًا﴾: (أي ما أجرى الله به العادة لم يتمكن أحد من تحويله ولا يقدر على تغييره)^(١)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- يظهر لنا مما تقدم تعرض النبي ﷺ لأنواع كثيرة متعددة من مكائد المشركين، ولكن الله عصمه من خبيثهم.
- النبي ﷺ معصوم، وهو لم يهادن الكفر والكفار والشرك والمشركين، بل ولم يهم بذلك ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]
- لقد همَّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ، ولو أخرجوه لما أمهلوا؛ لأن سنة الله الثابتة الدائمة تعذيب كل قوم أخرجوا رسولهم من بلده، فإذا أخرجوه أهلكوا ودُمروا^(٢).

(١) انظر فتح القدير، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٨٠.

(٢) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ١٣٩.

المقطع العشرون

أوامر وإرشادات للنبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩ ۝ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ۝٨٠ ۝ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ ۝ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣ ۝ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝٨٤ ۝ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥ ۝ ﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

أعجبني في هذا المقام ما ذكره الدكتور وهبة الزحيلي حيث قال: (بعد أن ذكر الله تعالى كيد الكفار واستفزازهم للرسول ﷺ وما كانوا يرمونه به، أمره الله تعالى بالإقبال على عبادة ربه، وألا يشغل قلبه بهم، وقد تقدم القول في الإلهيات والمعاد، والنبوات، فأردف ذلك الأمر بأشرف العبادات والطاعات بعد الإيمان وهي الصلاة، ثم وعده ربه في الآخرة بالمقام المحمود، وهو الشفاعة العظمى باتفاق المفسرين، ولما أمره الله تعالى بإقامة الصلاة والتهجد ووعده بالمقام المحمود أمره بأن يدعو به بما يشمل الأمور الدينية والأخرية بقوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي ﴾ والظاهر كما قال أبو حيان: إنه عام في جميع موارده ومصادره دنيوية وأخرية^(١).

التفسير الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾: دلوك الشمس يعني: زوال الشمس عن كبد السماء، وقيل المعنى: غروب الشمس. «فتهجد» الهجود: النوم بالليل

(١) المرجع سابق، ج ١٥، ص ١٤٣.

والتهجد: ترك الهجود، مثل: التأثم والتحرج.

يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلوات المكتوبة في أوقاتها، بمعنى: أد الصلاة المفروضة عليك وعلى أمتك، تأمة الأركان والشروط من بعد زوال الشمس إلى ظلمة الليل وهذا يشمل الصلوات الأربع: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، والأمر للنبي ﷺ أمر لأمته، وإنما وجه الخطاب إلى النبي ﷺ لمكانة المأمور به وهو: الصلاة.

﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ أي: وأقم صلاة الفجر، وتلك هي الصلاة الخامسة.

وقد أبانت السنة النبوية المطهرة المتواترة من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله مقادير أوقات الصلاة، بدأً وانتهاءً على النحو المعروف اليوم^(١).

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾: تشهد ملائكة الرحمن، وهو كما في الصحيحين: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار تجمع فيها، أي في صلاة الفجر. فعن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾: يعني: وبعض الليل تهجد بالقرآن، والصلاة نافلة زائدة عن الفرائض المطلوبة.

﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾: وهو المقام المرموق المعد للنبي ﷺ، وهو المقام المحمود الذي يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه. والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى للفصل بين الخلائق الذي يحمده فيه الأولون والآخرون.

ومعنى النظم الكريم: (كما انبعثت من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة، فسيعثك ربك من بعد الموت الأكبر مقاماً محموداً عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة

(١) المرجع السابق، ج ١٥، ص ١٤٣.

قيام الليل^(١).

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ (٨٠) : وقال يا محمد: رب أدخلني مدخل صدق الذي وعدتني به، وأخرجني مخرج صدق، وإضافة المدخل والمخرج إلى الصدق لأجل المبالغة، والآية تشمل كل مدخل للنبي ﷺ وكل مخرج كدخوله إلى المدينة المنورة وخروجه من مكة المكرمة، واجعل لي في هذا سلطاناً وحجة قوية.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١) : وقال يا محمد: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود ؓ قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يُبدئ الباطل وما يُعيد».

﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٨٢) : إن هذا القرآن هدىً وشفاء لما في الصدور، ورحمة وخير للمؤمنين، وهو الوسيلة إلى الله، والدواء والعلاج من كل داء، كما أخبر الحق سبحانه وتعالى، وهو شفاء نفسي وجسمي وعلاج للأمة والفرد ورحمة للمؤمنين فهو الذي حوّل العرب الجاهليين الحفاة العراة إلى أمة ذات حضارة وعزة وسلطة بعد أن كانوا في ضلال مبين ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] أي ضلال أكبر من أن يتخذ الإنسان شريكاً لله وهو الذي أوجده من العدم، لكنه الإنسان الذي يُقابل النعمة بل النعم الإلهية بالبحود. ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾: أعرض عن ذكر الله ونأى بجانبه وولى ظهره، وهي عادة المتكبرين.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُؤْسَى ﴾: وإذا مسه الشر من فقر أو مرض ونحوهما كان شديد اليأس

(١) محاسن التأويل، مرجع سابق، م٦، ص ٢٦٩.

يُوسَىٰ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَىٰ قَنُوطًا، وهي كما في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الآية: ١٢].

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾: يعني طريقته التي جُبل عليها، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾: يسألك المشركون وغيرهم كاليهود عن الروح - أي حقيقتها - التي تُحى به الأبدان، قل الروح من أمر ربي وشأنه، وهي من الأمور التي استأثر الله تعالى بعلمها، وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً بالنسبة لعلم الله جل جلاله، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- من هذه الهدايات القرآنية التي ظهرت لنا: أهمية الصلوات الخمس المكتوبة، وعلى تحديد أوقاتها جملة، وقد بينها وفصلتها السنة النبوية ﴿ أَقِرِ الصَّلَاةَ ﴾.
- إن الصلاة المفروضة لا تتم إلا بالقراءة.
- وجوب إقامة صلاة الفجر من أول طلوعه ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ وقد تقدم أن قرآن الفجر مراد به صلاة الفجر.
- قيام الليل - وهو التهجد - مطلوب من النبي ﷺ نافلة، زيادة له وكرامة.
- المقام المحمود هو الشفاعة العظمى للناس يوم القيامة، فقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ». قال النقاش: (لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة،

و شفاعة في أهل الكبائر»^(١).

- في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ دليل على كسر نصب المشركين والأصنام وجميع الأوثان ، قال القرطبي: (ويدخل فيه كسر آلة الباطل، وما يصلح إلا لمعصية الله، كالطنابير والعيدان والمزامير،...)»^(٢).
- القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين، و لا يزيد سماعه الكافرين الظالمين لأنفسهم إلا خساراً، وذلك لتكذيبهم كما يزيدهم غيظاً وغضباً وحقداً وحسداً ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾^(٣).
- إن سؤال اليهود والمشركين للنبي ﷺ عن الروح وحققتها ما هو إلا نوع من أنواع تعنتهم، فأرشدهم القرآن إلى ما هو خير لهم وأجدى، فإن القرآن كتاب هداية وإرشاد يبحث الأشياء بحثاً ليتفق مع المصلحة العامة، لذا يقول عز وجل لنبيه محمد ﷺ أمراً له: قل لهم يا محمد إن الروح من أمر ربي وشأنه، ومما استأثر الله بعلمه، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً بالنسبة إلى علوم الله سبحانه وتعالى الذي أحاط بكل شيء علماً.^(٤)

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ١٥٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم، مصدر سابق، ج ١، ص ٣١٤.

(٣) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، م ٢، ص ٣٩٢.

المقطع الحادي والعشرون

من إعجاز القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩ ﴾ .

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعد أن امتن الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بالنبوة، ويا نزال وحيه عليه، وبتنزيل القرآن الكريم شفاءً للناس، امتنَّ عليه أيضاً ببقاء القرآن محفوظاً ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، وذكر ما منحه تعالى من الدليل على نبوته بقاء الدهر، وهو القرآن الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله، مع اشتغاله على أصح القواعد، وأقوم الحكم والأحكام والآداب المفيدة في الدنيا والآخرة، بل إن فُصحاء اللسان الذي نزل به وبُغلاءهم عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة مثله، ولو تعاون الثقلان عليه^(١) لذا ناسب قوله تعالى: ﴿ وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾: أي من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وعبراً بالموصول «الذي» تفخياً لشأنه، ووصفاً له بما هو في حيز الصلاة، وإعلاماً بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق. - ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾: أي من يتوكل علينا برده.

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧ ﴾: قال الزمخشري: (وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنَّة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم ألا

(١) التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ١٥٩.

يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما^(١).

هذا القرآن وهو المعجزة والحجة الدائمة التي تحدى الله بها العرب كلهم فعجزوا عن الإتيان بمثله، وهم أهل فصاحة وبلاغة، والنبى ﷺ واحد منهم وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب، وفيهم الشعراء والخطباء، وقادة البلاغة والبيان، فحيث عجزوا فغيرهم من باب أولى تحداهم به بأسلوب لاذع، مع الحكم عليهم بالعجز والقصور، ولو اجتمع الإنس والجن وتعاونوا كلهم و بذلوا النفس والنفس^(٢).

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ﴿٨٨﴾: قل يا محمد مُتحدياً: والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا وتعاونوا وتظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المعجز في بلاغته وحسن نظمه وبيانه لعجزوا عن الإتيان بمثله حتى ولو كان الجميع متعاونين مُتآزرين فيما بينهم لتلك الغاية، فإنه أمر غير مُستطاع لمخلوق، فهو كلام المخلوق، وأنى لكلام المخلوق أن يُشبهه كلام خالقه.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ﴿٨٩﴾: (لقد صرّف الله للناس في هذا القرآن، وقلب فيه الأمور كلها على وجوهها بألوان شتى وعبارات مختلفة، مرة بالإيجاز وأخرى بالإطناب، موفياً الغرض من أمر ونهي ووعظ وإرشاد وقصص وحكم وتشريع،... ومع هذا يأبى أكثر الناس إلا الكفور والجحود، والناس هنا هم أهل مكة وأمثالهم)^(٣).

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- تُبين الآيات القرآنية فضل الله ونعمته على نبيه محمد ﷺ بإنزال القرآن كتاب هداية وإعجاز، بل هو مُعجزة الرسالة والرسول إلى يوم الدين.

- (١) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ج ٢، ص ٦٤٦، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- (٢) التفسير الواضح، مرجع سابق، م ١٥، ص ٣٩٥.
- (٣) المرجع السابق، م ١٥، ص ٣٩٥.

- كما تبين أنّ هذا القرآن أعجز الثقلين (الإنس والجن) وإن تعاونوا على ذلك وتظاهروا.
- ظهر في هذه الآيات فضل الله على نبيه محمد ﷺ فهو خاتم المرسلين، ورسالته خاتمة الرسالات، وكان فضل الله عليه كثيراً.

المقطع الثاني والعشرون

اقتراح مُشركي مكة الآيات الحسية

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾ ﴾ .

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

بعدما تحدى الله تعالى المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبعد ما ألزهم الحجة وغلّبوا على أمرهم، ببيان إعجاز القرآن، وظهر عجزهم، أخذوا يتعللون ويقترحون آيات أخرى تعنتاً وحيرة، فقالوا ما ذكره عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

التفسير الإجمالي للآيات:

هذا قول نفر من زعماء مكة منهم عتبة وشيبة إبناربيعة، وأبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام وآخرين، قالوا: لرسول الله ﷺ لن نُصدق برسالتك حتى تُخرج لنا من الأرض ينبوعاً يتدفق، وهو العين الجارية، أو يكون لك بستان من نخيل وأعناب، وطلبوا من هذه الآيات القرآنية ما ورد في النص القرآني المتقدم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت، وقال ما جاء في القرآن: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ فلست أقدر على طلبكم المعجزات،

والله سبحانه هو القادر، وقد أيدني بمعجزة القرآن، وهي المعجزة الباقية الخالدة).^(١)

وقد تقدم مثله في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ﴾. يقول صاحب التفسير المنير: (قل يا محمد مُتَعَجِّباً من اقتراحاتهم: تنزه ربي وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، فهو الفاعل لما يشاء، وما أنا إلا رسول بشر كسائر الرسل أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وليس للرسل أن يأتوا بشيء إلا بما يظهره الله على أيديهم على وفق الحكمة والمصلحة، وأمركم إلى الله إن شاء أجابكم وإن شاء لم يُجيبكم)^(٢).

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- ظهر لنا ضعف عقول المشركين وظنهم الآثم أن الله سيفعل لهم ما يريدون، وذلك فيما ذكر الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾﴾ إلى آخر الآيات الست التي طلبوا تحقيقها من الرسول ﷺ، وكان جواب رسول الله بتوفيق من الله ورحمة: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.
- إنَّ حدوث الآيات بأمر الله، ولا يقترحه الرسول ﷺ على ربه.
- من رحمة الله أنه لو جاءتهم الآيات كما طلبوا ثمَّ كذبوا به ﴿لَقَضَى الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، م ١٥، ص ٣٩٥. وفتح القدير، مرجع سابق، ج، ص

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، م ١٥، ص ١٦٦.

المقطع الثالث والعشرون

بعض شبهات المشركين والرد عليها

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمشُورُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيمًا وَيَكْفُرُوا بِمَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَهَٰذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْتًا ؤءَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٠٠﴾ قُلْ لَوْ أَنَّم تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٢﴾

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

بعدما أنكر المشركون المعجزة الخالدة لرسول الله ﷺ وهي القرآن الكريم وطالبوه بمعجزات حسية، أخبر الله تعالى عن سبب ذلك التعنت والتكبر، وهو استبعادهم أن يبعث الله رسولا إلى الناس من البشر، وهذا كما في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس: ٢]، فناسب أن يذكر الله ذلك في هذا المقام فقال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾.

التفسير الإجمالي للآيات:

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾: عموم الناس وقيل المراد أهل مكة، فهم المخاطبون مباشرة بهذا حينما جاءهم الوحي من عند الله سبحانه بواسطة رسوله محمد ﷺ، وبين ذلك لهم وأرشدهم إليه.

﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾: وهذا إنكار أن يكون الرسول بشرا، هذا الفهم

الخاطئ هو الذي منعهم من الإيمان بالكتاب و الرسول، فأنزل الله على رسوله الإجابة على إنكارهم هذا فقال: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾: ساكنين يعيشون مع الناس و يتفاهمون معهم و يتلون عليهم آيات الله، و تعرف الناس أخبارهم و أحوالهم... لو كان في طبيعة الملك ذلك لنزلنا عليهم ملكاً رسولاً. إذ لا يعقل أن يدين الإنسان لمن لا يعرف عنه شيئاً، و من ليس بينه اتصال و ألفة حتى يتم التفاهم، من أجل ذلك كانت الحكمة الإلهية أن يرسل الله الرسول للقوم من نوعهم للتمكين من المخاطبة لأن اتحاد النوع هو قوام تيسير المعاشرة...^(١).

و هذا من قبيل قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًَا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًَا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾: أي قل لهم يا محمد من جهتك كفى بالله وحده شهيداً على إبلاغي إليكم ما أمرني به، من أمور الرسالة.

﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾: محيطا بظواهرها و بواطنها.

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَيَكْفُرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾ ﴾ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم و جعل لهم أجلاً لا ريب فيه فإني الظالمون إلا كفوراً ﴿١١﴾ ﴾: لا تذهب يا محمد نفسك عليهم حسرات، و اعلم أن من يهديه الله إلى الخير فهو المهدي الموفق و من يضلله الله فلن تجد له أولياء من دونه يتولون أمره و يدافعون عنه، و هم يوم القيامة محشورون يمشون على وجوههم، فإن الذي أقدرهم على

(١) التحرير و التنوير، مصدر سابق، م ٧ ص ٢١٣.

الشي على أرجلهم قادر على جعلهم يمشون على وجوههم ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي
 الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۗ ﴾ [الإسراء: ٧٢]، مأواهم جهنم التي وقودها الناس والحجارة
 ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ و كلما أكلت جلودهم و لحومهم و عظامهم أبدلوا غيرها
 ليدوقوا العذاب، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٣٣] و ذلك جزاؤهم
 بسبب كفرهم و قولهم: إذا كنا عظاماً نخرة و صرنا تراباً لتعود إلينا الحياة؟ نعم ﴿ كَمَا بَدَأْتُمْ
 تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا
 ۗ ﴾ [١٠٠]: قل لهم يا محمد لو تملكون خزائن رحمة الرحمن الرحيم لبخلتم بها، و أمسكتم خشية
 الإنفاق و كان الإنسان قتوراً بخيلاً. فما بالكم تطلبون الآيات بعد الآيات!! و أنتم لا تقومون
 بواجب شكر الله المنعم الذي تفضل و أنعم عليكم بكافة النعم ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ
 ۗ ﴾ [العاديات: ٦].^(١)

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- من هذه الهدايات: ظهر لنا تكبر زعماء قريش و أنهم قوم معاندون، لذا رفضوا معجزة
 القرآن الخالدة و طالبوا رسول الله بالمعجزات الحسية حيث قالوا له: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ
 لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۗ ﴾ [١٠٠].
- و منها زعمهم أن الرسول لا يكون من البشر ﴿ أُبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾
- و منها أن الهداية بيد الله ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾
 [يونس: ٩٩].
- و أن الكفار يحشرون يوم القيامة على وجوههم عمياً و بكماً و صمّاً إلى غير ذلك.

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، ج ٢ ص ٣٩٨.

المقطع الرابع والعشرون

آيات موسى وصفة القرآن الكريم

قال الله تعالى قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نَجَّيْ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَعْرُجَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَارِجِينَ ﴿١٠٩﴾ ۞

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه :

بعد ما ذكر الله تعالى عن زعماء قريش تفننهم في اقتراحهم للرسول ﷺ، في إيجاد المعجزات الحسية لهم حتى يؤمنوا به، و أخبرهم بأن هذا الأمر ليس له إنما هو بشر رسول مبلغ عن الله تعالى، ناسب أن يقص الله عليه ما دار بين نبي الله موسى عليه السلام و قومه و طلبهم موسى حيث قالوا له: ﴿ أَرَأَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣] و قول قريش لرسول الله ﷺ: ﴿ أَوْ تَأْتِي بآلِهٍ وَالْمَلَكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٩٢] و قولهم: ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان ٢١]. وأنه أنزل آيات تسع على موسى مثلما اقترح قومه فلم تفد تلك الآيات فرعون و قومه في الإقبال على الإيذان، و يكفيكم يا معشر قريش ما أنزل الله على محمد ﷺ من آيات علمية عقلية غير مادية فإن لم تؤمنوا كانت عاقبتكم الدمار و الهلاك كما أهلك فرعون و قومه بالغرق، فكان قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ مناسب لما تقدمه من النصوص القرآنية. (١)

التفسير الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ۝١٠١ ﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝١٠٢ ﴾: وهذه الآيات هي كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات). أمد الله بها موسى عليه السلام وهي دلائل قطعية على صدقه وصحة نبوته.

وقيل الآيات التسع هي: كما روى صفوان بن عسال أنه قال: إن يهودياً قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألاه عنها فقال: «هن ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار يوم الزحف، و عليكم خاصة اليهود أن تعدلوا يوم السبت. فقام يهوديان فقبلا يديه ورجليه، وقالوا: نشهد أنك نبي و لولا نخاف القتل وإلا اتبعناك» (٢).

ثم قال موسى لفرعون: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هذه الآيات إلا رب السموات والأرض، ولكنك يا فرعون ما أظنك إلا هالكاً ممنوعاً من الوصول إلى الخير.

﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۝١٠٣ ﴾: فأراد فرعون بعد ذلك أن يخرجهم من أرض مصر مطرودين مبعدين فأغرقه الله في البحر هو و جنوده.

﴿ وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤ ﴾: أورش الله بني إسرائيل أرضهم وديارهم، ﴿ إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

(١) انظر التفسير الواضح، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٠٠. و التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥، ص ١٨١.

(٢) انظر التفسير المنير، مرجع سابق، ج ١٥ ص ١٨٢

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥٥﴾﴾ ثم عاد الكلام إلى القرآن

نفسه، وما أنزلنا هذا القرآن إلا بالحكمة و المصلحة العامة الناقصة في الدنيا و الآخرة، و ما أرسلناك يا محمد إلا بشيرا و نذيرا و على الله الثواب و العقاب.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا

﴿١٥٧﴾﴾: فقل لهم يا محمد: آمنوا به أو لا تؤمنوا، وهذا أمر بالإعراض عنهم و احتقارهم حتى لا يكثر بهم، و هم إن لم يؤمنوا بالقرآن و هم أهل جاهلية و شرك، فإن هناك من هو خير منهم و أفضل، و هم أهل الكتاب و العلماء منهم الذين عرفوا الوحي و النبوة، أمثال عبد الله بن سلام و تميم و غيرهما، هؤلاء إذا يتلى القرآن عليهم يخرون للأذقان سجداً، و يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعَدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٥٩﴾﴾: ويزيدهم سماع القرآن خشية من

الله و خشوعاً له، هكذا هو حال كل مؤمن صادق في إيمان إلى يوم الدين.

- الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- الإخبار بأن الله سبحانه و تعالى قد أيد نبيه موسى ﷺ بتسع آيات بيّنات، دلالة على صدقه و صحة ثبوت رسالته، و هي آيات حسية.
- قوم سيدنا موسى ﷺ كفروا بذلك، فدمرهم الله تعالى و أغرقهم مع فرعون باليمّ، و ما كانوا معجزين.
- ظهر لنا أن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه محمد ﷺ آية باقية إلى قيام الساعة، متضمناً الحق و العدل و الشريعة كما قال سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْهُ﴾.
- كما ظهر لنا من هذه الهدايات تهديد مشركي قريش بعد إعراضهم عن القرآن ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فإن العلماء السابقين من أهل الكتاب و هم مؤمنوا أهل الكتاب لم يتهاكوا أنفسهم عند سماعه، إلى أن خرجوا ساجدين خاشعين لله باكين حيث قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعَدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٥٨﴾﴾.

المقطع الخامس والعشرون

الدعاء بأسماء الله الحسنی

قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَثِيرٌ كَثِيرًا ﴿١١١﴾ ۝ .

وجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

لما ثبت أن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه محمد ﷺ، وأن العرب عجزوا عن معارضته، وأنه ﷺ قد جاءهم بتوحيد الله ورفض آلهتهم، عدلوا إلى رمية عليه الصلاة والسلام بأن ما نهاهم عنه رجع هو إليه، فقالوا: هذا ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهين (يعني قوله عليه الصلاة والسلام: يا رحمن يا رحيم) فجاء هذا النص للرد عليهم: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ .

التفسير الإجمالي للآيات:

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾: فيه رد لما أنكره المشركون من تسمية الرحمن، وإذن بتسميته بذلك. وكلمة «الحسنی» للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذ حسن جميع أسماؤه يستدعي حسن ذينك الإسمين، ومعنى كونها أحسن الأسماء أنها مستقلة بمعاني الحمد والتقدير والتعظيم، وهي كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾: أي لا تجهر بقراءة صلاتك أو

تسمية القرآن صلاة؛ لكونها من أهم أركانها.

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ كان يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوا

وسبوا، فأمر بأن يتوسط في صوته كي لا يسمع المشركون وليبلغ من خلفه قراءته. (١)

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾: الحمد لله والثناء بالجميل على الفعل الجميل لله سبحانه، الذي لم يتخذ ولداً، فهو سبحانه ليس محتاجاً إليه، واتخاذ الولد من صفات الحوادث والله عز وجل مُنزه عنها.

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ ﴾: ولم يكن له شريك في الملك؛ لأنه غير محتاج إليه.

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾: ولم يُوالي أحداً من الذل؛ لأنه القادر المقتدر الخالق صاحب النعم جل جلاله.

﴿ وَكِبْرَتَهُ تَكْبِيرًا ﴾: عظمه تعظيماً يتناسب مع جلاله وقديسيته.

الهدايات القرآنية الواردة في هذا المقطع:

- وضحت الآيات أن دعاء الله سبحانه يكون بكل اسم من أسمائه الحسنى، والتي منها الرحمن والرحيم.
- القراءة أو الدعاء يكونان بطريقة متوسطة بين الجهر والسر ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ وسطاً بين هذا وذاك.
- ومن هذه الهدايات الثناء على الله سبحانه المتفرد، الغني عن الشريك والمعين، والصاحبة والولد، فهو الخالق
- القادر الغني عن عبادته، الذي يحتاج إليه كل مخلوق ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر: ١٥].

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الإسراء، باب ولا تجهر بصلواتك، ج ٤، ص ١٧٤٩، حديث رقم ٤٤٤٥. و صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث رقم ١٤٥.

سورة الكهف

بين يدي السورة

اسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة بسورة الكهف؛ نسبةً إلى الكهف الذي أوى إليه الفتية، فكان فيه نجاتهم وعصمتهم.

وقد دارت السورة الكريمة حول العواصم من الفتن، فهي عصمة ونجاة من الفتن عموماً، ومن أعظم الفتن التي تريبُ بالإنسانية، وقد حذر منها نبينا ﷺ أشدَّ التحذير، فتنه المسيح الدجال، فكان من خواصِّ هذه السورة الكريمة، أنها عصمة من فتنه ونجاة من شره. وفي تسميتها بسورة «أصحاب الكهف»: تنويهٌ على شرفهم وتخليدٌ لذكورهم، وتكريمٌ لهم، وتقديرٌ لثباتهم وتضحيتهم، فضلاً عما تحويه قصتهم من نموذجٍ عمليٍّ فريدٍ ومثالٍ تطبيقيٍّ رشيدٍ، لمن سلك طريقَ النجاة من الفتن.

فضائل السورة:

ورد في فضائل هذه السورة الكريمة أحاديثٌ وأثارٌ كثيرةٌ، تدلُّ على فضلها، وتنوّه بِشرفها وترغّب في قراءتها، وحُسن تدبُّرها:

فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ).^(١)

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي حديث ٢٥٧ - (٨٠٩). وقال مسلم في نفس الكتاب والباب: وَحَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ جَمِيعاً عَنْ قَتَادَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ قَالَ شُعْبَةُ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ. وفي رواية لمسلم «فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ» صحيح مسلم كتاب الفتن باب =

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ) ^(١).

وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الدَّجَالَ فَقَالَ (... إِنَّ يَخْرُجَ وَأَنَا فِيكُمْ

= ذكر الدجال وصفته وما معه ٤ / ٢٢٥٠ حديث ١١٠ (٢٩٣٧).

ورواه أبو داود في السنن كتاب الملاحم باب خروج الدجال حديث ٤٣١٤، ونصه « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ »، وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: « وَكَذَا قَالَ هِشَامُ الدَّسْتَوَائِيُّ عَنْ قَتَادَةَ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَنْ حَفِظَ مِنْ خَوَاتِيمِ سُورَةِ الْكَهْفِ وَقَالَ شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ ».

ورواه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح ونصه « عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ (مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ عَصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ قَالَ حَجَّاجٌ مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ). مسند الإمام أحمد ٦ / ٤٤٦. وفي لفظ: (مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عَصِمَ مِنَ الدَّجَالِ). مسند الإمام أحمد ٥ / ١٩٦.

من هنا فقد ورد أن من قرأ فواتح سورة الكهف أو خواتمها عصم من فتنة الدجال، وجاء في بعض الروايات تحديد هذه الفواتح بأنها العشر الأول، كما جاء تحديد الخواتم بأنها العشر الأواخر، وعلى هذا فالوعد بالعصمة يتحقق لمن قرأ العشر الأول أو قرأ العشر الأواخر، بل جاء في رواية للترمذي عن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « مَنْ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ عَصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ »، رواها الترمذي في السنن كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في فضل سورة الكهف هذا حديث حسن صحيح حديث ٣٠٤٧، وفي بعض الروايات من قرأ خمس آيات. ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأن العصمة تتحقق بقراءة ثلاثة أو خمس أو عشر من أولها أو عشر أو خمس من آخرها، ففي الأمر سعة، مع ملاحظة أن العشر الأواخر بناء على عد المدنيين والمكي تبدأ من قوله تعالى ﴿ وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجًا فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمَاعًا ﴿١٩﴾ ﴾ كما سيأتي بيان ذلك في الفقرة "د".

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الجمعة باب: ما يؤمر به في ليلة الجمعة ويومها من كثرة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقراءة سورة الكهف ٣ / ٢٤٩ والحاكم في المستدرک على الصحيحين (٢ / ٣٦٨) وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، وأورده السيوطي في الجامع الصغير الحديث رقم: ٨٩٢٩ - وعزاه إلى الحاكم والبيهقي وصححه، وذكره الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح كتاب فضائل القرآن ١ / ٦٦٧ حديث ٢١٧٥ وقال الألباني: حديث حسن.

فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمْرٌ حَاجِبٌ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ؛ فَإِنَّهَا جِوَارِكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ... الحديث^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطَهَ وَالْأَنْبِيَاءُ: هُنَّ مِنْ الْعِتَاقِ الْأُولِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي»^(٢).

فسورة الكهف: نورٌ وضياءٌ لقارئها، تبددُ ظلماتِ الفتن، وهي عصمةٌ لقارئها من فتنة كبرى، فتنة المسيح الدجال، عَصَمَنَا اللهُ مِنْهَا؛ وذلك من ثمراتِ قراءتها وتدبرها والعمل بها، وفي ضوء ما قدمته من مفاتيحٍ للتعامل مع مغاليقِ الفتن، وتحصيناتٍ من الاغترارِ بزينة الدنيا وزخارفها، وبهارجِ الباطلِ وزخارفه.

وحين نظرُ في فواتح هذه السورة الكريمة - الآيات العشر الأول - نجدُها قد افتتحت

(١) رواه مسلم في صحيحه - كتاب الفتن وأشرط الساعَة باب ذكر الدجال وصفته وما معه حديث ١١٠ - (٢٩٣٧)، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب فضائل القرآن - باب الكهف ١٥/٥ حديث ٨٠٢٤، وأبو داود في السنن كتاب الملاحم باب خروج الدجال ٤/١١٤ - حديث ٤٣٢١، ورواه الترمذي في السنن كتاب الفتن - باب ما جاء في فتنة الدجال ٤/٤٤٢ حديث ٢٢٤٠ وقال هذا حديث حسن صحيح غريب وفي رواية النسائي والترمذي: «فَمَنْ رَأَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ سُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ»، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٤/١٨١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه باب: سورة بني إسرائيل - حديث ٢٣٤٩، والبيهقي في شعب الإيثار ٤٧٦/٢ حديث ٢٤٤٩، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن حديث ١٣٣، وابن الضريس في فضائل القرآن حديث ٢١٠. والعتاق الأول: أي من السور المكية، والعتاق جمع عتيق وهو ما بلغ الغاية في الروعة والحسن والجودة. تلامي: أي ما حفظته قديما، وقال البيهقي «والعتاق: جمع عتيق، والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقا يريد تفضيل هذه السور لما تتضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والتلاذ ما كان قديما من المال، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام؛ لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن، والله أعلم « شعب الإيثار للبيهقي ٤٧٦/٢.

بالحمد وهو الشناء على الله تعالى بما هو أهله، قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١﴾ الكهف: ١، ثم ختمت بالدعاء قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوْى الْفَتِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةٌ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ الكهف: ١٠.

وفي الاستفتاح بالثناء والختام بالدعاء ما لا يخفى من تناسب، فمن داوم على قراءتها وتأمل ما فيها من حكم باهرة وحجج ظاهرة وآيات بينات وعجائب ومعجزات لم يستغرب أمر الدجال ولم يغتر به ولم ينخدع بها يأتي به من أعاجيب.

ج. مكية السورة:

كان نزولها في العهد المكي حيث لقي الرسول ﷺ ومن آمن معه كثيراً من المحن والابتلاءات، على طريق الدعوة الذي حُفَّ بالمكاره والعقبات.

جاءت سورة أصحاب الكهف تسلية وتسرية وتثبيتاً لقلب النبي ﷺ حيث كادت نفسه تذهب حشرات من أحوال قومه الذين جاءهم بالحق المبين، لكنهم في غيهم سادرون، وفي ضلالهم يعمهون، فجاءت السورة لتنبه الرسول ﷺ إلى أن يترفق بنفسه، فإنه يؤدي ما عليه من واجب البلاغ وأمانة الرسالة، وليتذكر أن الهداية من الله يمنحها من يستحقها.

نزلت هذه السورة على القلوب المستضعفة برداً وسلاماً تروي شغافها، وتقوي دعائمها.

نزلت لتكون حجة ساطعة تشهد بصدق هذا النبي الصادق الأمين.

وجاءت برسالة موجهة إلى أهل الكتاب: أن في القرآن فصل الخطاب لكل ما يطرحونه من تساؤلات.

د. عدد آيات السورة:

وعدد آياتها مئة وعشر آيات [١١٠] في الكوفي، وخمسة في المدنيين والمكي، وإحدى عشرة

في البصري، وستة في الشامي.

اختلافها ١٠ آيات: ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ المدني الأخير.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً ﴾ (٣٢) المدني الأول والكوفي والبصري والمكي

والشامي.

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ (٣٢) لم يعدها المدني الأول والمكي.

﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ (٣٥) لم يعدها المدني الأخير والشامي.

﴿ وَءَايَاتُنَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ (٨٤) لم يعدها المدني الأول والمكي.

﴿ فَأَنْبَعُ سَبَبًا ﴾ (٨٥) أثبتها الكوفي والبصري.

﴿ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴾ (٨٩) أثبتها الكوفي والبصري.

﴿ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴾ (٩٢) أثبتها الكوفي والبصري.

﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا ﴾ لم يعدها المدني الأخير والكوفي.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ (١٠٣) لم يعدها المدنيان والمكي.

وكلماتها ألف وخمسة وسبع وسبعون كلمة [١٥٧٧].^(١)

هـ. محور السورة:

تدور السورة الكريمة حول محور من المحاور الأساسية والركائز الجوهرية لهذا الدين إنه الهدف الأساسي الذي نزل من أجله القرآن: إنه العصمة من أمواج الفتن المتلاطمة وحشودها المتلاحمة، فتن متنوعة متباينة متراحمة متراكمة، تجعل الحليم حيران: فتنة السلطان وفتنة الشباب،

(١) يراجع: كتاب البيان في عداي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت ٤٤٤هـ، ص ١٧٩، وكتاب «أقوى العدد في معرفة العدد» لعلم الدين سخاوي ت ٦٤٣هـ، جمال القراء وكمال الإقراء ٢٠٦/١.

وفتنة الأهل والعشيرة، وفتنة المال، وفتنة الولد، والاعتزاز بالدنيا الفانية، وفتنة إبليس اللعين، وفتنة العلم، وفتنة يأجوج ومأجوج، وفتنة الأهواء.

وَبَيْنَا تُبَيِّنُ لَنَا السُّورَةُ الْكَرِيمَةَ أَنْوَاعَ الْفِتَنِ وَتَحذِّرُ مِنْ مَخَاطِرِهَا، فَإِنهَا تُحِطُّ لَنَا طَرِيقَ الْعَصْمَةِ، وَتَبْرُزُ لَنَا مَعَالِمَ النِّجَاةِ، وَذَلِكَ بِاتِّبَاعِ الْمَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَاللَّجُوءِ إِلَيْهِ، وَتَصْحِيحِ الْمَفَاهِيمِ وَتَقْوِيمِ الْمَوَازِينِ، وَتَأْصِيلِ الْقِيَمِ، وَالنَّظَرَةَ الصَّحِيحَةَ لِلْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ، وَإِدْرَاكَ حَقِيقَةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، وَالْعَمَلَ لِدَارِ الْخُلُودِ، إِلَى جَانِبِ الصَّحْبَةِ الصَّالِحَةِ، وَالتَّحَصُّنِ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالتَّزُودِ بِالْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ، وَالتَّنَدُّرِ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وَالتَّحَلِّيِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالِاعْتِبَارِ بِقِصَصِ السَّابِقِينَ.

و. المناسبات في السورة:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

محور السورة كما ذكرنا هو العصمة من الفتن والنجاة من شرورها وأخطارها، كما أن الكهف مأوى وملجأ للإنسان من الوحوش الضارية والآفات والتقلبات، وحين لجأ إليه الفتية وجدوه ملاذاً آمناً، كذلك السورة الكريمة عصمة ونجاة لقارئها، وقد ذكرنا أن أصحاب الكهف نموذج عملي للعصمة من الفتن، وهذا يظهر لنا التناسب بين اسم السورة ومحورها.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

كما بدأ الحديث بنعمة إنزال الكتاب كان مسك الختام بالحديث عن آيات الله التي لا تنقضي عجائبها ولا تحصى معانيها، ففي ختامها تقرير لما جاء في مقدمتها وتذكير به ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٨﴾﴾.

وكما أشارت مقدمة السورة إلى خصائص الكتاب ومقاصده قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فَيَمَّا يَلِيذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَنَّكَيْنِ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ الكهف: ١ - ٤ فلقد ختمت السورة الكريمة ببيان طبيعة النبي ﷺ ومهمته ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١﴾﴾.

وفي مقدمة السورة جاءت البشارة للمؤمنين الصالحين بالأجر الحسن ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾، ثم فصلت الخاتمة في هذا الأجر ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٨﴾﴾، كذلك جاءت النذارة في المقدمة للكافرين بالعذاب الشديد ﴿فَيَسَاءَ لِمَنْ شَرِدَ إِذَا مَنَّ لَدُنْهُ ﴿١٩﴾﴾ وقد فصلته خاتمة السورة قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

ولما تضمنت المقدمة دعوة إلى التنافس في صالح الأعمال وأحسنها بتحقيق مراد الله فيها، وذلك بالإخلاص والمتابعة، قال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَتَلَوَّهِنَّ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ جاءت الخاتمة بتأكيد وتقرير هذا المعنى بالتحذير من محبطات الأعمال قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١١٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَأْتِ رَبَّهُمْ لِقَائِهِمْ فَمِنْ حَيْثُ أَصَابَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١١٦﴾﴾.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

استهلت سورة الإسراء بالتسبيح وهو تنزيه الله تعالى عن كل نقص وعيب، واستهلت سورة الكهف بالحمد وهو إثبات لصفات الكمال، فالتسبيح تنزيه ونفي لكل نقص، والحمد إثبات لكل كمال، والتسبيح مقدم على الحمد؛ وذلك من باب: «التخليه قبل التحلية».

الصلة بين خاتمة سورة الإسراء وفاتحة سورة الكهف واضحة: حيث اختتمت الإسراء

بحمد الله تعالى وتكبيره وبدأت الكهف بالحمد، وهذا من باب « تعانق الأطراف ». وتتجلى المناسبة بين السورتين الكريمتين في ختام الأولى بإثبات تفرده تعالى بالألوهية والملك ونفي الشريك والولد، ومجيء مقدمة الثانية بالإنذار والوعيد لمن يدعي لله ولدا. وكما استهلّت سورة الإسراء بالتنويه على تلك الرحلة العجيبة « رحلة الإسراء »، فقد جاء الحديث في سورة الكهف عن رحلاتٍ أخرى عجيبةٍ، منها رحلة أصحاب الكهف ورحلة موسى مع الخضر، ورحلات ذي القرنين. ولئن كان الإسراء آيةً عجيبةً ومعجزةً باهرة: فإن إنزال الكتاب هو الآية العجائب والمعجزة الكبرى التي من الله بها على الإنسانية.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

تتناسب مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها إذ تفصل السورة الكريمة في أنواع الفتن وسبل العصمة منها بما يتواكب مع محور السورة ومقاصدها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

مقاطع السورة كما بيّنا تتنظم في سلكٍ واحد وتدور في فلكٍ واحد، وهو الاعتصام من الفتن ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

السورتان الكريمتان من السور المكية، وفيهما تقريرٌ للعقيدة الإسلامية، ونقضٌ لدعائم الشرك، ودحضٌ لشبه الكافرين، وحديثٌ عن سمات القرآن ومقاصده، مع التأسيس الشرعي للقيم الأصيلة، والدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق، وتثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين، كما اشتملتا على سائر أركان الإيمان وأصول العقيدة، فجاء الحديث عن الإيمان بالله، والكتب، والرسول، واليوم الآخر، وعن عالم الملائكة الأبرار، وعالم الجن والشياطين، وعن الإيمان بالقدر.

بين مقدمة السورة ومحورها :

لما دارت السورة حول العواصم من الفتن: استهلّت بالحديث عن كتاب الله وهو العصمة والنجاة لكل من استمسك بهديه القويم، واعتصم بنوره المبين.

مقدمة السورة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ ① قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۗ ② مَلَائِكَةً فِيهِ أَبَدًا ۗ ③ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ ④ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۗ ⑤ فَلَمَّا كَفَرَ بَنَجَّ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ هَذَا الْحَدِيثَ أَسَفًا ۗ ⑥ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ⑦ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۗ ⑧ ﴾ [الكهف: ١-٨]

المناسبة

تأتي مقدمة السورة الكريمة منتظمة ومتسقة مع محورها وموضوعاتها، حيث جاء الحديث عن الكتاب: نزوله وسماته ومقاصده، ثم انتقل السياق إلى تثبيت قلب النبي ﷺ وتسليته، وبيان حقيقة الدنيا الفانية، والحكمة من زينتها العارضة، وزخارفها الزائلة.

التفسير الإجمالي**براعة الاستهلال**

بدأت السورة الكريمة بحمد الله سبحانه على ما اتصف به من صفات الكمال ونوع الجلال، فهو المحمود ولا يزال على ما أبدى من نعم وأسدى على عباده من لطف وكرم، ومن تمام إنعامه وجميل إحسانه أن علمنا كيف نحمده.

ومن أعظم وجوه تفضله وإنعامه وأجل أيادي جوده وإكرامه: إنزاله خير الكتب على

خير الرسل، هدايةً ورحمةً، وتفضلاً ونعمة لكل من اهتدى بهديه، واقتبس من أنواره، واقتطف من ثماره، والتقط من درره، واستفاد من عبره.

وفي إخباره عن نزوله بيانٌ لشرفه وسمو مصدره ورفعة مقاصده، واللام في الكتاب لام العهد الذهني، وإنما عبر بوصف العبودية لأنها أسمى المقامات، تناسباً مع شرف نزول الكتاب عليه ﷺ، وإشارة إلى أن من أسمى مقاصده بيان العبودية وتفصيل ما يتعلق بها من معانٍ وأحكام.

فَعَلَّمَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عِبَادَهُ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْ يَحْمَدُوهُ عَلَى أَعْظَمِ نِعَمَائِهِ، نِعْمَةَ أَنْزَالِ أَعْظَمِ الْكُتُبِ عَلَى خَيْرِ الرُّسُلِ بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ وَأَقْوَمِ الْهُدَايَاتِ، وَأَيْسَرِ الطَّرِيقِ إِلَى الْعِصْمَةِ وَالنَّجَاةِ.

قال البيضاوي: « رَتَّبَ اسْتِحْقَاقَ الْحَمْدِ عَلَى أَنْزَالِهِ: تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّهُ أَعْظَمُ نِعَمَائِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ الْهَادِي إِلَى مَا فِيهِ كِمَالُ الْعِبَادِ وَالِدَاعِي إِلَى مَا بِهِ يَنْتَظِمُ صِلَاحُ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ»^(١).

من خصائص الكتاب ومقاصده

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ (١) قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۗ (٢) مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ۗ (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۗ (٥) ﴾ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ .

دلت الآية الأولى على أن هذا الكتاب من عند الله سبحانه، أنزله على قلب نبيه ﷺ، وفي التعبير بالنزول إشارة إلى سمو مصدره، ورفعة قدره، وفي الحمد دليل على كونه من أجل النعم التي من الله بها على عباده.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي ص ٤٧٤.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾

بيّن تعالى سلامته من كل عِوَجٍ: فلا يتطرق إليه خللٌ أو نقصٌ، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، كيف وقد جمع بين فصاحة ألفاظه ودقتها وقوة دلالتها، وبين جمال التراكيب وروعة الأساليب، وصدق الأخبار، وعدل الأحكام.

فلا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا تناقض ولا اختلاف، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨].

﴿فَيَمَّا﴾

بعد أن نفى عنه العِوَجَ: بيّن كماله وتماحه بهذا الوصف ﴿فَيَمَّا﴾ فهو قَيِّمٌ في ذاته، مُقِيمٌ لغيره، وهذا من باب «التخلية قبل التحلية»، فنفى عنه العوج، وأثبت له الكمال والإكمال في ألفاظه وتراكيبه، ومقاصده وأساليبه، فهو المنهج القويم والصراط المستقيم، وهو الداعي إلى الاستقامة في جميع الأمور، وبه قوام الحياة وصلاتها، فهو مصدرٌ نهضتنا، ونبراسٌ حضارتنا، وأساسٌ عزتنا، وعنوانٌ مجدنا، ومنارٌ هدايتنا، ودستورٌ وحدتنا، وطريقٌ نجاتنا، وسبيلٌ سعادتنا.

قال صاحب روح البيان: ﴿﴿فَيَمَّا﴾: مستقيماً معتدلاً، لا إفراط فيه ولا تفريط، أو قياً بالمصالح الدينية والدينية للعباد، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال»^(١).

كذلك فهو قَيِّمٌ على الكتب السابقة: مصدقٌ بها، داعٍ إلى الإيمان بها، ومهيمنٌ عليها، قد استوعب ما جاء فيها من أخبارٍ وأحكامٍ، وقصصٍ وأمثالٍ، شاهدٌ على صحتها، مصدقٌ لها.

(١) روح البيان للبروسوي ٥ / ٢١٥.

﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾

نزل هذا الكتابُ القيمُ بهذا النهجِ القويمِ: لينذر الكافرين بعذابٍ شديدٍ بأسه، في العاجل والآجل، وجاء التعبير بـ﴿لِيُنذِرَ﴾ للإيدانِ بشدةِ هذا العذابِ، وقدم النذارة على البشارة من باب الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، ولأن دفع المكروه مقدمٌ على تحصيل المطلوب ونيل المرغوب، من باب درء المفسد مقدم على جلب المصالح.

ويجوز أن يعود الضمير في ﴿لِيُنذِرَ﴾ إلى القرآن، أو يعود إلى النبي ﷺ أي ينذر بالقرآن، كما في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكَ بِهِ وَمَن يَلُغْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله سبحانه ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُٗٓ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠].

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾

جاء القرآن بالبشارة للمؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة والتي يتعدى نفعها للآخرين، وعبر بالفعل المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، والأجر الحسن كما قال صاحب لطائف الإشارات: «ما لا يجري مع صاحبه استقصاء في العمل، ويقال الأجر الحسن ما يزيد على مقدار العمل، ويقال الأجر الحسن ما لا يُذكر صاحبه تقصيره، ويستتر عنه عيوب عمله، لا يتقلون عنه، ولا ينقلون منه»^(١).

﴿مَكَكِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾: فهو نعيم دائم، ومقام أمين، في دار الخلد التي لا يتحولون عنها.

﴿وَسُذِرَ الذَّيْبَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾: بعد بيان عظمة وخطر المنذر به، بين

شناعة جرم المنذرين ممن افتروا على الله الكذب، فادَّعوا اتخاذه ولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً: كادعاء يهود بأن عزيزاً ابن الله، ودعوى النصارى أن المسيح ابن الله، وادعاء طوائف من المشركين أن الملائكة بنات الله!

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٣٢٦.

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبْرَاهِيمَ ﴾ لا علم لهم بما يدعون، وإنما يقولونه عن جهلٍ مفراطٍ وظنٍّ كاذبٍ، وتقليدٍ أعمى لمن سبقهم إلى هذه المقولات التي لا أصل لها ولا برهان عليها.

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥٥ ﴾ إنها دعاوى كاذبة وكلماتٍ عارية عن الدليل والبرهان، قد اكتسبت ثوبَ الزور والبهتان، بل إنها من أعظم الكذب، وأفرى الفري، مقولةٌ خاطئةٌ لا يُسَلَّمُ بها عقلٌ، ولا يطمئنُّ إليها قلبٌ، ولا مصدرٌ لها إلا تلك الأفواه الكاذبة، التي تردُّها دونَ وعي أو إدراكٍ، فما أبشعها مقولةٌ وما أشنعها فريةٌ!

﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥٥ ﴾ فهي كذبٌ صراحٌ وكفرٌ بواخٍ، يبين عن جراتهم على النطق بها، ووقاحتهم في تقوُّلها.

« والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تحيلاً لفظاً، وفيه إيحاء إلى أن مثل ذلك الكلام ليس له مصدر غير الأفواه»^(١).

والشرك بالله أعظم وأشدُّ أنواع الظلم، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾. [لقمان: ١٣]، وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: قَالَ اللهُ عز وجل (كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ: فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةَ أَوْ وَلَدًا).^(٢)

تسليية... وعتابٌ

﴿ فَلَمَّا كَلَّمْنَا نَسَكَ عَلَىٰ عَائِدِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ٦١ ﴾: فإنهم لا يستحقُّون هذا الوجد، فلا يستبدُّ بك الهُمُّ أسفًا لحالهم وحرصاً على هداهم، وفي هذا تسلييةٌ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٣ / ٢٥٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير - باب: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَنِينٌ ١١٦ ﴾ البقرة: ١١٦ الحديث رقم: ٤٢١٢.

لفؤاده، مع ما ينطوي عليه الكلام من عتابٍ لطيفٍ، إذ كيف تشغلُّ بها لم يطلب منك؟ وتفكرُ فيها لا تملك؟

كما قال سبحانه ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿ إِن تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

من أسباب الصدود والإعراض!

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

بيَّن تعالى سبباً رئيساً من أسباب صدودهم وإعراضهم، وهو تعلُّقهم بحبال الدنيا البالية ولذاتها الفانية، فكلُّ ما عليها من قصور وأنهار، ومدائن وديار، وزروع وثمار، وبحيرات وغابات، وكنوز وثرورات، وضيعات وروضات، ومراكب فارهة، وأسواق عامرة، ومراتب عالية، كلُّ ذلك من أعراض زينتها الفانية؛ امتحانٌ لأهلها ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

وفي هذا: بيانٌ لحقيقة الدنيا وزينتها، ودعوةٌ إلى الاجتهاد في هذه الدار، فهي دار عملٍ وسعي، ووعيدٌ لمن ركن إليها وافتتن بسراها، وركن إلى متاعها بأن عمرها قصير وإلى الفناء تصير.

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ ﴿٨﴾: قاحلة جرداء لا نبات فيها ولا بناء، قد استؤصل ما عليها، واجتث من أصوله وجذوره.

الهدايات المستنبطة من مقدمة السورة

- * الانتفاع بهدي الكتاب والاعتصام به والدعوة إليه.
- * سلامة الكتاب من أي تناقض أو اضطراب، واشتماله على منهج قويم لإصلاح الدنيا والدين.
- * من مقاصد إنزال الكتاب نذارة الكفرة العاصين، وبشارة المؤمنين الطائعين.
- * مما يدفع الحزن ويذهب الهم: النظر والاعتبار في حقيقة الدنيا ومصيرها.
- * الدعوة إلى إحسان العمل وإتقانه لقوله تعالى ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وذلك بموافقته وجمعه لمراد الله من إخلاص ومتابعة.

المناسبة بين محور السورة ومقدمتها:

لما دار محورُ السورة الكريمة حول العصمة من الفتن، جاءت المقدمة بالتنويه على نعمة إنزال الكتاب فهو عصمةٌ ونجاةٌ، وقد جاء بالبشارة والنذارة، منذرا لمن سقطوا في خضم الفتن ومبشرا لمن سلكوا طريق العصمة، ثم أشارت المقدمة إلى محورٍ أساسي من محاور الفتن ألا وهو الاغترار بالدنيا التي أودع الله فيها من ألوانِ الزينةِ وأصنافها؛ ابتلاء لعباده وتمحيصا لهم.

- ١ -

قصة أصحاب الكهف

نموذج عملي للنجاة من الفتن

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اعْتَرَفْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴿ وَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبَتْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَحَسَبُهُمْ آيَاتُنَا وَهُمْ رُفُودٌ وَنُقَلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِعِلْمِنَا أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴿٢٢﴾ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٣﴾ فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ وَلَا مِرًا ﴿٢٤﴾

ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلِشُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْصُرَ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا لَمْ يَمَسُّ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ [الكهف: ٩ - ٣١]

تمهيد

القصص القرآني نهرٌ متدفقٌ بالعطاء والنفحات، ويحُرُّ زاخرٌ بالعبر والعظات، وروضٌ أنيقٌ، تنتسم شذاه، ونقتطف جناه، ونجومٌ نيرات وبدور ساطعات، نترسم خطاها، ونقتبس ضياها، وحبج ساطعات تنطق بصدق النبي الأمين.

من هذا الروض الباسم والبحر الزاخر هذه القصة العجيبة، قصة أولئك الفتية الذين خرجوا فراراً بدينهم، معتصمين بربهم فأواهم المبيت إلى كهفٍ أجمعوا أمرهم على البقاء فيه حتى تنجلي الفتنة الظلماء، وينقشع البلاء، ولم يخطر ببالهم أن نومهم سيطول ليتجاوز ثلاثة قرون، وهم في رقاد عميق، حتى أشرق عليهم فجر جديد، وهبت نسائم الحرية، بعد أن تعاقبت ممالك، وانطوت عهود، وولّى ليل الطغاة.

المناسبة

المناسبة بين القصة وما قبلها: لما كادت نفسه ﷺ تذهب حسرات وتهلك غما وهما من أحوال قومه الذين جاءهم بالحق المبين، لكنهم في غيهم سادرون وفي ضلالهم يعمهون، جاءت هذه القصة وما تلاها لتنبه الرسول ﷺ إلى أن يترقب بنفسه فإنه يؤدي ما عليه من واجب البلاغ وأمانة الرسالة، وليتذكر أن الهداية من الله يختص بها من يشاء ويمنحها من يستحقها، وأولئك الفتية نموذج لمن ملأ الله قلوبهم بالإيمان وهداهم إليه بالفطرة والبرهان.

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا كَبُخَ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنَّ لَمَّ يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْخَبَرِ أَشَقًّا ۖ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَنْبَلُوهُمُ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۗ ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَبًا ۗ ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا ۗ ﴿١٠﴾ ﴾. إلى آخر الآيات.

المناسبة بين القصة ومحور السورة وسياقها:

لما بين الله أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والامتحان الذي يبرز معادن الناس ويجلي مقاصدهم ويثير هماتهم نحو العمل الصالح قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَنْبَلُوهُمُ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۗ ﴿٨﴾ ﴾، لما بين الله تعالى ذلك: ضرب أمثلة تكشف عن موقف الناس من زينة الدنيا، فبدأ بقصة أصحاب الكهف الذين لم يغتروا بزينة الشباب وزينة الأهل والعشيرة وزينة الأبهة والسلطان بل تركوا كل هذه الملذات وأعرضوا عن جميع الإغراءات، وهجروا الأهل والخلان في سبيل الله جل في علاه.

ثم جاءت قصة صاحب الجنتين الذي ابتلي بفتنة المال، فأصابه الغرور والعجب، في حين نجح صاحبه في الابتلاء ونجا من الفتنة، حيث عرف حقيقة هذه الدنيا الفانية، فلم يغتر بها ولم يقع في شركها، بل كان لصاحبه الغارق في حب الدنيا، ناصحاً أميناً وواعظاً بليغاً.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصة ببيان حقيقة الدنيا الفانية وزينتها الفاتنة، التي تسلب

العقول وتأسر النفوس وتصرفها عن غاية وجودها.

وإذا كان هناك من يغترّ بالمال أو بالولد فإن هناك من يغترّ بالوعود الكاذبة والأمانى الباطلة التي يُمنّي بها إبليس اللعين، هذا العدو اللدود الذي أظهر عداوته قديماً يوم أن امتنع عن السجود لآدم قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]،

ثم تأتي قصة موسى والخضر عليهما السلام لتبين أن العلم الشرعي عصمة من الفتن، وأن العالم مهما بلغ من العلم ففوق كل ذي علمٍ عليّ، ومهما أوتينا من العلم فما قيمته وما قدره أمام علم علام الغيوب !

ثم يضرب الله مثلاً لمن لم يغترّ بفتنة الملك وزينة السلطان، بل وظف ملكه ووجه سلطانه لنشر الدين ورفع الظلم عن المظلومين ورد الطغاة الباغين، وكان كلما جدد الله له نعمة جدد لها شكراً، وكلما رفع الله مقامه زاد تواضعاً.

مفارقات عجبية: ندرکها حين نتعاش مع أحداث السورة العجبية وقصصها المؤثرة: منها أننا أمام ثلاثة ممالك متباينة وأنظمة مختلفة:

ففي قصة أصحاب الكهف نلمس صورة الملك الظالم الذي سلب قومه عقولهم وغضبهم حرّبتهم فأطرحهم على الكفر أطراً، يتبين ذلك من قول الفتية كما أخبر القرآن ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٦١﴾ ﴾.

وفي قصة موسى والخضر نلمح شخصية الملك الغاصب الذي يسرق أموال رعيته ويسلب ممتلكاتهم فلا يجد من يتصدى له ويرده عن ظلمه، قال تعالى على لسان الخضر عليه السلام ﴿ أَمَا السِّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٨﴾ [الكهف: ٧٩] .

أما ذو القرنين فإنه نموذج رائع للملك الصالح المتعفف الذي مكنه الله في الأرض فأقام

ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل راية الحقِّ ومصايح الهدى، وعاش الناس في عهده حياةً آمنة مطمئنةً.

فستان بين عهدين:

عهدٍ ساد فيه الكفر والفساد.

وعهدٍ أشرقت فيه شمس الهداية وأضاءت أنوار العدالة.

ومملكة كافرة تجعل الكفر لها دستوراً وسياساً، وملكٌ غاصبٌ طاغيةً.

ومملكة مؤمنة تجعل الإيمان لها عصمةً ومنهاجاً ونوراً وسراجاً!

وبضدها تتبين الأشياء.

من هنا تتجلى لنا الصلة بين قصة أصحاب الكهف وبين القصص الأخرى التي انتظمتها هذه السورة الكريمة، حيث تدور حول الابتلاء بزينة الدنيا والافتتان بزخارفها وموقف الناس منها، والعواصم من هذه الفتنة الطاغيةٍ وسائر الفتن.

وجه آخر للمناسبة

ومن أوجه المناسبة بين قصة أصحاب الكهف والهدف الرئيسي لسورة الكهف أنها خطت لنا طريق النجاة من الفتن وأوردت نموذجاً عملياً ومثالاً واقعياً يُحتذى به، حيث تعرّض الفتيّة لفتنة عظيمة عصمهم الله منها، حين سعى الملك إلى فتنهم في دينهم واستغل سلطانه في مساومتهم على الحق وإغرائهم بكل المغريات كما استخدم فتنة التهديد والوعيد، فعصمهم الله تعالى من كل تلك الفتن لما خلصت نيتهم وصفت سريرتهم وقويت عزيمتهم وصدق توجيههم إلى الله تعالى.

وهكذا نجدُ السورة الكريمة تبرزُ لنا طريق النجاة من جميع الفتن، فتنة السلطان وفتنة الأهل والعشيرة وفتنة المال وفتنة الولد وفتنة العلم وفتنة إبليس اللعين وفتنة القوة والتمكين من خلال قصة ذي القرنين، وفتنة يأجوج ومأجوج وفتنة إبتاع الأهواء والاغترار بزخرف القول، مما يتوأكّب مع خواص السورة وفضائلها وعصمتها لتأليها من الفتن الحوالك.

سبب نزول هذه القصة

ذكر ابن إسحاق: أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أخبار يهود وقالوا لهما: سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإتاهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم؛ فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أخبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله، وقالوا لهم إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا؟ فقالت لهما أخبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب؟ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفضل ما بينكم وبين محمد قد أخبرنا أخبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب وعن رجل كان طوفا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ وأخبرنا عن الروح ما هي؟ قال فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتكم عنه غدا ولم يستثن فأنصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ فيا يذكرون - خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل حتى أزعف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يُخبرنا بشيء مما سألناه عنه وحتى أجزن رسول الله ﷺ مكث الوحي وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة: ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سأله عنه من أمر الله الفتية والرجل الطواف. ^(١)

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٢١، ورواها الطبري في جامع البيان ١٧ / ٥٩٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢ / ٢٦٩، وأوردها ابن كثير في تفسيره ٥ / ١٣٣، وأوردها =

التفسير الإجمالي

مطلع القصة وبراعة الاستهلال

بدأ السياق بهذا الأسلوب الشيق أسلوب الاستفهام التعجبي ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (١) فنحن أمام قصة عجيبة، وإن كان هناك ما هو أعجب منها، فخلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وآيات الأنفس والآفاق وعالم النبات وعالم البحار فضلا عن عالم الغيب وما فيه من حكم وأسرار ودقائق وأخبار وغير ذلك من عجائب صنع الواحد القهار، كلها آيات عجيبة تستوجب التأمل فيها والاعتبار بها.

وكم يغفل كثير من الناس عن النعم الظاهرة والآيات الباهرة لكونها مألوفاً لهم، بل وقد يغفلون عن شكر النعم الظاهرة، كنعمة السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار!

قال الرازي رحمه الله: « اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط، فلا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإنه من كان قادراً على خلق السموات والأرض وتزيين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم بعد ذلك يجعلها صعيداً جرزاً خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم، هذا هو الوجه في تقرير النظم والله أعلم» (١).

والكهف: كالمغارة في الجبل إلا أنه واسع، أما الرقيم فهو العلامة أو الكتابة أو الرسم على الشيء، قيل: هو اللوح الذي سجلت عليه أسماؤهم، وقيل كتاب دونت فيه أسماؤهم، وقيل اسم الجبل وقيل اسم القرية.

قال سعيد بن جبير ومجاهد: الرقيم لوح من حجارة وقيل من الرصاص كتب فيه أسماؤهم

=السيوطي في تفسيره الدر المنثور ٥ / ٣٥٧، وعزاها لابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل.

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ٨١، ٨٢ بتصرف.

وقصتهم ثُمَّ وَضَعَ عَلَىٰ بَابِ الْكَهْفِ. (١)

والذي أرجحه: أنه اسم اللوح الذي سجلت فيه أسماؤهم، وسمي بذلك لأن أسماءهم كانت مرقومةً عليه، أي مكتوبة فهو بمثابة لوحة شرفٍ لهم تخليداً لذكورهم.

والذي يفيد السياق أنهم عاشوا في زمان ملك كافر مشرك ظالم، يحمل الناس على الكفر مستعينا بمن حوله من الكهنة والسدنة، الذين يروِّجون للكفر، ويصرفون أنظار العوام إلى الخرافات والأساطير ويلهونهم بالأعياد والملاهي والطقوس، ولما شرح الله صدور أولئك الفتية، وتآلفت قلوبهم وتعارفت أرواحهم واجتمعت كلمتهم على رفض ما عليه قومهم من ضلال، بل والإنكار عليهم ودعوتهم إلى الحق؛ رُفِعَ أمرهم إلى الملك الظالم، ولم تُجَدِ معهم الوعودُ والإغراءاتُ، فتوَعَّدَهم وهددهم إن لم يرجعوا إلى دينه ودين أتباعه، وأمهلهم، وقبل انقضاء المهلة لم يجدوا بداً من الفرار بدينهم، فخرجوا تحت جُنْحِ الظلام وساروا حتى وصلوا إلى الكهف.

عصمة ونجاة

﴿ إِذْ أَوْىٰ آلِ الْفِتْيَةِ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾

أوى الفتية إلى الكهف: ليمكثوا فيه بعيداً عن أعين الراصدين لهم والباحثين عنهم من قِبَلِ الْمَلِكِ الْغَاشِمِ الَّذِي أَرْسَلَ فِي طَلْبِهِمْ مِنْ يَأْتِي بِهِمْ بَعْدَ أَنْ هَرَبُوا مِنْ بَطْشِهِ وَظَلَمِهِ.

فجمعوا بين الأخذ بالأسباب والتوجه إلى العزيز الوهاب فقالوا (رَبَّنَا): وفي التعبير بعنوان الربوبية تأدب مع الله تعالى وتودد إليه، وتضرع واستعطاف، أي: يا من خلقتنا ورزقتنا وهديتنا ﴿ إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ دعاء صادق من ألسنة ذاكرة وقلوب خالصة ونفوس زكية، ترجو رحمة ربها وتلتمس رُشدَهُ، فكان أن عمَّهم اللهُ بِفَضْلِهِ وَشَمِلَهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَأَحَاطَهُمْ بِعِنَايَتِهِ.

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾

(١) رجع هذا القول الرازي في تفسيره ٢١ / ٨٢.

فالسمعُ هو الوسيلةُ الرئيسةُ في تنبيهِ النائِمِ خاصةً من ينامُ بمعزِلٍ عن الناسِ، والنائمُ لا يسمعُ في العادةِ ما حوله من أصواتٍ بمجردِ استغراقِهِ في النومِ.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَهُمْ لِتَعْلَمَ أَيُّ الْحَزِينِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

أي ليتحقق ذلك الذي في علم الله تعالى عيانا، ويصير واقعا، فيتبين أيُّ الحزبين أحصى أمدهم: أي مدة لبثهم في الكهف، حيث صارت تلك المدة موضع خلاف بين العلماء، أو المراد بالحزبين: أهل الكهف حيث زعم بعضهم أنهم لم يلبثوا إلا يوما أو بعض يوم، وبعضهم ظن أن المدة طالت فتوقف وفوض علم المدة إلى الله، كما سيأتي بيانه في الحوار الذي دار بينهم، عندما انتبهوا من نومهم فتساءلوا بينهم قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

الفتية في رحاب الإيمان وكنف الرحمن.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ تفصيلٌ بعد إجمالٍ وتقريرٌ بعد بيانٍ، فالقرآن الكريم

كتاب الحق نزل بالحق على قلب رسول الله ﷺ الذي لا ينطق إلا بالحق، وقصصه الحق وكل ما فيه من حكم وأحكام وعبر وعظات ووعد ووعيد هو الحق من عند الله.

والذي يقص نبأهم هو العليم بحالهم، المدبر لشؤونهم، وفي هذا تشويق للقارئ؛ حين يسمعه من المولى عز وجل، وفي التعبير بالنبأ: إشارة إلى أن قصتهم لها شأن عظيم وخطب جليل.

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾

وفي التعبير بالفتوة بيان لحداثة سنهم، مع قوة إرادتهم وحماسهم للحق.

واختلفوا في سبب إيمانهم: قيل: إنهم آمنوا عن طريق حوارٍ المسيحيِّ عليه السلام، ونقل المفسرون روايةً مردّها إلى الإسرائيليات ^(١).

وقيل: إنما استجابوا لنداء الفطرة فاهتدوا بفطرتهم السليمة وعقولهم الغضة، ولعلمهم

(١) راجع لباب التأويل للخازن ٤ / ١٩٤ وروح البيان للبروسوي ٥ / ٢٢١.

توصلوا إلى الحق بقراءة واعية واطلاع واسع. ^(١) والله تعالى أعلم، لكن القراءة أو التفكير وحده لا يكفي للوصول إلى الحق، ولعل هناك من دعاهم فاستجابوا له، والله أعلم

﴿ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ﴾

أي بصرناهم بمقتضيات الإيمان وأركانه وبراهينه، فازدادوا إيماناً على إيمانهم وهدى على هداهم مصداقاً لقول الحق جل وعلا ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحُونَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ [سورة مريم ٧٦]، وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ ﴾ [سورة محمد ١٧].

قال أبو السعود: ﴿ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ﴾: بأن ثبتناهم على الدين وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه ^(٢).

والذي يتأمل حديثهم المتمتع وعرضهم الرائع لأصول الإيمان وإدراكهم لما عليه قومهم من كفر وضلال، ودقة براهينهم وعمق تحليلاتهم، وتبصّرهم بأمر دعوتهم، وتحليلهم بمكارم الأخلاق في مجتمع ساد فيه الفساد والانحلال وعمه الكفر والضللال، المتأمل في ذلك كله يدرك أنهم كانوا على بينة من أمرهم وعلم نافع وبصيرة نافذة، فضلاً عن فطرتهم السليمة وعقولهم الراجحة.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ
إِنهَّا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾

شددنا على قلوبهم وثبتناها، ليواجهوا رياح الفتن وأعاصير المحن، ويواجهوا موجات الكفر العارمة وتياراته الجارفة، التي تولى كبرها وحمل لواءها الملك المستبد وبطانته ودعاة الكفر وسدنته، فألمهم الله عز وجل أولئك الفتية بالصبر والثبات في مواجهة محاور الشر.

قال صاحب روح البيان: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قويناهم حتى اقتحموا مضايق

(١) كما دخل كثير من غير المسلمين في الإسلام بعد قراءة واعية ومقارنة بين الأديان.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢١٠/٥ ويراجع روح البيان ٥/٢٢١.

الصبر على هجر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان، واجترؤوا على الصدع بالحق من غير خوف ولا حذر، والرد على دقيانوس الجبار^(١)، وفي الحديث (أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ)^(٢).

تقرير العقيدة الصحيحة

﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قاموا بين يدي الملك الجبار، أو قاموا بمعنى اجتمعوا، أو انبعثوا وعزموا على المضي قدما في طريق الحق.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معانٍ:

أحدها: أن يكون هذا وصفٌ مقامهم بين يدي الملك الكافر - كما تقدم، وهو مقامٌ يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته.

والمعنى الثاني: فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد؛ فقال أسنهم: إني أجد في نفسي أن ربي رب السماوات والأرض؛ فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا، فقاموا جميعا فقالوا: ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾: أي لئن دعونا إلها غيره فقد قلنا إذا جورا ومحالا.

والمعنى الثالث: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومناذرة

(١) زعموا أن هذا اسم ذلك الملك الظالم، وليس في القرآن ولا في السنة ذكر لاسمه، والله أعلم به

(٢) روح البيان للبروسوي ٥ / ٢٢٢ والحديث: رواه النسائي في السنن عن طارق بن شهاب كتاب البيعة - باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر. حديث: ٤٢٠٧ - ورواه الترمذي في السنن عن أبي سعيد الخدري أبواب الفتن باب أفضل الجهاد كلمة عدل سلطان جائر حديث ٢٢٦٥ وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه، ورواه أبو داود في السنن عنه كتاب الملاحم باب الأمر والنهي حديث ٤٣٤٤ ورواه ابن ماجه في السنن عنه كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حديث ٤٠١١.

الناس؛ كما تقول: قام فلانٌ إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجِدِّ»^(١).

وهذه المعاني جميعها محتملة ومتلازمة ولا تعارض بينها، فلا مانع من حمل القيام عليها وتضمينه معنى العزم والمضاء والنهوض بالحق والقيام به وتحمل تبعاته، واجتماعهم على غير موعد، وصدوعهم بالحق أمام الملك.

﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: لقد تألفت قلوبهم، واجتمعت كلمتهم وتوحدت دعوتهم، فقالوا جميعاً: ﴿ رَبَّنَا ﴾ لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه، والعجيب أن المشركين بالله تعالى يقرون له بالربوبية ومع ذلك يشركون به آلهة أخرى.

﴿ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ﴾: كما يزعم المشركون، حيث أشركوا بالله غيره في الألوهية مع إقرارهم بأن الخالق الرازق هو الله، لذلك جاء التعبير بـ ﴿ رَبِّ ﴾.

﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾: إن نحن قلنا بمقولتهم الباطلة فقد انحرفنا عن المنهج القويم ونكبنا عن الصراط المستقيم، والشطط: هو مجاوزة الحد والانحراف عن الجادة والبعد عن الحق.

بيان بطلان عقائد الشرك:

﴿ هَتُؤَلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾^(١٥)

بعد أن أعلنوا عقيدة التوحيد أعلنوا البراء من عقائد الشرك فأنكروا ما كان عليه قومهم من ضلال، حيث ادعوا لله شركاء.

﴿ لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ فالدعاوى لا بد لها من بينات، وإلا فأصحابها أدياء.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾: أي ليس هناك أظلم ممن افترى على الله عز وجل وأشرك به سبحانه وهو الذي خلقه ورزقه.

طريق العصمة والنجاة

﴿ وَإِذْ أَعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠ / ٣٦٥

لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾

بعد تقريرهم لعقيدة التوحيد وإبطالهم لعقيدة الشرك وبراءتهم من الكفر وأهله: يَبْنُوا واجبهم الذي يتحتم عليهم فعله وهو اعتزال قومهم وما يعبدونه من دون الله والبراء من شركهم، فما - في قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ - موصولة أو مصدرية، والمعنى: اعتزلتم عبادتهم أو اعتزلتم معبوداتهم من دون الله.

﴿فَأَوْوُا إِلَى الْكَهْفِ﴾: أي امكثوا فيه مدة، واجعلوه مأوى لكم إلى أن يقضي الله أمراً واللام في ﴿الْكَهْفِ﴾ تدلُّ على العهد الذهني أي الكهف الذي يتبادرُ إلى أذهانهم لذا قالوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ ولم يقولوا: إلى كهف.

والذي يبدو لي: أن هذا الكهف كان معروفا لهم، إما لشهرته وإما لأنهم مروا به في تريضهم وسياحتهم، والله أعلم.

﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾: أي يبسطُ لكم ويفيضُ عليكم من رحمته التي تستنزلونها وتستمطرونها بطاعتكم لربكم وخروجكم في سبيله وتضحيتكم؛ ابتغاء مرضاته.

﴿وَبِهِتَى لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾: أي ما فيه من منافع لكم فترتفقون به، قال ابن عباس: «يسهلُ عليكم ما تخافون من الملك وظلمه ويأتكم باليسر وبالرفق واللطف»^(١).

وفي هذا دليل على حسن ظنهم بربهم، وجميل توكلهم عليه.

في كنف الرحمن

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرًا عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدى النيسابورى ٣ / ١٣٨.

انطلق الفتية نحو الكهف، واتخذوه مأوى إلى أن يقضي الله أمراً، وقد كان فتنزلت الرحمات ولاحت الكرامات وهبت نسائم النفحات حين اتخذوا مضاجعهم في هذا الكهف الموحش وخلدوا في نوم عميق فهياً الله لهم أسباب البقاء ووسائل السلامة ليجتازوا بنومهم حواجز السنين، حيث تتهالك الممالك، وتتساقط الأنظمة، وتبديل أجيال، بينما هم في سبات رهيب لم ينهضوا منه إلا بعد مئات السنين.

قال الزمخشري: « المعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض للشمس لولا أن الله يحجبها عنهم^(١). وقيل إن باب الكهف كان من جهة الشمال فكانت الشمس تطلع على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله، فضوء الشمس لم يكن يصل إليها البتة، لكن الهواء الطيب والنسيم العليل كان يصل.^(٢)

﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ ﴾ : أي متسع، ومن دقائق التعبير القرآني قوله عز وجل ﴿ وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ ذلك لأن كثيراً من الظواهر الخاصة بالشمس إنما تكون بحسب الرائي وبطبيعة المكان وبإمكانية الرؤية فهو وصف لرؤية العين، وإدراك الرائي.. وليس للحقيقة العلمية الخاصة بالشمس في علاقتها بالأرض ودورانها، وحقيقة المعنى العلمي للشروق والغروب وغير ذلك من الظواهر.

لذا نقرأ في نفس السورة الكريمة في قصة ذي القرنين رحمه الله قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُبُ فِي عَيْنٍ حَمِيَّةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَارِنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [الكهف: ٨٦] فالشمس أعظم من أن تحتويها الأرض أو تحيط بها.

﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ﴾

أي ما حدث لهم من لطائف ربانية ومنن إلهية من آياته عز وجل الدالة على عنايته بأوليائه

(١) الكشف للزمخشري ٢ / ٣٧٦ ويراجع مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٥ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥ / ٢١٠.

(٢) ذكر هذا الرأي فخر الدين الرازي في تفسيره ٢١ / ٩٩، ١٠٠.

وحفظه لهم، والشاهدة بكمال قدرته، وجلائل نعمه ولطائفه التي لا تحصى ولا تعد.

فالهداية من الله يمنٌ بها على من يشاء فمن شاء الله هدايته هداة ومن هداة تعالى فهو المهتد فلا هادي إلا الله، ولا هداية إلا من الله، ومن كتب الله له الشقاء وحكم عليه بالضلال فلا هادي له، ولو اجتمعت الأمة بأسرها عليه فلا تُجِدِ العبرُ ولا تغنِ النذر.

﴿ وَحَسَبَهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَنِيَّ ذُرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ ﴾

وقوله: ﴿ وَحَسَبَهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ في الكلام إشارة إلى أنهم كانوا مفتوحوا الأعين حال نومهم كاليقظان، والحكمة في ذلك حفظ أبصارهم أن تتجمد في المآقي وتلتصق الأجفان بطول المدة، وهذا من لطف الله بأهل الكهف.

﴿ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ حتى لا تتأكل أجسادهم.

﴿ وَكَلْبُهُمْ بَنِيَّ ذُرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ لما سار الفتية في طريقهم نحو الكهف، تبعمهم كلب

لعله كان لأحدهم. والوصيد فناء الكهف وقيل: عتبه أو بابه.

والمعنى كانوا على ما وصف من الحال، والحال أن كلبهم مفترش بذراعيه باسط لهما بفناء الكهف، وفيه إخبار بأنهم كان لهم كلب يلازمهم، وكان ماكناهم معهم طول مكثهم في الكهف.

﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾

أي لو أشرفت عليهم وهم نيام في كهفهم على هذه الحال لوليت منهم فرارا من الوحشة والرهبة التي حفظهم الله بها، وملئت منهم رعبا حين تطبع صورتهم في ذهنك فلا تكاد تفارقك.

الحكمة من تقديم الفرار على الرعب أنه: قد يعترض الإنسان ما يخيفه فيفر منه وينتهي

الأمر، وقد يفر مما يرهبه ويبقى الرعب ساكنا قلبه، لذا أتبع التولي فرارا بالامتلاء رعبا.

وليس السبب في هذا الرعب والتولي هو ما زعمه بعض المفسرين أن شعورهم وأظفارهم

طالت؛ إذ لو كان الأمر كذلك لكان أول تساؤل لهم بعد أن استيقظوا من نومهم كما سيأتي بيانه في الآية التالية، ولكن هيئتهم وسباتهم العميق وما أضفاه هذا الكهف من رهبةٍ مع هول المفاجأة: كلُّ ذلك يُفضي إلى الفرار والرعب.

من الكهف إلى المدينة

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقظة وحيرة.... وحذر وحيلة

كان أول تساؤل لهم حين قاموا من نومهم قول أحدهم ﴿ كَمْ لَبِئْتُمْ ﴾ فأجاب آخرون ﴿ لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وغاب عنهم أنهم ناموا مئات السنين، فرد عليهم آخرون ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أي أشهى وأطيب، وقيل هو الحلال الطيب، ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي فوضوا أمر ذلك إلى الله تعالى وانشغلوا بما يصلحكم وهو إحضار الطعام.

وفي هذا دليل على أنهم لم ينووا طول البقاء في الكهف وإلا لتزودوا بما يكفيهم من الطعام والشراب مدة لبثهم فيه، وإشارة إلى ضرورة اختيار الطعام الطيب.

﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

أي يبالغ في الحذر والحيلة، والتخفي أو يتلطف في الشراء، فلا يتعنن مع البائع أو يبخسه حقه أو يتلطف مع البائع، يتفطن له حتى لا يغبنه، قال النسفي: « وليتكلف اللطف فيما يباشره

من أمر المبايعة، حتى لا يغبن أو في أمر التخفي حتى لا يعرف»^(١).

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٣٠﴾﴾

لو عرفوا مكانكم وتمكنوا منكم فلن تسلموا منهم، وفي هذا ما يدل على أنهم كانوا مهددين مطاردين، بعد أن أمهلهم الملك بالعودة إلى دينه، ففروا بدينهم وقد أرخى الليل سدوله حتى وصلوا إلى الكهف.

﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ بناء على ما توعدكم به إن لم ترجعوا إلى دينهم

فإما الرجوع حتى الموت وإما البقاء مع العود إلى ملتهم وفي هذا من الخسران ما فيه.

﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ إذا عدتم إلى ملتهم، قال الرازي رحمه الله: «فإن قيل أليس أنهم

لو أكرهوا على الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾؟ قلنا: يحتمل أن يكون المراد أنهم لو ردوا هؤلاء المسلمين إلى الكفر على سبيل الإكراه بقوا مظهرين لهذا الكفر مدة فإنه يميل قلبهم إلى ذلك الكفر ويصيرون كافرين في الحقيقة، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه والله أعلم»^(٢).

في المدينة... بعد ثلاثة قرون!

مئات السنين مرت على هذه المدينة حيث توالى العهود وتعاقبت الملوك وولت دولة الاستبداد والطغيان، وانحلت مملكة الشرك والأوثان، وحلت دولة العلم والإيمان، وتنسمت الأجيال عبر الحرية.

غريب... في مدينته!

خرج من وقع عليه الاختيار من الكهف إلى المدينة، فراعته ما وجدته من وجوه جديدة

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٨/٣.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١/١٠٢، ١٠٣.

ومعالم مختلفة حتى التبس الأمر عليه ولسان حاله يقول:

أما الديارُ فإنها كديارِهِم وأرى رجالاً حيي غيرَ رجالِهِم

عجبا! أليست هذه مدينته التي عاش في أحضانها، وسلك دروبها وعاش فيها طفولته وأحلامه، وشهدت فتوته وشبابه، كاد أن تتشعب به دروب الحيرة ويستبد به الهَمُّ، لكن الوقت والمقام لم يسعفه كي يتحقق من الأمر؛ حتى لا يلفت الأنظار إليه، فأسرع السير ودلف إلى السوق الذي لم يسلم من التغيير، وهنا حدث ما لم يكن في حسابانه حيث كانت الدراهم التي ألقاها في يد البائع وراء انكشاف أمره، وانتقل الخبرُ بسرعة البرق، وظن البعض أن هذا الفتى الغريب قد وقع على كنز عجيب! فرفعوا أمره للملك الصالح، الذي وجد ضالته حين انكشف أمر الفتى، وجاءته الحجة الساطعة التي طالما انتظرها، ففرح أيما فرح أن ساق الله إليه الدليل المادي على بعث الأبدان، وخرجت المدينة وراء الفتى وكأنها تشيعه حيا إلى مثواه، حيث عاد إلى رفاقه وانضم إليهم في رحلة إلى دار الخلود، بينما القوم ينتظرون أمام باب الكهف، فلما طال انتظارهم أجمعوا أمرهم على دخول الكهف، فراعهم أن وجدوا الفتية قد أخذوا مضاجعهم في مشهدٍ مهيب بعد أن قدموا للبشرية قصةً من روائع القصص وعبرةً من أجل العبر.

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿١١﴾ ﴾

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: « حكي في القائلين ذلك قولان: أحدهما أنهم المسلمون منهم، والثاني أنهم المشركون، و الظاهر أنهم أصحاب النفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال (لَعَنَّ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى. اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)»^(١).

(١) رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. وعنها رضي الله عنها ١٩- (٥٢٩) وعن عائشة، أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة، فيها تصاوير، لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ =

ولقد تعقب هذا الكلام الإمام القاسمي رحمه الله فقال في المحاسن: «وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين، مع إيراد الحديث الصحيح بعده المسجل بلعن فاعل ذلك، وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي والمقت الرباني، والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي أو الولي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه؛ ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة، وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك؟ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ الْهَتَكَ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوثَ وَيَعُوثَ وَنَسْرًا﴾ (٣٢) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ [نوح: ٢٣: ٢٤].

كان هؤلاء قوما صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم، فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى قادم ذلك لعبادة الأصنام. إلى آخر ما ذكره رحمه الله (١).

وقال السعدي رحمه الله: «﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رِئُوسًا﴾ أَعْلَمَ بِهِمُ ﴿﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم، ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ قال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى» (٢).

=رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوْلَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ أَوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب هجرة الحبشة حديث ٣٦٦٠ ورواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها كتاب المساجد ومواضع الصلاة. باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها ١٦- (٥٢٨).

(١) محاسن التأويل للقاسمي ١١ / ٢١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٧٣.

كم كان عددهم؟

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۗ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٣٣﴾ ﴾

أخبر المولى عز وجل عن اختلاف أهل الكتاب في عددهم، وبين أن قول من قال بأنهم ثلاثة أو خمسة قول لا دليل عليه، وإنما بُني على الظن والتخمين، لذا جاء التعقيب على القولين بقوله تعالى ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ وأتبع قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ برّد العلم إليه تعالى ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾ وبين سبحانه أن هناك من يعلم عدتهم، وهم قليل بالنسبة إلى غيرهم ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة، وكذا روي عن عطاء أنه كان يقول: عدتهم سبعة^(١).

﴿ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا ﴾: أي واضحا وبيننا دون تعمق أو خوض فيما استأثر الله بعلمه. قال الشوكاني: « وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله إليه فحسب »^(٢).

﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾: ففيما قصّ الله عليك ما يُغْنِيكَ عن سؤال أحد.

قال الشيخ سعيد حوى رحمه الله: « أي ولا تسأل أحدا من أهل الكتاب، ولا من غيرهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئا فترد عليه أو تزيّف ما عنده، ولا سؤال مسترشد، لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم، وهذا من أدب المسلم أن لا يستفتي أحدا من خلق الله غير أهل العلم من المسلمين »^(٣).

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٣٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

(١) يراجع في ذلك معالم التنزيل للبغوي ٣/ ١٥٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٣٦، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي النيسابوري ٣/ ١٤٣.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٧٨، ويراجع التحرير والتنوير لابن عاشور ١٣/ ٢٩٤.

(٣) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٦/ ٣١٧٣.

وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

ناه عز وجل أن يقطع بشيء أو يعزم على فعل دون أن يستثني فيقول إن شاء الله؛ ذلك أنه ﷺ لما سأله عن الأسئلة الثلاثة وعد أن يجيبهم في الغد؛ ثقةً بمجيء أمين الوحي جبريل بالجواب الكافي من عند الله تعالى، ولم يقل ﷺ إن شاء الله، فلبث الوحي مدة لا ينزل، حتى أشاع المشركون أنه هجره، وإنما كان ذلك درسا له ﷺ أن يربط كل ما هو متوقَّع الحصول بمشيئة الله تعالى، لما في ذلك من تفويض الأمر إلى علام الغيوب والتماس التوفيق والسداد، والبركة والتيسير منه تعالى.

قال ابن عطية: «أي عسى أن يرشدني فيما أستقبل من أمري وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي بعد تُعْمُ أمته»^(١).

«.. وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيبكم»، فتأخر الوحي، ولأن المرء معرض للنسيان فلقد شرع الله لمن نسي أن يقول «إن شاء الله» أن يذكر ربه، قال تعالى ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾: إشارة إلى نبا أصحاب الكهف والمعنى لعل الله يؤتيني من البيّنات والدلائل على صحة أي نبي من عند الله ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نبا أصحاب الكهف، وقد كان: حيث أعطاه الله عز وجل من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك «أو لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسي»^(٢).

كم لبثوا في الكهف؟

قال تعالى ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ﴿٥٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿١٦﴾

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ٥٠٨.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١١١.

بين الله عز وجل مدة لبثهم وهي ثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي، أو ما يقابلها بالحساب القمري وهي الثلاثمائة وتسع سنوات تقريبا، فبين الله عز وجل مدة لبثهم بالحسابين، وبين الله عز وجل وجوب رد العلم إليه تعالى في مدة لبثهم فهو الأعلم بها.

وقوله تعالى ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أي ما أسمع وأبصره، وفي هذا بيان لكمال سمعه وبصره، وإحاطتها بالمسموعات والمبصرات، بعد ما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر عن انفرادِهِ بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلِّهم إلى أحد من الخلق. ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاءً وقدرًا، وخلقًا وتديراً، والحاكم فيهم، بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

تعقيب على القصة :

وصايا وتوجيهات

﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾

أي وقرأ عليهم ما أوحى الله إليك فهو الحق والصدق والهدى والرشاد، واتبع هذا الوحي الإلهي فهو الحق الثابت الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، فقصصه ووعدُهُ الحق، وأمثاله الصدق، وكل ما فيه من أخبار لا مبدل لها، كما أنه لا مبدل لسنته عز وجل في عباده والتي من بينها نصرته لأوليائه وسنة التداول، تداول العصور وانقضاء العهود وهلاك الظالمين مهما طال بهم الزمان، واضمحلال دولتهم مهما علت، وقصة أصحاب الكهف دليل على ذلك حيث نجَّى الله هؤلاء الفتية من بطش قومهم وجعلهم آية باهرة وحجة ظاهرة على إمكانية البعث بالروح والجسد.

ومن خلال القصة أيضا نتعلم أن لا ملجأ لنا ولا ملاذ ولا عاصم إلا الله.

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

لما تبين لنا من قصة أصحاب الكهف كيف اجتمعوا على طاعة الله وتعانقت قلوبهم

وتألفت أرواحهم على الحب في الله واجتمعت كلمتهم على نصرة دين الله دعا المولى عز وجل رسوله الكريم ﷺ أن يصبر نفسه مع أولياء الله المريدين لوجهه والمبتغين لفضله، فلا ينصرف عنهم لفقرهم أو لضعفهم، فهم بالإيمان أغنى وباليقين أقوى وبالتقى أكرم من غيرهم.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا.

قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُدَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا. فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢]

وعنه رضي الله عنه قال في نزلت: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْعَشِيِّ ﴾ .

قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم. وكان المشركون قالوا له: تُلدني هؤلاء! ^(١)

حرية الاختيار ومصير الكفار.

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

المناسبة

بعد هذه الآيات البيّنات والحجج الباهرات لم يبق للكفار عذرٌ في البقاء على ما هم عليه من صدودٍ وإعراضٍ، وجحودٍ وعنادٍ، فأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يردد كلمة الحق على مسامعهم، أما ثمرة الدعوة ونتائجها فأمر ذلك مفوضٌ لله تعالى، الذي يحاسب عباده فيثيب من سلك طريق الإيمان، ويعاقب من آثر الكفر والعصيان.

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الحديث رقم: ٤٦ - (٢٤١٣).

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْهُمُ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ فهم في سجن مطبق، لا مناص ولا خلاص من أسره وقبضته؛ ولا أمل في النجاة منه، بل لا مطمع في منفذ تهب منه نسمة، أو يكون فيه استرواح!

وذلك بكفرهم بالبينات، وصددهم عن سواء الصراط، وظلمهم لأنفسهم حين أوردوها موارد الهلاك، وظلمهم للآخرين، فاستحقوا هذا العذاب المهين والمصير الأليم الذي لا مفر منه ولا خلاص.

﴿ وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ من حره، وقال تعالى في موضع آخر ﴿ يَصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٠].

﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ أي ذلك الذي يغاثون به فيراق عليهم ﴿ وَسَاءَتْ ﴾ أي النار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾: منزلاً، مجتمعاً، وأصل المرتفق المتكأ، وإنما جاء كذلك تهكما بهم ومشاكلة لقوله ﴿ نِعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا متكأ.

وفي هذا تعريضٌ بمجالس السوء ومتنديات الباطل التي كانوا يعقدونها ويحرصون على ارتيادها والظهور فيها، قد أبدلوا بالشراب الحميم المغلي، وبالصحبة والرفاق في هذا المجتمع الجهنمي! ألم يستنكفوا من قبل من صحبة أهل الإيمان! ويتعللوا بفقيرهم وضعفهم! فإن استغاثوا من الحريق والظماً أغيثوا... أغيثوا بماء كدردي الزيت المغلي! يشوي الوجوه حين يقترب منها، فكيف بالجوف؟ ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾!

عاقبة أهل الإيمان

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف: ٣٠ - ٣١].

بعد الترهيب من عاقبة الكافرين الخاسرة ونهايتهم الأليمة، يحمل السياق نسائم المبشرات لأهل الإيمان والصلاح قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٢٠ ﴾ فإيمانهم الصادق وأعمالهم الصالحة لها أجرها وثوابها.

﴿ أُولَئِكَ ﴾: بيان لبعد منزلتهم ورفعة مقامهم ﴿ لَمْ جَنَّتْ عَدْنٍ ﴾: حيث المكث الأبدي، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ فيزدادون بهجةً وحبوراً، وأنساً وسروراً، ونضرة ونعياً ﴿ يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ فما أروعها وأبهاها من حليةً بهيجة.

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السندس: ما رق من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه وثخن، والمعنى: يلبسون ثياباً فاخرة ناعمة من رقائق الحرير وما غلظ منه، وإنما خص اللون الأخضر هنا لكونه أحسن الألوان وأزاهها وأحبها إلى العيون، وقد قيل ثلاثة يذهبن الحزن: الخضرة والماء والوجه الحسن.

وجمع بين السندس وهو ما رق من الديباج، وبين الإستبرق وهو الغليظ منه زيادةً في النعيم، وقدمت التحلية على اللباس لأن الحلي للنفس أحب وإلى القلب أقرب، وفي القيمة أعلى، وفي العين أحلى.

﴿ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ خص الاتكاء: لأنه هيئة المنعمين المطمئنين، وشأن الملوك على أسرّتهم. ﴿ مُتَّكِنِينَ فِيهَا ﴾ { فيها } في قصور الجنة ودورها وأفنيتها ورياضها وأنديتها ومجالسها ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ ﴾: نعم الجزاء ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾: أي مقراً ومجلساً، وصحبةً وأنساً.

المناسبة بين قصة أصحاب الكهف ومحور السورة:

قدمت لنا هذه القصة العجيبة نموذجاً عملياً ومثالاً واقعياً، لمن من الله تعالى عليهم بالعصمة والنجاة من الفتن، حيث الفهم الصحيح والإيمان الخالص، والثبات واليقين والاستعانة برب العالمين مع الأخذ بالأسباب والتزام الحذر والحيطه.

الهدايات المستنبطة

من قصة أصحاب الكهف

في قوله تعالى ﴿إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (١٠): درس عملي للدعاة والمصلحين أن لا يغفلوا عن سلاح الدعاء مع مراعاة الأدب مع الله، وانتقاء العبارات المناسبة لكل مقام مقال، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية أدعية مباركة لها دلالتها وخواصها وآثارها

التمس أهل الكهف أمرين مهمين هما رحمة الله بهم وإرشاده لهم، وفي طلبهم للرحمة مع الرشاد ما يدل على أنهم ماضون في طريق الحق ثابتون عليه مهما كلفهم من تضحيات. وتتجلى أهمية هذا الدعاء للدعاة والمصلحين حين يواجهون المحن والابتلاءات والفتن والعقبات، أو تشعب بهم الآراء، أو يقفون على مفترق الطرق.

وفي قصة أصحاب الكهف دليل على جواز الفرار بالدين والعزلة حين تشتد الفتن. قال الإمام ابن العربي: « فِيهِ جَوَازُ الْفِرَارِ مِنَ الظَّالِمِ: وَهِيَ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ فِي الْخَلِيقَةِ » (١).

وقال الإمام الجصاص: « فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَهْرُبَ بِدِينِهِ إِذَا خَافَ الْفِتْنَةَ فِيهِ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِإِظْهَارِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ الْهَرَبَ بِدِينِهِ خَوْفَ الْفِتْنَةِ أَنْ يَدْعُوَ بِالْدُّعَاءِ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ رَضِيَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ وَأَجَابَ دُعَاءَهُمْ وَحَكَاهُ لَنَا عَلَى جِهَةِ الْإِسْتِحْسَانِ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ » (٢).

وقال السعدي رحمه الله: « وفي هذه القصة دليل على أن من فرّ بدِينِهِ من الفتن، سلّمهُ اللهُ منها، وأن من حرّص على العافية عافاه اللهُ، ومن أوى إلى الله آواه اللهُ، وجعله هداية لغيره،

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٢٣٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٦١.

ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨] ^(١).

وفي المنار نقل الأستاذ رشيد رضا عن شيخه الإمام محمد عبده « ولا معنى عندي للخلاف في وجوب الهجرة من الأرض التي يمنع فيها المؤمن من العمل بدينه، أو يؤدي فيها إيذاء لا يقدر على احتماله » ^(٢)، وعقب الأستاذ رشيد رضا على ذلك بقوله « فكل مسلم يكون في مكان يفتن فيه عن دينه بأن يكون ممنوعاً من إقامته فيه كما يعتقد، يجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حراً في تصرفه وإقامة دينه » ^(٣).

وقال صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء: ٩٧].

« وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة حقت عليه المهاجرة » ^(٤).

وذكر ابن العربي في أحكام القرآن من الأسباب الداعية إلى هجر الأوطان: « الْفِرَارُ مِنَ الْإِذَابَةِ فِي الْبَدَنِ؛ وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَرْخَصَ فِيهِ، فَإِذَا خَشِيَ الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَوْضِعٍ فَقَدَّ أذنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي الْخُرُوجِ عَنْهُ، وَالْفِرَارِ بِنَفْسِهِ؛ لِيُخَلِّصَهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَحْدُورِ » ^(٥).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٧٣.

(٢) المنار « تفسير القرآن الحكيم » لرشيد رضا ٣٥٧ / ٥.

(٣) نفس المرجع ٣٦١ / ٥.

(٤) الكشاف للزمخشري ٤٥١ / ١.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤٥٤ / ٢.

لقد تذكرت والذكرى مؤرقة: المسلمين في الأندلس لما تمكن النصارى منهم فأجبروا من لم يتمكن من الفرار على ترك الإسلام ونسيان لغة القرآن ففر من فر بدينه وبقي من بقي على دينه خفية لا يستطيع =

في قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: إشارة إلى حادثة سنهم

= أن يجهر به وإلا فإن محاكم التفتيش مصيرُهُ؛ حيث العذاب صنوف وألوان، حتى أُجبروا على دخول الكنائس، وممارسة شعائر النصرانية وتسمية أولادهم بأسمائهم. وفي هذه المحنة قال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى:

فلا يغر بطيب العيش إنسان
من سره زمن ساءت له أزمان
هوى له (أحد) وأنهد (ثهلان)
وأين (شاطبة) أم أين (جيان)؟
من عالم قد سما فيها له شان
كما بكى لفراق الإلف هيمان
قد أقفرت لها بالكفر عمران
ما فيهن إلا نواقيس وطبان
حتى المنابر تبكي وهي عيدان
وما لها من طوال الدهر نسيان
كأنها في مجال السبق عقبان
كأنها في ظلام النقع نيران
لهم بأوطانهم عز وسلطان
فقد سرى بحديث القوم ركبان
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
أحال حالهم جور ووطنان
واليوم هم في بلاد الكفر عيدان
عليهم في ثياب الذل ألوان
كمات فرق أروح وأبدان
طلعت كأنها هي يا قوت ومرجان
والعينُ باكيةٌ والقلب حيران
إن كان في القلب إسلام وإيمان

لكل شيء إذا ما تم نقصان
هي الأمور كما شاهدتها دول
دهى (الجزيرة) أمر لا عزاء له
فاسأل (بلنسية) ما شان (مرسية)؟
وأين (قرطبة) دار العلوم فكم
تبكي الخفيفة البيضاء من أسف
على ديار من الإسلام خالية
حيث المساجد قد صارت كنائس
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
ياراكبين عتاق الخيل ضامرة
وحاملين سيوف الهند مرهفة
وراتعين وراء البحر في دعة
أعندكم نبأ من أهل أندلس
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
يامن لذلة قوم بعد عزتهم
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
يا رَبِّ أم وطفل حيل بينها
وطفلة مثل حسن الشمس إذ
يقودها العلج للمكروه مكرهةً
لمثل هذا يذوب القلب من كمد

يراجع: نفع الطيب في غصن أندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني ٤ / ٤٨٦، ومحاكم =

وفتوتهم وطاعتهم لربهم في هذه المرحلة المهمة في حياة الإنسان مرحلة الشباب، وهي مرحلة البذل والعطاء، ومرحلة القوة والحماس، ولقد عُني الإسلام بإعداد الشباب وتوجيههم ورعايتهم، فهم عماد الأمة وأساس نهضتها ونبراس حضارتها ومنطلق تقدمها وتحررها، ومبعث عزّها وصنّاع أمجادها.

وصدق الشاعر هاشم الرفاعي رحمه الله حيث يقول:

ملكنا هذه الدنيا قرونا	وأخضعتها جدودٌ خالدونَ
وسطرنا صحائف من ضياء	فما نسي الزمان ولا نسينا
بنينا حقبةً في الأرض ملكا	يدعمه شباب طامحونَ
شبابٌ ذلّوا سبلَ المعالي	وما عرفوا سوى الإسلام دينا
تعهدهم فأنبتهم نباتاً	كريما طاب في الدنيا غصونا
إذا شهدوا الوغى كانوا كماءً	يدكّونَ المعاقلَ والحصونَ
شبابٌ لم تحطّمه الليالي	ولم يُسلمِ إلى الخصم العرينَ
وإن جنَّ المساءُ فلا تراهم	من الإشفاقِ إلا ساجدينَ
كذلك أخرج الإسلام قومي	شبابا مخلصاً حراً أميناً

إن مرحلة الشباب مرحلة حاسمة في حياة الإنسان لها أهميتها ولها خطرها.

وحين ينشأ الشاب في رحاب القرآن ويحيا تحت ظلال الإيمان فإن جزاءه يوم القيامة أن ينعم بظل الرحمن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ

=التفتيش في الأندلس تأليف محمد علي قطب ط مكتبة القرآن بمصر وقد أورد فيه المؤلف نقلا عن مراجع عربية وأجنبية صوراً لشعة لأنواع التعذيب الوحشي للمسلمين بعد أن حكم الطغاة الأسبان.

إِلَّا ظَلَّهُ إِمَامٌ عَدْلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ... الخ الحديث^(١).

فهنيئاً لشاب حافظ على شبابه وصرفه في طاعة ربه، سيماً في مجتمعات شاعت فيها فتن الشبهات، وتأججت فتن الشهوات، فترى الدعوة إلى الأديان المحرفة والرايات الزائفة، وتجذ من يشوه الحقائق، ويزخر بالأباطيل، وينشر الفساد والانحلال.

فعجباً لمن يحفظ شبابه في هذا التيه، يصارع أمواج الفتن، ويواجه أعاصير المحن فيصمد ويثبت ويعبر هذه المرحلة الحاسمة سالماً معافاً؟

روى الإمام أحمد في مسنده عن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبُوءٌ)^(٢).

ومن المستفاد من هذه القصة أيضاً:

ضرورة إعداد الدعاة وتربيتهم تربية راشدة وتثقيفهم ثقافة واسعة.

حاجة الداعية إلى العلم النافع والبصيرة النافذة والبدية الحاضرة والقراءة المتأنية للأحداث ومعايشة الواقع، واستشراف المستقبل، والتخطيط الدقيق.

حاجة الدعاة إلى روح الألفة والمودة والتعاون والتنسيق والمدارسة، والحوارات الهادفة البناءة. ومن الفوائد الجليلة ما أورده القرطبي في تفسيره: «عن ابن عطية^(٣) [قال: تعلقت

(١) رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ح ٦٦٠، ورواه مسلم في صحيحه عنه ك الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة ح ٩١.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٥١/٤ برقم (١٧٥٠٦)، ورواه ابن أبي عاصم في السنة حديث ٤٦٢ والطبراني في المعجم الكبير للطبراني ١٢ / ٢٧٥ حديث ١٤٢٦٩، وأبو يعلى الموصلي في المسند ٤ / ٣١٦ حديث ١٧٠٩، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤ / ٤٨٧: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن»، وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة وحسنه، قال: «وكذا هو عند أحمد وأبي يعلى وسنده حسن...» المقاصد الحسنة ١ / ٦٨، وحسنه العجلوني في كشف الخفا ١ / ٢٤٦ برقم ٧٤٨.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ٣٧٣.

الصوفية في القيام والقول بقوله تعالى ﴿ إِذ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ الْأَرْضِ ﴾ [١]، وتعقبه القرطبي بقوله: « قلت: وهذا تعلق غير صحيح هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروه لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان هيهات بينها والله ما بين الأرض والسماء، ثم هذا حرام عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان إن شاء الله تعالى، وقد تقدم في «سبحان» عند قوله: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء: ٣٧] ما فيه كفاية، وقال الإمام أبو بكر الطرسوسي وسئل عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقص والتواجد: فأول من أحدثه أصحاب السامري؛ لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار، قاموا يرقصون حوالبه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعباد العجل، على ما يأتي^(١).

يستفاد من قوله تعالى: ﴿ لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَنٍ بَيِّنٍ ﴾: أن الدعاوى لا بد لها من بينات، وينبغي على كل من جاء برأي أو قول لا أصل له ولا برهان له به أن يأتي بالدليل إثباتا لما ادعاه وإلا فهو مُدَّعٍ، وقد قيل:

والدَّعاوى إن لم تقيموا عليها
بينات أصحابها أدياء

قال الرازي: « فثبت أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية»^(٢).

وقال البروسوي: « وفيه دليل على أن ما لا دليل عليه من الديانات مردود، والآية إنكار وتعجيز وتبكيث لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال»^(٣).

(١) الجامع لحكام القرآن للقرطبي ١٠ / ٣٦٦.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ٩٨.

(٣) روح البيان للبروسوي ٥ / ٢٢٣.

ومن الفوائد الجليلة: أهمية مدارسة العقيدة، وعرضها على العقول تقريراً لها وتذكيراً بها وتوصية بالثبات عليها، فضلاً عن تجديد الإيمان وزيادته، وهي من التواصي بالحق، وتشبيته في النفوس، وترسيخه في القلوب.

في قصص الأنبياء والصالحين من الصفحات المضيئة والمواقف الرائعة والعبير والعظات ما يثبت الفؤاد، ويرطب الأكباد، ويسلي النفوس، ويربط على القلوب برباط الإيمان.

ومن الفوائد الطيبة في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ضرورة تقلاب المرضى على الفراش؛ حتى لا ترسب الأملاح في جهة واحدة، فتتآكل أجسادهم وتعرض للتلف والتعفن.

ومن لطائف الفوائد: أنه ورد ذكر كلبهم في القصة أربع مرات، وقد شغل هذا الكلب اهتمام بعض المفسرين والباحثين، فاستطردوا إلى الحديث عن اسمه ولونه وعن قصة لحاقه بهم، فاهتموا بتفصيلات لا فائدة منها ولا ثمرة في البحث عنها، غير أنها تدل على ثمرات الصحبة الطيبة وعموم نفعها وشمول بركتها، فهذا كلب جاء ذكره في أشرف الكتب التي نزلت على أشرف الرسل ﷺ بمجرد سيره وراء الصالحين وحرصه على ملازمته ألا يدل ذلك على شرف الصحبة الطيبة ورفعته وثمرتها صحبة الصالحين والتعلق بهم؟

قال الشافعي رحمه الله:

أَحَبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ لِعَلِّي قَدْ أَنْالُ بِهِمُ الشَّفَاعَةَ

وقال ابن كثير رحمه الله «وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكرٌ وخبرٌ وشأنٌ»^(١).

وقال ابن عطية: وحدثني أبي ﷺ قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم؛ كلبُّ أحبِّ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ١٤٠.

أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله^(١).

قال ابن كثير « إذ كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصالحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فيما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل^(٢) ».

وفي الصحيح عن أنس ﷺ قال: « بَيْنَمَا أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَارِجِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ فَلَقِينَا رَجُلًا عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعَدَدْتُ لَهَا قَالَ فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا أَعَدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتِ، قَالَ أَنَسُ ﷺ فَأَنَا أَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ^(٣) ».

قلت: وهذا الذي تمسك به أنس ﷺ يشمل من المسلمين كل ذي نفس، فكذلك تعلقنا أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين؛ كلب أحب قوما فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحب النبي عليه الصلاة والسلام، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].^(٤)

ومن الفوائد المهمة: من قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ٥٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ١٤٠.

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب مناقب الصحابة ٦ - باب: مناقب عمر بن الخطاب ﷺ.

الحديث رقم: ٣٤٨٥، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٣ / ٢٢٧.

(٤) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠ / ٣٧٢ وحاشية الجمل على الجلالين ٣ / ١٢، ١٣، وتفسير

القرآن العظيم لابن كثير ٥ / ١٤٠.

مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿ [الكهف: ١٩]. الاشتغال بالمهم دون غيره، فقد يخوض الدعاة في جدل عقيم حول مسائل لا أهمية لها ولا ضرورة للغوص فيها، بل يجب الالتفات إلى واجبات الوقت ومراعاة الأولويات.

ومما يجدر التنبيه عليه: أنه في عصور الجهل والانحطاط استغل بعض أصحاب المصالح وأرباب النفوذ بساطة الناس وسذاجتها في تحقيق مآربهم فيدعون اكتشاف كهف في المكان الفلاني به أصحاب الكهف وينسجون حوله الروايات ويقدمون الأدلة على صحة ادعائهم حتى يشيع الخبر بين الناس ويطير بين البلاد ويصير الكهف مزارا يؤمه الناس من بلاد شتى، وما زلنا نسمع عن بعض الجهال أن هناك شجرة في المكان الفلاني، وبئر في البلد الفلاني يتزاحم عليه الجهلة طلبا للتداوي والاستشفاء من الأمراض المزمنة والمستعصية وفي هذا من المخالفات الشرعية ما لا يخفى، فينبغي على أهل العلم تحذير العوام من ذلك.

ولعل هذا يفيد في معرفة أسباب اختلاف الناس في مكان الكهف، حتى قيل إنه ببلاد الأندلس أو ببلاد الترك! والله أعلم.

كما يستفاد من القصة:

- * وجوب تفويض العلم إلى الله عز وجل وعدم القطع في المسائل بدون أدلة قطعية.
- * وفيه أيضا من آداب الصحبة: إسداء النصح وتقبله وحسن الحوار وترك الجدل.
- * ومراعاة الحذر والحيطه، وأن التوكل على الله عز وجل واليقين به لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب.
- * وفيه جواز الوكالة في البيع والشراء والشركة في المطعم والمشرب.
- * وفيها أيضا جواز التمتع بالطيبات كالماء البارد واللحم والفاكهة وغير ذلك، مع القصد والاعتدال، ومراعاة التوازن الغذائي، ولا يتنافى ذلك مع الزهد والورع قال سبحانه

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رِبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢ - ٣٣].

* وفي حملهم النقود مع صدق توكلهم على الله: ردُّ على من يتوكل بحجة التوكل فربما خرج بدون أخذٍ بالأسباب أو حملٍ للمال بدعوى التوكل، قال النسفي: «وفي هذا دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأي المتوكلين على الله، دون المتكلمين على الاتفاقات، وعلى ما في أوعية القوم من النفقات»^(١).

ومما يستفاد من الآية الواردة في التعقيب على القصة:

* الدعوة إلى تلاوة كتاب الله والاعتصام به، فهو حبل الله المتين ونبراسه المين وهدية القويم.

* سنن الله في الكون ثابتة وأقداره نافذة فلا مبدل لها، وفي هذا ما يدعو إلى الطمأنينة والسكينة والرضا واليقين.

* إذا تعلق القلب بزينة الدنيا انصرفت النفس إلى صحبة أصحاب الوجاهة والرياسة طمعا في الدنيا الفانية وتعلقا بزبيتها، فعلى الداعية أن يخرج حبَّ الدنيا من قلبه وأن يقرب أهل الطاعة وإن كانوا فقراء ضعفاء.

* هجر أهل الغفلة، ومجانبة أصحاب الأهواء، وذوي التفريط.

* حرية الاعتقاد في الإسلام؛ ذلك أن الحقَّ واضحٌ أبلج لا يفتقر إلى إكراه، فالحرية مكفولة للجميع على أن هناك حسابا عسيرا وعذابا نكرا لمن اختار طريق الضلال.

(١) مدارك التنزيل للنسفي ٣/ ٦، ٧.

* ومما يستفاد من القصة استحضر العبد لمشيئة الله تعالى، فيما إذا عزم على فعل أمر في المستقبل كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيُّ اللَّهِ: لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بَعْلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ، أَوَّ الْمَلِكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةً مِنْ نِسَائِهِ، إِلَّا وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشَقِّ غَلَامٍ)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ).^(١)

* للمؤمنين عند الله تعالى ثوابٌ عظيم مضاعفٌ، في دار الخلد والكرامة التي تزدان بكل ألوان البهجة والسرور، وأطياف الهنا والخبور.

- ٢ -

فتنة المال

نظرات في قصة صاحب الجنتين

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْثَرُ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا جِلْدَهُمَا نَهْرًا ۝٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ نَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤَهَا غُورًا فَلَنْ يَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقُلُّ كَفْتِهِ عَلَىٰ مَا أَتَقَّ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصُرُّونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۝٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤]

(١) صحيح مسلم كتاب الأيمان والنذور - باب الاستثناء، الحديث رقم: ٢٣ - (١٦٥٤).

المناسبة

أمر الله رسوله الكريم أن يضرب لهم هذا المثال للعتة والاعتبار، والتذكرة والاستبصار وتصحيح المفاهيم، وأن العبرة بالخواتيم، وأن تقلب الكافر في النعم إمهالاً واستدراج، ومكابدة المؤمن في الدنيا ابتلاء وتمحيص.

فهذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا، ويستنكف عن مجالسة الفقراء، فهو على هذا متصل بقوله ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: 28].

قال الرازي في تفسيره: « اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغني فقيراً، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية»^(١).

ويقول صاحبُ الظلال: « ثم تبيء قصة الرجلين والجتتين تضربُ مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله. وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجتتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تحذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم. موجبة لحمده وذكره، لا للجحود وكفره»^(٢).

ولهذه القصة وجه اتصال مع قوله تعالى في مقدمة السورة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٢٤.

(٢) في ظلال القرآن ١٥ / ٩٣.

زِينَةً لِّمَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ [الكهف: ٧ - ٨] فهذان رجلان أحدهما: غرته زينة الحياة الدنيا، فوقع في حبالها وغرق في خضم فتنتها، والثاني: زهد في الدنيا، فعصمه الله من غرورها وفتنتها.

المعنى الإجمالي

بين أيدينا قصة رجلين: أحدهما كافر، وهو المبتلى بالرخاء، والآخر مؤمن: وهو الممتحن بالشدة، جعل الله للكافر جنتين من أعناب، والعنب فاكهة وقوت، فوائده جمة ومنافعه عظيمة وأشجاره على اختلاف ألوانه وتنوع مذاقه ومنظره مما تبتهج به العيون وتنشرح له الصدور.

عطاءً وابتلاء

قال تعالى ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢٢﴾ ﴾

أي جعلنا له جنتين من أعناب، على حافة الجنتين نخيل يحيط بهما إحاطة السوار بالمعصم وجعلنا بينهما زرعاً لتتم النعمة وتكتمل تلك البهجة.

قال الرازي: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ والمقصود منه أمور:

أحدها: أن تكون تلك الأرض جامعةً للأقوات والفواكه.

وثانيها: أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف، ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض.

وثالثها: أن مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة^(١).

﴿ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَنْظُرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٢٤ ويراجع: روح المعاني للألوسي ١٥ / ٢٧٤.

إشارة إلى خصوبة التربة ووفرة المحصول وسلامة الزرع من الآفات وكثرة الثمار ونضجها وطيبها، على غير ما هو معهود في سائر الحقول والبساتين، التي يتفاوت جناها زيادةً ونقصاً وجودة ورداءةً، بحسب اختلاف الأعوام، وتقلبات الجوِّ، وآثار الآفات.

﴿ وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴾: يجري بالخير الوفير ويجود بالسلسل النَّمير، فيسقي الزرع ويروي الظمآن، وتكتمل البهجة ويتم الأنس بهائه الرقراق، وجداوله التي تسري بين بساتين العنب وصفوف النخيل وسطور الحقول.

قال صاحب الكشاف: « جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق ونعتها بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو السيح بالنهر الجاري فيها»^(١).

نكاثروا افتخاراً!

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٣٢) أي كان له تجارة يصرفها وينميها، وأموال يستغلها ويُرَبِّيها، ودواب يعلفها ويُرَبِّيها، فضلاً عن الجنتين مما زاده فخراً وتبهاً، حتى قال لصاحبه المؤمن ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ تباهى بكثرة أمواله، واغترَّ بأهله وعشيرته.

ظنونٌ واغترارٌ!

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (٣٦) أراد بدخوله أن يترفع على صاحبه المؤمن ويتعالى عليه بما عنده من خيرات وثروات، ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾: حمله على هذا القول الذي لا يُلقى له بالا: ما هو عليه من عجبٍ وغرورٍ وتبُّرٍ وجحودٍ، فقال

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٨٩، والسيح: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض.

ذلك في زهوٍ وخيلاء ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ ﴿٣٦﴾

أنكر البعث والحساب؛ رُكُونًا إلى الدنيا واطمئنانًا بها، وحتى لا يحاسب على تلك النعم ويعاقب على كفرانه وطغيانه، وجوره وقصوره، وغروره وخيلائه، ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ ﴿٣٦﴾: أي ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء، وإما أن يكون هذا ظنّه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، فأبى تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله وحماقته: أن من أعطي في الدنيا يعطى في الآخرة، ومن أغناه الله في دنياه فقد رضي عنه وأرضاه! بل إنه تعالى قد يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه؛ إذ لا نصيب لهم في الآخرة.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ، فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ [الإسراء: ١٨ - ١٩].

وقال جلّ وعلا ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ ﴿٢٠﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿ وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ كيف يحسن الظن بالله وقد أساء العمل فتوهم أنه ما أوتي هذه النعم إلا عن جدارةٍ واستحقاقٍ، وأنه لو رجع إلى ربه لوجد المزيد من الحفاوة والإغداق! نصيحة وإعذار.

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا

يَاللَّهِ إِن تَرِنَ أَنَا أَقَلُّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣١﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصَبِّحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصَبِّحُ مَاؤَهَا غُورًا فَلَن نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ .

قال له صاحبه ناصحا ومدكرًا، في حوار هادف بناء، يقصد من خلاله أن ينتشله من أعماق الفتنة ويردّه إلى الحق: ﴿ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴾ ؟
إن هذا البطر والاعتزاز والجحود والإنكار كفرٌ بواحٌ بمن خلقك من تراب، فردّه إلى أصله وطبيعته ليعالجه من داء الكبر، بتذكيره بمادة الخلق التي يتساوى فيها مع سائر البشر فمن التراب وإلى التراب، كما قيل:

خَلَقْتَ مِنَ التُّرَابِ فَصِرْتَ حَيًّا وَعُلِّمْتَ الْفَصِيحَ مِنَ الْخُطَابِ
وَعَدْتَ إِلَى التُّرَابِ فَصِرْتَ فِيهِ كَأَنَّكَ مَا خَرَجْتَ مِنَ التُّرَابِ
فكيف يتكبر من أصله التراب، ومنشأة النطفة! وكيف يغفل عن الحكمة من خلقه وهي عبادة الواحد القهار، وكيف ينصرف عن التفكير والاعتبار، وقد سَوَّاهُ اللهُ رجلاً مكتمل الخلقه وافر العقل!

﴿ لَنَكُنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ ﴿٣٨﴾: بعد إنكار ما هو عليه من كفر وضلال بين له صاحبه العقيدة الصحيحة والنهج القويم، وهو الإقرار لله تعالى بالربوبية والشهادة له بالوحدانية، والتأدب معه تعالى والثناء على نعمه الجليلة.

فكان قصد المؤمن من حوارهِ: تصحيح المفاهيم، وضبط الموازين، وتأصيل القيم، وذلك بيان أن العبرة ليست بكثرة المال والولد، فتلك أعراضٌ فانيةٌ، وعاريةٌ مستردةٌ.

قال صاحب الظلال: « وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنَّفَر ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم

وهو يطمع في فضل الله»^(١).

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾: «هلا قلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، حضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها، وعلى الإقرار بالعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته»^(٢).

ثم التفت إليه ليصحو من غفلته ويتبه من غفوته قبل فوات الأوان وتبدل الحال: فقال: ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلْقًا ۖ ﴾^(٣).

﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ ﴾^(٣) فهذا ميزان خاطئ وفهم قاصر ونظرة مادية مجردة، إذ لا يقاس الناس بما لديهم من أموال وبنين.

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ﴾ إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وفي هذا ما يدل على الرضا بما قسم الله، واليقين بفضل الله، والاستبشار برحمة الله.

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ يرسل عليها من الصواعق والمهلكات، بقدر ما يخربها ويدمرها، عقابا لك على كفرك وبطرك، ﴿ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلْقًا ﴾ أي فتصبح جنتك بعد أن كانت خصبة طيبة زاخرة، أرضاً قاحلة جرداء، لا نبت فيها، قد خيم عليها الخراب وأحل بها البوار: ﴿ أَوْ يُصِيعَ مَأْوَاهَا غَوْرًا ﴾ أي يغوص ويذهب في أعماق الأرض: ﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ ۖ طَلَبًا ﴾: لا تقدر على رده إلى موضعه.

﴿ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ۖ فَاصْبِحْ يَقَلِّبُ كَفْتِهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا ۖ ﴾^(٤) ولم تكن له، فنة يصرونه، من دون الله وما كان منصرفا^(٥) ﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ نُّوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾^(٤)

(١) في ظلال القرآن ١٥/١٠١.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/٤١٠.

لما أعرض عن الحق، وصدف عن البرهان، عوقب بالنقص والحرمان، وباء بالخيبة والخسران: ﴿ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ ﴾ أصابه الدمار الشامل، وأصله من إحاطة العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك، ومنه قوله تعالى ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف: ٦٦].

﴿ فَأَصْبَحَ يَقُولُ كَيْفَهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ ندما وحسرة على ما سلف منه، ووقع له، وحزنا على ما أنفق فيها.

﴿ وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ بعدما أصابها من هلاك ودمار، وخراب وبقار.

﴿ وَقَوْلٍ يَلْتَنِى لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ أدرك أن ما أصابه بجريرة شركه وشؤم معصيته.

إنها ساعة المحاسبة ولحظة المراجعة، ساعة الحسرة والندم على ما فات، أين ماله الذي ساقه إلى الفخر والتهيه؟ أين أهله وعشيرته وخدمه وحشمه؟ هل وجد فيهم ما كان يرتجى من العزة والمنعة؟

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴾ (٤٣) ما كان له من ينصره ويعصمه من أمر الله وما كان منتصراً بنفسه، إذ لا حول له ولا قوة.

ولكن: ما هو مصير هذا الرجل؟ هل كان ندمه بداية توبة صادقة؟ أم كان مجرد حسرة وندم على ضياع دنياه؟ وإذا كان الرجل قد تاب توبة ناصحة فهل عوضه الله في الدنيا عما سلبه منه؟

يقول السعدي رحمه الله: « ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول»^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٧٧.

سنن ثابتة في كون متغيراً!

﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

إذا كانت الدنيا متقلبة لا يدوم لها حال، وإذا كان الكون خاضعاً للتغيير، والأيام تدول فإن هناك سنناً ربانية ثابتة، لا تحول، منها: ولاية الله لأوليائه ينصرهم ويحبرهم، وأن عاقبة الأمور لله تعالى، فإليه المرجع والمصير، هو خير ثواباً وأوليائه في الدنيا والآخرة، و خير عاقبة لمن رجاه وآمن به وسعى إليه.

هنالك في ضوء هذه القصة وما انطوت عليه من عبر وعظات، فالولاية لله تعالى يعزُّ من أطاعه ويذل من عصاه، ينصر أوليائه ويخذل أعداءه.

تعقيب على القصة

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ حِجَّتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنَوِّلُنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥ - ٤٩].

المناسبة

لما كان الاغترار بالدنيا والافتتان بزخارفها من أعظم البواعث على الفتن والدواعي إلى الصدود عن الحق: ضَرَبَ اللهُ المَثَلَ لزوال الدنيا وضالَّتْهَا بَءاء نزل من السماء فَرَوَى الأَرْضَ وأخرج النبات ليدور دورته المعهودة، حتى يحين الحصاد، فإذا بأوراقه النضرة المخضرة قد

ذَوَتْ وَاصْفَرَتْ وَذَبِلَتْ، وسيقائه تساقطت وتحطمت، وتأتي الرياح لتذروه فيصبح كأن لم يغن بالأمس، ثم انتقل السياق إلى مشاهد من أهوال يوم القيامة؛ لترهيب المفتونين بزينة الدنيا المغترين بها؛ ولتسليية المؤمنين وتذكيرهم بهذا اليوم الموعود.

مثلُ الدنيا

﴿ وَأَصْرِبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ أي: اختلط بالماء نبات الأرض حتى استوى؛ كما اختلط النبات بعضه ببعض حتى التفت سيقانه وتشابكت أغصانه، وتفتحت أزهاره وتفتتت وأينعت ثماره ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ الهشيم: الكسير، وهو من النبات ما تكسر وتفتت، بسبب انقطاع الماء عنه أو بانتهاء دورته وانقضاء أوانه.

﴿ تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ تفرقه وتنسفه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدِرًا ﴾ أي: على كل شيء من الأشياء يحويه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء.

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ ﴿٤٦﴾

لما كشف بهذا المثل المحسوس عن حقيقة الدنيا الفانية، أشار إلى أبعث محاسنها وأعظم مفاتنها وأحلى زيتها: المال والبنون، فبين أنها زينة ماحلة وعارية مستردة ولذة فانية، أما ما ينفع الإنسان ويبقى أثره ويخلد ذكره ويدوم نفعه فما قدم من أعمالٍ صالحاتٍ وما وفق من واجباتٍ.

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان، وتشمل كل عمل صالح وكل طاعة واجبة أو مستحبة من صلاة وصيام، وزكاة وصدقات، وحب وعمره، وقراءة وذكر، وطلب علم نافع وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر الوالدين، والقيام بالحقوق الزوجية، وحقوق

الأولاد، وسائر الحقوق، وجميع وجوه الإحسان، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابا وخير أملا، فثوابها باق، وثمارها ممتدة ورافقة.

«وصاحبها ينتظر الثواب، وينبسط أمله على حالٍ خيرٍ من حالِ ذي المال والبنين دونَ عملٍ صالحٍ»^(١).

وقيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات، وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالهما سلوكا وعملا في منزلها الذي وضعها الله فيه، فهما زينة لا قيمة، والإسلام لم يحرم الزينة ما دامت في حدود ما أحل الله، قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

من مشاهد القيامة

﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾^(٤٧) وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا^(٤٨) وَوَضِعَ الْكِتَابِ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا^(٤٩) ﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩]

المناسبة:

بعد التذكير بحقيقة الدنيا وزوالها، ناسب ذلك الانتقال إلى مشاهد القيامة وأهوالها: فقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ ﴾: أمر تعالى بتذكر هذا اليوم إذ لا يجوز لعاقل أن يغفل عنه، ودعا إلى تصور هذا المشهد الرهيب واستحضاره حتى يكون المؤمن دائما على حذرٍ من الآخرة واستعدادٍ

(١) جزء في « تفسير الباقيات الصالحات » لأبي سعيد صلاح الدين خليل بن كيكليدي بن عبد الله العلائي

لها، فكم في هذا اليوم العظيم من أهوال عظام، منها تسييرُ الجبالِ كما تسيير السحاب، ودكُّها ونسفها وبسُّها وتطاييرها قال تعالى ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٣].

وقال جلَّ وعلا: ﴿ وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَرْنَا كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨] وقال سبحانه ﴿ وَجَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكَّنَا ذِكَّهُمْ وَجِدَّةً ﴾ [الحاقة: ١٤] وقال عز وجل ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ [الواقعة: ٥ - ٦]. وقال تعالى ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥].

وقال سبحانه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

﴿ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾: بروزها ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبيان، وبروز ما دُفِنَ في بطنها، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٤]، وقال جلَّ وعلا ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١-٢].

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾: جمعناهم إلى الموقف من كل مكان ﴿ فَلَمْ نَقَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾: فلم نترك منهم أحداً. ونظيره قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ [مجموعون إلى ميقت يوم معلوم] ﴿ [الواقعة: ٤٩-٥٠] ﴾ وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ لم يتخلف منهم أحد، وقد وقفوا في صفوف منتظمة، في خضوع واستسلام وتجرُّد وانكسار.

﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يقول لهم رب العزة لقد جئتمونا حفاة عراة، قد تجرَّدتم من كل حولٍ وقوة، كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ إضراب وانتقال من كلام إلى كلام، لتبكيك وتقريع

منكري البعث، أي: زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا، وأن لن نجعل لكم موعداً نجازيكم بأعمالكم، وننجز ما وعدناكم به من البعث والجزاء فقد جاء الموعد!

﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٤٩) كتاب الأعمال، فظهر لكل إنسان عمله يقرأه مكتوباً ويشاهده مصوراً بل ويسمعه ناطقاً.

قال تعالى ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٩) [الجنائية: ٢٨ - ٢٩].

وقال جلّ وعلا ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (١٤) [الإسراء: ١٣ - ١٤].

﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي: خائفين وجلين مما في الكتاب، لما ينطوي عليه من الفضيحة والعذاب.

﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ يدعون على أنفسهم بالويل والشبور لوقوعهم في الهلاك، ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ أي: أي شيء له لا يترك معصية صغيرة ولا معصية كبيرة إلا حواها وضبطها وأثبتها.

وقدم الصغيرة اهتماماً بها، ليحذر من مغبتها، فما بالك بالكبيرة؛ أليس الحذر منها أحرى وأولى.

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة، أو وجدوا جزءاً مما عملوا مكتوباً مثبتاً ﴿ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي: لا يُحْصِي على أحدٍ غير ما قدم، ولا يعاقب أحداً من عباده بغير ذنب، ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه.

لقد مضت الدنيا بسراها الخادع وبريقها الزائف وزخرفها الماحل، ولم يبق منها إلا الباقيات الصالحات، فهي خير زادٍ وأعظم زخراً ليوم المعاد.

المناسبة بين محور السورة وقصة صاحب الجنتين

لما كانت مباحثُ الدنيا من أعظم دواعي الفتن، وردت هذه القصة وتضمَّنت نموذجين متباينين من الناس: النموذج الأول من اغترَّب بزينة الدنيا ووجد نعم الله عليه، والنموذج الآخر لمن عصمه الله من الوقوع في حائل الدنيا بعلمه وإيمانه وثباته ويقينه وإيجابيته في دعوة صاحبه ثم يضرب الله للدنيا مثلاً ليبيِّن اضمحلالها وزوالها، لينتقل السياقُ إلى عرضِ مشاهدٍ من يومِ الحشرِ، لشحذِ الهممِ وصرْفِ العزائمِ للعملِ لهذا اليومِ.

الهدايات المستنبطة من قصة صاحب الجنتين

* في هذه القصة الهادفة: اعتبارُ بحالِ ومآلِ الذي أنعم الله عليه، فكفر بأنعم الله وأساء الأدب مع مولاه، واغترَّب بها أولاه، فحسرَ دنياه.

* التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من نعيمٍ مقيمٍ وفرحٍ مُستديمٍ.

* ضرورة توجيه النصيح إلى الغافلين المفتونين، وإقامة الحججة عليهم.

* جواز الدعاء بتلف مال ما كان ماله سبب كفره وطغيانه وتمرُّده وعصيانه، وتبُّطُّره على أهله وخِلاله.

* « إن تذكر الموت وتصور الحياة الآخرة مما يقضُّ مضاجعَ المترَفِّينَ البطرينَ الأشرين، لذا يحاولون إلقاء حجب كثيفة بينهم وبين الاعتقاد باليوم الآخر». ^(١).

* ضرب الله تعالى مثلاً واقعياً محسوساً لحقيقة الدنيا وسرعة انقضائها وتلاشي نعيمها حتى لا يغتر بها المؤمن؛ فإن الاعترار بها من أعظم أسباب الوقوع في الفتن وتسلطها على الساقطين في برائتها.

* إذا كان المال والبنون من أعظم زينة الدنيا وما عند الله خير وأبقى: فعلى المؤمن أن يحرص

(١) مباحث في التفسير الموضوعي تأليف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم ص ٢٣٠.

على الباقيات الصالحات، وهي كل عمل نافع يتقرب به إلى الله وبيتغي به وجهه الكريم.
* من دواعي العزوف عن زينة الدنيا والنجاة من فتنها، والسلامة من آفاتنا: استحضر اليوم الآخر، وتذكره، والاستعداد له.

* ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ أَمْثَلَةً عَدِيدَةً مَتَوَعَّةً تَصَوُّرٌ لَنَا حَقِيقَةَ الدُّنْيَا وَتَوَجُّهَ أَنْظَارِنَا إِلَى التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ فِي شَأْنِهَا، وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ كَانَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ الْوَاقِعِيَّةُ الْمَعْهُودَةُ مَثَلًا حَيًّا مَحْسُوسًا لِلدُّنْيَا، حَيْثُ شُبِّهَتْ بِهَاءِ الْمَطَرِ، يَنْزِلُ عَلَى الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ، فَتَنْبِتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ، حَتَّى يَخْتَلِطَ النَّبَاتُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَتَشَابِكُ الْأَغْصَانُ وَتَلْتَفُّ السِّيقَانُ، وَيَأْخُذُ النَّبَاتُ دَوْرَتَهُ حَتَّى يَزْهَرُ وَيُثْمِرُ، فَإِذَا أَيْعَ الثَّمَرُ وَحَانَ وَقْتُ الْحَصَادِ وَتَمَّ الْقَطَافُ، ذَهَبَتْ نُضْرَتُهُ وَذُبُلَ وَيَسَّ، وَأَضْحَتِ الْأَرْضُ كَأَنَّهَا لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ، وَهَكَذَا تَبَدُّوا الْحَيَاةَ وَتَنْتَهِي فَمَا أَقْصَرَهَا وَأَهْوَنَهَا! وَهَذِهِ حَالُ الدُّنْيَا، تَقْبَلُ عَلَى صَاحِبِهَا حِينَ تُدْبِرُ عَنْ غَيْرِهِ، فَتَعِيرُهُ مِنْ مَحَاسِنِهَا مَا سَلَبَتْهُ الْآخِرِينَ، حَتَّى إِذَا ذَاقَ مِنْ حَلَاوَتِهَا وَأَمَّلَ فِيهَا، وَرَكَنَ إِلَيْهَا، وَهَامَ بِهَا وَارْتَمَى فِي أَحْضَانِهَا: انزوت عنه وهجرته إلى حبيب غيره، فعلى العاقل أن يكون منها على حذر، وأن يجعلها قنطرةً إلى دار المستقرِّ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ) ^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَنْكِبِي فَقَالَ (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الْمَسَاءَ».

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (الرقاق) باب بيان فتنة النساء ٤ / ٢٠٩٨ حديث ٧٢ - (٢٧٢١).

وَأُخِذَ مِنْ صِحَّتِكَ لِرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وَطَاءً فَقَالَ (مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاجِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتِ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)^(٢).

وصدق من قال في وصفها:

أحلامٌ نومٍ أو كظلمٌ زائلٍ إن اللبيبَ بمثلها لا يُخدعُ

تُرْوَحُ لَنَا الدُّنْيَا بِغَيْرِ الَّذِي غَدَتَ وَتُحْدِثُ مِن بَعْدِ الْأُمُورِ أُمُورُ
وَتُجْرِي اللَّيَالِي بِاجْتِمَاعِ وَفُرْقَةٍ وَتَطْلُعُ فِيهَا أَنْجُمٌ وَتَغُورُ
وَتَطْمَعُ أَنْ يَبْقَى السُّرُورُ لِأَهْلِهِ وَهَذَا مُحَالٌ أَنْ يَدُومَ سُرُورُ
وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ:

هِيَ الدُّنْيَا إِذَا كُمِلَتْ وَتَمَّ سُرُورُهَا خَذَلَتْ
وَتَفْعَلُ فِي الَّذِينَ بَقُوا كَمَا فِيمَنْ مَضَى فَعَلَتْ
وَمَا أَرُوعَ قَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشَفَتْ لَهُ عَن عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقِ
وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي عَقْدِهِ الْفَرِيدِ:

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرِّقَاقِ باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) حديث ٦٠٥٣.

(٢) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. سنن الترمذي تابع أبواب الزهد، باب ٣١، ورواه ابن ماجة في السنن كتاب الزهد باب مثل الدنيا حديث ٤١٠٩.

ألا إنما الدنيا نضارة أيكة
هي الدار ما الآمال إلا فجائع
فكم سحنت بالأمس عين قريرة
فلا تكتحل عينك فيها بعبرة
إذا اخضر منها جانب جف جانب
عليها ولا اللذات إلا مصائب
وقرت عيون دمعها اليوم ساكب
على ذاهب منها فإنك ذاهب

-٣-

فتنة إبليس

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَسَتَّخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠ - ٥٣].

المناسبة

بعد الحديث عن فتنة الدنيا وزوالها، وما يتعقبها من حساب وجزاء، جاء الحديث عن فتنة أخرى ينبغي أن يحذرها المؤمن ويتوقاها ويتحصن منها، فهي من أعظم الفتن وأشدّها خطراً، إنها فتنة إبليس اللعين، العدو الأكبر للإنسانية، والذي يتزعم شياطين الإنس والجن في معركة الإغواء والتضليل، فكم من بدعة حسنها وكم من معصية هونها وكم من طاعة صرف عنها، وكم من توبة سوفها، فهو العدو الأول للإنسانية، أبى واستكبر، وكفر وتبطر، وامتنع عن السجود لآدم حسداً وكبراً، ثم لم يزل به حتى أخرجه من الجنة بوساوسه وأكاذيبه، أمر الله تعالى ملائكته الكرام بالسجود لآدم فسجدوا جميعاً غير إبليس، أمر فلم يسجد؛ كبرا وعنادا وتمردا وعصيانا، وغرورا وعجبا وتعصبا لعنصره الناري، ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا

خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ [الأعراف: ١٢].

المعنى الإجمالي

أمر الله تعالى ملائكته الكرام بالسجود لآدم عليه السلام سجود تكريم ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ « خانة أصله؛ فإنه خُلِقَ من مارج من نار،... فعند الحاجة نضح كلُّ وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبَّه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة»^(١)، أبعده هذا يُسْتَجَابُ لوساوسه؟ ويترك له القيادة؟

﴿ أَفَسَتَّخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ أتوالونه وذريته مع ظهور عداوتهم وانكشاف ضلالهم وإضلالهم؟ ﴿ يَتَّبِعُونَ الظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم وطاعته، فبئس ما صنعوا.

تعقيب

دحض شبهة المشركين، وبيان أسباب صدودهم

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾^(٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ [الكهف: ٥١-٥٢].

ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، ولا اتخذت أولئك المضلين عضداً: فكيف تتخذونهم أولياء من دون الله؟ وتدعون معرفتهم بالغيب؟ فالآية دحض ورد على أولياء الشيطان، أو ما أشهدت المشركين خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم، ولا كنت متخذاً لهم عضداً، فهي رد على أصحاب النظريات الخاطئة في نشأة الكون مثل نظرية دارون وغيرها من نظريات الكفرة الملاحدة الذين لا قيمة لهم ولا وزن لهم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ١٦٧.

عند الله .

واختار الرازي عودة الضمير إلى المشركين فقال: «... الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول ﷺ إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنّت الباطل ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل قوله تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة، بل هم قوم كسائر الخلق، فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد؟ ونظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فإنك تقول له لست بسُلطان البلد... حتى نقبل منك هذه الاقتراحات»^(١).

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ يعني يقول الله تعالى يوم القيامة للمشركين ﴿ نَادُوا شُرَكَاءِيَ ﴾ المراد بهم كلُّ ما عُبد من دونه تعالى، وقيل: إبليس وذريته ﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ يعني أنهم شركائي ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أي فاستغاثوا بهم ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا ﴾ أي فلم يجيبوهم ولم ينصروهم.

قال أبو السعود « ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ فلم يُغيثوهم؛ إذ لا إمكان لذلك وفي إirاده مع ظهوره: تهكُّم بهم وإيدانٌ بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به»^(٢).

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ يعني حاجزا بين الضالين والمضلين، أو بين المشركين ومعبوداتهم التي عبدوها من دون الله، أو بين أهل الهدى والضلال، أو بين كل هالكٍ وهالكٍ، حتى يظل في معزلٍ عن غيره ويبقى وحيداً مستوحشاً.

﴿ وَرَاءَ الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣ ﴾

﴿ وَرَاءَ الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا ﴾ أي فأيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا ﴾ مخالطوها واقعون فيها

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٣٨ بتصرف .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥ / ٢٢٩.

أو ظنوا إذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة، وقد راعهم منظرها وُصَعقوا من شهيقها وفزعوا من هولها ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ انصرفاً أو معدلاً ينصرفون إليه، كيف وقد أحاطت بهم.

الهدايات المستنبطة

* في إيراد قصة إبليس تحذير من فتنته ووساوسه، واعتباراً بكبره وغروره وعُجبه واختياله الذي حملَهُ على التمردِ والعصيانِ وأودى به إلى التهلكة والخسران، وفي هذا درسٌ لكل متكبرٍ مغرورٍ أن يحذر عاقبة ذلك، ودرسٌ للإنسانية أن تحذر من موالاته إبليس وذريته والانسحاق لوساوسه ونزغاته فهو أعظم خطرٍ يهدد الإنسانية.

* إن من أَمْضَى أسلحة إبليس وأشدّها خطراً على الإنسانية فتنة الاغترار بزينة الدنيا الماحلة وزخارفها الباطلة، ولقد قال تعالى محذراً من ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ٥٠ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ٥١ ﴾ [فاطر: ٥٠ - ٥١].

* لإبليس اللعين أعوانه وجنوده الذين يسخرهم ويقودهم في معركته مع الإنس:

فَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنزَلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتَهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نَعَمْ أَنْتَ، قَالَ الْأَعْمَشُ أَرَاهُ قَالَ فَيَلْتَزِمُهُ) (١).

* مع ما أقيم على المشركين في الدنيا من الحجج الساطعة، تقام الحججة العملية الواقعية عليهم

(١) رواه مسلم في صحيحه - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب تحريش الشيطان، وبعث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا - ٤ / ٢١٦٧ حديث ٦٧ - (٢٨١٣).

يوم القيامة، فيقرون حين لا ينفع الإقرار.

* كثرت النظريات المضللة والتصورات الخاطئة عن نشأة الكون وأصل الإنسان، ومع أنها مبنية على الظن والتخمين والافتراضات والأوهام إلا أنها لقيت رواجاً في أسواق الجهل.

* وكم من كلام لا يوافق حكمة لقي الرواج بسوق من لا يعلم.

وفي قوله تعالى ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ٥١ ﴾ أبلغ ردّ على أصحاب هذه النظريات ومروجيها، وأن أولئك المضلين لا قيمة لهم ولا اعتداد بهم فكيف يتجرؤون على الخوض في هذا الشأن؟

- ٤ -

الاعتصام بالكتاب والسنة

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ٥٤ ﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ٥٥ ﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرْتُهُمْ هُزُوعًا ٥٦ ﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ٥٧ ﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ٥٨ ﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ٥٩ ﴾

المناسبة

في هذا المقطع بيان لأساس العصمة ونبراسها: كتاب الله تعالى الذي حوى أساليب متنوعة وحججا ساطعة، ومع ذلك فقد قابلها الكفار بالصدود والإعراض، فعن سيات

القرآن ومقاصده، ومظاهر الصدود ودوافعه تدور آيات هذا المقطع.

المعنى الإجمالي

من سمات الأسلوب القرآني

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾



جاء القرآن الكريم بالحجج الساطعة والبيانات القاطعة والأساليب المتنوعة التي تخاطب العقل والوجدان وتلامس الحس، تارة بالوعد والوعيد وتارة بالقصص والأمثال وتارة بالحوار، فعارضوا وانصرفوا عن الحق وتمادوا في الضلال ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ فالجدل سجية في الإنسان، ومنه المحمود وهو ما كان الهدف منه الوصول إلى الحق، والمذموم وهو ردُّ الحق وإثارة الشبه

وهذا المعنى الذي ذُكر في هذه الآية الكريمة قررته آياتٌ أُخرى. كقوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ

فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ

أَنْتُمْ إِلَّا مُبْتَلُونَ ﴾ [الروم: ٥٨].

ومع عظمة القرآن، وجلالته، وما صرّف فيه من كل مثل، لهداية للناس في معاشهم

ومعادهم، ومع ما اشتمل عليه من حجج ساطعات وآيات بينات، فإن هناك من يجادل

بالباطل، مع وضوح الحق وجلالته ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أي: مجادلة ومنازعة

فتلك سجية إنسانية، إلا من رحم الله وعصمه من الجدل، وهداه إلى الحق.

ماذا بقي للمعرضين!

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ

يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قَبْلًا ﴿٥٥﴾ .

لم يبق لهم وقد أعرضوا عن الحق إلا أن يأتيهم العذاب الذي أصاب من سبقهم أو يأتيهم عذابٌ عاجلٌ غيرُ معهودٍ، كما وقع للمشركين في بدر من قتلٍ وأسرٍ، فليرجعوا عن غيرهم قبل فوات الأوان.

وفي هذا المعنى: قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

مهمة المرسلين وجدال المبطلين!

﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ .

بعد الحديث عن الكتاب يأتي الحديث عن وظيفة الرسل ومهمتهم الجليلة، وهي مهمة واضحة، تتلخص في البشارة والندارة، وما يتعلق بذلك من بيان، ومع وضوح رسالتهم وقوة حجتهم فإن دأب الكفار هو الجدل العقيم، الذي يستندون فيه على قلب الحقائق وزخرفة الأباطيل، فضلا عن استهزائهم واستهانتهم بالآيات والندر.

من مظاهر الصدود وأسبابه

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

جمع الكفار بين امتناعهم عن قبول الحق المبين، وجدالهم العقيم، واستهزائهم بآيات الله مع إعراضهم ونسيانهم المتعمد وتهاونهم بالذنوب، وإصرارهم على الضلال مهما عاينوا من حجج، فأضروا بأنفسهم، حيث أوردوها موارد الهلاك.

باب التوبة مفتوح

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ

يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ [الكهف: ٥٨].

لما توعدهم وهددهم: فتح لهم باب الرحمة، ويبيّن لطفه بهم وإمهاله لهم؛ لعلهم يبادرون بالتوبة، قبل أن تطوى صحائفهم، وَيَجِلُّ موعدهم الذي لا مفرّ ولا ملجأ منه.

﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ أي: لهم موعد، يُجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته تعالى في الأولين والآخرين أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، أما إن استمروا على ظلمهم وعنادهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أي: وقتاً مقدراً، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

المناسبة بين المحور وآيات المقطع: تنتظم آياتُ هذا المقطع مع المحور العام لهذه السورة الكريمة؛ حيث جاء الحديث فيها عن أساليب القرآن ومقاصده وعن مظاهر الإعراض ودوافعه، وعن مهمة المرسلين، وفي هذا تسليّة وتثبيتٌ لقلب النبي ﷺ، ودحضٌ لشُبّه المشركين وتفنيدٌ لما يتعللون به من أباطيل وأوهام.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

- * نزل القرآن هداية ورحمة ونورا وعصمة، واشتمل على أساليب متنوعة ومسالك رائعة لإقامة الحجج وتفنيد الشُّبه.
- * مع وضوح البراهين وجلاء الأدلة: إلا أن هناك من يصرُّ على إعراضه وعناده ويقيم على ضلاله، من الغارقين في لُججِ الفتن.
- * من رحمته تعالى أن أمهل العصاة ودعاهم دعوةً متجددةً إلى التوبة الخالصة قبل أن يأتيهم العذاب الذي لا ملجأ منه ولا منجى.
- * مهمة الرسل واضحةٌ جليةٌ ورسالتهم عظيمةٌ جليّةٌ، تتلخّص في البشارة والندارة، وتشملُ

- كل ما يتعلق بها، وفي اتباعهم والتأسي بهم عصمة من الفتن.
- * دَأَبَ الكفار على الجدل العقيم؛ سعيًا إلى طمس الحقائق وزخرفة الأباطيل والاستهزاء بالآيات والاستخفاف بالنذر.
- * الجدل العقيم لا يؤدي إلى نتيجة صحيحة ولا يفضي إلى حق، بل ينافحُ به أهل الباطل عن باطلهم، بالمقدمات الخاطئة والمغالطات والدعاوى الكاذبة.
- * والجدل سجية إنسانية طبع عليه الإنسان، ولقد نهى الإسلام عن الجدل العقيم الذي لا ثمرة له ولا جدوى منه؛ فقد يصرُّ المبطلُ على باطله فلا يسلم للحجج والبراهين، وقد ورد في السنن: **عَنْ أَبِي أَمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بَيِّتٌ فِي رَيْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحَقًّا، وَبَيِّتٌ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذْبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبَيِّتٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقَهُ»^(١).**
- فإذا لزم ترك الجدل وهو محق فكيف وهو مبطل.

(١) رواه أبو داود في السنن، كتاب الأدب - باب في حسن الخلق ٦٦٨/٢ حديث ٤٨٠٠، ورواه الترمذي في السنن وقال هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان عن أنس. سنن الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في المراء ٣٥٨/٤ حديث ٢٠٦١، ورواه ابن ماجه في السنن، افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفصائل الصحابة، والعلم باب اجتناب البدع والجدل ١/ ١٩ حديث ٥١، ورواه ابن حبان في صحيحه ١٠ / ٤٧٩ حديث ٤٦١٩، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح. ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٦ / ٧٢ حديث ١١١٧٦ وابن بطة في الإبانة الكبرى حديث ٦٤٧، والطبراني في المعجم الكبير ٧ / ١٠٤ حديث ٧٣٦١ وفي شعب الإيمان للبيهقي ٦ / ٢٤٢ حديث ٨٠١٧.

- ٥ -

رحلة موسى والخضر

الاعتصام بالعلم الراشد

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا جَاءْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَيَّ اثْنَاهُمَا فَصَصَا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلِمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ - خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَأْذِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيًّا بغيرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تَصْجِحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُوَيْلَ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَارْتَدَّا أَنْ يَبَدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف: ٥٩ - ٨٢].

تمهيد

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، قصةٌ عجيبةٌ تتجاوز بنا حدود الزمان وحواجر المكان لتعود بنا إلى زمنِ موسى عليه السلام، بعد أن مكَّن الله تعالى له ونجاه من فرعون وجنوده، وقام عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل يذكرهم بأيام الابتلاء والتمحيص والملاحقة والاضطهاد من قبل فرعون وجنوده، ثم أيام النصر والتمكين من عند الله تعالى، فكان لكلامه عليه السلام وقعاً في النفوس وتأثيراً على القلوب، حتى قام أحد المعجبين بهذه الخطبة البليغة العصماء، المُلَهِّجِينَ^(١) بتلك البلاغة والطلاقة المتدفقة من ينابيع العلم التي تتفجر على لسان نبي الله موسى عليه السلام، حين يدور الحديث عن الماضي القريب الذي شاهده وعاینوه.

سأله: يا نبيَّ الله هل هناك من هو أعلم منك؟

هل على ظهر الأرض: من تفجرت له ينابيع الحكمة وجمعت له أوابد البلاغة وحمل بين جنبيه رسالة خير وإصلاح كتلك التي حملتها لنا وقدمتها بصبرٍ وأناة؟
ظنَّ موسى عليه السلام أن الإجابة يسيرة لا تحتاج إلى تفكيرٍ وإمهال، فقال: لا.

لكن المفاجأة تأتي مطويةً في: رسالة إلهية محملة بروح العتاب على هذه العجلة في الجواب.

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال حَدَّثَنِي أَبِي بْنُ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «... مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ ذَكَرَ النَّاسُ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتْ الْعُيُونُ، وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَوَلَّى، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ: هَلْ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ لَا، فَعُتِبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ...» الحديث^(٢).

(١) لهج بالأمر لهجاً وهوج وأهَج كلاهما أولع به واعتاده، وأهَجته به ويقال فلان مُلهَج بهذا الأمر: أي مُولع به، والمُهَج بالشيء الولوع به. يراجع: لسان العرب لابن منظور ٢ / ٣٥٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْنَهُ لَا آتِيحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ حديث ٤٧٧٢.

وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى عليه السلام، صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ عليه السلام! فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ: سَمِعْتُ أَبِي بِنَ كَعْبٍ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «قَامَ مُوسَى عليه السلام حَظِييًّا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قَالَ: فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَزِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: أَيُّ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: أَحْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَقَعْدُ الْحُوتَ فَهُوَ نَمٌّ، فَانْطَلِقْ وَانْطَلِقْ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوَشِّعُ بِنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى عليه السلام، حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، وَانْطَلِقْ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى آتِيَا الصَّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَى عليه السلام وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَزِيَةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بِقِيَّةِ يَوْمِهَا وَلَيْلَتُهَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عليه السلام قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، قَالَ ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنَاهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٣﴾﴾، قَالَ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٤﴾﴾، يَقْصَانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى آتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًى عَلَيْهِ بَثُوبٌ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بَارِضُكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَى أَنْ تَعْلِمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿١٥﴾﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٦﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خَبْرًا ﴿١٦﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿١٦﴾﴾، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿إِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿١٧﴾﴾، قَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَعَمَّرَتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوهُمَا الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنَ الْوُحاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ

إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقَتْهَا لُتُغْرَقَ أَهْلُهَا ! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا، ﴿٦٥﴾ فَأَنْطَلَقًا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَا لِلنَّغْرِ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٦٦﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٦٨﴾، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيَّنَّا هُمَا يَمَشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْعِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ، فَأَقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ، فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿ أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾، قَالَ: ﴿ ﴿ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؟ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى، قَالَ: ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ بَعْدِهَا فَلَا تُصَبِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾، يَقُولُ مَائِلٌ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَأَقَامَهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ آتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّقُونَا وَلَمْ يُطْعَمُونَا، ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنَيْتُكَ بِأَوْبِلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبْرًا حَتَّى يُقَصِّرَ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا»، قَالَ: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ»^(١).

المقاصد السامية لتلك القصة

هنالك مقاصد ومعانٍ تحملها لنا هذه القصة الهادفة البناءة، الشافية الكافية، التي سيقت لتعالج قضايا حيوية ومشكلاتٍ أساسية تعاني منها كثيرٌ من المجتمعات والبيوت.

مشكلاتٍ عويصةٍ مزمنة، متشابكةٍ متعاقبة، جاءت هذه الرحلة لتسلط الأضواء عليها

(١) الحديث: رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب العلم - باب: ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله. الحديث ١٢٢، وفي كتاب الأنبياء باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام. الحديث ٣٢٢٠، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل - باب من فضائل الخضر عليه السلام. (١٧٠ - ٢٣٨٠).

وتلفت الأنظار إليها، وتبين المنهج الأمثل والحلول الحاسمة لها.

من هذه المشكلات: مشكلة الظلم الاجتماعي: المتمثل في نموذج الملك الغاصب الذي ينهب الرعية ويستبيح أموالهم ويستنزف ثرواتهم، دون أن يلقي لذلك بالا، أو يجد من ينكر عليه أفعاله الشنيعة، ويحول بينه وبين ركوب متني الحرام، وارتكاب الجرائم العظام، سيئا في حق المساكين من الضعفاء المقهورين! المستضعفين الكادحين! وأنتي لأحد أن ينكر أو يشتكي وقد أجم الطاغية الألسنة، وكمم الأفواه وأذهل العقول وشرّد الجموع، وملا القلوب رعبا وهلعا وجعل من مملكته سجونا مفتحة قد عجت بالأبرياء واكتظت بالمظلومين.

على حد قول الأخطل الصغير:

أَجِم لِسَانَكَ أَجِمُ فَاَلْمَوْتُ لَلْمَتَكَلِّمِ
لَا يَسْأَلُونَكَ إِنْ أَخَذْتَ أَثُمْتَ أَمْ لَمْ تَأْتُمْ
فَالسَّجْنُ خَيْرٌ مَرَحَّبٍ وَالْحَبْلُ خَيْرٌ مَسْلَمِ

وكما قيل: ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارب صاحب الذنب

قال تعالى ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ

يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٦﴾

مشكلة أسرية: تتمثل في أخطر ما يهدد مستقبل الأسرة الهائلة الهائلة: ويكدر صفوها ويبدد جهدها ويشتت جمعها ويعطل مسيرها: وهو ما قد تسفر عنه الأيام من عقوق الوالدين في زمان تمس الحاجة فيه إلى برهما، فإذا المودة وقد انقلبت عداوة ونكرانا، وإذ بالبر والإحسان يُقابَلُ بالعقوق والجفاء، والجحود والنسيان.

ولسان حال ذلك الذي تفتّر قلبه وتفتت كبده غما وكمدا على فلذة كبده الذي قابَلُ

الإحسان بالإساءة: كما قال إبراهيم بن العباس:

وَكُنْتُ أَذُمَّ إِلَيْكَ الزَّمَانَ فَأَصْبَحْتُ فِيكَ أَذَمُّ الزَّمَانَا
وَكُنْتُ أَعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ فَمَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْأَمَانَا !
أَيصيرُ الولدُ محنةً وشرًّا، وقد كان لنواب الزمان مُدخراً !

كُنْتُ مِنْ مُحْنَتِي أَفِرُّ إِلَيْهِمْ فَهُمْ مِنْ مُحْنَتِي فَأَيِّنَ الْفِرَارُ ؟

وَإِخْوَانٍ حَسِبْتُهُمْ دُرُوعًا فَكَانُوا وَلَكِنْ لِلْأَعَادِي
وَخَلْتُهُمْ سَهَامًا صَائِبَاتٍ فَكَانُوا وَلَكِنْ فِي فِؤَادِي
وَقَالُوا: قَدْ صَفَتْ مِنْ قُلُوبٍ لَقَدْ صَدَّقُوا، وَلَكِنْ مِنْ وَدَادِي^(١)

قال تعالى ﴿ وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ (٨١)

مشكلة اقتصادية أم أزمة أخلاقية !

نوع آخر من أنواع الفساد ومشكلة أخرى من أخطر المشكلات: هي المشكلة الاقتصادية أو الفساد الاقتصادي، وهو بلا شك مترتب على الفساد السياسي ونتيجة للظلم الاجتماعي الفساد الاقتصادي: حيث الأنانية والأثرة، ممزوجة بالطمع والجشع، في مجتمعات قتلها الفقر وأهلكها الشح، وأرهبها الطغيان المادي، حتى غدت مضيعة حق الضيف المعلوم، فضلا عن حق الضيف المهضوم، أما أموال اليتامى فلو ظفرت بها يوما لأضحت غنيمة باردة وأمست لقمة سائغة، من هنا كانت مهمة الخضر عليه السلام أن يقيم الجدار ليحفظ الكنز.

قال تعالى ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا

(١) أنشدها السمعاني بإسناده لعلي بن فضال المجاشعي، في ترجمة صاعد بن سيار الهروي.

صَلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَرْهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

وهكذا تلمسُ هذه القصةُ الواقعيةُ جوانبَ مهمةً في حياةِ الأممِ والمجتمعاتِ.

إلى رحابِ القصةِ

المناسبة

لهذه القصةُ الجليلةُ صلتها الوثيقةُ واتساقها العجيبُ وانتظامها الدقيقُ مع سياقِ السورةِ الكريمةِ، وبيان ذلك من وجوهٍ:

صلتها بما قبلها: لما بين الله عز وجل في الآية السابقة أنه تعالى رحيمٌ في ملكه عادلٌ في حكمه، ومن ذلك إهلاكه للظالمين بعد إمهالهم وإعذارهم قال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴾ [الكهف: ٥٨].

بيّن في هذه القصة أمثلةً واقعيةً للعدلِ الإلهيِّ، ولما جعل الله هلاكِ الظالمين موعداً محددًا: فقد جعل الله للقاء موسى مع الخضر موعداً مؤكّداً، فكلُّ شيءٍ له وقتٌ وتقديرٌ.

وليعلم الدعاءُ والمصلحون أن إمهال الله للظالمين واستدراجهم والمساورة لهم في الخيراتِ لحكمٍ جليلةٍ، كما تمخضت أفعالُ الخضرِ التي فعلها عن أمرٍ إلهيٍّ عن حكمٍ عجيبةٍ.

صلتها وانتظامها مع باقي القصصِ الواردة في السورةِ الكريمةِ ومحورها العام:

اشتملت سورةُ الكهفِ على مجموعةٍ من القصصِ العجيبةِ والأمثالِ الواقعيةِ والنماذجِ البشريةِ والقيمِ والمعاني الساميةِ التي تُخلقُ بنا في أجواءِ الفضيلةِ، وتغوصُ في أعماقِ النفسِ البشريةِ لتسبرَ لنا أغوارها، وتكشفَ شيئاً من مكنوناتِها، وتُجَلِّ لنا معالمَ العصمةِ وطرائقِ النجاةِ من الفتنِ، وتقدم لنا مفاتيحَ الثباتِ أمامِ المحنِ.

فتنٌ كثيرةٌ كم كانت سبباً في هلاكِ أنفسِ، وإتلافِ أموالِ، وضياعِ ثرّواتِ، والانحرافِ

عن طريق الحق إلى درك الشقاء في الدنيا والآخرة.

جاءت قصة موسى مع الخضر عليهما السلام لتبين لنا قيمة العلم النافع وهو أقوى الأسلحة وأمضاها أمام جحافل الفتن وكتائب البلاء والمحن.

جاءت لتأخذ بأيدينا وتوجه عقولنا وأنظارنا نحو العلم الشرعي الذي من أجله خرج موسى عليه السلام يحدوه العزم والإصرار على مواصلة السير إلى ذلك العبد الصالح لينهل من علمه.

ومن وجوه المناسبات أيضا: أنه تعالى لما أشار في هذه السورة الكريمة إلى زينة الدنيا ومباهجها جاءت الرحلة الميمونة: لتمس ثلاثة ألوان من ألوان الزينة: زينة الملك والسلطان ولكن ما قيمته إذا كان بيد ملك غاصب! وزينة الولد: ولكن ما مزيتته إذا خرج الولد عاقا جاحدا! وزينة المال: فما أزيته إذا كان لعبد صالح! كما في قصة الغلامين اليتيمين.

ولقد أبرز الفخر الرازي مناسبة بين قصة موسى والخضر وبين قصة أصحاب الكهف والرد على الكفار الذين افتخروا على الفقراء وتعالوا عليهم، فقال: «... أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له، وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر، وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف: فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا، وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله تعالى أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه، فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود في القصتين المتقدمتين»^(١).

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٤٣/٢١ ويراجع فتح القدير للشوكاني ٣ / ٤٢٤ .

وقال صاحب الظلال «... وهكذا ترتبطُ في سياق السورة قصة موسى والعبد الصالح، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله، الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر، الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار...»^(١).

التفسير الإجمالي

عزيمة وإصرار

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۖ ﴾^(١): تذكيرٌ لكل سامع وتالٍ بهذه الرحلة العجيبة وتلك الصحبة المباركة التي جمعت بين نبي الله موسى ﷺ وبين فتاه الذي قيل إنه يوشع بن نون، وإنما سمي فتى: «لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه»^(٢)، يقول له موسى ﷺ ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ سأسير سيراً طويلاً وأمضي زماناً مديداً، إلى أن أصل إلى مجمع البحرين.

إصرارٌ من نبي الله موسى ﷺ على مواصلة الرحلة، مهما كلفه ذلك من مشقة وعناءٍ ومهما أمضى من وقتٍ في سبيل هذا المقصد السامي، وفي هذا ما يدل على صدق عزمته وشدة حرصه على طلب العلم النافع والاستزادة منه وصحبة أهله.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۗ ﴾^(٢)

وقد اختلف في البحرين.. ما هما؟ وأين ملتقاهما، أو مجمعها؟

والذي أميل إليه، أنها خليج السويس، وخليج العقبة، وأن ملتقاهما هو رأس شبه جزيرة سيناء عند طرفها الجنوبي، حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالاً ويحصران بينهما شبه جزيرة سيناء.. فحيث كان افتراقهما يكون اجتماعهما.. أي هو مجمعها، وهو مجمع

(١) في ظلال القرآن ١٥/ ١٠٠

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ١٩

البحرين..

ويقوي هذا الرأي، أن تحرك موسى بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر لم يجاوز شبه جزيرة سيناء، حيث ضرب فيها التيه على بني إسرائيل أربعين سنة. والله أعلم

فلما وصل موسى وفتاه إلى مجمع البحرين حيث يلتقي بالخضر عليه السلام نسيا حوتها، وبيان ذلك كما جاء في السنة: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى عليه السلام، صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ، عليه السلام فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ. سَمِعْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: « قَامَ مُوسَى عليه السلام خَطِيئًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. قَالَ: فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدْ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: أَيُّ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: أَجْمَلُ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفَقَّدَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَاَنْطَلَقَ وَأَنْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ. وَهُوَ يُوَشِّعُ بَنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى عليه السلام حُوتًا فِي مِكْتَلٍ. وَأَنْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى آتَيَا الصَّخْرَةَ. فَرَفَقَدَ مُوسَى عليه السلام، وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرِيَّةَ الْمَاءِ، حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَاَنْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتُهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عليه السلام قَالَ لِفَتَاهُ: آتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا.

قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، قَالَ: يَقْضَانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى آتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًى عَلَيْهِ بَثُوبٌ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بَارِضُكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٢﴾ وَكَيْفَ

تَصِيرُ عَلَى مَا لَرَّ تُحِطُ بِهِ. حُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾. قَالَ: نَعَمْ.

والحكمة من اختلاف التعبير عن نفس الحادثة حيث قال مرة ﴿سَرِيًّا﴾ وقال مرة أخرى ﴿عَجْبًا﴾: الجواب في حديث رسول الله ﷺ، حيث قال: (فَكَانَ لِلْحَوْتِ سَرِيًّا، وَكَانَ لِمُوسَىٰ وَفَتَاهُ عَجْبًا) ^(١).

فَسرُّ اختلاف التعبير، هو الناحية التي لحظها التعبير القرآني، والزاوية التي نظر للقصة من خلالها.

فهو في المرة الأولى كان ينظر للحادثة من زاوية الحوت، ويلحظ حركة الحوت في البحر فقال ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرِيًّا﴾.

أما في المرة الثانية فكان ينظر للحادثة من زاوية موسى ﷺ وفتاه، ويلحظ أثر حركة الحوت على نفسية وشعور موسى وفتاه، ولاشك أنها سيعجبان من حركة الحوت، ولذلك قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجْبًا﴾.

«ونشير هنا إلى أن العجب الذي أثارته حركة الحوتِ وَبَعَثَهُ، ليس مبعثه الإنكار والاستغراب، لأن موسى ﷺ وفتاه، يؤمنان بقدرة الله على البعث وصنع المعجزات، وإنما مبعثه هو دهشة المفاجأة، والانفعال بها» ^(٢).

ومثارُ التعجب: أن يجيا حوتٌ مُمَلَّحٌ، ثم يشب إلى البحر ويبقى أثرُ جريته في الماء لا يمحو أثرها جريان ماء البحر!

ثم وصفه الله سبحانه فقال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ وصفه تعالى بأنه عبدٌ من عباده؛

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

(٢) مع قصص السابقين في القرآن الكريم ٢/ ٢٠٤ «دروس في الإيمان والدعوة والجهاد» صلاح عبد الفتاح الخالدي.

والعبودية أسمى المقامات وأشرف الغايات التي من أجلها خلق الإنسان، وفي هذا ما يدل على ما كان عليه الخضر عليه السلام من اجتهاد في العبادة، وهذه صفة أساسية من صفات أهل العلم ورجال الدعوة والإصلاح، وفي وصفه عليه السلام بأنه عبد من عباد الله: ردُّ على كل من غالى في شأن الخضر حتى توهم بعض الغلاة أن الخضر لا يزال على قيد الحياة وأنه يظهر لبعض الناس فيرشدهم ويوجههم! وهذا كلام لا يشهد له نقل صحيح ولا يصدقه عقل راجح، ﴿ءَأَلَيْتَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ قيل: الرحمة هي النبوة، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو ما خصَّه الله تعالى بعلمه ومعرفته، وفي قوله ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم، وتعظيم له وبيان لخصوصيته واختصاصه عليه السلام به.

لما التقى موسى بالخضر وتم التعارف بينهما طلب موسى عليه السلام من الخضر أن يتبعه حتى يقتبس من علمه ويتفجع به.

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِن مِّمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۖ ﴾

طلب منه موسى عليه السلام حين لقيه أن يتبعه ليقتبس من علمه ويسترشد منه ما ينفعه في دينه ودنياه، إذ الغاية من تحصيل العلم هو الانتفاع به والتماس الرشد منه.

فترفق موسى عليه السلام في طلبه وتواضع في سبيل تحصيل العلم «وفي هذا العرض أمور:

- استئذان مصحوب برجاء وتلطف..
- أن يكون موسى تابعاً يفتقو أثر متبوعه، ويمشي في ظله.
- أن تكون غاية هذه الصحبة، وتلك المتابعة، تحصيل العلم والمعرفة، فيفيد موسى علماً وبنال العبد الصالح أجراً.
- هذا العلم الذي عند العبد الصالح ليس من ذات نفسه، بل هو علم علمه، وإذن فهو مطالب بأن يعلم كما عُلِّم..
- هذا العلم المطلوب تعلمه، هو مما يكْمُلُ به الإنسان ويرشُد.. فهو علم يهدي إلى الحق وإلى

الرشاد، لا إلى الضلال والفساد»^(١).

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۗ ﴿١٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۗ ﴿١٨﴾ ۖ بَيْنَ لَهُ الْخِضْرُ أَنْ الرَّحْلَةَ مَعَهُ وَتَابِعَتُهُ تَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ وَأَنَاةٍ، ففِيهَا مِنَ الْمَفَاجِآتِ وَالْعَجَائِبِ مَا قَدْ يُخْرِجُ عَنْ حَدِّ الصَّبْرِ. ۖ

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۗ ﴿١٨﴾ ۖ فَقَدَّمَ لَهُ الْعِذْرَ لِمَا سَيَلْقَاهُ مِنْ عَجَائِبٍ وَغَرَائِبٍ. ۖ

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۗ ﴿١٨﴾ ۖ أَي: كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ عِلْمِ ظَاهِرِهِ مُنْكَرٍ، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ، وَمِثْلَكَ مَعَ كَوْنِكَ صَاحِبَ شَرْعٍ لَا يَسُوغُ لَهُ السَّكُوتُ عَلَىٰ مُنْكَرٍ وَالْإِقْرَارُ عَلَيْهِ. ۖ

لكن موسى ﷺ أصرَّ على متابعتة مستعينا بالله تعالى ومؤملا أن يلهمه الصبر والثبات ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۗ ﴿١٩﴾ ۖ

فاشترط عليه الخضر ﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۗ ﴿٢٠﴾ ۖ: أَي إِذَا رَأَيْتَ مِنِّي شَيْئًا تَنْكَرُهُ فَلَا تَفْتَاخِنِي بِالسُّؤَالِ حَتَّىٰ أَكُونَ أَنَا الْفَاتِحَ عَلَيْكَ. ۖ

أين ذهب الفتى ؟

قال الماوردي: « يجتمل أن الفتى تأخر عنها لأن الإخبار عن اثنين، ويحتمل أن يكون معها ولم يذكر لأنه تبع لموسى، فاقتصر على حكم المتبوع»^(٢).

خرق السفينة !

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۗ ﴿٢١﴾ ۖ

﴿ ٢١ ﴾

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٦٥٢.

(٢) النكت والعيون للماوردي ٢/ ٥٥٨.

جاء في الحديث (... فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ. فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ. فَكَلِمَاهُمَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بَغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَابِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بَغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا. ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٢﴾ قَالَ لَا نُوَاخِذُكَ بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقُنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٦٣﴾ ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ... ﴾^(١).

أنكر موسى على الخضر خرقه للسفينة لما يترتب على ذلك من غرق أهلها، وظن أن هذا من مقابلة إحسانهم بالإساءة، ثم حكم على هذا الفعل بأنه أمر عظيم منكر ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٢﴾ ﴾: لقد أتيت أمراً عظيماً وارتكبت جرماً كبيراً!^(٢)

فعاتبه الخضر ﷺ وذكره بما اشترطه عليه عند أول لقاء فاعتذر له موسى ﷺ بقوله ﴿ لَا نُوَاخِذُكَ بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقُنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

قتل الغلام!

قال تعالى ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ. قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٦٤﴾ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مِنْ بَعْدِهَا فَلَا تُصَلِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٦٦﴾ ﴾

(١) سبق تحريجه قبل قليل.

(٢) أنكر موسى ﷺ على الخضر خرق السفينة وجاء التعبير بكلمة حَوَتْ معاني كثيرة كلها تدلُّ على فظاعة وبشاعة السبب المتعمد في إغراق الأبرياء، وهنا نسجل للتاريخ تلك المأساة التي تنتج عن الإهمال والتقصير والطمع من أصحاب البواخر والعبارات، والتغاضي والسلبية من بعض المسؤولين، كما حدث للعبارة التي غرقت في عرض البحر الأحمر، ومات عليها أكثر من ألف، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

انطلقا بعد أن غادرا السفينة حتى لقيا غلاما يلعب مع أقرانه فأخذه الخضر من بينهم وقتله، وهنا غضب موسى عليه السلام أشد الغضب، وحزن على موت هذا الغلام، فقال منكرا على الخضر ﴿ أَقَلَّتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾!

قال صاحب الظلال: « وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها؛ فهذه قتل نفس، قتل عمد لا مجرد احتمال، وهي فظيعة كبرى لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده: ﴿ قَالَ أَقَلَّتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾...»^(١).

﴿ قَالَ أَقَلَّتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾: زكية طاهرة لم تذنّب، بريئة لم تُجرّم!

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ أي: فظيعة منكرا لا يعرف في الشرع، قيل: معناه: أنكر من الأمر الأوّل لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٥) زاد هنا لفظ « لك »، لأن سبب العتاب أشد، وموجه أقوى، وقيل: زاد لفظ « لك » لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه: لك أقول وإياك أعني، ولأنه سبق له أن قال له ذلك، فبادر موسى عليه السلام بالاعتذار فقال ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أي: بعد هذه المرة، ﴿ فَلَا تُصْنِجْنِي ﴾ أي: لا تجعلني صاحباً لك «نها عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره، ولذا قال: ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا ﴾ يريد أنك قد أعدرت حيث خالفتك، وهذا كلام نادم شديد الندامة، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف»^(٢).

إقامة الجدار في قرية اللثام!

قال تعالى ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ ۗ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنِكَ

(١) في ظلال القرآن ١٥/١٠٦.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٣٢.

سَأْنَيْتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴿

لقد انطلقا حتى أتيا أهل هذه القرية، وقد استبدَّ بهما الجوعُ فاضطراً إلى استطعام أهلها، فإذا هم أشحَّةٌ لثام، أبوا أن يضيفوهما، مع ما عندهم من سعةٍ، وهنا ينصرفُ الخضرُ إلى أداء مهمة عاجلة، إقامة جدار قبل انقضاضه، فيتعجب موسى من صنيعه ويقول له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَنَحَذَتْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؟ فيجيبه الخضر بقوله ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْنَكَ سَأْنَيْتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ لقد حانت ساعة الفراق ليمضي كلُّ إلى حال سبيله، ولكن قبل المفارقة لا بدَّ من مكاشفة.

المكاشفة قبل المفارقة

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٨﴾ وَأَمَّا الْفُلُومُ فَكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف ٧٩-٨٢].

السفينة ؟

كشف له الخضرُ عن الحكمة من هذه الأفعال التي أنكرها عليه: فبدأ بالسفينة، مبينا أنها كانت ملكا لمساكين يعملون في البحر، لا يكاد دخلها يوفي بنفقاتهم، ومع ذلك كانت كغيرها من السفن مطمعا لملكٍ غاصب، يستولي بقوته الغاشمة وسلطانه الجائر على كل سفينةٍ صالحة ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ خلفهم وفي إثرهم، ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي كل سفينة صالحة فخرقتها وعبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب، فإذا مرَّ بها تركها لعييها فإذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها.

الغلام ؟

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا حَيْرًا مِمَّنْ زَكَوَةٌ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

وأما الغلام الذي بادر لقتله: فلقد كان لأبوين صالحين، وكان في بقائه وقد طبع على الكفر إرهاباً وإحراجاً لهما، ﴿فَأَرَدْنَا﴾ رحمةً بهما وإشفاقاً عليهما، ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا حَيْرًا مِمَّنْ زَكَوَةٌ﴾: ديناً وعملاً وصلاحاً، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: أوصل رحماً وأبرَّ بهما.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا وَلَوْ عَاشَ لِأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا) ^(١).

الجدار ؟

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في تلك المدينة وكان أبوهما صالحاً، فنفعهما الله بصلاحه وقبض لهما الخضر ليقوم الجدارَ حمايةً للكنز، حتى إذا بلغا أشدهما استخرجاه.

ولعل التعبير عن القرية بالمدينة: « لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح » ^(٢)، وكم عرفت بلادٌ واشتهرت بصالحيتها ونجبتها.

﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي نعمة من ربك ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ أي « باختياري ورأيي بل فعلته بأمر الله وإلهامه إياي، لأن تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيير أصولهم، لا يكون

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين. حديث ١٧٢ - (٢٣٨٠).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥ / ٢٣٨.

إلا بالنص وأمر الله تعالى»^(١).

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ أي وما فعلت ما رأيت من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار عن اجتهاد مني ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله، وهذا يدل على أنه نبيٌ أوحى إليه.

قال ابن عطية « والخضر نبيٌ عند الجمهور، وقيل هو عبدٌ صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته، لأن بواطن أفعاله هل كانت إلا بوحي من الله»^(٢).

وقال أبو حيان: « والجمهور على أن الخضر نبي وكان علمه معرفة بواطن قد أوحيت إليه وعلم موسى الأحكام والفتيا بالظاهر»^(٣).

﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ تفسيرٌ وبيان ما لم تطق أن تصبرَ عليه.

الصلة بين قصة موسى والخضر ومحور السورة

جاءت قصة موسى والخضر لتبين لنا أهمية العلم النافع، وبركة اتباع العلماء، وأثر الصحبة المباركة في العصمة والنجاة من برائن الفتن، وبهذا تنتظم هذه القصة مع محور السورة الذي يدور حول العواصم من الفتن.

الهدايات المستنبطة من القصة

* السفر في طلب العلم وعلو الهمة وقوة العزم في طلبه، والصبر على المشقة والعناء ومكابدة الصعاب التي تعترض طالب العلم.

* يستحب للمسافر أن يطلب الرفيق قبل الطريق، و شرط الرفيقين أن يكون أحدهما أميراً والثاني مأموراً له ومتابعاً، ومنها أن يعلم الرفيق عزمته ومقصده ويخبر عن مدة مكثه في سفره، ليكون الرفيق واقفاً على أحواله، فإن كان موافقاً له يرافقه في ذلك.

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٢٨.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ٥٢٩.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ١٤٧.

* قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۖ ﴾ (٦١) : فيه دليل على أن المتعلم تبع للعالم، ولو تفاوتت المراتب، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى، فقد يأخذ الفاضل عن المفضول، وقد يختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر، وفيه الحاجة إلى التخصص الدقيق في العلم، والرجوع إلى أهل التخصص.

* العلم بحر لا ساحل له، تأمل في حوار موسى مع الخضر حين لقيه «... حَتَّىٰ أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَأَىٰ رَجُلًا مُّسَجًى عَلَيْهِ بَنُوبٌ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّىٰ بَارِضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَىٰ، قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَىٰ عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ...».

* ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يتعجل في إنكار ما لم يستحسنه فلعله ينطوي على حكمة لا يعرفها.

* تعلم العلم عبادةً وقربةً، وهو ليس غايةً في ذاته بل الغرض الانتفاع به في أمور الدين والدنيا، ولهذا قال: ﴿ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾، أي أسترشد به وأتزوّد منه لدنياي وآخرتي.

* قال ابن القيم: العلم اللدني: ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله وكمال الانقياد له فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام : «وقد سئل: هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتیه الله عبدا في كتابه» فهذا هو العلم اللدني الحقيقي^(١)

* وقال أبو حيان رحمه الله «وفي قول الخضر لموسى: من أنت؟ وقد علمه الله بواطن الأشياء وماها دليل على كذب هؤلاء المنتمين للتصوف المدعين علم الغيب والكشف عن أحوال

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٤٧٦ .

الناس أعاذنا الله من ذلك»^(١).

* ورد في القصة مؤهلات المعلم والمربي والمصلح: وهي العبودية، الرحمة، العلم، الإخلاص، النصح، البذل، الإحسان، فلا بد أن يكون مجتهدا في العبادة، وأن يتحلى بمكارم الأخلاق والتي تمثل الرحمة لبابها وأساسها.

* في تقديم الرحمة على العلم: ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم، فلا يعقل انتزاع الرحمة من قلوب أهل العلم، ولقد رأينا ما ترتب على وصول العلم لمن عدموا الرحمة كيف أساءوا إلى العلم وأساءوا إلى من حولهم، بل كيف أساءوا إلى البشرية حين وجهوا العلم لما يهدد خطر الإنسانية وأفسدوا بمخترعاتهم البر والبحر ولوثوا الأجواء والأجواف، كذلك رأينا كيف عدم بعض المعلمين الرحمة حتى غدا التعليم تجارة رابحة لا رسالة سامية، وصار التعتُّ شعارهم ودثارهم.

* كذلك انتزعت الرحمة من قلوب بعض طلاب العلم، فأساءوا إلى معلمهم، ولربما تطاولوا عليهم!

* ومما يستفاد من القصة: أن العلم نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، وعلم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

* تحلي طالب العلم بالصبر والأناة وتأدبه مع شيخه وترفقه عند السؤال.

* ومنها: أن يمتحن الشيخ من جاء للطلب على يديه «المقابلة الشخصية» وذلك لطلاب العلم خاصة العلم الشرعي لمعرفة مدى استعداد الطالب ومدى حرصه وهمته في طلب العلم، وبيان ما يحتاجه طريق العلم من جدِّ واجتهاد وبذل وعطاء.

قال صاحب روح البيان: « يمتحنه بأن يخبره عن دقة صراطِ الطلبِ وعزّةِ المطلوبِ وعُسْرته، وفي ذلك يكون له مبشراً ولا يكون منفراً، فإن وجده صادقاً في دعواه وراغباً فيما

(١) تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان على هامش البحر المحيط ٦/ ١٤٢.

يهواه معرضاً عما سواه يتقبله بقبول حسن ويكرم مثواه ويقبل عليه إقبال مولاه ويرببه تربية الأولاد ويؤدبه بأداب العباد»^(١).

* وفيه التماس العذر للآخرين ومراعاة تفاوت الناس في الفهم والإدراك والتحصيل والاستيعاب، تأمل في قوله تعالى ﴿ وَكَيْفَ نَصِّرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۗ ﴾ فالتمس له العذر في ذلك لما سيلقاه من عجائب وغرائب.

* ومنها الإشارة إلى جملة من مناقب نبي الله موسى عليه السلام ومنها الصدق وعلو الهمة والمثابرة وحسن الصحبة والتواضع واللين والحياء والإيجابية.

* ومن الفوائد المهمة: ينبغي على الدعاة والمصلحين أن ينطلقوا بدعوتهم إلى أعماق المجتمع لدراسة الواقع والتعامل معه ومعايشة هموم الناس وتفقد أحوالهم، وأن يلتمسوا العبرة من هذه الرحلة العملية رحلة موسى والخضر وفصولها الثلاث.

* وفيها: « دليل على أن المسكين وإن كان يملك شيئاً لا يزول عنه اسم المسكنة إذا لم يقم ما يملكه بكفايته... »^(٢)، فعلى الأغنياء وبيوت الزكاة والمؤسسات الخيرية أن لا تغفل عن هذا المسكين الذي لا يستطيع بدخله المحدود أن يلبي احتياجات بيته، في ظل هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية والغلاء الفاحش الذي تعاني منه معظم الشعوب المسلمة حيث تتسع الهوة بين الأغنياء الفقراء، وينخفض فيها دخل الفرد مع زيادة معدلات التضخم.

* ومنها: الرضا بقضاء الله تعالى والصبر عند فقد الولد، وتفويض الأمر لله؛ فهذا الغلام الذي قتله الخضر لو عاش لذاق والداه الأمرين، ولقيا العنت، فكان موته راحةً لهما ورحمةً بهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى؛ فإن قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وصدق من قال:

(١) روح البيان للبروسوي ٥ / ٢٣٥.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٢٧.

عَطِيَّتُهُ إِذَا أَعْطَى سُرُورًا وَإِنْ أَخَذَ الَّذِي أُعْطِيَ أَثَابًا
فَأَيُّ النِّعْمَتَيْنِ أَجْلٌ قَدْرًا وَأَتَمُّهُدًى فِي عَوَاقِبِهَا مَآبَا؟
أَنْعَمْتُهُ الَّتِي أَهْدَتْ سُرُورًا؟ أَمْ الْأُخْرَى الَّتِي أَهْدَتْ ثَوَابًا؟
بَلِ الْأُخْرَى وَإِنْ نَزَلَتْ بِكُورِهِ أَحَقُّ بِشُكْرِ مَنْ صَبَرَ احْتِسَابًا

* ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ۗ ﴾ (٧٣).

* ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها؛ فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتل الغلام وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

* ومنها: أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غضب الملك الظالم، فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز ولو من غير إذن.

* ومن لطائف الفوائد: التأدب مع الله تعالى ورعاية حقوقه ومراعاة مقامه تعالى؛ يتجلى ذلك في قول الخضر عند تأويل خرق السفينة: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ بإسناد العيب إلى نفسه أما قوله ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (٨١) فقال ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ لأن الكفر مما يجب أن يخشاه كل أحد، وقال في تأويل الجدار

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ﴾ بالإسناد إلى الله تعالى وحده؛ لأن بلوغ الأشد وتكامل السن ليس إلا بمحض إرادة الله تعالى من غير مدخل وأثر لإرادة العبد.

* ومن العبر والعظات المستمدة من القصة: أنه تعالى من كمال تديبه وحكمته وتمام لطفه ورحمته أن قيض نبيين مثل موسى والخضر عليهما السلام في مصلحة يتيمن فعلى العلماء والدعاة أن لا يضيئوا بأوقاتهم في رعاية الأيتام وقضاء حوائجهم وتربيتهم.

* وفي هذا إشارة إلى ضرورة عناية العلماء وهم ورثة الأنبياء بكفالة الأيتام والحمد لله تقام في طول بلاد المسلمين وعرضها جهود طيبة لكفالة الأيتام.

* ومنها أن الله تعالى يحفظ المال الصالح للعبد الصالح إذا كان فيه صلاح له ولذريته الصالحة من بعده، قال محمد بن المنكدر: « إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله »^(١).

* إذا رأى المسلم منكرا فيجب عليه أن يسارع إلى إنكاره أيّا كان فاعله، مع التزام الأدب والترفق بالفاعل، لاحتمال أن يكون للمسألة وجه؛ إذ لا إنكار في مسائل الخلاف.

(١) معالم التنزيل للبغوي ١ / ١٩٥.

-٦-

قصة ذي القرنين

﴿ وَشَلُّونَاكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَلَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف: ٨٣ - ٩٨].

المناسبة

بعد الحديث عن رحلة موسى مع الخضر وما انطوت عليه من عجائب وآيات، وما تفتقت عنه من فوائد وثمرات، وما أسفرت عنه من عبر وعظات، يأتي الحديث عن قصة أخرى عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكن الله له، وهياً له الأسباب فأخذ بها، واجتهد في استثمارها وتطويرها، فطوّف في الأرض، وجال في أقطارها، قائداً ظافراً، وحكماً عادلاً، وسلطاناً قوياً وعبداً شكوراً، فملا الدنيا عدلاً ونوراً.

طاف موسى ﷺ طلباً للعلم النافع، وطاف الخضر بأمر الله تعالى حاملاً راية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلغ دعوة

الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويرسخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة. كذلك تضعنا الآيات أمام مقارنة بيّنة بين صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه ووجد النعمة وتمادى في الضلال، وبين صاحبه الذي يذكره بالله ويحذره من عقابه، وبين ذي القرنين الذي يتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائماً بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ويوظف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض.

المعنى الإجمالي

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ فما جوابي عن سؤالكم إلا من الذكر الحكيم، فهل من متأملٍ ومعتبرٍ؟

جاءت القصة جواباً عن سؤالهم عن شأن هذا الرجل الصالح الذي مكّن الله تعالى له في الأرض، وأعطاه العلم والحكمة وألبسه ثياب العز وتاج الوقار والهيبة.

أما اسمه فقد اختلف المفسرون فيه على أقوال كثيرة منهم من قال هو الإسكندر المقدوني ومنهم من زعم أنه قورش الفارسي أو دارا الفارسي أو أفريقس أو ملك من ملوك اليمن أو ابن فرعون مصر، والمتأمل في هذه الأقوال وما استندت إليه يجدها لا أصل لها في الكتاب أو السنة، كما أنها مبنية على الظن والاحتمال، فضلاً عن أن ذا القرنين كان مؤمناً موحداً.

والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملك مؤمن على علمٍ وصلاحٍ مكّن الله له فسعى جاهداً ومتجرّداً لنشر الحق والعدل.

والذي يعيننا أن نتدبر في قصته، ونستخلص منها الدروس والعبر في الدعوة والإصلاح والقيادة والإدارة والسياسة والقضاء.

ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين وإنما عن حياته وجهاده وأمجاده.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾: مكّن الله له في الأرض ووهبه أسباب النصر والتمكين وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنح

والمواهب على أتم وجه، بل جعلها ركيزةً ومنطلقاً إلى ريادة الكون بالعلم والإيمان، والعدل والإحسان.

مكّن له صاحبُ العظمة والسلطان تمكيناً عظيماً في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد ملكه وبسط سلطانه وكبت أعدائه وتحقيق مراده.

والسبب: هو الوسيلة التي يتوصّل بها إلى المطلوب.

قال ابن عباس: ﴿وَأَنْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ﴾ علماً يتسبب به إلى ما يريد، وقيل: هو العلم بالطرق والمسالك.

﴿فَأَنْتَ سَبَبٌ﴾ (٨٥) أي: سلك وسار طريقاً يوصله إلى المقصود، وأخذ بكل ما أمكنه تحصيله من علوم، وتبع السبل والوسائل التي تعينه على تحقيق أهدافه وطموحاته في الدعوة والإصلاح ونشر العدالة والرحمة في شتى الأرجاء، فلم يكن ما قام به ذو القرنين من خوارق العادات بل كان تمكينه من منطلق الأخذ بالأسباب، وفق نواميس الكون، حيث هداه الله للأسباب ووفقه إليها.

الرحلة إلى المغرب

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَنْدَا الْقَرْيَتَيْنِٰ إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَنْ نُنْخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ، ثُمَّ يَرُدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ، فَيُعَذِّبُهُ، عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ، مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٨٨)

بلغ بجنوده أقصى الغرب مستعيناً بما هياه الله له من أسباب، حتى شاهد غروبها ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ عين ماء ذات حمأة، وقرئ (فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ) يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة.

جمعت بين كونها حمئة وبين حرارتها. (١)

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥ / ١٨٥ .

والمقصود بقوله تغرب في عين حمئة: أي كما ترى العين لا في الحقيقة إذ الشمس لا تغرب في الماء وإنما يبدو ذلك للناظر.

﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْنَينِ إِمَّا أَنْ نَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾: لما تمكن منهم وخير في شأنهم: كان حكماً مقسطاً، إذ حكم على من بقي على الظلم بالعذاب، وعلى من اختار طريق الهداية بالخير والإحسان، « فقال ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ذكر جزاء الله له في الآخرة ﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي الجنة، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاق عليه، أي قولاً ذا يسر وسهولة كما قال قولاً ميسوراً، ولما ذكر ما أعد الله له من الحسنی جزاء لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل بل اقتصر على القول أدباً مع الله تعالى، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلاً وقولاً.

وفي تخيير ذي القرنين رحمه الله بين أن يعذبهم وبين أن يتخذ فيهم حسناً، ما يدل على ما كانوا عليه من ظلم بين، وصد عن الحق، مما يستوجب معاقبتهم.

لذا قال ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾ وجاء التعبير بسوف: ﴿ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ﴾ للدلالة على إمهاله لهم حتى تقام عليهم الحجج، فإن هم أصروا على كفرهم وظلمهم فقد استوجبوا العقاب.

وقوله ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي يوم القيامة فيعذبه العذاب الشديد الأليم.

قال البقاعي: ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي شديد النكارة لأن العقل يحار في أمره لأنه لم يرمثه ولا قريباً منه ليعتبره به^(١).

(١) نظم الدرر للبقاعي ٤/٥٠٢ بتصرف.

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنِيِّ ﴾ وأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فله الحسنى جزاءً، أي يستحقُّ البشارةَ بها فضلاً عن حسن معاملته في الدنيا، وسنقول له من أمرنا يسراً: فهو أهلٌ لكلِّ فضلٍ وسماحةٍ.

قال الرازي: ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُسْرًا ﴾ أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل اليسر من الزكاة والخراج وغيرهما؛ ذلك أنه إذا دخل في دين الله عز وجل يلقى في رحابه اليسر والسماحة، وهذه سياسة العدل والإنصاف^(١).

« فالؤمن المستقيم يجد الكرامة والودَّ والقربَ من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحدِّ، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيلقى العذاب الرادع من الحاكم المقسط في الدنيا، ثم يردُّ إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأشدَّ بما اقترفت يده في حياته الأولى^(٢) .

«... وحين يجد المحسن في الجماعة جزاءً إحسانه جزاءً حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاءً إفساده عقوبة وإهانة وجفوة.. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والاستقامة والجد والاجتهاد، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون؛ فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد. ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد^(٣) .

الرحلة إلى أقصى الشرق

بعد رحلة ناجحةٍ بلغ فيها ذو القرنين أقصى الغرب، سلك طريقاً آخر إلى أقصى الشرق

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ١٦٨ .

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي تأليف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم ص ٣٠٥ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن ١٦ / ١٢ بتصرف.

ليواصل مسيرته في حمل بشائر الخير ونشر مشاعل النور.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَعَ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الكهف: ٩٠ - ٩٢].

﴿ ثُمَّ أَنْبَعَ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ ﴾ أي: طريقاً آخر غير الطريق الأولى وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق.

قال ابن عطية: « وقوله ﴿ ثُمَّ أَنْبَعَ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ ﴾ المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرق المؤدية إلى مقصده، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التواريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال والسيرة الحميدة، والإعداد الموفى، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مراً بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته، وكل من عارضه أو توقف عن أمره جعله عظة وآية لغيره»^(١).

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ أي: أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يسترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، بل هم حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العمارة؛ قيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقرَّ عليها البناء، أو لما هم عليه من بدائة، وخلو من جميع مظاهر التمدن والرقي.

ولا بد أنه رحمه الله - وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح - قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها وألحقها بركب الحضارة، فرسالة المؤمن رسالة تنوير وتحريم، رسالة إصلاح وتعمير رسالة نهوض وتطوير.

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ أي لا يعزب ذو القرنين وجيوشه عن علمنا مهما بلغوا من أصقاع بعيدة وبلاد نائية، ولا يخفى علينا تدبيره وسياسته، فهو مهما شرق أو غرب في محيط ملك الله الواسع وسلطانه العظيم وتحت قهره وإرادته، وكل هذه البلاد البعيدة التي

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٤٠.

وصلها ذو القرنين: يعلمها الله تعالى فلا يخفى عليه من أحوالها خافية، وقد أحاط ربُّ العالمين خبراً بما لدى ذي القرنين من مواهب وملكات وطاقات وإمكانات تؤهله لارتياح الأقطار قائداً مُظفراً وحاكماً عادلاً.

فلما بلغ بلاد الشرق الأقصى قضى فيهم بعدله وحكمته كما قضى فيمن سبقهم من أهل الغرب، حيث دعاهم لدعوة الحق وأقام عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ثم عاقب أهل الكفر والطغيان وسالم أهل الحق وكرّمهم وقربهم وبشّرهم بما عند الله من ثواب عظيم.

﴿ ثُمَّ أَنْعَ سَبَّأً ۝٩٢ ﴾ فلا يزال يرتقي سلم النهوض والتقدم، ويجتهد في الأخذ بالأسباب وتمميتها، وفي تكرار هذه العبارة: ما يدل على حرص هذا القائد الرباني على الأخذ بالأسباب واجتهاده في تحصيلها وتطويرها وتطويعها لتحقيق الهدف، ونيل المراد.

الرحلة الثالثة

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣ ﴾ قَالَوا يَا أَيُّهَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا أَجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَأَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ۝٩٦ فَمَا اسْطَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَلْتَعُوا لَهُ نَقْبًا ۝٩٧ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝٩٨ ﴾ [الكهف: ٩٠ - ٩٨].

بعد أن ساهم في نهوض هذه الشعوب البدائية الفقيرة وتنويرها، توجه بهذا الخير إلى موضع عبّر عنه القرآن بأنه بين السدين، منطقة يحيط بها جبلان شاهقان وعيران، حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون ثرواتها ويعيثون فيها فساداً، فطلب أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سداً منيعاً يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، وفي هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝١٣﴾

وقوله ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ وجد ذو القرنين من دون السديين قوما لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم، ولا يكادون يفقهون أحدا قولهم، مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم وفهمهم وتفهمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من أسباب^(١).

﴿ قَالُوا يَا قَرْيَنُ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝١٤﴾

عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السد، وأجرة بنائه ليحميهم من أولئك المفسدين.

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝١٥﴾

أجابهم هذا القائد الزاهد والإمام الراشد إلى مطلبهم دون مقابل، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمح في أعراض الدنيا الزائلة أم يجنح إلى همم قاصرة، وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة وانقيادا وعزما واجتهادا في غرس بذور الخير أينما حل.

قال ذو القرنين: الذي مكنتني في عمل ما سألتموني من السد بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطأه لي، وقواني عليه، خير من جعلكم، والأجرة التي تعرضونها علي لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بقعة وصناع يحسنون البناء والعمل^(٢).

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردمًا، والردم: هو

(١) يراجع: جامع البيان للطبري ١٨ / ١٠٣، قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر القاف: (يُفْقَهُونَ) من أفقته فلانا كذا أفقهه إقفاها: إذا فهمته ذلك، والباقون بفتح القاف والياء، من فقه الرجل يفقه فقهها.

النشر في القراءات العشر ٢ / ٣١٥ والغاية في القراءات العشر ١٩٩ والسبعة ص ٣٩٩.

(٢) جامع البيان للطبري ١٨ / ١١٣.

الحاجز، ولعله سمي السد الذي وعد بإنجازه ردما تواضعا.

جمع إلى جانب العلم النافع والخبرة الدقيقة والمهارة الفائقة والإمكانات الهائلة التواضع الرفيع والإيمان العميق والنفس الراضية العفيفة، والأيدى السخية النظيفة، والأريحية والشهامة: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ﴾.

لم يستغل حاجتهم في تجريدهم من الممتلكات والثروات، كما تفعله في عصرنا الحاضر الأمم الغالبة «المتحضرة» مع الشعوب المقهورة «النامية» من نهب ثرواتهم وحصد خيراتهم وجني ثمارهم! والتأمر على بقائهم تحت وطأة الجهل ونير الاستبداد.

ما فعل ذو القرنين كما تفعل تلك الدول التي ترهق الشعوب الفقيرة بالديون المركبة، تطوَّق بها أعناقهم وتُلهب بها ظهورهم، وتنتزع ولأهم وخنوعهم! وترغم أنوفهم.

﴿ أَتُونِي زُبَيْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ

فِطْرًا ۝٩٦ ﴾

﴿ أَتُونِي زُبَيْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ﴾ أي جيئوني بزُبَيْرِ الحديد، وهي جمع

زُبَيْرَة، والزُبَيْرَة: القطعة من الحديد.

فجعلها بين الصدفين أي حافتي الجبلين حتى إذا ساوى بينهما بما جعل بينهما من زُبَيْر الحديد، قال للعمال: انفخوا النار ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد ناراً ﴿ قَالَ أَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ فِطْرًا ﴾، أصب عليه قطراً، والقِطْر: النحاس.

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس؛ لا يمكن تسلقه، فهدى الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلة الناجحة.

﴿ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ۝٩٧ ﴾

﴿ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾: فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله

ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلوه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله؛ لسُكِّه وصلابته.

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٨﴾ ﴾

قال بعد أن أتم البناء بإحكام وإتقان ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: هذا البنيان رحمة وفضل من الله الذي وهبني العلم ومنحني الملكات والطاقات، وهيا لي الأسباب حتى تم البناء الذي يحجز أولئك المفسدين ويحمي هؤلاء المستضعفين، ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أي: مساوياً للأرض، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أي: كائناً لا محالة.

فأشار إلى مدة انتهاء صلاحية هذا الردم وذلك عند تحقق الوعد الإلهي.

عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ، فَفُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ... » الحديث (١).

وعن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ قال (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفَرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرُونَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفَرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مَدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إِلَى النَّاسِ، حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرُونَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفَرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَيَسْتَنْبِي فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفَرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيَسْفُونَ الْمِيَاهَ وَيَتَحَصَّنَ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِّ فَيَقُولُونَ: فَهَرْنَا

(١) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الأنبياء - باب: قصة يأجوج ومأجوج - ٣٦٨/٢ حديث رقم: ٣٣٤٦٦ - ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، - ٤ / ٢٢٠٧ - حديث رقم: ٢ - (٢٨٨٠).

أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّاءِ، فَيَبِّعْتُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَخْفًا فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُنَّ شُكْرًا مِنْ لِحْمِهِمْ وَدِمَائِهِمْ^(١).

المناسبة بين محور السورة وقصة ذي القرنين

تدور هذه القصة مع المحور العام للسورة وهو كما أسلفنا: حول العواصم من الفتن: فتبرز لنا أهمية التوكل على الله تعالى واليقين به تعالى مع الأخذ بالأسباب في النجاة من الفتن. كما يتجلى لنا من خلال هذه القصة دور الحاكم العادل في حماية البلاد من شرور الفتن.

الهدايات المستنبطة من قصة ذي القرنين

* من عوامل النهوض وأسباب الرقي: الأخذ بالأسباب المعينة على ذلك من الإيمان الخالص والعلم النافع والعمل الصالح، مع الإخلاص والتجرد والتوكل واليقين وعلو الهمة.

* ويحضرني في هذا المقام قول إقبال

لو يمسّ التوحيد فكرياً نقيّاً وضميراً حيّاً وقلباً أبيعاً
لأحال الخمول والضعف إياناً وعزماً يغزون نجوم الثريا

* في قصة ذي القرنين نموذج رائع ومثال واقعي للقائد الراشد والحاكم العادل والفتاح المؤيد الذي يمكنه الله في الأرض، ويسر له الأسباب؛ فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ فلا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنها ينشر العدل في كل مكان يحلُّ به، ويساعد المتخلفين المستضعفين

(١) حديث صحيح رواه ابن ماجه في السنن كتاب الفتن باب فتنه الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج ٢/ ١٣٦٤ حديث ٤٠٨٠ ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٥١٠ ورواه الطبري في تفسيره ١٨/ ١٠٩، وقوله: (فَيَبِّعْتُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَخْفًا) بفتح النون والغين المعجمة: دود يكون في أنوف الإبل والغنم جمع نغفة.

ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التغيير والإصلاح
ودفع العدوان وإحقاق الحق

* ضرورة إعداد الجيوش وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى
إزاحة الأنظمة المستبدة وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعوين، ونشر
العدالة والرحمة، إلا بالجهاد.

* من صفات الإمام العادل أنه حربٌ على أعداء الله، وسلم لأولياء الله، يدي أهل الطاعة
ويباعد أهل المعصية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكر دائماً بفضل الله ورحمته
ومن واجبه أن يصون البلاد من كل مكروه: قال ابن العربي: « وَعَلَى الْمَلِكِ فَرَضٌ أَنْ يَقُومَ
بِحِمَايَةِ الْخَلْقِ فِي حِفْظِ بَيْضَتِهِمْ، وَسَدِّ فُرُجَتِهِمْ، وَإِصْلَاحِ ثَغْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الَّتِي تَفِيءُ
عَلَيْهِمْ، وَحُقُوقِهِمْ الَّتِي يَجْمَعُهَا خَزَائِنُهُمْ تَحْتَ يَدِهِ وَنَظَرِهِ، حَتَّى لَوْ أَكَلَتْهَا الْحُقُوقُ، وَأَنْفَذَتْهَا
الْمُؤَنُّ، وَاسْتَوْفَتْهَا الْعَوَارِضُ، لَكَانَ عَلَيْهِمْ جَبْرٌ ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَلَيْهِ حُسْنُ النَّظَرِ لَهُمْ
وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ:

الأول: أَلَّا يَسْتَأْثِرَ بِشَيْءٍ عَلَيْهِمْ.

الثاني: أَنْ يَبْدَأَ بِأَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ فَيُعِينَهُمْ.

الثالث: أَنْ يُسَوِّيَ فِي الْعَطَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَى مِقْدَارِ مَنَازِلِهِمْ، فَإِذَا فَنِيَتْ بَعْدَ هَذَا ذَخَائِرُ الْخِزَانَةِ
وَبَقِيَتْ صَفراً، فَاطْلَعْتَ الْحَوَادِثُ أَمراً بَدَلُوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ أَمْوَالِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ فَأَمْوَالَهُمْ
تُؤَخَذُ مِنْهُمْ عَلَى تَقْدِيرٍ، وَتُصْرَفُ بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ.

فَهَذَا ذُو الْقَرْنَيْنِ لَمَّا عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَالَ قَالَ: لَسْتُ أَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ فَأَعِينُونِي
بِقُوَّةٍ، أَيْ اخْدُمُوا بِأَنْفُسِكُمْ مَعِي، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ عِنْدِي وَالرِّجَالَ عِنْدَكُمْ؛ وَرَأَى أَنَّ الْأَمْوَالَ
لَا تُغْنِي دُونَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إِنْ أَخَذُوا أَجْرَهُ نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَعَادَ عَلَيْهِمْ بِالْأَخْذِ فَكَانَ

التَّطَوُّعُ بِخِدْمَةِ الْأَبْدَانِ أَوْلَىٰ ^(١).

* في حبس ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم: دليلٌ على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، لمعاقبتهم ومنع شرهم وتقويم سلوكهم.

* ومن الفوائد المستفادة: والقواعد المستنبطة: دفع الشر بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمه وقوته رأى أن بناء السد كافٍ في دفع أذى يأجوج ومأجوج.

* ومن الفوائد العظيمة من هذه القصة الكريمة: شكر المنعم وإجلاله والتواضع لعظمته والإقرار بفضلته: قال السعدي: « فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مؤيها وقال: ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ أي: من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعمة الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۗ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۗ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾، [النمل: ٤٠]، بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم تزيدهم أشرا وبطرا ^(٢).

* ألا ما أحوج البشرية إلى الدعاة والمصلحين والقادة الراشدين، الذين يبددون ظلام الاستبداد ويقطعون دابر الفساد، ويقىمون موازين القسط، ويرفعون مشاعل النور، كما قال محمد إقبال:

فأين جحافل الأبطالِ منا يضئ مسيرها للسالكين
وتغبطها شعوبٌ أرهقتها بالاستبدادِ أيدي الظالمين

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ٢٤٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٨٦.

خاتمة السورة

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ٩٩ ﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْفِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيْبُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَبَايِعَتِ رَبَّهُمْ وَلِقَائِهِ فَعَبَّطُوا أَفْعَالَهُمْ فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْهَكْمِ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴿ [الكهف: ٩٩ - ١١٠].

المناسبة :

جاءت خاتمة السورة الكريمة متسقة مع سياقها ومحورها:

حيث بينت جزاء المخدوعين المفتونين الذين اغتروا بزخرف القول وانقادوا للأهواء فغرقوا في خضم الفتن، وتاهوا في شعابها السحيقة، وفي المقابل تذكر خاتمة السورة عاقبة من عصمهم الله تعالى ونجاهم من الفتن فكانت لهم جنات الفردوس نزلا، ثم تختتم السورة بما بدأت من حديث عن كلمات الله التي لا يحصيها عدُّ ثم العود إلى التذكير بطريق العصمة والنجاة والفوز والرضوان، وهو طريق سهل واضح ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْهَكْمِ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ﴿١١٠﴾.

من هنا يتبين لنا وجه المناسبة بين مضمونها وبين ما ورد في فضلها، كما ذكرنا في فضائل السورة الكريمة أن قراءة العشر الأواخر منها عصمة من الدجال، مع ملاحظة ما ذكرناه في مقدمة السورة أن العشر الأواخر في عدِّ المدني الأول والأخير والمكي تبدأ من قوله تعالى ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ ﴾ وتنتهي بنهاية السورة.

المعنى الإجمالي

من مشاهد القيامة

﴿ وَتَرْكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢ ﴾ [الكهف: ٩٩ - ١٠٢]

﴿ وَتَرْكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾: لما فرغ ذو القرنين رحمه الله من بناء السد الذي صار حاجزا بين يأجوج ومأجوج والبلدان المنكوبة، فمنعوا من الخروج، وماج بعضهم في بعض خلف هذا البنيان المشيد، وقيل هذا التفات لما يجري قبل قيام الساعة من شدة الزحام واختلاط الناس، وقيل عند انفتاح السد وخروج يأجوج ومأجوج واختلاطهم بالناس وما يحدث من هرج ومرج^(١).

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَهُمْ جَمْعًا ﴾: النفخة الثانية التي تجمع الناس كما قال سبحانه ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَبْطِرُونَ ۝٦٨ ﴾ [الزمر: ٦٨]، وكما في الصحيحين « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ أَيْبُتُ قَالَ: قَالَ أَيْبُتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَيْبُتُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبُلُّ إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٢).

﴿ وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۝١٠٠ ﴾ ومعنى عرض جهنم: إبرازها وكشفها للذين

(١) تراجع: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤ / ٣٣٦، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٥ / ٢١٢، وفتح القدير للشوكاني ٤ / ٤٣٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه باب قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ الزمر: ٦٨ حديث ٤٥٣٦ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراف الساعة باب ما بين النفختين الحديث ١٤١ - (٢٩٥٥).

عموا عنها في الدنيا، وفي ذلك نوع من العقاب للكفار لما يتداخلهم من الغم والفرع.

﴿عَرَضًا﴾ أي عرضاً فظيماً هائلاً لا يُقَادَرُ قدره، وتخصيصُ العَرَضِ بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبةً لأن ذلك لأجلهم خاصة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُجْرُونَهَا) ^(١).

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ^(١٠١)

الذين كانوا في غفلة وإعراض عن النظر في آيات الله و التفكير والاعتبار، ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ نفى عنهم السمع، أي: لا يقدرّون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ نَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ^(١٠٢)

أحسبوا أن ما عبده من دون الله ينفعهم؟ ويشفع لهم عند الله؟ ويدفع عنهم عذابه؟ فقد أعدنا لهم نزلاً يناسب جرمهم، ولو أمعنوا النظر وأصغوا السمع لتراجعوا عن هذه الحسابات الخاطئة والمزاعم الواهية.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ قال أبو السعود: « وفيه تخطئة لهم في حسابهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء من قبيل إعتاد العتاد وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر جهنم عدة» ^(٢).

فتنة الأهواء

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ^(١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

(١) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، وبعد قعرها، وما تأخذ من المعذنين حديث ٢٩- (٢٨٤٢).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٥ / ٢٤٨.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَلَّوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هُرُورًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ١٠٢-١٠٦].

بعد إنكاره عليهم اتخذهم عباد الله أولياء من دونه، بين تعالى خسراهم الميين وضلالهم البعيد وتقليدهم الأعمى وتعصبهم المقيت لما هم عليه بسبب فتنة الأهواء التي تزين القبيح، فجمعت السورة الكريمة بين فتنة الدنيا وفتنة إبليس وفتنة الهوى حتى يكون المسلم على حذرٍ ويسلك طريق العصمة من هذا الخطر.

وقد قيل

إني بُليتُ بأربعٍ ما سُلِّطوا
إلا لشدةِ شقوتي وعنائِي
إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى
كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائي ؟

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١١٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٤﴾﴾

من أشدَّ الفتن وأعظمها خطرا وأعمقها أثرا فتنة الأهواء حين يعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلال وزيف، بل ويتعصبون لباطلهم، لموافقة هواهم، وإن خالف الأدلة الشرعية والفطرة النقيّة والعقول الراجحة، فتراهم يتهبون من سماع الحق والنظر في أدلته وبراهينه ولا يُسلمون بالحجج، فيؤثرون الهوى على الحق ويشترون الضلالة بالهدى.

شأن أصحاب الملل الوضعية والمحرفة والمذاهب الضالة، ممن انتصروا لأهوائهم وتعصبوا لأرائهم، وانخدعوا بهريق الدنيا وتعلقوا بسرآها، واغتروا بالمال، وانحازوا إلى السلطان، وتفاخروا بالأهل والعشيرة.

وهذا بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنّة في أنفسهم وفي حسابهم أيضاً حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن مُصعب بن سعد قال سألتُ أبي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١١٣﴾﴾: هُمُ الْخُرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: أَمَا الْيَهُودُ: فَكَذَّبُوا

مُحَمَّدًا ﷺ وَأَمَّا النَّصَارَى: فَكَفَرُوا بِالْحَيَّةِ، وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالْحُرُورِيَّةُ هُمْ ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ^(١).

فالأخسرون أعمالاً: هم «الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحاً وفضلاً فنالوا به عطباً وهلاكاً ولم يدركوا طلباً، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلاً وريحاً، فخاب رجاؤه، وخسر بيعه، ووكرس في الذي رجا فضله.

وقال ابن العربي: «... وَبَرِّجُونَ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: الْكُفَّارُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالتَّكْلِيفِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ زَيَّنَ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ، إِنْفَاداً لِمَشِيئَتِهِ، وَحُكْماً بِقَضَائِهِ، وَتَصْديقاً لِكَلَامِهِ.

الصَّنْفُ الثَّانِي: أَهْلُ التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ الدَّلِيلِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْجٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ [آل عمران: ٧] كَأَهْلِ حُرُورَاءَ وَالنَّهْرَوَانَ، وَمَنْ عَمَلَ بِعَمَلِهِمُ الْيَوْمَ، وَشَغِبَ الْآنَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَشْغِيبَ أَوْلِيكَ حِينْتَدِ، فَهُمْ مِثْلُهُمْ وَشَرٌّ مِنْهُمْ.

الصَّنْفُ الثَّلَاثُ: الَّذِينَ أَفْسَدُوا أَعْمَالَهُمْ بِالرِّيَاءِ وَصَيَّعُوا أَحْوَالَهُمْ بِالْإِعْجَابِ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى الْبَيَانِ فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، وَيَلْحَقُ بِهِؤَلَاءِ الْأَصْنَافِ كَثِيرٌ، وَهُمْ الَّذِينَ أَفْتَنُوا زَمَانَهُمُ النَّفِيسَ فِي طَلَبِ الْخُسَيْسِ^(٢).

وقال ابن كثير: «أي: بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا، وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم، فروؤساؤهم يعلمون الصحيح، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم، وأتباعهم مقلدون بغير دليل»^(٣).

(١) صحيح البخاري في تفسير سورة الكهف (٩٥٣٤) ٤١/٣٥٣.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٥/٣٥٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/٢٠١ والحُرورية نسبة إلى حروراء قرية انحاز إليها الخوارج فَنُسِبُوا إِلَيْهَا.

فالآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾ [الغاشية: ٢-٤] وقوله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: ٣٩].

عاقبة الأخسرين أعمالا

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

فهؤلاء الأخسرين لا قيمة لهم ولا وزن لهم عند الله تعالى، وذلك يدل على خستهم وحقارتهم وضلال سعيهم، كما لا يثقل لهم ميزان يوم القيامة، بل الوزن عليهم لا لهم، إذ لا يعتدُّ بها جاءوا به.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال أقرءوا ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ ^(١).

(١) صحيح البخاري - باب ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ رقم (٩٢٧٤)، وصحيح مسلم - صفة القيامة والجنة والنار - رقم (٢٢٢٧).

مسك الختام

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف ١٠٧-١١٠].

بعد الحديث عن أحوال المفتونين بالهوى، الغارقين في الضلالة، المعجيين بالباطل، وبيان مصيرهم المحتوم، ونهايتهم الأليمة، تهبُّ نسائم الخيرات، وتفوح أطياب المسرات، لأهل الإيمان والأعمال الصالحات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

بشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتن وأعاصير الغواية فاستحقوا الفوز بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة ولذاتها المتجددة، فلا يملون ولا يفترون ولا يتحولون عنها، كيف وقد جمعت معاني الحسن.

وقد جاء في الحديث الصحيح قولُ نبيِّنا ﷺ (... فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أَرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) (١).

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

ثم يأتي هذا الختامُ وقد حوى جوامع الكلم وناسب ما جاء في مقدمة السورة الكريمة وثناياها من آيات بينات وحجج نيرات.

فكلمات الله تعالى لا تنتهي لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهر لا ينضب، وعطاء لا ينفد، وكنوز لا تحصى، فلو كانت كل قطرة من بحار الدنيا مداداً، ولو استحالت جذور الأشجار

(١) صحيح البخاري - باب درجات المجاهدين في سبيل الله - رقم (٢٧٩٠).

وجذوعها وأغصانها أقلاما، لتكتب بها كلمات الله لنفد المداد والأقلام قبل أن تنفذ كلمات الله.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجَدَّ ﴾

ختمت السورة الكريمة بما بدأت به من بيان مهمته ﷺ وطبيعته فهو بشر كسائر البشر، جاء بوحى من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدنيا، ونعيم الآخرة.

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

فمن كان في شوق للقاء مولاه، راجيا رضاه فليعد لهذا اللقاء زاده وعُدته.

الصلة بين محور السورة وخاتمتها

لما جلت لنا السورة الكريمة الفتن القواصم: حذرت من أولئك الغارقين في بحار الفتن المائجة وهم لا يبالون بالخطر الذي يتهدهم والعذاب الذي يترصدهم، بل لا يسلمون بأنهم على ضلال مبين، وأدهى من ذلك وأمر ما أصابهم من عجبٍ واغترار بما هم عليه من ضلالٍ. ثم يجيء مسك الختام ببيان عاقبة الذين عصمهم الله من الفتن وسهل لهم طريق النجاة بإيمانهم وصلاحتهم، ثم الإشارة الأخيرة لهذا الطريق ونبينا الهادي إليه ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجَدَّ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

الهدايات المستنبطة من الخاتمة

في تذكّر أهوال يوم القيامة واستحضار مشاهدتها: تسليّة وتثبيت، وعظة واعتبارٌ لأهل الحق، وترهيبٌ للمعرضين المقتونين.

من أشدّ الفتن وأعظمها خطراً وأعمقها أثراً: فتنة الأهواء حين يعجب أهل الباطل بما هم عليه من ضلال وزيف، بل ويتعصبون لباطلهم، لموافقته هواهم، وإن خالف الفطرة النقيّة

والعقول الراجحة.

زفّت لنا خاتمة السورة الكريمة بشرى لأهل الإيمان والصلاح الذين عصمهم الله من رياح الفتن وأعاصير الغواية، فاستحقوا الفوز بأعالي الجنات، والخلود فيها، والتنعم بخيراتها المتنوعة ولذاتها المتجددة.

كلمات الله تعالى لا منتهى لها، فهي بحر لا ساحل له، ونهر لا ينضب، وعطاء لا ينفد وكنوز لا تحصى.

نبينا ﷺ بشر كسائر البشر، جاء بوحى من الله تعالى يهدف إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإصلاح الدنيا، ونعيم الآخرة.

سورة مريم

بين يدي السورة

أ. اسم السورة.

سميت هذه السورة الكريمة^(١) بسورة مريم، حيث وردت فيها قصتها رضي الله عنها. وفي ذلك تكريمٌ لها وتخليدٌ لذكرها، وتسجيلٌ لمآثرها ومناقبها، وتقديرٌ لصدقها وعفتها فضلاً عما تحويه قصتها من نموذجٍ عمليٍّ فريدٍ ومثالٍ تطبيقيٍّ رشيدٍ، للمرأة العفيفة الطاهرة العابدة الزاهدة.

ولسوف نرى في هذه القصة: كيف تجلت الرحمتُ وتنزلت البركاتُ على هذه الصديقة التي عاشت حياتها في كنف الرحمن، وعلى مائدته العامرة تغذت روحها وارتوى فؤادها.

ولما كانت قصتها أقوى دلالةً وأجلى بياناً على رحمة الله تعالى بعباده الذين تسنّموا أعلى مقامات العبودية: سُميت السورة باسمها؛ فحيثما ذكرت مريم يرتبط اسمها برحمة الله تعالى لها، وكمال عبوديتها لله تعالى فهي ممن بلغن درجة الكمال الإنساني، كما في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (كَمَلَمِ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)^(٢).

(١) هناك تناسب بين أسماء السور وبين مضمونها، حيث دلالة الاسم على المسمى، وفي ذلك يقول الإمام الزركشي تحت عنوان: «اختصاص كل سورة بما سميت:» «ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعى في الكثير من المسميات أخذ أسماؤها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز» البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي ١ / ٢٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه كتاب أحاديث الأنبياء - باب قوله =

وأخرج الترمذي والحاكم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ) (١).
وعن هدف هذه السورة يقول الإمام البقاعي: «مقصودُها بيانُ اتصافه سبحانه بشمول الرحمة بإفاضة النعم على جميع خلقه، بما يدل على اتصافه تعالى بجميع صفات الكمال...» (٢).

ب. فضائل السورة.

ورد في فضائل هذه السورة الكريمة أحاديثُ وأثارُ ترغَّب في تلاوتها وتبيين مزيَّتها:
* فعَنْ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعِ وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِثِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِثَانِي، وَفُضِّلْتُ بِالْمِفْصَلِ) (٣).
وهذه السورة الكريمة من السور المثنائي، والمثنائي هي التي تلي المئين، والمئون: كل سورة بلغت مائة فصاعداً، والمثنائي كل سورة دون المئين.
* وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطَهَ وَالْأَنْبِيَاءُ: هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي» (٤).

= تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحریم: ١١] صحيح البخاري

٣٩/٢. حديث ٥١١٢، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٨٤/١، والدارمي في السنن ٢، ٧٥.

(١) حديث صحيح: رواه الترمذي في السنن عنه - كتاب المناقب باب / فضل خديجة ٥ / ٥١٥ حديث ٣٨٧٨ وقال حديث صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرک وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي ٢ / ٥٩٥.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٤ / ٥١٤ بتصرف.

(٣) الحديث إسناده حسن وقد سبق تحريجه في تفسير سورة الأنعام.

(٤) رواه البخاري في صحيحه باب: سورة بني إسرائيل - حديث ٢٣٤٩، والبيهقي في شعب الإيَّان ٢ / ٤٧٦ حديث ٢٤٤٩، وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن حديث ١٣٣، وابن الضريس في فضائل القرآن حديث ٢١.. والعِتَاقُ الْأَوَّلُ: أي من السور المكية، والعِتَاقُ جمع عتيق وهو ما بلغ الغاية في الروعة والحسن والجودة. تلادي: أي ما حفظته قديماً، وقال البيهقي «العِتَاقُ: جمع عتيق، والعرب =

* وحين قدم وفد قريش إلى النجاشي ملك الحبشة في طلب من هاجر إليها، دار حوارٌ طويلٌ بين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الذي تحدث باسم المهاجرين وبين النجاشي والقساوسة وبين وفد قريش: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ومعه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغْبِرَةِ الْمُخَزُومِيِّ: وكان فيما دار في هذا الحوار مما يتعلق بفضل السورة الكريمة: ما رواه الإمام أحمد وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «... فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَأَقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ (كهيعص)، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وَبَكَتْ أَسَافِقَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيُخْرِجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلَقَا، فَوَاللَّهِ لَا أُسَلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا»^(١).

ج. مكية السورة.

هذه السورة مكية نزلت بمكة قبل الهجرة. قال القرطبي «وهي مكية بإجماع»^(٢).

• كان نزولها مبكراً في العهد المكي، كما يتضح من حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن قول ابن مسعود رضي الله عنه.

=تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقا، يريد تفضيل هذه السور لما تتضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتلاد ما كان قديما من المال، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام؛ لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن، والله أعلم « شعب الإيمان للبيهقي ٤٧٦/٢.

- (١) حديث حسن: أخرجه مطولا الإمام أحمد في المسند ١/١، ٢، ٣، ٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحق صدوق يدللس وقد صرح بالسباع» مجمع الزوائد كتاب المغازي والسير- باب الهجرة إلى الحبشة ٦/٢٥: ٢٨- الحديث رقم ٩٨٤٢.
- (٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٧١.

د. عدد آيات السورة.

عددها في المدني الأخير والمكي تسع وتسعون، وعند الباقيين ثمان وتسعون آية. واختلافهم في ثلاث آيات.

﴿كَهَيْعَصَ ۝١﴾. عدها الكوفي، وتركها غيره.

﴿وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۝٢﴾ معدود للمكي والمدني الثاني، ومترك لغيرهما.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ۝٣﴾. منع ضمها الكوفي للآيات المعدودة وضمها غيره.

وكلماتها تسع مئة واثنان وستون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة وحرفان^(١).

هـ. محور السورة.

تدور آيات السورة الكريمة حول صفتين بينها تناسب وتلازم:

الصفة الأولى: صفة الرحمة، وهي من صفات الكمال الرباني، والتي تتجلى في كل ذرة من ذرات هذا الكون، وتفيض بظلالها على كل مخلوق، ففي هذه السورة الكريمة نستشعر الرحمة في كل آية من آياتها، ونلمسها ونرى آثارها في كل معنى من معانيها.

ولقد تكرر اسم الله «الرحمن» وكلمة «رحمة» كثيرا في هذه السورة؛ مما يؤكد ويقرر الهدف العام من هذه السورة؛ ليمتلئ قلب المؤمن ويفيض بالرحمات، ويعظم رجاءه ويستبشر فؤاده برحمة الله، فيزداد من الله تعالى حبا وقربا ورجاء، ويقوى يقينه حين يعاين في رحلته مع هذه السورة الكريمة صورا ومشاهد تتجلى فيها لطائف الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء.

(١) يراجع: كتاب البيان في عدآي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت ٤٤٤ هـ، ص ١٨١، وكتاب «أقوى العدد في معرفة العدد» لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣ هـ جمال القراء وكمال الإقراء ١/٦، ٢، وفنون الأفتان في علوم القرآن لابن الجوزي ص ٢٩١.

ومن رحمته تعالى التي تتجلى في هذه السورة الكريمة: إمهاله العصاة وصبره على المشركين مع إقامة الحجج ودحض الشبه وفتح باب التوبة والرجوع.

الصفة الثانية: وهي من صفات الكمال الإنساني ومن أسمى وأجلّ المقامات وأسنَى المقاصد التي من أجلها خلق الإنسان، إنها العبودية لله تعالى وهي سموٌ وارتقاءً وتحرراً ونقاءً وخشوعٌ وتبُّلاً.

وإذا كانت رحمته تعالى هي من كمال صفات الربوبية، فإن غاية الإنسانية وكمالها في عبوديتها الخالصة لله تعالى، وهذه الصديقة العابدة مريم التي سميت السورة باسمها قد نذرتها أمها محررةً أي خالصةً للعبادة، وسمّتها مريم قيل تعني العابدة^(١)، والعبودية لله سمو وارتقاء ونهوض وتحرر وعز.

من هنا نصل إلى المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

من هنا كان الهدف من هذه السورة: تحقيق العبودية وتعظيم شأن الربوبية وفي ذلك شرف العبد وكمال، وتحقيق الغاية من وجوده والهدف الأساسي لهذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده.

قال ابن تيمية رحمه الله: « وإنما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا»^(٢).

وقال رحمه الله: « من عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى، ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، ومن عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعز»^(٣).

(١) قال ابن حجر «ومريم بالسريانية تعني الخادمة» فتح الباري ٦ / ٥٤١، ويراجع روح البيان للبروسوي

٢٧ / ٢، ومحاسن التأويل، للقاسمي ٩١ / ٤.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية ١ / ٢١٣.

(٣) نفس المرجع ٩ / ٢٩٧.

ومن هنا تتجلى لنا الصلة بين تعظيم الربوبية وتحقيق العبودية؛ إذ بقدر تحقيق العبودية لله تعالى ظاهراً وباطناً، بقدر ما يزيد العبد إجلالاً وتعظيماً للرب سبحانه.

و. المناسبات في السورة.

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

محور السورة كما ذكرنا يدورُ حول صفة الرحمة ومقام العبودية، وتأتي قصة مريم وقد ظللتها الرحمة وشملتها في كل لحظة من لحظات حياتها المباركة المديدة، فعاشت مريم في رحابها حتى في لحظات الامتحان التي مرت بها، من ذلك عندما تمثل لها روح القدس في صورة بشرية فلهج لسأئها بالاستعاذة من هذا الذي قطع عليها خلوتها، وهتف قلبها متوسلاً بالرحمن أن يحفظها ويصونها، فقلبتا دائماً التعلق برحمة الرحمن التي لا تفارقها.

هذا بالنسبة لقصة مريم، أما باقي آيات السورة فإن رحمة الله تعالى تتجلى لنا في كل آياتها وسائر قصصها ومشاهدتها، رحمة الله تعالى بأنبيائه عليهم السلام وسائر عباده المؤمنين، بل رحمته تعالى التي تشمل الكافر في الدنيا حين يمهلُه ويخاطبه ويحاوره وينذره ويفتح له باب التوبة، ورحمته تعالى بإدخاله عباده المؤمنين الجنة.

وتتجلى الصلة بين اسم مريم وبين معنى العبودية من كون مريم قد نذرتنا أمها محررة أي خالصة للعبادة وسمتها مريم أي العابدة بلغتهم، وقد بلغت الغاية في مقام العبودية لله تعالى من هنا نصل إلى المناسبة بين اسم السورة ومحورها الذي يتجه نحو غايتين: الرحمة وبها كمال الفيض الرباني، والعبودية وهي غاية الوجود الإنساني.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* بدأت السورة الكريمة بالأحرف المقطعة ﴿كَهَيْعَصَ ١﴾ وفيها تنويه إلى أن القرآن كتابٌ عربيٌّ مبينٌ في حروفه وكلماته وجمله وأساليبه، وفي الختام تجلت الحكمة من نزوله بهذا اللسان العربي المبين ﴿فَأَنمَأَسَرَّنَهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ٧٧﴾.

* ولما افتتح السورة الكريمة بالثناء العطر على نبي الله زكريا عليه السلام وتذكير الأنام برحمة الله تعالى وعنايته به ورعايته له وثنائه عليه في الذكر الحكيم، وهو السجل الخالد، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَهَيْعَتِ ۙ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۙ ﴾ ﴿٢﴾ نرى في المقابل وعلى الجانب الآخر مَنْ طُوِيَ ذِكْرُهُمْ وَوُحِّيتْ آثَارُهُمْ وَطُمِرَتْ مِرَاسِمُهُمْ بعد أن كانوا ملء الأسماع والأبصار، قال تعالى في ختام السورة ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْوًا ۙ ﴾ ﴿١٨﴾.

وصدق من قال:

أبن الملوك الماضية	تركوا المنازل خالية
جمعوا الكنوز بجدهم	تركوا الكنوز كما هي
فانظر إليهم هل ترى	في دارهم من باقية
إلا قبوراً دارسات	فيها عظام بالية

٣. المناسبة بين السورة وسابقتها

الصلة بين سورة الكهف وسورة مريم: صلة واضحة جلية:

* اختتمت الكهف بتأكيد بشرية الرسول ﷺ ونبوته، وجاءت سورة مريم مؤكدة ومقررة بشرية المسيح ﷺ ونبوته قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجِدَّ فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۙ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۙ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۙ ﴾ ﴿٣١﴾.

* وكما استهلكت سورة الكهف بالتنويه على شرف نزول الكتاب على محمد ﷺ ووصفه بالعبودية وهي أسمى المقامات فقد استهلكت سورة مريم بالتنويه على شرف ومكانة نبي الله زكريا واستحقاقه لأن يُدَكَرَ وتُنشر محاسنه في أشرف الكتب وعلى لسان خير الرسل، قال تعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۙ ﴾ ﴿٢﴾.

* ختمت سورة مريم بما بدأت به سورة الكهف من بيان مقاصد القرآن: قال تعالى في مطلع سورة الكهف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ ۝١ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ [الكهف: ١ - ٢].

وقال تعالى في ختام سورة مريم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ ۖ قَوْمًا لَدًّا ۝٩٧﴾ [مريم: ٩٧].

* أيضا لما بين في ختام سورة الكهف طريق النجاة والفلاح ذكر في سورة مريم نماذج إنسانية وأمثلة واقعية وتراجم عملية لمن نهج هذا الطريق من النبيين والصدقيين، فجاءت قصة زكريا وابنه يحيى، ومريم وابنها عيسى، وإبراهيم وابنه إسحاق وابنه يعقوب، وموسى وأخيه هارون، وإسماعيل وإدريس عليهم السلام كما أعقب ذلك التنويه بسائر النبيين والصدقيين.

* اختتمت الأولى بجزء المؤمنين الصالحين وما لهم عند الله تعالى من مقام أمين ونزل كريم قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨]، وفي ختام سورة مريم ذكر تعالى من إكرامه لهم وتفضله عليهم أن غرس في قلوب العباد محبتهم، ونشّر محاسن سيرتهم: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦].

* اشتملت سورة الكهف على قصص عجيبة كذلك جاءت سورة مريم بأمر عجاب منها استجابة الله تعالى لدعاء زكريا مع كبر سنه وعقم زوجته، فقد وهبها الله يحيى بقدرته تعالى ولطفه، كذلك حمل مريم بعيسى عليه السلام من غير أب بقدرته الذي يقول للشيء كن فيكون قال السيوطي في حديثه عن سياق هذه القصة: "أقول ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب، قصة أصحاب الكهف، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر وما فيها من الخارقات، وقصة ذي القرنين، وهذه السورة فيها أعجوبتان قصة ولادة يحيى بن زكريا وقصة ولادة عيسى

فناسب تتاليهما»^(١).

* لما أنذر الله تعالى في مقدمة الكهف من ادعى لله ولدا: جاءت سورة مريم بتقرير ما جاء في سورة الكهف من نفي الولد وإنذار من زعم ذلك، فوردت قصة حمل مريم وولادتها عيسى عليه السلام وجاءت الآيات بنفي الولد.

* ورد في سورة الكهف حديثٌ مستفيضٌ عن رحمة الله بعباده المؤمنين وباليتامى والمساكين والمستضعفين، وجاءت سورة مريم تكشف لنا عن جوانب أخرى لهذه الرحمة التي وسعت كلَّ شيء.

* في سورة الكهف حديثٌ عن صاحب الجنتين الذي اغتر بباله وجاهه، وفي سورة مريم نرى تكرار هذا النموذج البشري في كفار قريش قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

٤. المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها؛ إذ تفصّل السورة الكريمة في مظاهر الرحمة وآثارها وظلالها وثمارها، بما يتواكب مع محور السورة ومقاصدها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

٥. المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيّنا تنتظم في سلكٍ واحد وتدورُ في فلكٍ واحد، وهو الحديث المستفيض عن رحمة الله تعالى وآثارها العجيبة، وإخلاص العبودية لله تعالى، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص ١١٥ وذكر هذه المناسبة أبو جعفر: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي في كتابه البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٢٨.

٦. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

السورتان الكريمتان من السور المكية، وفيهما تقريرٌ للعقيدة الإسلامية، ونقضٌ لدعائم الشرك، ودحضٌ لشبه الكافرين، وحديثٌ عن سمات القرآن ومقاصده، مع التأصيل الشرعي للقيم الأصيلة، والدعوة إلى التحلي بالأخلاق النبيلة، وتثبيت قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين، كما اشتملتا على سائر أركان الإيمان وأصول العقيدة، فجاء الحديث عن الإيمان بالله، والكتب، والرسول، واليوم الآخر، وعن عالم الملائكة الأبرار، وعالم الجن والشياطين، وعن الإيمان بالقدر، فضلا عن التشابه بين السورتين في استجلاء آثار الرحمة الإلهية، حيث تجلت آثار رحمة الله في سورة الكهف في مواطن عديدة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠].

وقال سبحانه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَانَبْتَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

وقال تعالى ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ. عَن أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وقال عزَّ شأنه ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّنْ رَبِّي فِإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ٩٨].

كذلك سورة مريم نبعٌ فائضٌ، وكنزٌ زاخرٌ بالرحماتِ كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

٧. بين مقدمة السورة ومحورها

لما دارت السورة حول الرحمة الربانية، وتجريد العبودية: استهلَّت بالحديث عن رحمة تعالى بعبده زكريا عليه السلام، هذه الرحمة التي تجلَّ أثرها في استجابة دعوته عليه السلام وهبته الولد الصالح مع كبر سنه وعقم زوجته، فكانت ولادة يحيى تكريما ورحمة بهذا النبي العابد.

فالأنبياء عليهم السلام هم أكثر الخلق مسارعة إلى الخيرات وأصدقهم توجُّهاً وتذلاً لله تعالى؛ وأعظمهم رغبة ورهبة، فهم النموذجُ الإنسانيُّ الكامل للكمال البشري بما امتازوا به من كمال العبودية لله تعالى.

كلمة في السياق العام للسورة وصلته بمحورها

تستهل السورة الكريمة بالحديث عن نبي الله زكريا عليه السلام ثم ابنه يحيى عليه السلام ثم يأتي الحديث المستفيض عن مريم تكريماً لها وتخليداً لذكرها ونشراً لمحاسنها وبياناً لرحمة الله تعالى بها وكمال عبوديتها له سبحانه، ليتصل الكلامُ بعبس عليه السلام وعبوديته لله تعالى ورحمته تعالى به ثم يذكر طائفةً أخرى من الأنبياء يأتي في مقدمتهم أبو الأنبياء عليه السلام فيدور الحديث حول رحمة الله بهم وكمال عبوديتهم لله، ليتضح لنا من خلال هذه القصص: كيف عاش الأنبياء والصالحون في ظلال الرحمة الربانية التي شملتهم وأظلتهم ورافقتهم في سائر أحوالهم؟ وكيف حققوا الغاية من وجودهم بعبوديتهم الخالصة لله وحده.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصص ببيان سوء عاقبة من انحرفوا عن منهج النبيين وسننهم القويم إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فإن جزاءه الجنة، دار النعيم المقيم ودار السلامة من جميع الآفات والمنغصات، والجنة من أعظم الرحمات التي خص الله بها من يشاء من عباده، ثم تستطرذ الآيات إلى الحديث عن تنزلات الملائكة بأمر الله تعالى وعلمه ورحمته، يلي ذلك جولات حوارية مع المشركين تضمنت عرضاً لشبههم وأباطيلهم مع دحض هذه الشبه والأباطيل بالحجج والبراهين وتقرير العقيدة الصحيحة مع عرض صور ومشاهد لمواقف يوم القيامة... وفي هذه الجولات تتجلى رحمة الله في إمهاله للعصاة وفتح باب التوبة أمامهم.

- ١ -

رحمته تعالى بذكرها ويحيى عليهما السلام

قال تعالى ﴿ كَهَيْعِصَ ١ ﴾ ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢ ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ ﴾ يَرِنُنِي وَيَرِيْتُ مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ ٦ وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا ٧ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَبِيٌّ كَرِيمًا إِنَّا نَبِيُّكَ يُعَلِّمُ اسْمَهُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٨ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَبِيٌّ كَرِيمًا إِنَّا نَبِيُّكَ يُعَلِّمُ اسْمَهُ يَحْيَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٩ ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ ﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١ ﴿ يَنْحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْأَنْكَبُوتَ صَبِيًّا ١٢ ﴾ وَخَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣ ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤ ﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥ ﴾ [مريم : ١]

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ كَهَيْعِصَ ١ ﴾ ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢ ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ ﴾

براعة الاستهلال

تبدأ السورة الكريمة بـ ﴿ كَهَيْعِصَ ١ ﴾ وهي من الحروف المقطعة التي استهلَّت بها بعضُ السور، وفيها تحدُّ وإعجاز؛ إذ القرآنُ الكريمُ قد أُلْفَ من هذه الحروفِ العربيةِ وتحَدَّى العرب وهم أربابُ فصاحةٍ وبيانٍ أن يأتوا بمثله.

وفي الاستفتاح بها تنبيهٌ وتشويقٌ لما يأتي بعدها من آيات.

قال صاحب الظلال: « هذه الأحرف المقطعة التي تبدأ بها بعض السور، والتي اخترنا في

تفسيرها أنها نماذج من الحروف التي يتألف منها هذا القرآن، فتجيء نسقاً جديداً لا يستطيعه البشر مع أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات، ولكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل القرآن»^(١).

﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢ ﴾

إضافة رحمة الربِّ جلَّ وعلا إلى النبي ﷺ إضافة تشريفٍ وتكريم، والآية تذكيرٌ للنبي ﷺ برحمة الله عز وجل بعبده ونيبه زكريا ﷺ.

وقد اتسمت السورة الكريمة بهذه السمة فذكرت بالصديقة بنت الصديق مريم ابنة عمران كما ذكرتنا بابنها نبي الله عيسى ﷺ، وذكرنا أيضاً بأبي الأنبياء إبراهيم ﷺ وطائفة أخرى من الأنبياء عليهم السلام، الذين هبت نسائم ذكراهم وفاح أريجها الذكي في هذه السورة العطرة لترسم خطاهم ونهتدي بهداهم، فهم نجوم الهدى وأعلام الحق ومنارات السبيل.

نقرأ في السورة الكريمة:

﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢ ﴾

﴿ وَأَذْكَرْ فِي الْكِتَابِ مَرْمَ إِذْ أَنْبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ١٣ ﴾

﴿ وَأَذْكَرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ١١ ﴾

﴿ وَأَذْكَرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١ ﴾

﴿ وَأَذْكَرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤ ﴾

﴿ وَأَذْكَرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُنَادَى

عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ حَرُوا سَجْدًا وَبُكِيًّا ٥٨ ﴾

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣ بتصرف.

ذُكرت السورة الكريمة بهذه المناقب العظيمة، ونشرت هذه الزهور الندية، ونشرت هذه الصفحات المضيئة، حتى يتعاشق قارئ القرآن مع هذه الذكريات العطرة، ويتنسم عبق هذا الماضي المجيد، ويحلّق بروحه ويطوّف بعقله ووجدانه مع هذه الآفاق الرحبية والصفحات المشرقة التي تشحذ الهمم وتسمو بالأرواح، ويلمس في حياة الأنبياء والصديقين العبودية الخالصة، والأسوة الحسنة، والقُدوة الطيبة، والأمثلة الواقعية، التي يُحتذى بها، ويُقتفى أثرها.

دعاء زكريا عليه السلام

﴿ إِذ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ ﴾

دعا ربه خفية، ومن المعلوم أن إخفاء الدعاء أو الجهر به عند الله سواء، فهو سبحانه سميع الدعاء، ولكن للدعاء في السر مزية فهو أدمى للخضوع والخشوع والإخلاص، وأرجى للقبول، يقول قتادة: «إن الله يعلم القلب التقى، ويسمع الصوت الخفي»^(١).

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَسْتَعَلُّ الرَّأْسَ سَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ ﴾

تفصيل وبيان لدعاء زكريا عليه السلام، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ضعفت عظامي وخارت قواي، «وإسناد ذلك إلى العظم لما أنه عمادُ البدن ودعائمُ الجسد، فإذا أصابه الضعف والرخاوة تداعى ما وراءه وتساقطت قواه»^(٢).

﴿ وَأَسْتَعَلُّ الرَّأْسَ سَيْبًا ﴾: أي انتشر الشيب فيه انتشار النار في الهشيم، وفي هذا إشارة

إلى ضعفه، وفقره إلى رحمة الله عز وجل.

﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾: أي ولم أعهد منك ربي إلا إجابتي في دعوتي، فأنت

رجائي وغايتي، وأنت قصدي ووجهتي، وأنا اليوم أحوجُ إلى رحمتك ولطفك وإحسانك وقد قيل:

(١) يراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١، والنكت والعيون للماوردي ٢ / ٥٧٨.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٦ / ٥٩، والكشاف للزمخشري ٣ / ٤ والنكت والعيون للماوردي ٢ / ٥٧٨.

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

قال صاحب روح البيان: «... روي أن محتاجا قال لبعضهم: أنا الذي أحسنت إلي وقت كذا، فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته، وكأنه يقول ما رددتني حين ما كنت قوي القلب والبدن... فلو رددتني الآن بعدما عودتني القبول مع نهاية ضعفي: لتضاعف ألم قلبي، وهلكت، يقال: سَعِدَ بِحاجته إذا ظفر بها، وشقي بها إذا خاب...»^(١).

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ ﴾

يخبر زكريا عليه السلام عن أسباب طلبه للولد: فقد وهن منه العظم وشاب الشعر، وتقدم به العمر، وهو خائف من أن يموت دون وارث له، يرث عنه النبوة والصلاح.

* وقال الإمام القاسمي: « ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾: أي الذين يلون أمر رهطي من بعد موتي، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفني في القيام بما كنت أقوم به، من الإرشاد ووعظ العباد، وحفظ آداب الدين والتمسك بهديه المتين»^(٢).

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾: لم تلد في شبابها، ولم تحمل، لكن قدرتك لا يُعجزها شيء.

﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾: أي هب لي من لَدُنْكَ من يلي أمري، ويسير على نهجي.

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۗ ﴾: والمقصود هنا ميراث الهدى والصلاح.

﴿ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾: أي مرضيا عندك في جميع أحواله، وعند خلقك يحبونه ويتأسون

بأفعاله المرضية.

استجابة الدعاء، والبشارة بيجي عليه السلام

﴿ يَنزَكِرْنَا إِنَّآ نُنشِرُكَ بِعَلْمِهِ يَحْيَى لَمَّ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝ ﴾

(١) روح البيان للبروسوي ٥ / ٣١٤ بتصرف يسير.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ١١ / ١١١.

جاءته الملائكة تبشره ببيحيى عليه السلام الذي منح الله هذا الاسم الحسن وجعل له حظاً عظيماً منه، ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم نجعل له شبيهاً من أهل عصره في أحواله وصفاته، أو لم نجعل له من قبل من يشاركه في هذا الاسم.

« وللأسماء المبتكرة الفريدة مزايا منها، قوة تعريف المسمى بها لقلة الاشتراك، إذ لا يكون مثله كثيراً مدة وجوده، وكذلك مزية اقتداء الناس به من بعد، حين يسمون أبناءهم ذلك الاسم تيمناً واستحساناً»^(١).

أما عن سر التسمية بهذا الاسم، فلقد قيل: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، فالإيمان حياة القلوب، والطاعة زادها، وقيل لأن الله أحيا قلبه بالنبوة، وقيل لأن الدين يحيا به، وذكريا عليه السلام طلبه من أجل الدين، أو لأنه يموت شهيدا، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه الوجوه كلها صحيحة، فلقد أحياه الله عز وجل بالإيمان والنبوة، وأحيا به القلوب، وجدد به الدين، ونال الشهادة في سبيل الله.

موقف زكريا عليه السلام من هذه البشارة

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَعَلَّمْتُ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۗ ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ۗ ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَإِنَّكَ مِنَ الَّذِينَ تُكَلِّمُ النَّاسَ تِلْكَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۗ ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۗ ﴿١١﴾﴾

دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه الولد فاستجاب المولى عز وجل لدعائه، وجاءته الملائكة تبشره بغلام يرث النبوة والصلاح عنه، ولقد كانت البشرية مفاجأةً لزكريا عليه السلام، فقال متعجباً من هذه البشارة، وشاكراً المولى عز وجل على هذه النعمة، ومتسائلاً عن كيفية تحققها ووقت وقوعها: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَعَلَّمْتُ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۗ ﴿٨﴾﴾

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦ / ٦٩.

تساءل زكريا عليه السلام عن كيفية وقوع هذه البشارة، فامرأته عاقراً، وقد بلغ السن الذي تعتو فيه العظام والمفاصل، أي تيبس وتجف، وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها.

كمال قدرة الله تعالى

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩ ﴾

وفي التعبير بوصف الربوبية دلالة بالغة: فالرب هو الخالق المدبر المصرف لشؤون خلقه، وكما خلق عز وجل عبده زكريا عليه السلام ولم يك شيئاً؛ فهو سبحانه قادرٌ على أن يأتي بالولد مع كبر السن وعقم الزوجة؛ فالله سبحانه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء، فهذا الأمر الذي يتعجب منه زكريا عليه السلام ويقف أمامه مشدوهاً ومبهوراً، هو أمر هين يسير على الله عز وجل .

علامة عجيبة لبداية الحمل

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾

طلب زكريا عليه السلام آية من المولى عز وجل، أي علامة تدل على استجابة الله لدعائه، حتى يفرح قلبه بذلك بعد أن فرح بالبشارة ليتعجل السرور به، وحتى يتلقى ذلك بالشكر لله عز وجل واهب النعم ويحتفل ويحتفي بهذا الحدث الجليل .

فقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أي علامة لوقت الحمل .

﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾

أجاب المولى تعالى زكريا عليه السلام فيما طلبه، فأعطاه الآية الدالة على وقوع الحمل، وهذه الآية هي امتناعه عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بلياليهن، فلا يتكلم إلا بالإشارة والإيماء، ففي سورة آل عمران: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝٤١ ﴾ [آل عمران: ٤١] أي إلا إشارة، وفي سورة مريم ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي كاملة وتامة ومتتابعة، بدون علة،

وإنما يحتبس لسانه بقدرة الله تعالى كعلامة على بداية وقوع الحمل .

ولقد مُنِعَ زكريا عليه السلام من الكلام لطلبه آية تدل على استجابة الله لدعائه، فاختار له الله سبحانه الصمت ولذلك حكمة بليغة؛ فللصمت فوائد عديدة، ففيه وقفة مع النفس، وهدوء البال، وسكينة الفؤاد، واجتماع القلب، وانطلاق الفكر، وصفاء العقل، وكان زكريا في حاجة إلى ذلك لأنه أعطي الولد بعد أن لم يكن ينتظره، فقد بلغ الكبر وكانت امرأته عاقراً، فكان يحتاج إلى هدوء النفس بعد ذلك الفرح العارم بمجيء الولد بعد المشيب. ومن هنا فمَنَعَ زكريا عليه السلام من الكلام من تمام نعمة الله عليه ورعايته له .

الدعوة في صمت !

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾

نبي الله زكريا عليه السلام رغم منعه من الكلام إلا أنه يواصل ذكر الله عز وجل ويأمر الناس به حيث يشير إليهم بما يفهم منه المدوامة على الذكر، وتأمل كيف يواصل زكريا ذكر الله حتى وهو ممنوع عن الكلام فالذكر من أيسر العبادات ومن أعظمها أجراً .

والعشي: من حين زوال الشمس إلى أن تغيب، وأصل العشي الظلمة، وسمي ما بعد الزوال عشاء لاتصاله بالظلمة، وأما الإبكار فمن حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وأصله التعجيل، لأنه تعجيل الضياء .

يواصل عليه السلام دعوة قومه إلى ذكر الله عز وجل، وحين يمتنع عن الكلام فإن الإشارة توصل إلى المطلوب ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾: أشار إليهم أن يداوموا على التسبيح في جميع الأوقات، وإنما خص التسبيح من بين سائر الذكر ليتناسب مع هذه الآية العجيبة التي تستنطق الأفواه بالتسبيح؛ تعجباً من قدرة الله وتنزيهاً له تعالى، فيتعايش الناس مع هذا الحدث الجليل، في ظل هذه الرحمة الربانية، ويستنشقون عبر هذه النفحة القدسية.

الرحمة منبع الفضائل

قال تعالى ﴿يَبْخِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَاَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٣ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٤ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٥﴾

طوى السياق ذكر ولادة يحيى عليه السلام وما صاحبها من بهجةٍ وسرور، ثم نموه وترعرعه إلى أن وصل إلى سن الطلب والتحصيل، فأمر بالجد والاجتهاد والعزم والرشاد.

﴿يَبْخِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾

أمر يحيى بأخذ التوراة بجد واجتهاد وحرص على فهمها والعمل بها ودعوة الناس إليها.

﴿وَاَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾

من الله تعالى عليه منذ صباه عليه السلام بالحكمة والمعرفة وحسن التدبير والحزم والعزم في الأمور.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ حنان رباني أودعه الله في قلب هذا الصبي، ففما معه وترعرع وأزهر وأينع، وجمع عليه السلام بين الجدد والحزم وبين الرفق والحنان؛ فكان حازماً راحماً، هيئاً لئناً سهلاً سمحاً، قد فاض قلبه بالحنان فكان سجيةً فيه لا يتكلفه.

﴿وَزَكَاةً﴾: أي وطهارة، فالزكاة هي الطهارة والنمو، وتركيبه الأنفس تطهيرها، والنهوض بها، وهبه الله تعالى نفساً زكية: طاهرة، ترتقي مدارج القبول وتنهض بغيرها إلى أعلى المقامات وأسمى الدرجات .

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: كان مطيعاً لله عز وجل، يمثّل ما أمره به ويجتنب ما نهى عنه.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾: كان باراً بهما محسناً إليهما، ولم يكن متكبراً أو

متعالياً على الآخرين، بل كان متواضعاً لئناً، رقيقاً بالناس محباً للحق ومدعناً له، ومطيعاً لله عز وجل في جميع أحواله .

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥): تحية طيبة مباركة لهذا النبي الذي جمع هذه الخلال الحميدة والشائلك الكريمة، فاستحق السلام الذي يعمُّ جميع أوقاته، ويستغرق كلَّ لحظاته الحافلة بالطمأنينة والسكينة حتى في أوقات المحن التي لا تخلو منها حياة الأنبياء والصالحين تمر عليه وهو في سكينة وطمأنينة ويقين ورضا.

قال الإمام القرطبي: «سلم الله تعالى على يحيى وحياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى» (١).

وقال صاحب روح البيان ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ أي سلامة من الله تعالى وأمان على يحيى أصله وسلمنا عليه في هذه الأحوال وهي أوحش المواطن» (٢).

المناسبة بين هذه القصة ومحور السورة

تبدأ السورة الكريمة بالحديث عن رحمة الله تعالى بعبده زكريا عليه السلام حيث استجاب دعاء ورزقه الولد مع كبر سنه وعقم زوجه التي هيأها الله تعالى لهذه الآية العجيبة، وتناسب آيات هذا المقطع مع محور السورة وهو الحديث عن رحمة الله تعالى، والتي تتجلى في استجابته سبحانه لدعاء زكريا عليه السلام وما اتسم به يحيى من الرحمة وهي غرّة الشائلك، ونبوغ الفضائل وعن عبودية زكريا لله تعالى حيث الإخلاص في العبادة والاجتهاد في الطاعة والتذلل والخشوع في الدعاء ونشأة يحيى عليه السلام في محراب العبادة وساحات العلم، وشائلك الكريمة التي تجمع بين الحزم والعزم والرحمة واللين.

الهدايات المستنبطة

* جُبِلَتْ النفوسُ على حب الأوالاد، فهم قرة العيون، وثمرات الفؤاد، وفلذات الأكباد وبهجة النفوس وزينة الحياة، قال تعالى ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٨٨ .

(٢) روح البيان للبروسوي ٥ / ٣٢ .

عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مِّمَّا أَتَى ﴿٤٦﴾ [الكهف: ٤٦]، والولد هبة من الله عز وجل وإنعام منه سبحانه، قال تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِ شَاءَ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

وقال تعالى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ بِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

فالولد هبة وإنعام من الله، وحب الولد: فطرة إنسانية .

ولقد جاء الإسلام بما لا يجافي هذه الفطرة، ولا ينافي تلك النزعة، بل ينمّيها ويهدبها، فهذا زكريا عليه السلام يطلب الولد: قال تعالى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

ولقد دعا عليه السلام لأنس بن مالك بكثرة الولد فقال (اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيهَا أَعْطَيْتَهُ) ^(١) وقد استجاب الله دعوة نبيه وأكثر لأنس المال والولد وبارك له فيما أعطاه .

قال القرطبي رحمه الله: «وفي هذا رد على بعض جهال المتصوفة حيث قال: الذي يطلب الولد أحق، وما عرف أنه هو الغيبي الأخرق؛ قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقد ترجم البخاري على هذا "باب طلب الولد". وأورد فيه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه قال لأبي طلحة حين مات ابنه: (أَعْرَسْتُمْ اللَّيْلَةَ؟) قال: نعم. قال: (بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمْ). قال: فَحَمَلَتْ. وفي رواية للبخاري: قال سفيان بن عيينة: فقال رجل من

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أنس كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة حديث ٦٣٧٨، ٦٣٧٩ فتح الباري ١١/١٨٦ ورواه الإمام مسلم في صحيحه عنه ك/ فضائل الصحابة - باب من فضائل أنس بن مالك - صحيح مسلم حديث ٢٤٨٠ - ٤/١٩٢٨.

الأنصار: فرأيتُ لهما تسعةَ أولاد، كلُّهم قد قرأ القرآن. ^(١) أي من ولدهما عبد الله ^(٢).

* في قوله تعالى ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ۗ ﴾ [مريم: ٣]: ما يدل على أن أفضل الدعاء ما كان في الخفاء فإنه أقرب إلى الإخلاص وأدعى للخشوع وأرجى للقبول.

* ومن الدروس المستفادة من قصة زكريا عليه السلام: فضل المداومة على ذكر الله تعالى، والذكر من أفضل الطاعات ومن أجل القربات، وزكريا عليه السلام رغم احتباس لسانه عن كلام الناس إلا أن المولى عز وجل قد أمره بالذكر قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَمًا ۖ وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۗ ﴾ [آل عمران: ٤١].

قال القرطبي: «أمره الله تعالى بالأبكار في نفسه مع اعتقال لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو رُخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام - لما حبس لسانه عن كلام الناس ولرخص للمجاهد في سبيل الله حين ينشغل بقتال الأعداء، ولكن الله عز وجل أمر زكريا مع منعه من كلام الناس بمداومة الذكر، وأمر المجاهدين بكثرة الذكر قال تعالى ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۗ ﴾ [الأنفال: ٤٥]» ^(٣).

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ۖ ﴾: نشير إلى أن العلم الحديث مع التقدم الهائل والإمكانات العظيمة في مجال الطب، فإنه إلى الآن لم يُكتشف ولن يُكتشف علاجاً لمرض الشيخوخة وما يعترى الطاعنين في السن من ضعف ووهن.

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز. باب: من لم يظهر حزنه عند المصيبة الحديث رقم: ١٢٣٩ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الآداب - باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه، وجواز تسميته يوم ولادته، واستحباب، التسمية بعبد الله وإبراهيم وسائر أسماء الأنبياء عليهم السلام حديث ٢٣ - (٢١٤٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٣ / ٤.

(٣) نفس المرجع ٨٢ / ٤ بتصرف.

* من قوله تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (١١) ﴿ مريم: ١١.﴾

نستخلص دروساً مهمة في الدعوة إلى الله عز وجل، منها: أن لا يتخلى الدعاة عن دعوتهم أبداً، وأن يعيشوا بها ويتعايشوا معها في كل زمان ومكان وفي كل الظروف والأحوال، وأن لا يقصروا فيها مهما كانت العوائق والمثبطات، وأن يجندوا لها كل ما يملكون من قدرات وطاقت وأوقات وملكات، وأن لا يستقلوا أي عمل أو جهد دعوى مهما كان يسيراً، فزكريا عليه السلام وهو ممنوع عن الكلام إلا أنه يعتمد في دعوته على الإشارة وهي وسيلة من وسائل التعبير، ولقد بدأ اهتمام القنوات الفضائية في السنوات الأخيرة بدعوة الصم عن طريق لغتهم التي يفهمونها لغة الإشارة .

فإذا حرم الدعاة من وسيلة دعوية فليجؤوا إلى غيرها، وإذا أغلق أمامهم باب فليطرقوا باباً آخر، فمن داوم قرع الأبواب ولج، فعلى الدعاة إلى الله أن يتزودوا بالعزم واليقين وأن يعلموا أن الدعوة كما أنها مزية وتشريف فهي مسؤولية وتكليف، وكما أنها أمر طريف شائق، فهي أيضاً طريق صعب شائك.

* ومن قوله تعالى ﴿ يَبْحَثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ دعوة لنا إلى الجِدِّ والاجتهادِ والعزمِ والمضاء في طلب العلم وفي العمل به وفي دعوة الناس إليه .

* وفي قوله تعالى ﴿ وَأَتَيْنَهُمُ الْخُكْمَ صَبِيًّا ﴾ إرشاد للآباء والأمهات أن يحسنوا تربية أولادهم منذ نعومة أظفارهم، وأن يعوّدوهم الجِد في الطلب، وأن يوجهوا أطفالهم إلى الاستفادة من أحوال الأنبياء، وأخبارهم خاصة ما كانوا عليه في صغرهم .

* وفي قوله تعالى ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ ما يفيد أن صفة الحنان وأيضاً صفة الرحمة من الصفات الفطرية التي أودعها المولى عز وجل قلوب من يحب من عباده، وعلى الداعية إلى الله أن يتحلّى بصفات الرحمة والحنان والرفق، فإن النَّبِيَّ ﷺ يقول (إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا

زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) (١).

* ومن قوله تعالى في بيان أوصاف يحيى عليه السلام ﴿وَرَزَقْنَاهُ أَيُّ وَطْهَارَةً وَنَهَاءً، وَطْهَارَةً هُنَا طَهَارَةُ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ وَالنَّهَاءُ هُوَ الرَّقِي وَالسَّمُو فِي الْمَقَامَاتِ الْعَلِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ الْمَرْضِيَّةِ، فَعَلِيَ الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَسْعَى إِلَى تَرْكِيَةِ نَفْسِهِ بِالطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، وَأَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْإِخْلَاصِ حَتَّى تَكُونَ دَعْوَتُهُ نَاجِحَةً، وَعَلَى الْقَائِمِينَ عَلَى تَأْهِيلِ الدَّعَاةِ وَإِعْدَادِهِمْ أَنْ يَرْكُزُوا عَلَى الْجَانِبِ الْعَمَلِيِّ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

* ومن قوله تعالى في بيان أوصاف يحيى عليه السلام ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ما يرشدنا إلى أهمية التقوى فهي سر النجاح وطريق الفلاح.

* ومن قوله تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (١٤) ما يفيد أن الداعية قدوة في بيته، رحيماً بأبويه، يحسن إليهما، فينال بذلك بركة رضاهما وصالح دعائهما، كما أن الداعية ينشد الحق، ولا يتعالى على الخلق، ويجتهد في تجنب المعاصي، ويتحرى الطاعات ومن تحلى بهذه الأوصاف الحسنة التي اجتمعت في نبي الله يحيى عليه السلام فلقد ترسّم طريق الهدى والفلاح والأمن والأمان.

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه عن عائشة كتاب البر والآداب والصلة باب / فضل الرفق حديث

- ٢ -

رحمته تعالى بمريم

وابنها عيسى عليه السلام

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ قَتِيلًا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي فَمَا جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعَ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذَ هَدْرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمَّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴿ [مريم: ١٦ - ٤٠]

المناسبة :

بعد أن تحدث المولى عز وجل عن زكريا عليه السلام وكمال عبوديته لله تعالى، وكيف رزقه الله عز وجل، الولد مع كبر سنه وعقم زوجته، يتحدث المولى عز وجل عن خلقه عيسى بدون أب، فالقصة الأولى بمثابة التمهيد للقصة الثانية، وإذا كان مولد يحيى آيةً عجيبة فإن ولادة عيسى آيةٌ عجاب .

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه، في حال كبره وعقم زوجته ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا: عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وهاهنا وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليُدلَّ عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قدير»^(١).

مريم في خلوتها

قال تعالى ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾: أي في القرآن الكريم لأن القصص القرآني هو الزاد الذي يتزوده به المؤمن في حياته والنور الذي يضيء له الدروب، ومن ثم فلا بد من دوام التأمل والتدبر في القصص القرآني والاعتبار به، والاعتباس من أنوار الأنبياء والصدّيقين، وفي ذكر مريم في هذا السجل الخالد تشريف وتكريم لها.

قال القرطبي: « ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم، أي عرفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا»^(٢).

وقوله تعالى ﴿إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ﴿انْتَبَدَتْ﴾ من النبذ، وهو إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به .

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٣ / ١٤ وقريب من ذلك ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦ / ١٧٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩ .

قال الزمخشري: والانتباز: الاعتزال والانفراد^(١).

وفي لسان العرب: « وَانْتَبَذَ فُلَانٌ: أَي ذَهَبَ فِي نَاحِيَةٍ، وَانْتَبَذَ عَنْ قَوْمِهِ: تَنَحَّى عَنْهُمْ »^(٢).
والمكان الشرقي هو شرقي بيت المقدس، اتجهت إليه لتعتكف وتحتلي للعبادة، ففي الخلوة رياضة للنفس وسمو بالروح وشحن للهمة وصفاء للقلب وزيادة قرب من المولى عز وجل .
وإنما جاءها الملك في هذا المكان الطاهر المبارك كما جاء لزكريا عليه السلام وهو قائم يصلي في المحراب حيث البركات والرحمات والنفحات .

﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾: أي جعلت بينها وبينهم سترا حتى لا يشغلها شيء عن العبادة، وحتى تستأنس بالحق عن الخلق، وينصرف قلبها للعبادة.
قال القاسمي: « لثلاث تجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق »^(٣).

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾: هو جبريل عليه السلام، وسمى عليه السلام روحاً: لأن الدين أساسه الوحي وهو أمينه، فبالوحي حياة الدين كما يحيا الجسد بالروح وكما تحيا الأرض بالماء .
والإضافة في ﴿ رُوحَنَا ﴾ للتشريف والتعظيم وبيان أن جبريل عليه السلام مرسل من قِبَلِ رَبِّ العالمين مُنَزَّلٌ بأمره .

﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾: ظهر لها جبريل عليه السلام في صورة جميلة وهيئة حسنة؛ امتحانا لها لكنها بادرت إلى اللجوء والاعتصام بالله تعالى، مخاطبة في هذا الذي قطع عليها خلوتها تقواه .
وإنما تمثل لها عليه السلام بهذه الصورة لتستأنس به ولا تنفر منه، ولأنها لا تُطِيقُ رؤيته عليه السلام بصورته الطبيعية .

(١) الكشف للزمخشري ٣ / ٩ .

(٢) لسان العرب ٦ / ٤٣٢٢ مادة (ن ب ذ) .

(٣) محاسن التأويل للقاسمي ١١ / ١١٥ .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ۝١٨ ﴾: استعادت مريم رضي الله عنها برّبها من ذلك الذي قطع عليها خلوتها ودخل بغير إذن، وفي استعادتها بالله تعالى ما يدلُّ على كمال إيمانها، وورعها وتمايم عفافها وشدة حياؤها وحسن أدبها ولباقتها وسرعة بديتها .

وفي استعادتها بالله تعالى متوسلةً باسمه الرحمن توجهٌ إليه سبحانه أن يرحم ضعفها ويصرف عنها السوء، فقد شملها تعالى برحمته في سائر أحوالها، وهي الآن أحوج إلى أن تداركها رحمةُ الرحمن، وفي الاستعاذة أيضا استثارة واستنهاض لبواعث الرحمة والتقوى في قلب ذلك الشخص، فهو إن كان رحيما فسوف يرحم ضعفها ووحدتها، وإن كان تقيا فسوف ينصرف عنها ولا يمسها بسوء .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩ ﴾: بادر جبريل عليه السلام إلى إزالة خوفها، ووضح لها أنه مَلَكٌ من ملائكة الرحمن، جاء بأمر من عنده سبحانه ليهب لها غلاما زكيا، أي غلاما طاهرا مباركا ^(١) .

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ ﴾

علمت وأيقنت أن هذه البشارة صادقة، وأن الذي بين يديها مَلَكٌ مرسلٌ من عند الله ولكنها تعجبت وتساءلت عن كيفية تحقق هذه البشارة العجيبة؛ لأن العادة أن الولادة لا تكون إلا عن حمل، وهي رضي الله عنها لم يمسسها بشرٌ بزواج، وحاشاها أن تكون بغيا .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١ ﴾

(١) قرأ أبو عمرو وورش والحلواني عن نافع (لِيَهَبَ لَكِ) بالياء لأن الواهب هو الله عز وجل .
وقرأ الباقر (لِأَهَبَ لَكِ) لأن الواهب هو الله عز وجل، وجبريل عليه السلام أرسله ربه ليشرها وليقوم بمهمة النفخ فيها لتتحقق هذه المعجزة بقدرة الله عز وجل . يراجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٤ .
والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣١٧ .

﴿ قَالَ كَذَلِكَ ﴾: أي الأمر كما تقولين من أنك غير متزوجة ولست بغية، ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ ﴾ فالمولى عز وجل هو القادر، وقدرته مطلقة وإرادته نافذة، لا يجدها حدود ولا يقيدتها قيود، ومن خلق آدم من غير أم ولا أب وخلق حواء من آدم: قادر على خلق عيسى من أم دون أب.

﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ دلالة وعلامة وحجة وبرهان على قدرة الله عز وجل قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٠] ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ رحمة من الله عز وجل لمريم، ولكل من آمن برسالته ﷺ، فهو رحمة لمريم لأنه إكرام لها من الله واصطفاء لها على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة الفريدة، ورحمة لها لأنها صارت به أم نبيٍّ له وجاهته ومكانته في الدنيا والآخرة، ورحمة لكل من آمن به، فالأنبياء جميعهم رحمة مهداة.

﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أمراً مقدوراً من الله عز وجل ونافذاً فلا رجوع فيه.

حمل مريم بعيسى ﷺ

قال تعالى ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ بعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، نفخ فيها روح القدس فحملت بعيسى ﷺ.

ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس ﷺ في مريم وجاء الحديث عن النفخ في سورة الأنبياء وسورة التحريم، وفي ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية، فكل آية لها سياقها الذي ينتظم مع سابقها ولاحقها، وكل آية لها صلتها بموضوع السورة ولها اتصالها بالسياق العام للقرآن الكريم ولها اتساقها مع الموضوع العام الذي وردت فيه.

وحين نجمع الآيات المتفرقة في الموضوع الواحد نجد أنفسنا أمام نسيج فريد، وبناء محكم متلائم وموضوع متكامل.

* في سورة الأنبياء يقول المولى عز وجل ﴿ وَالَّتِي أَحْصَدَتْ فَرْجَهَا فَفَخَّخْنَا فِيهَا مِنْ

رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي سورة التحريم يقول تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِحْسَانُ ﴾ [التحريم: ١٢].

فقد حصل الحمل بنفخة من روح القدس في مريم رضي الله عنها لتحمل بقدره الذي يقول للشيء كن فيكون.

قال تعالى ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ﴿١٢﴾: كان حملها طبيعياً كما تحمل سائر النساء، ﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾: مكاناً قصياً: أي مكاناً بعيداً عن قومها حتى لا يتعرضوا لها بسوء، وهذا المكان القصي هو شرقي بيت لحم حيث وُلِدَ المسيح ﷺ، كما ورد في الحديث الذي رواه النسائي في السنن والبيهقي في دلائل النبوة عن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث الإسراء وفيه يقول ﷺ (... ثُمَّ قَالَ ^(١): أَنْزَلَ فَصَلَّ: فَنَزَلْتُ فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتُ؟ صَلَّيْتُ بَيْتِ لَحْمٍ؛ حَيْثُ وُلِدَ عِيسَى ﷺ) ^(٢).

وفي صلاته ﷺ في هذه البقعة المباركة التي شهدت ولادة نبي الله عيسى تكريمٌ لهذا النبي.

﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ الظاهر المتبادر من سياق الآيات أنها وضعت في المكان القصي الذي انتبذت إليه أو قريباً منه، وقد كانت في هذا المكان وحيدةً فريدةً.

المخاض وتمني الموت

قال تعالى ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا

(١) أي جبريل.

(٢) رواه النسائي في السنن من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كتاب الصلاة - باب فرض الصلاة سنن النسائي حديث ٤٤٦، ورواه الإمام البيهقي في دلائل النبوة ٣٥٦/٢ وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح عن شداد بن أوس، ورواه الطبري في تهذيب الآثار حديث ٢٧٧٥.

مَنْسِيًّا ﴿١٣﴾

ومعنى ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي ألبأها المخاض واضطرها، والمخاض: ما يرافق الولادة من جهد وإعياء وآلام وزفريات، والجذع: ساق النخلة اليابسة الذي لا سعف عليه ولا غصن له، حيث أسندت ظهرها إليه .

لحظات عصبية

﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾: تمننت لو أنها قد ماتت، قبل هذا الموقف العصب، وكانت نسياً منسياً، أي شيئاً حقيراً لا يعتدُّ به ولا يؤبُّه له، من شأنه أن ينسى فلا يذكر، ولكن كيف تمننت ذلك مع ما علمت من البشارة والكرامة ؟
عن ذلك يجيب المفسرون بأجوبة كثيرة ومتنوعة:

يقول الإمام ابن كثير في التفسير « .. وقوله تعالى إخباراً عنها ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾: فيه دليلٌ على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون صورة سيئة فقالت ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ أي قبل هذا الحال، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً، قال ابن عباس قالت ذلك استحياء من الناس»^(١).

وفي حاشية الجمل على الجلالين «تمنت الموت من جهة الدين إذ خافت أن يُظنَّ بها السوء في دينها، أو استحياءً من الناس فأنساها الاستحياءُ بشاراة الملائكة لها بعيسى عليه السلام، أو لعلها قالت ذلك: لثلا تقع المصيبة بمن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بشرت به، فلا يرد السؤال كيف تمننت الموت مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث لها جبريل عليه السلام ووعدها بأن يجعلها

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١١٦، ١١٧ بتصرف .

وولدها آية للعالمين...»^(١).

رحماتٌ ونفحاتٌ

قال تعالى ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتِ لِيكَ بِمِجْدَعِ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ في غمرة الآلام التي ألمت بمريم رضي الله عنها، وفي تلك اللحظات العصيبة التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض والوحدة والوحشة والترقب لما ينتظرها من قومها حين يرون هذا الوليد، في غمرة هذه الآلام الحسية والنفسية تغمرها رحمة الله تعالى فيتحول العسر إلى يسر والضيق إلى سعة والحزن والقلق إلى فرح واستبشار وطمأنينة، ويولد عيسى عليه السلام في جوٍّ من الكرامات، وينطقه ^(٢) المولى عز وجل ويقول لها كما أخبر القرآن ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾، أنطق الله عيسى عليه السلام تسلياً لأمه وتثبيتاً لقلبها، وإشارة لها إلى أنه كما نطق أمامها وحدها فسوف ينطق أمام قومها ببراءتها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ ولقد أجرى الله هذه المعجزة أمامها وحدها، ثم أجزاها بعد ذلك أمام قومها، كما أجرى الله معجزة قلب العصا إلى حية أمام موسى وحده، قبل أن يجريها أمام فرعون وملئه تثبيتاً لموسى عليه السلام وإعداداً له لمواجهة هذا الموقف ^(٣).

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٣ / ٥٧، ٥٨، ويراجع روح البيان ٥ / ٣٢٦ كما يراجع الجامع لأحكام

القرآن للقرطبي ١١ / ٩٢ - وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٣ / ٥٧٨.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢١ / ٤، ٢.

(٣) مما يؤيد ويؤكد أن المنادي هو عيسى عليه السلام أن الضمائر تعود عودة الضمائر إليه (فحملته، فناداها، فأنت به، تحمله، فأشارت إليه)، وكذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم في رواية شعبة بفتح ميم (من) على أنه اسم موصول، وفتح تاء تحتها (من تَحْتِهَا) والذي تحتها هو عيسى عليه السلام حين وضعته، فأنطقه الله تعالى بما يزيد أمه فرحاً به واستبشاراً بقدومه ويقيناً بأن الله تعالى اصطفاه على نساء العالمين بهذه الآية العجيبة تكريماً ومزية. يراجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٤١ والتبصرة لمكي بن أبي طالب القيسي ص ٥٨٦.

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا ﴾: السريّ: قيل هو الجدول - النهر الصغير الجاري - سمي بذلك لأن الماء يسري فيه، وعلى هذا القول عامة المفسرين^(١).

والسياق يدل على ذلك قال تعالى ﴿ فُكِّلِي وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنًا ﴾ فدل الأكل على وجود الرطب ودل الشرب على وجود الماء الذي جاء عن طريق ذلك الماء الجاري .

روى البخاري في صحيحه بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ﴿ سَرِيًّا ﴾: نهرٌ صغيرٌ بالسريانية^(٢).

وأخرجه الحاكم عن البراء قال: « السريُّ هو الجدول، أي النهر الصغير »^(٣).

وقد أجرى لها المولى عز وجل هذا النهرَ كرامةً لها، وإرهاصاً لعيسى عليه السلام، وتسليّةً لقلبها.

﴿ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ يَجْدِجَ النَّخْلَةَ سُنُوقَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ ﴿٢٥﴾ فُكِّلِي وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنًا ﴿

نعمة أخرى ونفحة كبرى لمريم رضي الله عنها، أن يأتيها رزقها من الرطب وهي في مكانها، بقدرة الله عز وجل ولطفه ورحمته، وكانت تلك النخلة يابسةً فاخضرت وأثمرت في غير أوانها؛ كرامة لمريم وتسليّة لقلبها وزيادةً في يقينها، وإظهاراً لقدرة الله عز وجل وعجيب صنعه^(٤).

(١) يراجع جامع البيان للطبري ١٦ / ٥٤ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ١٧ وزاد المسير لابن الجوزي ٥ / ٢٢١، والتفسير الكبير للرازي ٢١ / ٥، ٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٤ وروح البيان للبروسوي ٥ / ٣٢٧.

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب / أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ) فتح الباري ٦ / ٥٤٩.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي - المستدرک كتاب التفسير باب تفسير سورة مريم ٢ / ٣٧٣.

(٤) يراجع: قصص الأنبياء لابن كثير ص ٥٦٥، ٥٦٦. وغرر التبيان في من لم يسم في القرآن لابن جماعة ص ٣٢٩.

﴿ فُكِّلِي وَأَشْرِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾، كلي من ذلك الرُّطْبَ الجَنِّي واشربي من ذلك الماء العذب، وقَرِّي عينا: أي وطيبني نفساً بهذه الآيات وتلك الكرامات، واهنتي بهذا المولود المبارك الذي صاحب مولده تلك النفحات.

﴿ فَإِمَّا تَرِينَنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

أمرت بالصوم عن الكلام لأمرين: أحدهما: أن كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد أقوى وأبلغ في إزالة التهمة عنها، وفيه أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى، والثاني: أن السكوت عن جدال السفهاء أصون للعرضِ وأنسب لحياتها.

مواجهة فاصلة

﴿ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمَلُهُ ۗ قَالُوا يَمْرِئُهُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۗ ﴾ (٢٧) يتَأَخَّتْ هَدْرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ
أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا ۗ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۗ ﴾ (٢٨)
سورة مريم ٢٧، ٢٩

قال الإمام القرطبي « لما اطمأنت لما رأته من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه»^(١).

والفاء هنا في (فأتت) تفيد التعقيب، والسرعة، وهناك مفارقة عجيبة في هذه القصة ففي بدايتها ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (٢٢) وفي نهاية المطاف ﴿ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمَلُهُ ۗ ﴾

* ففي الموضع الأول نرى مريم البتول رضي الله عنها تسارع بحملها بعيدا عن قومها خوفا من نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة وظنهم السيئ وكلامهم الجارح حين يرونها وهي حامل .

(١) الجامع الأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٩ .

* وفي الموضع الثاني بعد أن وضعت المسيح وقرت عينها به واطمأن قلبها إليه وانشرح صدرها، بالكرامات التي وقعت لها، وامتلاً قلبها يقينا، وتبدل خوفها أمناً، وحزنها سروراً وضعفها قوة وعزة وترفعاً وتحدياً وتعالياً على الباطل وأهله، فجاءت إلى قومها يحملها اليقين ويحدوها الأمل ويقودها الإيمان، وهي تحمل وليدها الحبيب نبي الله عيسى عليه السلام، جاءت ولسان حالها يقول معبراً عن نفسها الطاهرة الزكية العزيزة الأبية، الآمنة المطمئنة، الراضية المرضية، الهادئة الهانئة بهذه الهدية التي منحها لها رب البرية، جاءت ولسان حالها يقول:

فليتك تحلو والحياة مريرةً وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبينني وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الودُ فالكلُّ هينٌ وكلُّ ما فوق الترابِ ترابُ

لقد أصبحت مريم أمّاً لنبي، وأيُّ شرفٍ لأمٍّ أعظمُ من ذلك، وأيُّ رجاءٍ أعظمُ من نجابة الولد واستقامته، ومع ذلك فإنها تعرف سالفاً موقف قومها، الذين يقابلون الآيات بالإنكار والجحود، والإنعامات بالحسد والحقد، وقد صدق ظنُّها فيهم حين رأوها فقالوا دون تفكير أو تمهل كما أخبر القرآن الكريم: ﴿ قَالُوا يَنْمَرِمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾: أي شيئاً فظيماً منكراً.

قال صاحب المفردات: «الفري قطع الجلد للخز والإصلاح، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما وفي الإفساد أكثر... وقوله تعالى إخباراً عن قول قوم مريم ﴿ قَالُوا يَنْمَرِمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ قيل معناه عظيماً، وقيل عجيباً وقيل مصنوعاً، وكل ذلك إشارة إلى معنى واحد»^(١).

﴿ يَتَأَخَتِ هَنْرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ (٣٨)

بعد أن اتهموها، وافتروا عليها، قالوا لها هذه المقولة على سبيل السخرية والتهكم والتشكيك والتحريض.

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: مادة ف ر ي ص ٣٧٩ باختصار.

قالوا ﴿يَتَأَخَّتْ هَرُونَ﴾ تشبيها لها: بهارون النبي أخي موسى عليها السلام في تقواه وصلاحه وحياته.

ويجوز في اللغة إطلاق الأخ على النظير والشبيه والمعين، قال تعالى ﴿وَمَا نُزِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْتَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقال سبحانه ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٧].

ويؤيد هذا: ما رواه الإمام مسلم في صحيحه «عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. قال: لما قدمت نجران سألتني: فقالوا: إنكم تقرأون: ﴿يَتَأَخَّتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٨]، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمَّوْنَ بِأَنْبِيَاءِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ)»^(١).

كلام المسيح عليه السلام في المهدي

قال تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ نطق عيسى عليه السلام وهو في المهدي بقدرة الواحد الأحد، نطق أول ما نطق بأنه عبد الله وفي هذا تنزيهه لله تعالى عن الصاحبة والولد، وردُّ على النصارى الذين زعموا أنه إله وابن إله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

* يقول الرازي في هذا المقام: «إن الذي اشتدت إليه الحاجة في ذلك الوقت إنها هو نفي التهمة عن مريم، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينصَّ على ذلك وإنما نصَّ على إثبات عبوديته لله كأنه

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الآداب - باب النهي عن التَّكْثِي بِأَبِي الْقَاسِمِ، وبيان ما يستحب من الأسماء - ٩ - (٢١٣٥)، ورواه الترمذي في السنن عنه أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ باب: ومن سورة مريم - حديث ٥١٦٤ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها، لأن التكلم بإزالة التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم، لأن الله سبحانه لا يخصُّ الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة، وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم فلا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى»^(١).

وقال الألوسي: « وذكر عبوديته لله تعالى أولاً: لأن الاعتراف بذلك على ما قيل هو أول مقامات السالكين، وفيه رد على من يزعم ربوبيته وفي جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء والله سبحانه أجلُّ من أن يصطفي ولد الزنا، وذلك من المسلمات عندهم، وفيه من إجلال أمه عليهما السلام ما ليس في التصريح، وقيل لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفاة»^(٢).

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ ﴾^(٣) : فهو ﷺ عبد من عباد الله، أنعم الله عليه وآتاه الكتاب قال تعالى ﴿ إِن هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾^(٤) [الزخرف: ٥٩]، فنطق ﷺ أول ما نطق بغاية وجوده وكمال إنسانيته: عبوديته لله تعالى.

﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾ آتاه المولى عز وجل الإنجيل كما قال سبحانه ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَانْدَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَةٌ أَتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ ﴾^(٥) [الحديد: ٢٧].

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ أنعم الله عليه بالنبوة، وهي اصطفاء خاص، ومنزلة عظيمة، ومكانة عالية، لا تكون إلا لأشرف وأكرم وأطهر خلق الله .

فنبوته ﷺ دليل على براءة أمه، لأن الأنبياء هم أطهر الناس نسباً.

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ٢١ / ٢٠٩ .

(٢) روح المعاني للألوسي ١٦ / ٨٩ .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ أي نفاعاً حيث كنت، وقيل معلماً للخير، وقيل ثابتاً في الدين، صاحب عزم ويقين، وقيل البركة هي الزيادة والعلو، فكأنه قال جعلني في جميع الأشياء غالباً موفقاً إلى أن يكرمني الله بالرفع إلى السماء^(١).

والمقصود من كلامه: ﴿عَاتَنِي﴾، ﴿وَجَعَلَنِي﴾، ﴿وَأَوْصَنِي﴾ باعتبار ما سيكون، إخباراً عما قدره الله تعالى له، فهو في حكم الواقع المحقق لأنه سيقع بإذن الله^(٢).

﴿ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

أي أوصاه بها حين يقدر على القيام بها، والصلاة والزكاة لا تجب إلا بعد البلوغ، وإن كانت تصح قبل ذلك، فأوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة وحقوق عباده التي من أجلها الزكاة، مدة حياتي في هذه الدنيا أي فأنا ممثل لوصية ربي، عامل عليها منفذ لها.

وفي ذلك إشارة إلى أن التكليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حياً عاقلاً وفي ذلك رد على بعض المتصوفة، الذين يقولون بسقوط التكليف عن العبد عند بلوغه درجة معينة .

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدِي ﴾: أي جعلني المولى عز وجل باراً بأبي، رقيقاً بها، محسناً إليها، وفي ذلك بيان لنزاهتها وبرائها من افتراء اليهود عليها، واستحقاقها للبر والإحسان، وردُّ على ما جاء في الأناجيل من ادعاء جفوته وغلظته في معاملتها وتنكره لها ونفوره منها^(٣).

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي ولم يجعلني متجبراً متكبراً على الحق والخلق بل جعلني براً رحيماً عطوفاً كريماً متواضعاً للحق، مطيعاً لأوامر الله عز وجل .

(١) يراجع غرائب القرآن للنيسابوري ١٦ / ٥٣ والتفسير الكبير للرازي ٢١ / ٢١٤، ٢١٥ .

(٢) يراجع فتح القدير للشوكاني ٣ / ٣٢١ . ويراجع ما ذكره الطبري في جامع البيان ١٦ / ٨ . وابن كثير في تفسيره ٣ / ١١٩ وابن الجوزي في زاد المسير ٥ / ٢٢٩ وقال الإمام الألوسي: « والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما في القضاء المحتوم أو بجعل ما في شرف الوقوع لا محالة كالذي وقع » روح المعاني للألوسي ١٦ / ٨٩ .

(٣) يراجع كتاب المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢ / ٦٦٣ : ٦٦٦ .

وبهذه الصفات التي تحلى بها عيسى عليه السلام استحق السعادة في الدنيا والآخرة واستحق السلام من المولى عز وجل في الدنيا والآخرة .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٣٣)

ومروره بهذه الأطوار، وتقلبه في هذه الأدوار ميلاد ثم ممات ثم بعث: دليل على حدوثه وبشريته، فالإله لا يتغير ولا يتحول، والإله الحق لا يفتقر لغيره، ولا يحتاج إلى من سواه.

تعقيب على القصة

ضلال النصارى في شأن عيسى عليه السلام

قال تعالى ﴿ ذَلِكْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

طوى السياق القرآني موقف قومها من هذه الآية القاطعة والحجة الساطعة، وأشارت الآية الكريمة إلى اختلاف اليهود والنصارى في حقيقة عيسى: فاليهود كذبوه واستهانوا به، واتهموا أمه بما هي بريئة منه رغم ثبوت براءتها وظهور نزاهتها، وحسن سيرتها والنصارى غالوا فيه وادعوا ربوبيته وألوهيته.

﴿ ذَلِكْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (٣٤) : هذه قصة عيسى عليه السلام قد

عرضها القرآن الكريم عرضاً واضحاً فهو عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، قضى الله تعالى أن يولد من غير أب ليكون آية للناس وجعله الله رحمةً وهدى، أبعد هذا القول الحق لا يزال هناك من يمترى في شأنه بل ويفترى على الله الكذب بدعوى أن عيسى ابن الله ! ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٣٥) فالله تعالى

منزّه عن اتخاذ الولد؛ إذ اتخاذ الولد افتقار إليه، والله هو الواحد الصمد، الغني فلا يفتقر إلى أحد، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾: تقريراً لربوبيته تعالى وحده ودعوة إلى توحيده تعالى بالعبادة، فهذا هو الصراط المستقيم والسّنن القويم.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾: اختلف اليهود والنصارى في شأن عيسى عليه السلام؛ وما ذلك إلا بسبب الجهل والتقليد الأعمى واتباع الهوى والتعصب للباطل، والإعراض عن الحق، مما دفعهم إلى الاختلاف في شأن المسيح عليه السلام بين جفاء وإطراء، وتفریط وإفراط، أما اليهود فقد افتروا عليه ونالوا منه، وأما النصارى فقد ضلوا فيه ضلالاً بعيداً، وغالوا فيه غلواً شديداً، فجعلوه لله نداً وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فاليهود والنصارى على طرفي نقيض، ومع ذلك فكل متعصب لباطله متحزب له. فالويل لهم من أهوال يوم القيامة ومشاهدها العظام حين يفصل بينهم.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾: ما أبصرهم وأسمعهم في ذلك اليوم العصيب! بعد أن صموا في الدنيا آذانهم وعموا أبصارهم وأهملوا عقولهم واتبعوا أهواءهم، فالיום يسمعون ما يخلع قلوبهم ويبصرون ما يروهم، بعد أن كانوا في دنياهم الخاسرة في غفلة وحيرة ونسيان.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أنذرهم بيوم تتابع الحسرات التي لا جدوى لها بعد أن قضى الأمر، لكنهم في غفلة وإعراض عن هذا اليوم العصيب، فلا يؤمنون ولا يراعون مع جلاء الآيات وكثرة النذر.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٌ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ فَيَذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ: خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ

النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٩) ﴿ (١) .
 ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (٤٠) : فالملك اليوم خالص لله لا ينازعه فيه أحد، ولا معقب لحكمه ولا مرد إلا له وليس لله تعالى وارث فهو تعالى الذي يرث ولا يورث وهذا رد على ادعاء النصارى أن المسيح ابن الله؛ إذ الولد يرث أباه ويصبح امتدادا له، والله تعالى هو الحي الباقي وهو الوارث.

المناسبة بين قصة مريم وعيسى عليه السلام ومحور السورة

هذه القصة ارتباطها الوثيق بمحور السورة الكريمة، حيث تبين لنا شمول رحمة الله لمريم وابنها، وكمال عبوديتها لله تعالى، وفيها رد صريح على ما ادعاه النصارى، فهو عبد الله ورسوله وليس ابن الله كما يزعمون.

الهدايات المستنبطة من القصة

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ (١٦) أقول: هذه الأمثلة الرائعة والناذج المضيئة في تاريخ الإنسانية جديرة بأن تذكر محاسنها وتنشر مآثرها ليتأسى بها الصالحون ويتنفع بسيرتها الدعاة والمصلحون.

* ومن المستفاد من هذه القصة: أهمية الخلوة للعابد والداعية والمري والمصلح فهي رياضة للنفس وسمو بالروح وشحن للهمة وشفاء للقلب وزيادة قرب من المولى عز وجل .

لستُ أخلو لغفلةٍ وسكونٍ وفرارٍ من الورى وارتياحٍ
 إنما خلوتى لفكرٍ وذكرٍ هي زادي وعُدَّتِي لكفاحي

* دلت هذه القصة على عفاف مريم وورعها وحشمتها وحجابها، وتقواها لله عز وجل وخلوتها للعبادة والتفكير وحسن أدبها وبلاغتها وسرعة بديتها حين فوجئت بمن دخل

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ } حديث ٤٣٦١، وصحيح مسلم كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء. حديث ٧٣٦٠.

عليها خلوتها وامتثالها لأمر الله وبقينها بوعدده.

* في القصة: فائدة حول حكم تمنى الموت: ولقد نهى رسول الله ﷺ عن تمنى الموت عند حدوث مكروه ونزول ضرر .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ (لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرَهُ إِلَّا خَيْرًا)^(١).

وروى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا يَتَمَنَّى أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لُضْرٍ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًّا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَخِينِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي)^(٢).

ويجوز الدعاء بطلب الموت عند وقوع الفتن واشتداد المحن، وخوف المؤمن على نفسه من الافتتان، ومن ذلك أيضا ما يتعرض له المسلم في بعض المجتمعات من الاضطهاد والتعذيب والمساومات التي لا طاقة له بها ففي مسند الإمام أحمد من حديث معاذ رضي الله عنه وفيه يقول ﷺ في دعائه المأثور (... وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ)^(٣).

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به - صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٨ ورواه الإمام أحمد في مسنده، الفتح الرباني كتاب الجنائز - باب كراهة تمنى الموت ٧ / ٤٤، ٤٥ .

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب الدعاء بالموت والحياة حديث ٦٣٥١ فتح الباري ١١ / ١٥٤ . ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به - صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٧، ورواه الإمام أحمد في مسنده كتاب الجنائز باب كراهة تمنى الموت وفضل طول العمر مع حسن العمل الفتح الرباني ٧ / ٤٣، ٤٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد / أبواب الدعاء، باب ما جاء في أدعية كان يدعو بها النبي ﷺ الفتح الرباني ١٤ / ٢٨٣ =

فوائد الرطب للنساء

وفي أكل مريم عليها السلام من الرطب إشارة إلى ما أثبتته الطب من أهمية الرطب للمرأة، النساء حيث أثبتت الأبحاث العلمية أن الرطب يحتوي على مادة تقوي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة للحمل، فتساعد على الولادة من جهة كما تقلل كمية نزف الدم الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى، ويحتوي الرطب على نسب عالية من السكريات السهلة الهضم والامتصاص مثل سكر الجلوكوز، ومن المعروف أن هذه السكريات هي مصدر الطاقة الأساسي وهي الغذاء المفضل للعضلات، وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بدور كبير أثناء الولادة، وإذا كان علماء التوليد يقدمون للحامل في حالة المخاض الماء والسكر: فإن الآية الكريمة قد نصت على إعطاء السوائل ﴿فَكُلِّي وَأَشْرَبِي﴾، كما أن الرطب يخفض ضغط الدم عند الحوامل فترة ليست طويلة، ثم يعود لطبيعته، وبانخفاض ضغط الدم تقل كمية الدم النازفة، والرطب أيضاً من المواد المليئة للقولون ومن المعلوم طبياً أن المليينات النباتية تفيد في تسهيل وتأمين عملية الولادة^(١)، قال تعالى ﴿وَرُزِقَ وَنَحَلِ طَلْعَهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨] أي سهل التناول والهضم.

* فائدة حول الصمت: ﴿فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، التزمت مريم بالصمت؛ حتى تفسح المجال لمن هو أفضل منها وأبلغ منها ليثبت لقومها طهارتها ونزاهتها وعفتها . ولقد بلغ قومها من السفاهة مبلغاً عظيماً حتى رموها وهي الطاهرة العفيفة بها هي بريئة

=ورواه الترمذي في السنن أبواب التفسير، تفسير سورة ص ٣٤٣/٥ حديث ٣٢٣٥ وقال هذا حديث

حسن صحيح وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٩٧/٣، ٩٨ حديث ٢٥٨.

(١) يراجع في هذا الموضوع: «الطب النبوي» لابن القيم ص ٢٤. وهو يتحدث عن الرطب وفوائده ويذكر من ضمنها فوائده في حالة المخاض، ويراجع: «مع الطب في القرآن الكريم» تأليف د. عبد الحميد دياب، د. أحمد قرقر ص ٢٨، ٢٩.

منه، ومع ذلك فإنها امتنعت عن الكلام، وفي ذلك إشارة إلى الإعراض عن السفهاء وعدم مجاراتهم في سفههم .

قال الإمام الشافعي

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تَجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السَّكُوتُ
سَكَتٌ عَنِ السَّفِيهِ فَظَنَّ أَنِّي عَيَّتُ عَنِ الْجَوَابِ وَمَا عَيَّتُ (١)

حكم نذر الصمت في شريعتنا: لا يجوز نذر الصمت في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس .

ففي صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيَّنَّا النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَنْظِلَ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مُرُّهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَنْظِلْ وَلْيَقْعُدْ وَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ» (٢).

* قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾: أبلغ ردُّ على ما ارتكبه النصارى في حملاتهم الصليبية من فظائع وجرائم باسم المسيح كما يزعمون حتى قال أمير الشعراء متهمًا ومنكرًا:

يا حامل الآلام عن هذا الوري كثرْتُ عليك باسمِكَ الآلامُ !

وهذا بناء على ما يعتقدُه النصارى من أن المسيح صُلبَ فداءً للبشرية وتكفيراً عن خطيئة آدم، وهذا اعتقاد باطل فالمسيح ﷺ لم يصلب وآدم لما أكل من الشجرة تاب فتاب الله عليه واصطفاه واجتباها وهذه (٣).

(١) ديوان الإمام الشافعي / راجعه وعلق عليه د. محمد زهدي يكن ص ٤٩

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب النذور والإيمان - باب النذر فيما لا يملك وفي معصية حديث ٦٣٢٦ فتح الباري ١١ / ٥٩٤ . ويراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ٩٨ وجامع البيان للطبري ٣٣٢ / ٨، والتفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي ١٦ / ٧٧

(٣) يراجع كتاب المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ١ / ١٢٣ : ١٣٥ .

-٣-

رحمته تعالى بإبراهيم عليه السلام

﴿وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لِمَ تَتَّبِعُهُمْ لَازِمًا وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا ٤٦ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧ وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ٥٠﴾ [مريم: ٤١ - ٥٠]

المناسبة

بعد الحديث عن زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ومريم الصديقة وابنها عيسى عليهم السلام، وبيان رحمة الله تعالى بهم وتفضله عليهم وكمال عبوديتهم لله تعالى: يأتي الحديث عن أبي الأنبياء و خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فهو جدير بأن يذكر لما اتسم به من كريم الشرائع وعظيم الفضائل، فهو صديق صدق مع الله ومع الناس وكان صادقا في سره وعلنه، وفيما بعده ووعده، ومن كمال عبوديته وصدقه في دعوته وأدائه لرسالته: دعوته لأبيه وتأدبه معه وبره به مع بقائه على كفره وإصراره على ضلاله، وفي إيراد قصته ردُّ على النصارى وغيرهم من المشركين ممن يدعي إتياع إبراهيم عليه السلام، فإن كانوا صادقين في محبته واتباعه والانتساب إليه فهذه هي دعوته التي دعا بها وابتلي بسببها، دعوة التوحيد.

قال أبو حيان في البحر المحيط: «ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر قصة مريم وابنها عيسى واختلاف الأحزاب فيها وعبادتهما من دون الله، وكانا من قبيل من قامت بهما الحياة

ذكر الفريق الضال الذي عبد جماداً والفريقان وإن اشتركا في الضلال، والفريق العابد الجهاد أضل ثم ذكر قصة إبراهيم مع أبيه عليه السلام تذكيراً للعرب بما كان إبراهيم عليه من توحيد الله وتبيين أنهم سالكو غير طريقه، وفيه صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به وأن ذلك متلقى بالوحي^(١).

التفسير الإجمالي

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٤١ ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ ﴾

إن أول ما يستوقفنا في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها لإقناع أبيه، حيث حاكمه إلى مقدمات مسلّمة، وثابت لا مجال لإنكارها، وذلك من باب النصح والإرشاد النابع من قلب صادق وعاطفة رقيقة وعقل راجح: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾: فهذا الحوار جدير بأن يذكر ليقتبس منه الدعاة والمصلحون منهجاً للدعوة والحوار.

﴿ يَا أَبَتِ ﴾: نادى عليه بعاطفة قوية نابغة من فطرة نقية، فالابن البار دائم الحرص على والده، والإشفاق على حاله ومآله، ومن ثمّ كان هذا النداء الرقيق ﴿ يَا أَبَتِ ﴾: ليفتح قلب أبيه ويرقق مشاعره.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ ﴾

ما الذي يرغمك على عبادة أحجار لا تسمع ولا تبصر؟ وكيف تتوجه لها بالدعاء وتتضرع لها وتقدم لها القرابين، مع أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تغني عنك شيئاً؟ فالأصل في العبادة أن تكون موجهة لذي الكمال والجلال، أمّا أن تعبد أصناماً ناقصة في

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ١٩١.

ذاتها وفي أفعالها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تملك لعابدها نفعا ولا ضرا، بل لا تملك لأنفسها شيئا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا ينم عن جهلٍ وبيِّن عن سَفَهٍ.

ولقد بدأ عليه السلام حوارَه بأسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى التعجب والإنكار، وهذا أسلوبٌ لطيفٌ، يحمل المحاورَ المخالفَ على التفكير، وإعادة النظر في الأمر، للوصول إلى الحق بنفسه، حتى لا يشعر بأنه أفحِمٌ وُهِيت، فتأخذه العزة بالإثم، ويمتنع عن قبول الحق انتصاراً للنفس، ولو بالباطل.

﴿ يَتَأْتِبِ إِيَّيَّ قَدْ جَاءَ فِي مِرِّ الْعَلِيمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ : أراد أن يلفت نظر أبيه إلى أن الحوار الهادف الذي بدأه معه لا بد وأن ينبي على العلم حتى يصل إلى نتائج صحيحة؛ فالعلم هو الذي يهدي إلى الحق ويصِّر بالنور، وأنه عليه السلام لما كان على علم، صار جديراً بأن يُتبع، وهذا من تأدبه وترفقه بأبيه فلم يصرح له بجهله وإنما عبَّر بهذا الأسلوب الذي يحقق المطلوب، دون أن يجرح مشاعر أبيه وينفره من دعوة الحق.

﴿ يَتَأْتِبِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾ يَتَأْتِبِ إِيَّيَّ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ .

فكل من سلك طريق الغواية والضلال فهو عابِدٌ للشيطانِ ووليٌّ له، والشركُ من وسوسةِ الشيطانِ وتزيينه.

ثم يختم كلامه بتحذيره من سخط الله وعذابه فيرافق الشيطان في جهنم كما وافقه في الدنيا، فحذره وأنذره من عذاب الرحمن مع مرافقة أهل الكفر والعصيان في النيران.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنَّا الْهَتَى يَنزِلُهُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرِي مَلِيًّا ۝٤٦﴾

مع هذا اللطف في الدعوة والترفق في المحاورَة من إبراهيم عليه السلام، فقد قابله أبوه بالإنكار والتفريع والعنف والتهديد الشديد بالرجم وطلب منه أن يهجره.

فالعجب من هذا الأب الكافر الذي يقابل هذه الدعوة الطيبة والأسلوب الهادئ بالتهديد

والوعد إنه منطوق الكفر حين تعييه الحجج ويعجز عن مقابلة البرهان بالبرهان.

لكن إبراهيم عليه السلام يقابل هذه الغلظة والجفوة برقة وحنان ورفق ولين، فيقول ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧ ﴾: قابل الهجر والخصام، باللين والسلام، ووعدته بأن يستغفر له ربه الذي تعود منه الحفاوة والإكرام.

فهو سبحانه البرُّ اللطيفُ: والمراد أنه يستجيب لي إذا دعوته لأنه عودني الإجابة لدعائي وهو بذلك يرغب أباه ويحببه في هذا الرب الكريم ويعرفه به.

﴿ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ آلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ ﴾ أعلن البراء مما عليه أبوه وقومه واعتزلهم، مع رجائه وحرصه في توبتهم، فوهبه الله تعالى ذرية طيبةً وجعل النبوة والكتاب فيهم.

﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠ ﴾.

﴿ عَسَىٰ آلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ ﴾

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه؛ فهذا إبراهيم يعتزل قومه ويتنصر للحق على حساب العاطفة والمصلحة، فيعوضه الله تعالى بأهله وعشيرته ذرية طيبة، ويجعل النبوة فيهم ﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ ﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾: وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الطيبة، الذين كثر فيهم الأنبياء والصالحون.

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾: فذكرهم في الخافقين يتردد على ألسنة الناس، والثناء

عليهم ومحبتهم نبضُ القلوب، وحديثُ الألسنة، فهم أئمة الهدى وأعلام الحق، ولا تزال ذكراهم في سائر العصور تتجدد، وهذا أيضا من الرحمة التي وهبها الله لهم عليهم السلام.

المناسبة بين قصة إبراهيم عليه السلام ومحور السورة

لهذه القصة اتساقها وانتظامها مع محور السورة الكريمة حيث تبينُ لنا شمولَ رحمةِ الله لإبراهيم عليه السلام، وكمال عبوديته لله تعالى، ودعوته إلى إفراد الله تعالى بالعبادة وتجريد التوحيد من كل شوائب الشرك.

الهدايات المستنبطة.

* في وصف إبراهيم عليه السلام بالصدقية قبل وصفه بالنبوة: إشارة إلى أن الصدق سجية فيه وأنه كسائر الأنبياء عليهم السلام عُرفوا بين الناس بالصدق قبل بعثتهم، كما كان نبينا ﷺ يدعى قبل بعثته بالصادق الأمين، فاستقامة الداعية وحسن سيرته أدعى إلى قبول دعوته وثقة الناس فيه.

* لطف الخطاب، وأدب الحوار مع المخالف، فرغم عظم المخالفة وجلاء الحق وزيف الباطل، إلا أن هذا لا يمنع من الحوار حول هذه القضية المحسومة؛ فالحوار هو وسيلة الإقناع.

* «يبدأ إبراهيم عليه السلام خطابه لأبيه بلين وأدب جميل، واستعطاف يبدوه بنداء الأبوة ﴿يَنَابِتِ﴾ يستثير بهذا النداء أبوته الحانية، ويحرك مشاعره الراكدة، يلامس بهذا شغاف قلبه، ليس هذا فقط، بل يكرر هذا النداء المؤثر أربع مرات مع كل خطاب لأبيه، إن لم تؤثر الأولى فعسى أن تؤثر الأخرى»^(١).

* من فنون الحوار التي تعين على نجاحه: براعة الاستهلال وحسن الختام، وهذه الفنون

(١) الحوار في قصص إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم دروس ودلالات، إعداد أ. د. محمد بن عبد الرحمن الشايح، مؤتمر: الحوار في الفكر الإسلامي ١٤٢٨ هـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة - ص ٥.

تتجلى في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه ^(١).

* تدرج إبراهيم عليه السلام في الحوار حيث بدأ بالاستفهام الإنكاري ﴿يَتَأْتِيَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾.

ثم بالتقرير الخبري ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلُوِّ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ^(٤٢).

ثم بالنهي الصريح ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ^(٤٤).

ثم بالترهيب ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ^(٤٥).

وذلك لما يعلمه من تشبث أبيه بالشرك وإصراره عليه.

* ومع التدرج في الحوار: نلمس التنوع في العرض، فمرة يكشف له عن زيف معتقده، وأخرى يقرر له العقيدة الصحيحة، وثالثة يحذره من كيد الشيطان، ورابعة يحذره من غضب الرحمن وعذابه.

* تكرر اسم الله الرحمن في هذا الحوار، وذلك ليحمل إبراهيم عليه السلام أباه على التفكير والنظر في هذا الإله الرحيم الذي يمهل، ولو شاء الله لعجل بعقاب الكفرة لكنه تعالى يرزقهم ويحفظهم إمهالاً لهم، وأنه تعالى لا يعذب إلا من يستوجب العذاب، وأن الذي يطيعه تعالى يدخل في رحمته.

* استحباب متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج مع مقابلة إساءته بلطف وإحسان كما فعل إبراهيم عليه السلام حين أنهى الحوار مع أبيه بالسلام.

* ومن أدبه عليه السلام: اختياره كلمة الاعتزال في مقابل تعبير أبيه بالهجر، فالهجر أشد من الاعتزال إذ الاعتزال يعني الابتعاد وعدم المشاركة والموافقة في الرأي مع تكرار المحاولة إذا سنحت الفرصة أما الهجر فيحمل معنى القطيعة والجفاء.

(١) يراجع بحث الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام لأحمد الشرقاوي، مؤتمر: الحوار في الفكر الإسلامي

١٤٢٨ هـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة.

-٤-

رحمة الله تعالى

بموسى وهارون واسماعيل وادريس عليهم السلام

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذِيئَتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحًا ﴿٥٨﴾﴾ مريم: ٥١ - ٥٨

المناسبة

كما امتنَّ اللهُ تعالى على زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وتعهدهم برحمته، كذلك امتن الله تعالى على موسى وهارون وإسماعيل وادريس وغيرهم ممن هداهم الله واجتباهم وآثرهم واصطفاهم، فبلغوا أسمى مقامات العبودية.

التفسير الإجمالي

رحمته تعالى بموسى وهارون عليهما السلام

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذِيئَتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

جاء ذكر موسى متناسباً مع السياق؛ لأنه من ذرية يعقوب عليه السلام، وهو من أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن؛ لما انطوت عليه قصته من دروس وعبر وفوائد لا حصر لها، ولما اتسم به من كريم الخصال، وفي مقدمتها إخلاصه لله تعالى، وقيامه بواجبات النبوة ومهام الرسالة على أتم وجه من تبليغ وأداء وتطبيق.

ولصاحب الأساس لفظة لطيفة تبين سر ذكر موسى في هذا السياق، يقول رحمه الله: «وفي ذكر موسى في هذا السياق تذكيرٌ برسالته، وأنه من سلسلة الرسل المبشرين والمنذرين وتذكير بشأنه وحاله، فقد كان يدعو إلى عبادة الله وحده، وهو شيء يعرفه العام والخاص من بني إسرائيل وغيرهم، فكيف يزعم من يزعم أن الله ولدا هو عيسى فيعبده، إن التذكير بموسى وبصفاته في هذا السياق تعريضٌ بمن ينتسب إليه، ولا يوحد الله كما وحده كأن يجعل المسيح ابناً لله، وموسى لا يعلم ذلك ولا يعرفه ولا يدعو إليه»^(١)، كما في ذكر موسى ﷺ ثم ذكر إسماعيل بعد ذلك إشارة إلى ما أعطاه الله لنبيه إبراهيم من ذرية صالحة.

ومن سمو قدره ورفعة مقامه أن ناداه ربه نداء حب وإكرام من بقعة مباركة ﴿ وَنَدَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ حيث قدسية المكان، ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ اصطفاه الله تعالى واجتباه وأذناه وناجاه.

والنجي بمعنى المناجي كالجليس والنديم، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ، مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾^(٥٢)

من الله على أخيه هارون بالنبوة ليشد به أزره ويشاركه في هم الدعوة؛ تفضلاً منه تعالى ورحمة.

وكان موسى ﷺ قد سأل ربه أن يشد أزره بأخيه قال تعالى ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ﴾^(٣٠) أشدّ به أزرى^(٣١) وأشركه في أمرى^(٣٢) كي تسحك كثيراً^(٣٣) وتذكرك كثيراً^(٣٤) إنك كنت بنا بصيراً^(٣٥) قال قد أوتيت سؤلَكَ يَمْوَسِي^(٣٦) [طه: ٢٩ - ٣٦]، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعَةً في الدنيا أعظم من شفاعَةِ موسى في هارون أن يكون نبياً قال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ، مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾^(٥٢)^(١).

(١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٦/ ٣٢٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٢٦.

رحمته تعالى بإسما عيل ﷺ

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ اذكره في الكتاب الخالد: تشریفاً وتكريماً، وإعظاماً وإجلالاً، وتقديراً وإكباراً، وتأسياً واعتباراً.

﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، فكان صادق الوعد مع ربه ومع الناس، وقد تجلت هذه الخلة الكريمة في أبهى صورها حين استجاب لأمر الله تعالى وامتلأ لأبيه بصبر وثبات.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩١﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿٩١﴾ فَأَمَّا بَلْعٌ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يُبْتِئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَا بَتِ أَعْمَلُ مَا تُوْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا بَرَهَيْمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُمِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات: ٩٩ - ١٠٧].

﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ جمع الله له بين مقام النبوة والرسالة تشریفاً وتكريماً، فأدى مهام الرسالة وواجبات النبوة على أتم وجه، وكان أسوة حسنة وقدوة طيبة في سائر أحواله.

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

كان حريصاً على صلاح أهله واستقامتهم على منهج الله يتفقد أحوالهم، ويتعهدهم بالنصح والإرشاد، ويأمرهم برعاية حقوق الله وحقوق العباد، فكان من جملة ما يدعوهم إليه ويرغبهم فيه المحافظة على الصلاة وهي حق لله تعالى، وإيتاء الزكاة وهي من جملة حقوق العباد، فإن من بذل ماله للفقير ووفاه حقه المعلوم في ماله لخليق بأن يتحرى الحلال الطيب وجدير برضائه.

﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾: وكان هذا أشرف خصاله وأجل صفاته؛ فإن من تحلى بمكارم

الأخلاق وفي مقدمتها الصدق والوفاء، ومن أدى رسالته في هذا الوجود على أتم وجه، ومن صدق مع الله تعالى ومع الناس، ووافق ظاهره باطنه واستوت أفعاله بأقواله، وأدى حق الله ووفى بحقوق العباد: لجديراً بأن يحظى برضا ربه، ومن أَرْضَى رَبَّهُ فحَقُّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرْضِيَهُ.

قال الله تعالى ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال تعالى عن جزاء المؤمنين الصادقين ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: ٨].

رحمته تعالى بإدريس عليه السلام

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [٥٦] وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

ومن يستحق الذكر؛ تكريماً له وتنويهاً على شرفه وفضله ولفناً إلى محاسنه واستجلاباً لمآثره نبي الله إدريس عليه السلام، فلقد ضرب أروع الأمثلة في الصدق حتى بلغ منازل الصديقين لتحريره الصدق ومداومته عليه، فضلاً عن مقام النبوة، وهي أعظم المواهب الربانية وأسمى المراتب الإنسانية ولقد قام بحققها، فاستحقَّ الدرجات العلى.

فاستحقَّ الذكرَ والتكريمَ في القرآن الكريم، على لسان أفضل الرسل وخير الأمم.

وفي صحيح مسلم بسنده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه رجل من قومه قال: قال نبيُّ الله ﷺ (ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا قَالَ: جِبْرِيْلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفَتَحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيْسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ﴿٥٧﴾ (١).

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الإيذان باب الإسراء برسول الله ﷺ السهوات وفرض الصلوات - حديث ١٦٢ - (٢٥٩). ورواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس (١٢٥٢٧)، ورواه أبو يعلى الموصلي في =

من تمام رحمته وكمال إنعامه على أنبيائه وأصفيائه

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾

* «لما أفرد سبحانه كلَّ رسول من رسله العشرة الذين سبق ذكرهم في هذه السورة بالثناء عليه بما هو جدير به، أعقبه بذكر بعض ما جازاهم به من النعم، فقد هداهم إلى سبيل الخير واصطفاهم من سائر خلقه»^(١).

* بعد أن نثر في هذه السورة الكريمة ذكر هؤلاء الأنبياء الكرام عليهم السلام، نظم في ذلك العقد الفريد تلك الدرر البهية، لتزداد وهي مجتمعة منتظمة حسنا ورونقا، وروعةً وتألقا وتبين عن المعدن النفيس والأصل الطاهر الذي تفرَّعت منه تلك الشجرة العريقة المباركة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾: أولئك الذين ورد التنويه بذكرهم تشريفا وتكريما وإبرازا لمحاسنهم ونشرا لمناقبهم، فهم نجوم الهدى ومصايحج الدجى وأعلام الحق، هم الذين أنعم الله عليهم واصطفاهم بالنبوة من ذرية آدم ومن نجاهم الله مع نوح ومن ذرية إبراهيم وابنه إسرائيل (يعقوب عليه السلام) ومن هداهم الله وطهرهم واجتباهم وأثرهم، وحبأهم بخير المواهب ورفعهم إلى أسمى المراتب، فهم خيار من خيار، ومن كريم خلاهم ودليل صدقهم: حسن تدبرهم وتأثرهم بكلام الله تعالى، حين يتلى عليهم فتراهم سجداً وبكياً، خشوعاً وخضوعاً وهيبةً وإجلالاً لمقام ربهم وعظمة كتابه الذي يرقق القلوب ويسمو بالأرواح ويغذي العقول.

والآية تشير إلى أن الأنبياء جميعاً قاموا لله تعالى بالعبودية وكذلك المسيح عبد الله ورسوله كان لله قانتاً خاشعاً، فكيف يدعي النصراني أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

= مسنده ٥ / ٢٩٣، وقال محققه حسين سليم أسد: «قال: إسناده صحيح».

(١) حقائق الروح والريحان في رواي علوم القرآن للشيخ محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهجري

الشافعي ١٦٩/١٧.

«وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ دلالة على أن نزول آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة وعلمهم من الجهالة»^(١) ..

المناسبة بين محور السورة وهذا المقطع

بينت هذه الآيات الكريمة رحمة الله تعالى بأولئك الأنبياء وكمال عبوديتهم لله تعالى.

الهدايات المستنبطة

* العبودية هي طريق القرب من الله، وسبب رحمته وإنعامه وتفضله وإكرامه، وطريق السعادة الأبدية.
* فضيلة الإخلاص والصدق في القول والعمل والوعد، وأثرهما في صلاح وارتقاء النفس والمجتمع.

* وجوب تعهد الأهل بالنصح والإرشاد وتفقد أحوالهم مع الله ومع الناس، فلقد امتدح الله تعالى إسماعيل عليه السلام بحرصه ومداومته على تعهد أهله وأمرهم بالصلاة وهي حق الله والزكاة وهي حق المستحقين من العباد، ولقد أوصى الله تعالى بدعوة الأهل وإصلاحهم ونصحهم وإرشادهم: قال تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ [التحریم: ٦] أي: قوا أنفسكم بأعمالكم وقوا أهليكم بتعهدكم لهم ونصحكم، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ)^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٩٦.

(٢) حديث صحيح: رواه أبو داود في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الصلاة باب قيام الليل =

* التلازم بين الصلاة والزكاة فالصلاة حق الله تعالى والزكاة حق العباد، وفي الوفاء بحق الله تعالى وحق العباد تحصيل رضا الله تعالى.

* التلازم بين خشوع الجوارح وخشوع القلب لله تعالى، فبقدر تحقيق العبودية لله تعالى ظاهراً وباطناً، بقدر ما يزيد العبد إجلالاً وتعظيماً للرب سبحانه.

- ٥ -

طريق النجاة

﴿ خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا فِي بُكْرَةٍ وَعَاشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم: ٥٩ - ٦٥

المناسبة

بعد أن ذكر رحمته بأبنيائه وأصفيائه عقب ذلك بمن حُرِّموا من هذه الرحمات ممن اختاروا طريق الشقاء وضيعوا الفرائض والواجبات واتبعوا الشهوات، فبين تعالى عاقبة انحرافهم عن

= (١٣٠٨). حديث ٩٣٠، وابن ماجه في السنن كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل حديث ١٣٣٦، وأحمد في مسنده (٧٤٠٤)، ٤٣٦، وابن خزيمة في صحيحه في إقامة الصلاة باب ما جاء فيمن أيقظ أهله ليلاً ١٨٣/٢ حديث ١١٤٨ وقال محققه الشيخ محمد مصطفى الأعظمي: «إسناده صحيح»، ورواه ابن حبان في صحيحه حديث ٦٤٦ - والحاكم في المستدرک ١/٣٠٩ صلاة التطوع وقال صحيح على شرط مسلم.

منهج النبيين وسَنَنِهِمُ القويم، وأن مصيرهم إلى التيه والخسران، ثم بيّن تعالى طريق النجاة الذي يتمثل في التوبة الناصحة والإيمان الخالص والعمل الصالح، ويشر من سلك هذا الطريق بالرحمة والغفران، والفوز بالجنان، دار القرار والسلامة من جميع الأكدار، ولما كان أساس هذا الطريق ونبراسه هو الوحي، ناسب ذلك الحديث عن تنزلات الملائكة، وأنه لا يكون إلا بأمر وتدبير من الله تعالى، ومن معالم طريق النجاة العقيدة الصحيحة المتمثلة في إفراده تعالى بالربوبية، والعبادة الخالصة التي تحتاج إلى صبرٍ وأناة.

التفسير الإجمالي

المحرومون!

﴿ خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن ذكر رحمته بأنبيائه وأصفياه: عقب ذلك بمن حُرِّموا من هذه الرحمات ممن اختاروا طريق الشقاء وضيعوا الفرائض والواجبات واتبعوا الشهوات.

﴿ خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾: نكبو عن نهج أسلافهم فأضاعوا الصلاة: تركوها بالكلية أو أهملوها وقصروا فيها، ﴿ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ﴾: انساقوا وراءها، وانغمسوا في مستنقعاتها، فألهتهم عن ذكر الله وجرأتهم على محارم الله، فاستباحوا المحرمات إشباعاً للملذات وإتباعاً للشهوات، ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾: أي خسارةً وشرأً، وضلالاً وحيرةً، فعن عبد الله بن عمرو: وإد في جهنم، وعن عبد الله بن مسعود: نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر^(١).

باب التوبة مفتوح

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَيْشًا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم ٦-٦٣].

(١) تفسير ابن كثير ٢٤٥/٥.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: يفتح الله تعالى لعباده باب التوبة، ويرشدهم إلى طريق الإيمان والصلاح، الذي يُنجي من العذاب الأليم، ويُفْضِي إلى النعيم المقيم، بعدلِهِ تعالى ورحمته وفضله وكرمه.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾: لا يُتَخَسَّرُونَ من جزاء أعمالهم الصالحة شيئاً، ولا يُجْمَعُ بينهم وبين الذين هلكوا.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا فِي بُرُوعٍ وَعِشْيًا ﴿١٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾

تلك الجنان التي وعد الرحمن بها عباده المؤمنين فأمنوا بها دون أن يروها، فوعد الله صادق وآت، ومن تمام المنة في الجنة أنهم لا يسمعون فيها لغواً، أي فضول القول وقبيح الكلام؛ إذ الجنة دارُ السلامة من كل المنغصات.

والسمع وسيلة للإمتاع، وذلك بتبادل التحية والسلام وسماع المبررات، والتلذذ بسماع كلام الرحمن، ومطارحة الأحاديث مع الإخوان، والتمتع والأنس بالأصوات الشجية مع أعذب الألحان من الحور الحسان، في جنة الرحمن.

فهم أضيافه في كلِّ وقتٍ ومن يكُ ضيفه أمسى هنياً
ومن يكُ ضيفه يسعد ويغنم وكان لضيفه ربِّي حفيًّا

﴿وَلَهُمْ فِيهَا بُرُوعٌ وَعِشْيًا﴾ وهم رزقهم فيها بالغدو والرواح.

«قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عشية، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء»^(١).

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٣٤٠، ٣٤١.

ورثة الجنان:

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ (٦٣)

فهي دار المتقين ومنازل العابدين، ورثوها بصالح أعمالهم، ونزلوها بفضل ربهم. فمن شاء الوراثة فالطريق معروف: التوبة والإيمان والعمل الصالح، أما وراثة النسب فلا تجدي إن لم يكتنفها عمل صالح، فقد ورث قوم نسب أولئك الأتقياء من النبيين ومن هدى الله واجتبي؛ ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فلم تنفعهم وراثة النسب.

تنزل الملائكة بأمر الله

﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾

﴿ (٦١) ﴾

سبب النزول

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَجَبْرِيلَ «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» قَالَ فَتَزَلَّتْ ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (٦١) الآية (١)

المناسبة

من وجوه المناسبة بين هذه الآية الكريمة وبين ما قبلها:

* لما جاء الحديث عن الجنة مشوقاً لها بين الطريق المؤدية إليها وهي إتباع الوحي فناسب ذلك بيان أن نزول الملائكة لا يكون إلا بأمر من الله تعالى.

* لما ذكر هذه القصص العجيبة المشوقة التي ينتزل بها أمين الوحي جبريل فتقع على قلب النبي ﷺ برداً وسلاماً وتسليّةً وتسريةً وأنساً وإمتاعاً، مما هيّج أشواقه إلى نزول القرآن بالمزيد

(١) نفس المرجع ٣ / ٣٤١، ٣٤٢.

من هذه القصص المشوّقة والأخبار التي تثبت فؤاده، فتعجل نزول الوحي بها، وأبدى حرصه على أن يكثر من زيارته ليعلم النبي ﷺ المزيد والمزيد ويزداد يقيناً وتشبهاً.

ومن وجوه المناسبة: والله أعلم: أنه لما ذكر في أول السورة نزول جبريل الطيّب إلى مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٩﴾﴾ بين هنا أن الملائكة أجمعين لا تنزل إلا بأمر من الله تعالى وتقدير.

التفسير الإجمالي

وما تنزل الملائكة الكرام إلا بأمر الله تعالى فهو تعالى العليم بهم، المدبر لأحوالهم، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لا يقع منه نسيان.

قال القشيري رحمه الله: «إن الملائكة - عليهم السلام - أبداً يَنْزِلُونَ بِإِذْنِ الْحَقِّ تَعَالَى فبعضهم بإنجاد المظلومين، وبعضهم بإغاثة الملهوفين، وبعضهم بتدمير الجاحدين، وبعضهم بنصرة المؤمنين، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين. والله - سبحانه - لا يترك جاحداً ولا عابداً من حفظٍ وإنعامٍ، أو إمهالٍ ونكالٍ...»^(١).

وقال النسفي رحمه الله: «... فلا تتمالك أن تنتقل من مكان إلى مكان إلا بأمر الملك ومشيتته، فهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث من الأحوال لا تجوز عليه الغفلة والنسيان فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه»^(٢).

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾: فهو الخالق المالك المدبر لا رب غيره ولا معبود سواه ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ فالعبادة تحتاج إلى صبرٍ وأناةٍ، وعزمٍ وثباتٍ.

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٤٥٢.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٤٠.

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾: فلا نظير له ولا مثيل، ومن مظاهر تفرده تعالى أنك لا تجد على وجه الأرض ومَرَّ الزمان من تسمى باسم (الله) أو (الرحمن) سواء تعالى.
 فلا سمي له ولا نَدَّ ولا مثيل ولا شبيه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

أو هل تعلم أحداً يستحق كمال الأسماء والصفات ما يستحقه الله تعالى ويتصف به حقيقة؟
 أو هل تعلم اسماً أعظم من هذا الاسم المفرد الذي اختصه الله لنفسه ووصف به ذاته وقدمه على جميع أسمائه، وأضاف أسمائه وصفاته كلها إليه؟ فهو المتصف بصفات الكمال والمجد.

الصلة بين المقطع ومحور السورة

تناسب آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة من حيث بيان سعة رحمة الله تعالى وشمولها، فباب التوبة مفتوح أمام العصاة، ومن رحمته تعالى أن من على عباده المؤمنين بدخول الجنة، بعد أن يسر السبيل إليها بالإيمان والعمل الصالح، ومن رحمته سبحانه إنزال الملائكة بالهدى والرحمة، وحتى ينال الإنسان حظاً عظيماً من هذه الرحمات العاجلة والآجلة فعليه أن يجتهد في العبادة ويصطبر عليها، ولما حُرِّمَ أولئك الخلف حلاوة العبودية ضيعوا الصلاة إذ لم يدركوا غايتها ولم يتذوقوا حلاوتها، ووقعوا في أسر الشهوات وانغمسوا في أوحالها.

الهدايات المستنبطة

- * التلازم بين إضاعة الصلوات والانغماس في الشهوات، فالصلاة ميزانٌ للعبد وعصمة له وسموُّ بروحه وتهذيبٌ لنفسه.
- * من رحمته تعالى بعباده فتح باب التوبة لهم، وإرشادهم إلى طريق الإيمان والصلاح، الذي يُنجي من العذاب الأليم، ويُفضي إلى النعيم المقيم.

* من تمام المنّة في الجنة أنهم لا يسمعون فيها لغواً، أي فضول القول وقبيح الكلام؛ فضلاً عن الصخب والضجيج؛ إذ الجنة دارُ السلامة من كل الأكدار. « وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغي أن يجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن »^(١).

* وراثة الجنة بالإيمان والعمل الصالح، أما وراثة النسب فلا تجدي إن لم يكتنفها عملٌ صالحٌ فقد ورث قومٌ نسب أولئك الأتقياء من النبيين والصدّيقين؛ ولكنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فلم تنفعهم وراثة النسب، كما في حديث نبينا ﷺ: (وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ: لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)^(٢).

* الملائكة خلقٌ من خلق الله تعالى يفعلون ما يؤمرون، ولا يتنزلون إلا بأمر وتدبير من الله تعالى.

-٦-

جولات مع شبه الكافرين وأباطيلهم

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَيْدَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ٦٦ ﴾ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ٦٨ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ٧٠ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ٧١ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَدْرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ٧٢ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِبَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ٧٤ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ٧٥

(١) روح المعاني للألوسي ١٦ / ١١٢.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، حديث ٣٨- (٢٦٩٩).

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ
الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾
كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾
الْقَوْمَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوَزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ
إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَيَخْرُجُ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾
لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مريم: ٦٦ - ٩٥].

المناسبة :

بعد هذا البيان القصصي الذي أبرز لنا معالم الرحمة الربانية وصور لنا مقام العبودية وهو غاية الوجود الإنساني: جاء البيان الحواري متناسقا مع المحور العام للسورة ومع القصص الواردة فيها ومقررا لما جاء فيها بهذا الأسلوب الذي يخاطب القلوب ويجاور العقول ويناجي الوجدان، فعرض شبهة المشركين ودحضها بالحجج والبراهين، وبين تفرده تعالى بالعبادة.

وتبرز صلة هذا المقطع بالمحور العام للسورة: من كون هذا الحوار إنما سيق رحمة من الله تعالى بعباده؛ إذ الهدف منه هدايتهم إلى طريق نجاتهم؛ وذلك بتحقيق الغاية من وجودهم وهي عبادة الله وحده.

وبعد نظرة كلية لهذا المقطع قمت بتقسيمه إلى خمس فقرات تتضمن خمس جولات حوارية مع المشركين تعرض وتفنن شبههم بالحجة والبرهان.

الجولة الأولى

إنكارهم البعث !

قال تعالى ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مَنَعَكَ إِلَّا وَاْرِدْهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

الرد على منكري البعث

ينكر هذا الكافر مصيره ويتناسى أصله وطبيعته، ويتعدى حدوده، ويتجاوز قدره، حين يتجرأ على خالقه، ويبادر إلى إنكار حقيقة جلية، فضلاً عن تنكره لنعم الله عليه وعلى من حوله من كائنات، ولو أمعن فكره وأعمل عقله لما وصل إلى هذه النتائج الخاطئة.

هل فكر في نفسه وحياته كيف خلقه الله ولم يك شيئاً؟ ثم نقله من ضعف إلى قوة؟ ومنحه العقل والإدراك؟

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾

ويح هذا الكاذب المغرور، وويله: حين يحشر مصفداً مع أقرانه من المكذبين الضالين وقد صُفُّوا حول جهنم جثياً على ركبهم في ذلةٍ وصغارٍ، وحسرةٍ وانكسار.

﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾

لنزعن من كل فرقة وطائفة تشايحت على الباطل وتواطأت عليه أشدهم عتواً ونفوراً وظلماً وفجوراً، وهم الكبراء والقادة، فيتقدمون أتباعهم، ويقودونهم إلى جهنم، ثم يسبقونهم إليها، ويطرحون فيها، ليلحق بهم الأتباع والمستضعفون، فتزداد بهم صلياً، أي حرارة وهيباً

وإحراقاً وضيقاً.

كما قال سبحانه عن حال أهل النار حين يقتحمونها أفواجا متتابعة: ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ مِنْهُمُ النَّارُ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْشُرُونَ فَدَمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسِّرْ لَنَا الْقَصَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ [ص: ٥٩ - ٦١].

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ فترتيب دخولهم النار وفق حساب دقيق يرجع إلى قدر جرمهم الفاضح، وعذابهم فيها يتفاوت بتفاوت عملهم الطالح.

المرور على الصراط

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَحْنُ الَّذِينَ أَنْقَوْنَا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

الورود: هو المرور على الصراط، وهو جسرٌ ممدودٌ على ظهر جهنم: يمرُّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر، فينجي الله المتقين، ويتساقط أهل الضلال، تنزلق أقدامهم أو تتخطفهم الكلابيب، لتلقي بهم في النار.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (... فَيُضْرَبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمْتِهِ وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيْبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا نَعَمْ قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمَتِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرَدُ ثُمَّ يَنْجُو... (١).

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كتاب صلاة باب: فضل السجود، حديث ٧٧٣، ورواه مسلم في صحيحه عنه كتاب الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية - حديث ٢٩٩ - (١٨٢).

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (...)
 وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوْلُكُم كَالْبَرْقِ، قَالَ قُلْتُ
 بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَ الْبَرْقِ؟ قَالَ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ،
 ثُمَّ كَمَرَ الرِّيحُ ثُمَّ كَمَرَ الطَّيْرُ وَشَدَّ الرَّجَالُ، نَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيَّتُكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ، يَقُولُ:
 رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا، قَالَ وَفِي
 حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِيبٌ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ
 وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ: إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا^(١).

الجولة الثانية

النظرة المادية القاصرة والموازن المقلوبة

﴿ وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا
 ﴿٧٣﴾ وَكِرَاهِلِكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَ تَدْعُهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا
 حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾
 وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْتِنتُ الضَّلِيلِنتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ مريم:
 ٧٣ - ٧٦.

إلى جانب إنكار أولئك الكفرة ليوم البعث مع ظهور علاماته وجلاء آياته، فكذلك دأبهم
 مع آيات الله البينات، لا ينتفعون ولا يتأثرون بها حين تتلى عليهم، بل يتعمدون الانصراف إلى
 التفاخر بالحسب والمال.

قال القرطبي: « وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين، وإيهامهم أن من كثر ماله دل

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها حديث
 ٣٢٩ - (١٩٥). قال النووي رحمه الله: « أما (شَدَّ الرَّجَالُ) فَهُوَ بِالْجِيمِ جَمْعُ رَجُلٍ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ
 الْمَعْرُوفُ الْمَشْهُورُ، وَنَقَلَ الْقَاضِي أَنَّهُ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاهَانَ بِالْحَاءِ. قَالَ الْقَاضِي وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى
 وَشَدَّهَا عَدُوهَا الْبَالِغُ وَجَرَّيَهَا.. صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٧٢.

ذلك على أنه المحق في دينه، وكأنهم لم يروا فيهم فقيراً ولا في المسلمين غنياً ولم يعلموا أن الله تعالى نحى أوليائه عن الاغترار بالدنيا وفرط الميل إليها^(١).

﴿ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ (٧٣)

بدلاً من أن تُثيرَ شجونهم، وترقَّ قلوبهم فيخرون لله سجداً وبكياً، تراهم يزيدون عتواً ونفوراً واستعلاءً وغروراً، وعلامة ذلك قولهم: أيُّ الفريقين خير مقاماً أي أعظم منزلة وأحسن ندياً أي مجلساً ومنتدى، تفاخروا بمجالسهم ونوادبهم التي كانوا يجتمعون فيها للتشاور في أمورهم، والتفاخر فيما بينهم والتسامر حتى غدوا يتباهون بتلك المجالس وزينتها وأثاثها وأضوائها وروادها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَهْلَكَمَّا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴾ (٧٤) أي من أمة أو جيل أو جماعة هم أحسن أثناً الأثاث متاع البيت وهو من أهبي صور الزينة، وفيه يتنافس أهل التفاخر والتباهي، ﴿ وَرِيًّا ﴾ أي منظراً وهيئة، لكن ليست العبرة بالأثاث الفاخر أو الجمال الظاهر.

يقول صاحب الظلال: «إنها النوادي الفخمة والمجامع المترفة؛ والقيم التي يتعامل بها الكبراء والمترفون في عصور الفساد، وإلى جانبها تلك المجتمعات المتواضعة المظهر والامتديات الفقيرة إلا من الإيوان، لا أبهة ولا زينة، ولا زخرف، ولا فخامة.. هذه وتلك تتقابلان في هذه الأرض وتجتمعان!

وتقف الأولى بمغرياتها الفخمة الضخمة: تقف بإها وجاها، بسلطانها وجاهها، بالمصالح تحققها، والمغانم توفرها، وباللذائذ والمتاع، وتقف الثانية بمظهرها الفقير المتواضع، تهزأ بالمال والمتاع، وتسخر من الجاه والسلطان؛ وتدعو الناس إليها، لا باسم لذة تحققها، ولا مصلحة توفرها، ولا قربى من حاكم ولا اعتزاز بذي سلطان، ولكن باسم العقيدة تقدمها إليهم مجردة

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ١٤١، ١٤٢.

من كل زخرف، عاطلة من كل زينة، معتزة بعزة الله دون سواه.. لا بل تقدمها إليهم ومعها المشقة والجهد والجهاد، لا تملك أن تأجرهم على ذلك كله شيئاً في هذه الأرض، إنما هو القرب من الله، وجزاؤه الأوفى يوم الحساب.^(١)

استدراج وإمهال!

قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَقَّقَ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ۝٧٥ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ۝٧٦ ﴾.

من كان سادراً في غيّه غارقاً في ضلاله: أبقاه الله على ضلاله بل زاده ضلالاً وأمد له في العطاء استدراجاً له، كما قال سبحانه ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ لِيَزِدَّاؤُهُمْ إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٣٨ ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال سبحانه ﴿ لَا يَغْرَبْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١٣٦ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُبْسَ الْهَاهُنَا ۝١٣٧ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧].

﴿ حَقَّقَ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾.

أمد لهم وأرجأهم: حتى إذا انكشف الغطاء وتبدت أمامهم الحقائق وحل بهم العذاب: فسيعلمون عندئذ ولكن حين لا ينفع العلم ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ أي يعلمون حقارتهم ومهانتهم، ويدركون ضعفهم وهوانهم.

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ۝٧٦ ﴾

لما ذكر تعالى أنه يمد للظالمين في ضلالهم بين سبحانه أنه يثبت المؤمنين على الهدى ويزيدهم في النصره وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم، ففي مقابل المد

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٨.

لأهل الضلال وإملاهم، يزيد الله المهتدين هداية فيزدادون هداية على هداية، ويمضون قدماً على هذا الطريق، ويرتقون معالي رتبة ومدارج منازلهم، « والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً أخرى، لا تدخل تحت كسبه»^(١).

﴿وَالْبَلِيغَتُ الصَّالِحَةُ﴾ كلُّ كَلِمٍ طَيِّبٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾: أي في ميزانه العادل ﴿ثَوَابًا﴾ أي مثوبة في الدنيا وفي الآخرة ﴿مَرَدًّا﴾ أي عاقبة ومرجعاً.

الجولة الثالثة

غرورٌ وعجبٌ!

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا ﴿٨٠﴾﴾.

سبب النزول: عَنْ حَبَابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَنْقَاضًا، فَقَالَ لِي لَا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، قَالَ: قُلْتُ: لَنْ أَكْفُرَ بِهِ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ وَإِنِّي لَمُبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ! فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتَ إِلَى مَالٍ وَوَلَدٍ قَالَ فَتَزَلْتُ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا ﴿٨٠﴾﴾^(٢).

بعد أن بين تعالى ما عليه المشركون من انقلاب الموازين واختلاط المفاهيم وانتكاس

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٩٩.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير باب: قوله عز وجل: ﴿وَنَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ سورة مريم، حديث ٤٤٥٨ ورواه الإمام أحمد في المسند (١١١/٤).

القيم، وذَكَرَ تعالى بجملةٍ من سننهِ الثابتةِ، وأقداره النافذة: أورد مثلاً لمن اغترَّ بنعم الله عليه وإمهاله، فأحسن الظنَّ مع سوء عمله وفساد معتقده، ثم هو يطمع في المزيد؟ فيقول مقولةً الواثق المغرور بالأمانى الكاذبة والسراب الخادع: ﴿لَأُوتِينَكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فهل اطلع الغيب فعلم بذلك علم اليقين؟ أم اتخذ عند الرحمن عهداً؟ وهذا الاستفهام على جهة الإنكار إذ لا سبيل له إلى معرفة الغيب، ولا كرامة له حتى ينال وعداً بدخول الجنة، فالجنة لا يدخلها بكفره وافترائه، وصدده عن سبيل الله.

﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾: سنحفظُ عليه قوله ونسجِّله عليه، لنجازيَه به في الآخرة،

عذاباً مديداً مضاعفاً.

﴿وَنَرِثُهُ، مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ (٨٠): يجرِّد من ماله الذي ينتقل لورثته ويخرج من دنياه صفر اليدين، فلا يدوم متاعه بأولاده وَحَشِمِهِ وَخَدَمِهِ وَقَوْمِهِ، بل يعودُ إلينا منفرداً عنهم، وقيل: معنى قوله: ﴿وَنَرِثُهُ، مَا يَقُولُ﴾ أي: نحفظ ما يقول حتى نجازيه به، وقيل: نرثه ما يقول أنه له في الجنة، فنجعل له غيره من المسلمين، فنجعل ما يتمنى من الجنة لغيره^(١).

﴿وَيَأْتِنَا﴾ على فقره ومسكته ﴿فردًا﴾ من المال والولد، «لم نؤته متمناه، فيجتمع عليه الخطبان: تبعة قوله ووباله، وفقد المطموع فيه»^(٢).

الجزء الرابع

ماذا وراء هذه الأباطيل والأوهام؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تُوْزِعُهُمْ آرَآءًا﴾ (٨٣) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا

(١) يراجع: البحر المحيط ٦ / ٢١٤ ويراجع: معالم التنزيل للبخاري ٥ / ٢٥٤ وزاد المسير لابن الجوزي ٥ / ٢٦١.

(٢) الكشاف للزخشري ٤ / ١١٤.

نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ .

جاءت الجولة الرابعة تفنّد عبادتهم للآلهة مع كونها لا تنصّر ولا تنفع، فكما يتعللون بالأمانى الكاذبة، ويتعلقون بالأعراض الفانية، فإنهم يتعزّزون بالآلهة التي اتخذوها من دون الله، يطلبون بها القوة والمنعة، بل يدعون أنها تقرّبهم إلى الله زلفى.

وهذا من عجيب صنيعهم وغريب أمرهم! ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ حين يعاينون العذاب فيكفرون بهم ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾: يتبرؤون من عبادتهم وينقلبون عليهم.

كما قال تعالى ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يَنْبِتُكُمْ مِثْلَ خَيْرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يَنْبِتُكُمْ مِثْلَ خَيْرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يَنْبِتُكُمْ مِثْلَ خَيْرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

ثم بين سبحانه أن هناك ما يدفع الكفار إلى التمرد والعصيان والجحود والنكران ويغريهم بشتى الوسوس والإغراءات، فقال تعالى ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يَنْبِتُكُمْ مِثْلَ خَيْرٍ ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ٨٣ - ٨٧].

تهيّجهم وتستفزهم وتغريهم بفتن الشهوات وتحركهم بالإغواء والإضلال وتقودهم وتستحوذ عليهم بسلاح الوسوس والشبهات وتزعجهم وتهيجهم بالهواجس والتسويل، فتزين لهم الأباطيل وتدفعهم إلى معصية الجليل.

قال صاحب اللطائف: «... فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغمّة، وخاطر الحق يكون

بِرَفُوحٍ وَسَكِينَةٍ»^(١).

وفي الآية الكريمة بيانٌ لسببٍ من أسباب صدود المشركين وإعراضهم عن الحق، وعدائهم لأهله؛ باستجابتهم لوساوس الشياطين ووقوعهم في شركهم.

وفي هذا تسليّةٌ للنبي ﷺ وللمؤمنين ببيان أسباب صدود المشركين وإعراضهم، والدافع وراء مقولاتهم الباطلة وأمانهم الكاذبة، وتحذيرٌ للمشركين من هذا الانقياد الأعمى والانسياق المهين وراء الشياطين.

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ (٨٤) نعدُّ عليهم أنفاسهم ونحصى أعمالهم «الأنفاس في الحكم معدودة؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها، وإذا انتهى الأجلُ فلا تنفع بعد ذلك الحيلُ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل»^(٢).

وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقراها فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفذ، كما قيل:

إن الحبيبَ من الأحبابِ مختلسُ
وكيف يفرحُ بالدينا ولذتها
لا يمنع الموتَ بوابٌ ولا حرسُ
فتى يُعدُّ عليه اللفظُ والنفسُ^(٣)

ثم بين تعالى مشهد المتقين وهم يُزفون إلى الرحمن في مقابل مشهد المجرمين الذين يساقون إلى جهنم كما تساق الأنعام، فقال تعالى ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا﴾ (٨٥): يُحْشَرُ المتقون بهذه الهيئة الحسنة، كما تُفدُ الوفود على الملوك تبجيلاً لهم، وتفخيماً لموكبهم، وتساق إليهم البشائر وتقدم لهم الهدايا والجوائز، فهم وفود إلى الرحمن، ومن شأن الوفود أن يُحتفى بهم، ويُقابلون بالتهاني والبشائر، ويُتْحَفُونَ بالجوائز والمكرّمات، ويتألون الهدايا والمثوبات فقد

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٤٦٨

(٢) نفس المرجع ٤ / ٤٦٩

(٣) بهجة المجالس لابن عبد البر ١ / ١٨٨.

وَفَدُّوا عَلَى أَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ، وَقَدِّمُوا عَلَى الرَّحْمَنِ إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ، فَهَمَّ فِي ضِيَاةِ الرَّحْمَنِ.

وفي مقابل هذه الصورة التي تتشوق العيون لرؤيتها وتستنشق النفوس عيبرها نرى في المقابل مشهداً مروّعاً وموكباً مفرعاً، مشهد المجرمين وقد صفدوا بالسلاسل والأغلال وانحنت الظهور وثاقلت الخُطى، وهم يُساقون إلى جهنم كما تُساق الأنعام العطشى إلى موارد الماء ﴿ وَسُقُّوا الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا ۝٨١ ﴾ وإنما يُساقون بهذه الصورة المهينة؛ ازدراءً لهم، ونكالاً بهم.

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝٨٧ ﴾

لا يملك أحد في هذا اليوم شفاعة فهي لله تعالى وحده، يمنحها لمن يشاء ويرضى، كما قال سبحانه ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى ﴿ وَكَرَّمْنَا مَلَكًا فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۝٦١ ﴾ [النجم: ٢٦].

وقال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۝١١٩ ﴾ [طه: ١٠٩].

الجولة الخامسة

دعوى باطلة ومقولة شنيعة

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِرُّ لِبَيْالٍ هَذَا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝٩٥ ﴾

جاءت الجولة الخامسة لتدفع مقولة ظالمة ودعوى كاذبة، دعوى بعض طوائف المشركين وعلى رأسهم النصارى أن لله ولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ ﴾: منكرًا عظيمًا وأمرًا فظيعاً.

قال الراغب: «الإد المنكر فيه جلبة من قولهم: أدت الناقة تئد أي رجعت حينها ترجيعاً شديداً»^(١).

وقال الألوسي: «وفي هذا ردٌ لمقاتلهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب النبئ عن كمال السخط وشدّة الغضب المُفصِح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة»^(٢).

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝١٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝١١ ﴾: تكاد السموات حين تسمع من يردد هذا القول المنكر العجيب أن تتشقق غيظاً وتساقط غضبا، وتنشق الأرض من هول هذا القول وثقله وبشاعته، وتخِر الجبال فتتهوي كما يهوي البناء الشاهق غضبا لله وغيره.

« قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَقَدْ كَادَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَنْ يُقِيمُوا عَلَيْنَا السَّاعَةَ بِقَوْلِهِمْ هَذَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝١٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝١١ ﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝١٢ ﴾، وَصَدَقَ، فَإِنَّهُ قَوْلٌ عَظِيمٌ»^(٣).

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝١٢ ﴾: نفى سبحانه عن نفسه الولد، فالله تعالى هو الغني الباقي، وإنما يفتقر الناس إلى الولد ليكون لهم سنداً وعضداً وذخراً وذكرًا، يحمل اسمهم، ويرحم ضعفهم، ويخلد ذكركم، ويواصل مسيرتهم، ويعقبهم ويرث أموالهم، فضلا عن الحاجة الفطرية للولد لإشباع عاطفة الأبوة، وإرواء عاطفة الأمومة.

أما الخالق جلا وعلا: فهو الغني فلا يفتقر إلى أحد، وهو الملك فكل ما سواه مملوك، وهو الحي الذي لا يموت، وهو الوارث الباقي، وهو الأول والآخر، تعالى ربنا وتقدس»^(٤).

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني باب الألف مع الدال ص ١٤.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٦ / ١٣٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣ / ١٢٤١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١ / ١٥٨ ويراجع لباب التأويل للخازن ٤ / ٣٦٣.

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكْتُمُ شَيْءًا عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وفي التعبير باسم الله (الرحمن) في هذا المقام: إشارة إلى صبره تعالى على أذاهم وإمهاله لهم لعلمهم يرجعون، ويتوبون عن هذا القول الشنيع.

وفي الصحيح: عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيْسَ أَحَدٌ أَوْ لَيْسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلِدًا وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ) (١).

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنَ عَبْدًا ﴿١٣﴾ ﴾ فكلهم عبيد لله تعالى ومن لم يقرَّ بعبوديته لله تعالى وحده في الدنيا فسوف يقرُّ ويشهد حين يرى العذاب وتنقطع الأسباب، ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ ﴾ أي أحاط بهم وجمعهم وعدهم عداءً، ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ ﴾ أي واحداً متجرداً لا ينفعه إلا ما قدم.

كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٤]

فائدة لطيفة: قال النسفي رحمه الله: « وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان أنه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، لأن أصول النعم وفروعها منه فليتكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك غطاؤه، فمن أضاف إليه ولدًا فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن» (٢).

(١) الحديث: رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب الصبر على الأذى حديث ٥٧٤٨، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل، رقم: ٢٨٠٤.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٤٧.

الهدايا المستنبطة

* البعث حقيقة لا مرأى فيها، فينبغي على العاقل أن يستعد له ويتأهب لما يتبعه من حساب وميزان وصراط.

* الصراط: جسر ممدود على ظهر جهنم: يمرُّ به المؤمن والكافر، فينجي الله الأتقياء، ويتساقط الأشقياء، فما أحوج كل عاقل إلا أن يتذكر هذا اليوم ويتزود له: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَمَّا ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَتْ ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ مِيزَانُهُ أَوْ يَتَّقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنَبُ﴾ [الحاقة: ١٩]، حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَوْ يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصَّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْنِ جَهَنَّمَ^(١)

* ليست العبرة بكثرة الأموال والبنين أو بالمجالس العامرة والأثاث الفاخرة، فكلها من أعراض الدنيا التي لا بقاء لها، وإنما العبرة بتقوى الله تعالى والانتفاع بآياته.

* من عجيب أمر الكفار موقفهم الغريب من آيات الله؛ إذ بدلاً أن من تُثير شجونهم وترقُّ قلوبهم فيخرون لله سجداً وبكياً كما أخبر تعالى عن عباده المصطفين من الأنبياء والصديقين تراهم يزيدون عتواً ونفورا واستعلاءً وغروراً.

* من كان ماضياً في غيِّه، غارقاً في ضلاله: أبقاه الله على ضلاله بل زاده ضلالاً وأمدَّ له في العطاء استدراجاً له.

(١) رواه أبو داود في سننه عَنْ عَائِشَةَ كِتَابِ السَّنَةِ بَابِ فِي ذِكْرِ الْمِيزَانِ حَدِيثَ ٤٧٥٥، وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ ١٠١/٦، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ إِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ لَوْلَا إِرسَالُ فِيهِ بَيْنَ الْحَسَنِ وَعَائِشَةَ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ صَحَّتِ الرَّوَايَاتُ أَنَّ الْحَسْنَ كَانَ يَدْخُلُ وَهُوَ صَبِيٌّ مِنْزِلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأُمِّ سَلْمَةَ » وَأَقْرَهُ الذَّهَبِيُّ. الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحِينَ لِلْحَاكِمِ ٤ / ٦٢٢، وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي الْمَغْنِيِّ حَدِيثَ ٤٤٦٩ « وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ ».

- * في مقابل المد لأهل الضلال وإملائهم يزيد الله المهتدين هداية فيزدادون هداية على هداية، ويمضون قُدماً على هذا الطريق ويرتقون معالي رتبه ومدارج منازلهم.
- * بينَ تعالى ما عليه المشركون من انقلاب الموازين واختلاط المفاهيم وانتكاس القيم، وذكرَ تعالى بجُملةٍ من سننهِ الثابتة، وأقداره النافذة.
- * من أسباب صدود المشركين وإعراضهم عن الحق، وعدائهم لأهله؛ باستجابتهم لوساوس الشياطين ووقوعهم في شر اكهم.
- * المتقون يوم القيامة وفودٌ إلى الرحمن، ومن شأن الوفود أن يُحتفى بهم، ويقابلون بالتهاني والبشائر، ويُتحفون بالجوائز والمكرّمات، وينالون الهدايا والثوبات، فقد وفدوا على أكرم الأكرمين، وقدموا على الرحمن إخواناً متحابين، فهم في ظلال الرحمن وفي ضيافة خالق الأكوان.
- * من المشاهد المروعة يوم القيامة، مشهد المجرمين وقد صفدوا بالسلاسل والأغلال وانحنت الظهور وتناقلت الخطى، وهم يساقون إلى جهنم كما تساق الأنعام العطشى إلى موارد الماء ازدراء لهم ونكالاً بهم.
- * لا يملك أحد في هذا اليوم شفاعة فهي لله تعالى وحده، يمنحها لمن يشاء ويرضى، كما قال سبحانه ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
- * نفى سبحانه عن نفسه الولد، فالله تعالى هو الغني الباقي، وإنما يفتقر الناس إلى الولد ليكون لهم سنداً وعضداً وذخراً وذكرأً، يحمل اسمهم ويخلد ذكرهم ويواصل مسيرتهم ويحلُّ مكانهم ويرث أموالهم.
- * من لم يقرَّ بعبوديته لله تعالى وحده في الدنيا اختياراً، فسوف يقرُّ ويشهد حين يرى العذاب وتنقطع الأسباب إجباراً.

ختم السورة الكريمة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝١٦ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ
لِبَلْسَانِكَ لِيُنَبِّشَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ۖ وَنُذِرْ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۝١٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ
مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝١٨ ﴾

المناسبة

ختمت السورة بما بدأت به من بيان محبة الله تعالى وتكريمه لأوليائه، ثم بيان الحكمة من نزول هذا القرآن وتيسيره وهي البشارة والندارة، وفي نهاية المطاف تطرح تساؤلاً عمّن كانوا ملء الأسماع والأبصار وحديث الليل والنهار وقد صاروا في بطون اللحد؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝١٦ ﴾

مودة في قلوب عباده بإيمانهم وصلاتهم، وفي الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوه فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ)^(١).

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِبَلْسَانِكَ لِيُنَبِّشَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ۖ وَنُذِرْ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۝١٧ ﴾

بيّناه بلسانك العربي وجعلناه سهلاً على من تدبره وتأمله ويسرنا تلاوته وحفظه وفهمه والعمل به والدعوة إليه، ﴿ لِيُنَبِّشَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ۖ وَنُذِرْ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ وينذر كل ألد: أي شديد الخصومة أصم الأذان عند سماع الحق.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝١٨ ﴾

أين من سبقهم إلى دار القرار؟ أين من طوي ذكركم وطمرت آثارهم بعد أن كانوا ملء

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة حديث ٣٠٣٧، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده، رقم: ٢٦٣٧.

الأسماع والأبصار؟ هل بقي منهم أحد؟ فهل ترى لهم من باقية؟ وهل تحس منهم من أحد؟ أو تسمع لهم صوتاً خفياً؟
كما قال قس بن ساعدة الإيادي:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يَمْضِي الْأصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ
لا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ ولا من الباقين غابر
أَيَقْنَتُ أَنْبِيَّ لَا مَحَالَةَ حيث صار القوم صائر^(١)

قال صاحب اللطائف: «أثبتهم وأحياهم، وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم، ثم بعد ذلك - لما شاء - أماتهم وأفناهم، فبادوا بأجمعهم، وهلكوا عن آخرهم، فلا كبير منهم ولا صغير، ولا جليل ولا حقير، وسيطالبون - يوم النشور - بالنقير والقطمير»^(٢).

﴿ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾: « صوتاً خفياً، أي لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يُرى ولا صوت يسمع، يعني هلكوا كلهم، فكذا هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم»^(٣).

قال صاحب الظلال: « وتَحْتَمُّ السُّورَةُ بِمَشْهَدٍ يَتَأَمَّلُهُ الْقَلْبُ طَوِيلًا؛ وَيَرْتَعِشُ لَهُ الْوَجْدَانُ طَوِيلًا؛ وَلَا يَنْتَهِي الْخِيَالُ مِنْ اسْتِعْرَاضِهِ ﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿١٧﴾، وهو مشهد يبدؤك بالرجة المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق كأنها يأخذ بك إلى وادي الردى، ويقفك على مصارع القرون؛ وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد

(١) الأغاني للأصفهاني ١٥/٢٣٧.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٤ / ٤٧٧.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ / ٤٩.

يجده البصر، يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدب وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح، والأمانى والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع.. ثم إذا الصمت يخيم، والموت يجثم، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار، لا نامة. لا حس. لا حركة. لا صوت.. ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ انظر وتلفت ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ تسمع وأنصت، ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب. وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت^(١).

الهدايات المستنبطة من خاتمة السورة

- * محبة الله تعالى وتكريمه لأوليائه، ونشرُ حبههم وودهم بين العباد.
- * الحكمة من نزول هذا القرآن وتيسيره: البشارة والندارة وما يتعلق بهما من بيان.
- * تحتتم السورة بسؤال يلفت الأنظار ويثير الانتباه ويذكرُ بمن طوي ذكرهم وطمرت آثارهم بعد أن كانوا ملء الأسماع والأبصار؟ هل بقي منهم أحد؟ وهل تحس منهم من أحد؟ أو تسمع لهم ولو صوتاً خفياً؟

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٢٢، والنامة الصوت نأم الرجل يئنم وينأم نئياً وهو كالأنين، وقيل هو الصوت الضعيف الخفي أياً كان، يراجع لسان العرب ١٢ / ٥٦٧ مادة (ن أ م).

سورة طه

المبحث الأول: بين يدي السورة:

أولاً: اسم السورة:

الاسم التوقيفي للسورة: اسم السورة التوقيفي هو «طه» لما دلت عليه الأحاديث والآثار التي ستأتي -قريباً- في مبحث فضل السورة، وهو الاسم الذي أطلق عليها في المصحف، وبه بدئت السورة، وهو من الأحرف المقطعة، وقد جاءت تسمية بعض السور بها بدئت به من أحرف التهجي مثل: «يس» «ص» و«ق».

الاسم الاجتهادي: ذكر السيوطي في الإتقان عن كتاب «جمال القراء» للسخاوي أنها تسمى سورة «الكليم»، وعن كتاب الكامل^(١) للهنلي أنها تسمى سورة «موسى»، ثم علق عليه بقوله: «وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر».

علاقة الاسمين بالسورة:

أما اسم «الكليم» أو «موسى» فعلاقته بالسورة جليلة لأن قصة موسى عليه السلام قد بسطت في هذه السورة، فقد تناولت السورة أحداثاً تتعلق بموسى عليه السلام من ميلاده إلى خروجه مهاجراً إلى مدين فاراً من بطش فرعون وملئه، ثم عودته، وتكليفه بالذهاب إلى فرعون، والمواجهة بينه وبين السحرة، ثم نصر الله له، وخروجه ببني إسرائيل، وإهلاك فرعون وجنده، وما تحلل ذلك من فتنة السامري لهم بإخراج العجل، وعبادة قومه للعجل، وموقف موسى من عباد العجل وصانعه.

^(٢) وأما تسميتها بـ«طه» فإن له صلة بالسورة إذا أخذنا في الاعتبار ترجيح بعض العلماء

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/١٥٧، وينظر: روح المعاني، للألوسي: ١٦/١٤٧، والتحرير والتنوير: ١٦/١٧٩.

(٢) رجح ذلك الإمام الطبري، وصححه القرطبي، وجوزه الشوكاني. ينظر: جامع البيان، =

بأن حرفي «طه» معنى النداء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ورد في لسان العرب أنهما بمعنى «يارجل» أو «ياحبيبي» بما دلت عليه الشواهد من استعمالهم، وعلى هذا فإن الحرفين هما نداء بصيغة الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تكرر الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا في هذه السورة^(١)، كما كثر فيها -أيضا- الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومهمته في تذكير الناس بالقرآن، وعن القرآن المنزل إليه، وما قصه عليه من قصتي موسى وآدم، ثم ختمت بتوجيهات للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً: فضل السورة.

وردت أحاديث وآثار في فضل سورة طه، نوردتها فيما يلي:

١- عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله عز وجل قرأ طه وياسين قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة نزلت عليها هذا، طوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا»^(٢).

= للطبري: ١٦/١٣٥-١٣٦، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/١٦٦، وفتح القدير، للشوكاني: ٣/٣٥٥، ٣٥٦.

(١) اقرأ إن شئت: قوله تعالى: ﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ ٢ ﴾ ﴿ وَإِنْ مَجْهَرٌ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَلْبِسَ وَأَخْفَى ﴿ ٧ ﴾ ﴾ ﴿ وَهَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثَ مُوسَى ﴿ ١ ﴾ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿ ١١ ﴾ ﴾ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ ﴿ وَلَا تَعَجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ﴿ وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِمْ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿ ١٣ ﴾ ﴾ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا مِّنْ رَّبُّكَ ﴾ ﴿ قُلْ كُلُّ مُرْتَبِعٍ ﴾.

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان: ٦/٢٣٥، وذكره أبو المظفر السمعاني بنحو هذا، تفسيره: ٣/٣١٨، وأخرجه الدارمي في مسنده: ٢/٥٤٧، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة طه ويس، برقم: ٣٤١٤، وفيه «... قبل أن يخلق الله السموات والأرض بألف عام»، والطبراني في الأوسط: ٥/١٣٤، والبيهقي في الشعب: ٢/٤٧٧، باب ذكر سورة بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء، وفي الأسماء والصفات: ٢٣٢، وابن عدي في الكامل في الضعفاء: ١/٢١٦.

وهذا الحديث ضعيف لأن مداره على إبراهيم بن المهاجر وشيخه عمر بن حفص بن ذكوان، وكلاهما تكلم فيهما^(١).

٢- عن زياد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا يس وطه»^(٢).

= وينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/١٦٤، وعزاه ابن كثير إلى محمد بن إسحاق وابن خزيمة في كتاب التوحيد، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور: ٥/٥٤٨، إلى الديلمي، والعقيلي في الضعفاء، وهو فيه: ١/٦٦.

(١) قال ابن كثير: «هذا حديث غريب وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما» تفسيره ٥/٢٢٥٦، وعزا الشوكاني هذا القول إلى ابن خزيمة. فتح القدير: ٣/٣٥٤، وقال الذهبي: «هذا حديث منكر فابن مهاجر وشيخه ضعيفان» سير أعلام النبلاء: ١٠/٦٩١، ونبه أبو المظفر السمعاني على غرابته. ينظر تفسيره: ٣/٣١٨، وبهذا وقع الاتفاق على ضعفه، وذهب بعضهم إلى اعتباره حديثا موضوعا، إلا ابن حجر رد ذلك بقوله: «وقد زعم ابن حبان أنه موضوع وتبعه ابن الجوزي»، وذلك فيما نقله عنه تلميذه البقاعي في مصاعد النظر: ٢/٢٧٦.

وأما إبراهيم بن المهاجر فقد قال فيه البخاري، وابن حبان «منكر الحديث جدا». كتاب المجروحين: ١/١٠٨، الضعفاء، للعقيلي: ١/٦٦، نقله عن البخاري، وقال يحيى بن معين: «ضعيف». العلل ومعرفة الرجال، لإمام أحمد: ٣/٢٩، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن مهاجر بن مسار وضعفه البخاري بهذا الحديث ووثقه ابن معين» مجمع الزوائد: ٧/٥٦، غير أنه سبق قريبا أن ابن معين ضعفه كما في العلل للإمام أحمد، وقال ابن عدي: «وإبراهيم بن مهاجر لم أجد له حديثا أنكر من حديث قرأ طه ويس» لأنه لم يروه إلا إبراهيم بن مهاجر ولا يروي بهذا الإسناد ولا بغير هذا الإسناد هذا المتن إلا إبراهيم بن مهاجر هذا وباقي أحاديثه صالحة» الكامل في الضعفاء: ١/٢١٦.

وأما عمر بن حفص بن ذكوان فقد قال فيه يحيى بن معين: «ليس بشيء» وقال علي بن المديني: «ليس بثقة». وقال النسائي: «متروك الحديث» وقال الدارقطني: «ضعيف» وقال ابن حبان: «كان يشتري الكتب ويحدث بها من غير سماع»، وقال أحمد: «تركنا حديثه وحررقناه». الكشف الحثيث، لسبط ابن العجمي: ١/١٩٥، المغني في الضعفاء، للذهبي: ٢/٤٦٣، لسان الميزان، لابن حجر: ٤/٢٩٨، والميزان: ٥/٢٢٧.

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره قال: أخبرنا أبو عمرو الفراتي قال أبو نصر منصور بن عبد الله السرخسي عن محمد بن الفضل عن إبراهيم بن يوسف عن المسيب عن زياد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم...=

٣- عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «كل قرآن يوضع على أهل الجنة فلا يقرؤون منه شيئاً إلا طه ويس، فإنهم يقرؤون بهما في الجنة»^(١).

٤- عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي ذكرت فيها البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلاً»^(٢).

٥- عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: اسم الله الأعظم^(٣) الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث: في البقرة، وآل عمران، وطه»^(٤).

= الحديث. الكشف والبيان: ٢٣٥ / ٦، وينظر: تفسير أبي السعود: ٥٢ / ٦، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي: ٧٣ / ٣.

- (١) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه: ٥٤٨ / ٥.
- (٢) أخرجه البغوي في تفسيره: ٢٦١ / ٥، وفي سنده: أبو بكر الهذلي قال فيه ابن حجر: «أخباري متروك الحديث». التقريب: برقم: ٨٠٠٢، وعزاه السيوطي إلى ابن مردويه. الدر المنثور: ٥٤٨ / ٥. وفيه «أعطيت السورة التي ذكرت فيها الأنعام من الذكر الأول وأعطيت طه والطواسيم... الحديث. وأخرجه الحاكم: ٧٥٧ / ١، كتاب فضائل القرآن، باب من قرأ القرآن وتعلمه وعمل بما فيه، عن معقل بن يسار رضي الله عنه، قال البقاعي مستدركا على تصحيح الحاكم: «وليس كما قال، عبيد الله بن أبي حميد ضعيف جدا». مصاعد النظر، للبقاعي: ٢٧٧ / ٢. وتعقب الذهبي الحاكم بقوله: «عبيد الله، قال أحمد: ترك الناس حديثه، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك، وقال دحيم: ضعيف». ميزان الاعتدال، للذهبي: ٥ / ٣، برقم: ٥٣٥٤.
- وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ٢٢٥ / ٢٠، وقال الهيثمي: وله إسنادان في أحدهما عبيد الله بن أبي حميد وقد أجمعوا على ضعفه وفي الآخر عمران القطان ذكره ابن حبان في الثقات: ٢٤٣ / ٧، وضعفه الباقون». مجمع الزوائد: ١٧٠ / ١، وأخرجه البيهقي في الشعب: ٤٨٥ / ٢، وقال: «عبيد الله بن أبي حميد تكلموا فيه». السنن: ٩ / ١٠.

وينظر: الجواهر الحسان، للثعالبي: ٢٨ / ٣، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٨٧ / ١٣.

(٣) والاسم الأعظم هو «الحي القيوم» ينظر: مصاعد النظر، للبقاعي: ٢٧٥ / ٢، ٢٧٦.

(٤) أخرجه ابن ماجة في السنن: ١٢٦٧ / ٢، كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم، برقم: ٣٨٥٦، والحاكم=

- ٦- عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قرأ سورة طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار»^(١).
- ٧- عن عبد الله بن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي^(٢).
- ٨- عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول سورة تعلمت من القرآن كلها بأسرها «طه» فكنت إذا قرأتها عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾^(٣) قال: لا شقيت يا عائشة».
- ٩- عن شهر بن حوشب قال: «يرفع القرآن عن أهل الجنة إلا طه ويس»^(٤).
- ١٠- يقول البقاعي: «ومن أعظم فضائلها أن قراءة أولها كان سببا لإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه».

= في المستدرک: ١/ ٥٠٥، کتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، والطبراني في المعجم الأوسط: ٨/ ١٩٢، ترجمة موسى بن سهل بن عمران الجوني، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن عبد الله بن العلاء إلا الوليد تغرد به هشام»، وذكره البقاعي في مصاعد النظر: ٢/ ٢٧٥.

(١) الكشاف، للزمخشري: ٣/ ١٠٠، تفسير أبي السعود: ٦/ ٥٢. وقال المناوي: «موضوع من حديث أبي بن كعب» الفتح الساوي: ٢/ ٨٢٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة بني إسرائيل الإسرائء، برقم: ٤٤٣١.

والعتاق: جمع عتيق والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيق، يريد تفضيل هذه السور لما تضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتلاد: ما كان قديما من المال يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام لأنها مكية وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن والله أعلم. شعب الإيمان للبيهقي: ٢/ ٣٧٦.

(٣) ذكره القرطبي في التذكار في أفضل الأذكار: ٢٥٠، وعزاه إلى الواثلي، ثم ختمه بقول الواثلي «هذا حديث غريب شامي الطريق حسن».

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن: ١٣٣، من طريق أحمد بن يونس، عن فضيل بن عياض عن هشام، عن العطار، وذكره البقاعي في مصاعد النظر: ٢/ ٢٧٥، وعزاه إلى أبي عبيد في فضائل القرآن، وذكر نحوه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢.

وهو الفاروق الذي كان إسلامه فتحاً أيد الله به هذا الدين ففرق به بين الحق والباطل، فعز به المسلمون فرغب في الإسلام بسبب ذلك من وفقه الله له، وذلك هو عين مقصودها»^(١).

١١- ويكفي في بيان إعزاز الله للمسلمين بإسلام عمر رضي الله عنه أن المسلمين ما كانوا يستطيعون الصلاة عند الكعبة حتى أسلم عمر رضي الله عنه، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب، وقال أيضاً: إن إسلام عمر كان فتحاً وإن هجرته كانت نصراً وإن إمارته كانت رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى صلينا»^(٢).

١٢- وقال صهيب الرومي رضي الله عنه: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقة، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به»^(٣).

١٣- وقال ابن عباس رضي الله عنه: «لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا»^(٤).

ثالثاً: زمان ومكان نزول السورة، وترتيبها بين السور، وعدد آياتها.

أ- زمان نزول السورة

نزلت هذه السورة قبل إسلام عمر رضي الله عنه، وكان إسلامه في سنة خمس من البعثة قبيل الهجرة الأولى إلى الحبشة، فعلى هذا تكون السورة قد نزلت في سنة خمس أو أواخر سنة أربع من البعثة^(٥).

(١) مصاعد النظر، للبقاعي: ٢٧٩/٢.

(٢) ينظر: صحيح البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، برقم: ٣٦٥٠، الطبقات الكبرى: ٣/٢٠٧،

والمعجم الكبير: ٩/١٧٨، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد: ٢١٥.

(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد: ٢١٥.

(٤) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد: ٢١٥.

(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/١٨١.

ب- مكان نزولها:

ذهب جمهور المفسرين إلى أنها كلها مكية ^(١)، وذكر السيوطي ^(٢) أنه استثنى منها قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].

ثم رأى أن يستثنى هو منها قوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ حَيْرٌ وَابْتِغَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠] حديث أبي رافع الذي أخرجه البزار وأبو يعلى ^(٣)،

(١) روي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما. ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٥/٥٤٨، والشوكاني في فتح القدير: ٣/٣٥٤.

وينظر: جامع البيان، للطبري: ١٦/١٣٥، بحر العلوم، للسمرقندي: ٢/٣٨٩، تفسير الوجيز، للواحدي، ٢/٦٩١، تفسير السمعي، لأبي المظفر منصور بن محمد السمعي: ٣/٣١٨، معالم التنزيل، للبغوي: ٣/٢١١، الكشف، للزخشري: ٣/٥١، المحرر الوجيز، لابن عطية: ٤/٣٦، زاد المسير، لابن الجوزي: ٥/٢٦٨، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/١٦٣، الجواهر الحسان، للثعالبي: ٣/٢٣.

(٢) الإتيان: ١/٥٠، ونقله ابن عاشور عنه في تفسيره، إلا أنه لم يرتض قوله في الآية الثانية فقال: «وعندي أنه إن صح حديث أبي رافع فهو من اشتباه التلاوة بالنزول. فلعل النبي ﷺ قرأها متذكرا فظنها أبو رافع نازلة ساعته ولم يكن سمعها قبل، أو أطلق النزول على التلاوة. ولهذا نظائر كثيرة في المرويات في أسباب النزول كما علمته غير مرة. التحرير والتنوير: ١٦/١٨٠. ومع هذا فإن الحديث ضعيف لأن مداره على موسى بن عبيدة بن نسيط بن عمرو بن الحارث الربذي «ضعيف». التقريب: ٥٥٢، برقم: ٦٩٨٩.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير: ١/٣٣١، برقم: ٩٨٩، من طريق الحسين بن إسحاق التستري عن عثمان بن أبي شيبة، عن عبد الله بن نمير، عن موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع.

وأخرجه البزار في مسنده: ٩/٣١٥، برقم: ٣٨٦٣، من طريق عمرو بن علي عن أبي عاصم عن موسى بن عبيدة به. وأخرجه الروياني في مسنده: ١/٤٦٢، برقم: ٦٩٥، من طريق محمد بن بشار عن أبي عاصم به، ١/٤٧٢، من طريق سفيان بن وكيع عن أبيه، عن موسى بن عبيدة الربذي به.

والذي فيه أن أبا رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفا فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقا إلى هلال رجب فقال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض». فلم أخرج من عنده حتى نزلت ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُوكَ رَيْكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ [طه: ١٣١]

ج- ترتيبها بين السور من حيث النزول، ومن حيث موضعها في المصحف.

نزلت هذه السورة بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة، وترتيبها في المصحف بعد مريم وقبل الأنبياء، وهي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب نزول السور، والسورة العشرون في ترتيب المصحف .

د - عدد آياتها: اختلف في عدد آياتها على أقوال:

- ١- ذهب أهل البصرة إلى أن عددها مائة واثنون وثلاثون ^(٢).
- ٢- ذهب أهل المدينة ومكة إلى أن عدد آياتها مائة وأربع وثلاثون آية ^(٣).
- ٣- ذهب أهل الكوفة إلى أن عددها مائة وخمس وثلاثون ^(٤).

(١) ينظر التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٠.

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

(٣) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، وتفسير البيضاوي: ٤/ ٣٨، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٣٥، الكشف والبيان، للثعلبي: ٦/ ٢٣٦، تفسير الوجيز، للواحدي: ٢/ ٦٩١، والكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥١، التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٣، وجمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ١/ ٢٠٧، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي: ٣/ ٤٨، مصاعد النظر، للبقاعي: ٢/ ٢٦٧، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨١.

٤- ذهب أهل الشام إلى أن عددها مائة وأربعون^(١).

خامسا : المحور الذي تدور عليه السورة

إن المحور العام الذي تدور عليه السورة ويجمع بين موضوعاتها: هو رعاية الله للمختارين لحمل الدعوة من الرسل وأتباعهم^(٢)، والرفق بالمدعوين، والعناية بهم^(٣).

وإن المتتبع لهذه السورة يجد في ثناياها عبارات وإشارات تبين مدى عناية الله تعالى بالرسل وأتباعهم من المؤمنين، وبالمدعوين من غير المؤمنين أيضاً.

فأما الرسل فإن الله تعالى اعتنى بهم أكبر عناية حيث رباهم فأحسن تربيتهم، وأدبهم فأحسن تأديبهم، وصنعهم على عينه، فهم صفوته من خلقه ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] خصهم بحمل رسالاته على علم منه سبحانه أنهم لذلك أهلا ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وتتابع عنايته سبحانه بهم فأيدهم بالمعجزات الباهرة تصديقا لهم، وحفظهم من بطش أعدائهم، وعصمهم منهم ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وثبتهم على الحق حتى مكنهم من تبليغ رسالات ربهم، ثم أنهى مواجهتهم مع أقوامهم بالنصر على أعدائهم، والتمكين لدعوتهم، والخذلان لأعدائهم. ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي: ٢٠٧/١، ومصاعد النظر، للبقاعي: ٢٦٧/٢، التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/١٨١.

(٢) أشار سيد قطب رحمه الله تعالى إلى هذا المحور، واعتبر قصة موسى ﷺ نموذجا لذلك. ينظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٣٢٧، ٢٣٢٩.

(٣) يقول البقاعي: «ومقصودها: إعلام الداعي صلى الله عليه وآله وسلم بامهال المدعوين، والترفق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم، زيادة في شرفه صلى الله عليه وآله وسلم». مصاعد النظر، للبقاعي: ٢٧١/٢، نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/٢٥٥.

تُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ [يونس: ١٠٣].

وأما المدعوون فإن الله تعالى قد أولاهم عنايته أيضا، حيث بعث إليهم رسله ليذكروهم ويعظوهم، ويبشروهم وينذروهم، لئلا تكون لهم حجة على الله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥] وأمر أنبياءه باستعمال اللين والرفق في دعوتهم استمالة لقلوبهم، وحرصا على استجابتهم ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥] وهنا في طه: ﴿فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾، وشرع لهم ما يصلحهم في أولاهم وأخراهم، وأغدق عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

وهذه السورة لا يكاد يخلو مقطع من مقاطعها من إشارة إلى هذه العناية وتلك الرعاية، وسأذكر في نهاية كل مقطع العلاقة بين المقطع وهذا المحور التي تدور عليه السورة أثناء التعرض إلى تفسيرها إن شاء الله تعالى.

سادسا: المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

هذه السورة اسمها «طه» وهو الاسم التوقيفي الذي جاء في الأحاديث والآثار، وبيان ارتباطه بمحور السور ينظر إليه من وجهين:

الأول: أنها حرفان من الأحرف المقطعة التي لا يعلم معناها.

الثاني: أنها حرفان لهما معنى في استعمال العرب إذ يراد بهما «يارجل»، أو «يا حبيبي».

فأما على الوجه الأول: فإن جمهور المفسرين يرون أن الحكمة من ورود الحروف المقطعة في أوائل بعض السور هو الدلالة على إعجاز القرآن، وعليه يمكننا القول بأن هذه التسمية في هذه السورة لها علاقة بمحورها، فقد تضمنت السورة جوانب متعددة من العناية بالرسول والمدعوين

بطريق التصريح أو التلميح، كما تكرر التنويه فيها بالقرآن، وتكرر فيها الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، لتكون في بيانها ومضمونها جزء من هذا القرآن المعجز إلى أنواع أخرى من الإعجاز القرآني التي يظهرها الله للبشر متى شاء وكيف شاء عبر القرون والأزمان.

وأما على الوجه الثاني: فإن العلاقة بينة جلية بين اسم السورة ومحورها الذي هو العناية بالدعاة والمدعويين؛ ذلك أن «طه» أول كلمة ابتدئت بها السورة وهي تعني خطاباً لطيفاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ معناها في لسان العرب «يارجل» أو «ياحبيبي»، لتكون تمهيداً لما سيعقبها من ظلال اللطف والعناية في ثنايا آيات السورة سواء فيما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه^(١)، أو فيما يحكيه له ربه من قصص الأنبياء التي تضمنت العناية بالرسول والمدعويين، أو فيما تخلل السورة من بيان رحمة الله تعالى بالبشر حيث أنزل إليهم منهجاً من عنده، من تمسك به سعد ومن أعرض عنه خاب وخسر.

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في آخر السورة أن يقول للمشركين قولاً خاتماً بعد الإنذار والإعذار، فقال له: ﴿ قُلْ كُلُّ مُرْتَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ (١٣٥) «ولقد علموا يقينا ذلك يوم فتح مكة المشرفة، واشتد اغتباطهم بالإسلام، ودخلوا رغبة في الحلم والكرم، ورهبة من السيف والنقم، وكانوا بعد ذلك يعجبون من توقفهم عنه، ونفرتهم منه، وهذا معناه أنه صلى الله عليه وآله وسلم ومن اتبعه هم السعداء الأغنياء الراضون في الدنيا والآخرة، وهو عين قوله تعالى: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (٢) فقد انطبق الآخر على الأول، ودل على أن العظيم يعامل بالحلم فلا يعجل، والله أعلم».

كما أن خاتمتها تدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغ هذا القرآن وذكر به فلما

(١) وقد سبق التنبيه على كثرة الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عند الكلام على علاقة الاسم بالسورة.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ٣٧٧/١٢.

لم يكونوا من أهل الخشية تركهم وضلالهم، يقول ابن عاشور: «ومن محاسنها: أن فيها شبيه رد العجز على الصدر لأنها تنظر إلى فاتحة السورة، وهي قوله ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَٰهُ لِمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾، لأن الخاتمة تدل على أنه قد بلغ كل ما بعث به من الإرشاد والاستدلال، فإذا لم يبتدوا به فكفاه انثلاج صدر أنه أدى الرسالة والتذكرة فلم يكونوا من أهل الخشية فتركهم وضلالهم حتى يتبين لهم أنه الحق»^(١).

ويقول سيد قطب: في قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلُّ مُرْتَبِعٍ فَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الضَّرِيحِ أَلَسَوِيَ وَمَن أَهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ «بذلك تحتم السورة التي بدأت بنفي الشقاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تنزيل القرآن وحددت وظيفة القرآن ﴿ إِلَّا نَذْكِرَٰهُ لِمَن يَخْشَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق، فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة، وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة، والعاقبة بيد الله»^(٢).

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة السورة التي قبلها.

يقول البقاعي: «لما ختم الله تعالى سورة مريم بالإخبار عن إهلاك القرون وإبادة الأمم بعد إنذار القوم اللد^(٣) ولم يختم سورة من السور الماضية بمثل ذلك كان ربما أفهم أنه انقضت مدتهم، وحل بوارهم، وأتى دمارهم، وأنه لا يؤمن منهم أحد -لما هم فيه من اللد- إلا من قد آمن فحصل بذلك من الغم والحزن ما لا يعلم قدره إلا الله لأن الأمر كان في ابتدائه، ولم يسلم منهم إلا نفر يسير جدا فسكن سبحانه الروح بقوله: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ بتعب قلبك بكونك من أقل المرسلين تابعا بعد استئصال قومك وشقائهم بإنذارك»^(٤).

وأرى من تمام الفائدة أن تذكر مناسبة خاتمة هذه السورة لمطلع سورة الأنبياء بعدها،

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٩٤/١٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٣٥٨/٤.

(٣) قوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿١٨﴾ ﴾ (مريم: ٩٨).

(٤) نظم الدرر: ٢٦٦/١٢، ٢٧٤.

وهي على ما ذكره السيوطي «أنه سبحانه لما قال: ﴿ قُلْ كُلُّ مُرْتَبِعٍ فَتَبْوَأُ ﴾ وقال قبله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ قال في مطلع هذه: ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١] إشارة إلى قرب الأجل ودنو الأمل المنتظر، وفيه أيضاً مناسبة لقوله هناك: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ فإن قرب الساعة يقتضى الإعراض عن هذه الحياة الدنيا لدنوها من الزوال والفناء^(١).

٤- المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

سيأتي الحديث عنها في نهاية كل مقطع، إن شاء الله تعالى.

٥- المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

سيأتي الحديث عنها في بداية كل مقطع، إن شاء الله تعالى.

٦- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

يقول السيوطي: «لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من الأنبياء وهم: زكريا ويحيى وعيسى، والثلاثة مبسوطة، وإبراهيم وهي بين البسط والإيجاز، وموسى وهي موجزة مجملة وأشار إلى بقية النبيين في الآية الأخيرة إجمالاً ذكر في هذه السورة شرح قصة موسى التي أجملها فاستوعبها غاية الاستيعاب، وبسطها أبلغ بسط، ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم الذي وقع في «مريم» مجرد ذكر اسمه.... فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب، وبديع هذا الترتيب».

ونقل البقاعي عن ابن الزبير قوله في كتابه البرهان: «لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم عليه السلام

(١) أسرار ترتيب القرآن: ١١٠. وجاء عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مشواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاءه الرجل فقال إني استقطعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واديا ما في العرب واد أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر لا حاجة لي في قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾.

(٢) تناسق الدرر، للسيوطي: ٩٤-٩٥.

وما منحه وأعطاه، وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به وأعقب ذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ [مريم: ٥٨]. وكان ظاهر الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العلية والدرجات المنيفة الجليلة لا سيما وقد أتبع ذلك بقوله ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩] كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه الله تعالى بملاطفة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ملاطفة المحبوب المقرب المجتبي فقال: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(١).

المبحث الثاني: تمهيد بين يدي التفسير

أرى من المناسب قبل الشروع في تفسير مقاطع هذه السورة أن أقدم بين يدي التفسير تمهيدا عن ملامح المجتمع في الفترة التاريخية التي نزلت فيها السورة، من خلال قراءة لبعض أحداثها، ثم أخته ببيان الأهداف التي ترمي إليها السورة من خلال قراءة عامة لموضوعاتها حتى يتبين للقارئ الأمور التي عاجلتها السورة في هذه المرحلة من النزول.

ملامح المجتمع في الفترة التاريخية التي نزلت فيها السورة:

نزلت هذه السورة في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة، وقد جاء أن قراءة عمر لمطلعها كانت سببا في إسلامه، وهي الفترة التي جهر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة إلى الله تعالى، استجابة لأمر الله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ولقوله ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] وكان ذلك في السنة الثالثة.

نزلت السورة والمسلمون في عناء شديد من أذى الكفار، خاصة بعد إعلانهم الدعوة إلى الله تعالى.

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ٢٧٣/١٢-٢٧٤، والآية من سورة طه: ٢.

(٢) ومع أنه صلى الله عليه وآله وسلم جهر بالدعوة إلى الله تعالى إلا أن المسلمين لم يزالوا يتخفون في دار الأرقم بن أبي الأرقم حرصا على أن يكون التنظيم سريريا.

كما أن السورة مكية تتسم بطابع القرآن المكي الذي يعنى بتصحيح العقيدة المنحرفة، ويفصل في ذكر البلاء والابتلاء، ويأمر بالصبر عليه.

وبالرجوع إلى السورة في قراءة متأنية يمكن أن نلمح من خلالها ملامح المجتمع في وقت نزولها، ويمكن إجمال ذلك في الملامح التالية:

أولاً: ملامح تتعلق بالاعتقاد، ودلالات السورة عليها.

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وقت بلغ الكفار فيه المنتهى في الكفر والإشراك، فقد شاع فيهم عبادة الأصنام والتقرب إليها، واعتقاد نفعها وضرها، وأنها تقربهم إلى الله زلفى، وأنها شافعة لهم عند الله، وهم مع - توغلبهم في الإشراك، وتعظيم الآلهة - إلا أن فطرتهم أبت عليهم إنكار الربوبية، فهم يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم ^(١) وخالق السموات والأرض ^(٢).

ومن عقيدة المشركين المتأصلة في نفوسهم إنكار ما يتعلق باليوم الآخر، من قيام الساعة والبعث، والحشر، والحساب حتى بلغ من أمرهم أنهم زعموا بأنهم لن يبعثوا ، واستبعدوا وقوعه ^(٤) بل أقسموا على نفيه ^(٥).

ولم يقف بهم الأمر إلى هذا الحد بل تجرأوا على الله تعالى فافتروا عليه الكذب بتحليل ما

(١) ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ . الزخرف: ٨٧.

(٢) ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾
العنكبوت: ٦١.

(٣) ﴿رَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ (التغابن: من الآية ٧).

(٤) ﴿أَوَ ذَا مِثْنًا وَكَأُتْرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ (ق: ٣).

(٥) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (النحل: ٣٨).

﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (التغابن: من الآية ٧).

حرم وتحريم ما أحل، فأحلوا ما لم يحله الله وحرّموا ما لم يحرمه الله .^(١)

ونزلت سورة «طه» لترسيخ مبادئ العقيدة في الله تعالى؛ من توحيد الله تعالى، وتنزيهه عما لا يليق به، وإثبات العبودية له من خلال ما أوحى الله به تعالى من قصة موسى عليه السلام، فكان التوحيد أول الأسس التي أوحى الله بها إلى موسى ﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٣) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، وبه ختم موسى حواراه مع عبدة العجل، والسامري لما قال لهم: {إننا إلهكم الله الذي لا إله إلا هو}.

ووصف الله تعالى نفسه بصفات الكمال والجمال، ووصف أسماء بأنها الأسماء الحسنی بقوله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (٨) وهذا بين في مجموعة من الآيات الصريحة في السورة.

وأما الربوبية فقد جاء التأكيد عليها في السورة، حيث تكرر ذكر لفظ «الرب» ٢٧ مرة^(٢) عدا ما جاء في السورة من معاني الربوبية، وهذا - وإن كان المشركون لا ينكرونها - إلا أن التركيز على إثباتها إنما كان لأجل الاحتجاج عليهم؛ إذ كيف يقرون بربوبته ثم يتركون عبادته وهو سبحانه المتصف بصفات الربوبية، فكانت هذه دعوة لهم إلى إفراد الله سبحانه بالعبادة، بعد أن أقروا له بالربوبية.

وهذا واضح فيما حكاه الله تعالى في حوار موسى مع فرعون لإثبات الربوبية لله تعالى وما حشده موسى من الأدلة على ذلك، لإقناع رجل قد تجاوز حد الإنكار إلى ادعاء الربوبية لنفسه^(٣)، بل والألوهية أيضا^(٤).

(١) ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي أَقْرَأَ عَلَيْنَا سِحْرًا مُّحَرَّرًا لَا يَلْمِزُنَا سِحْرًا وَلَا يَتْلُوهُ إِلَّا أَشْقَىٰ مَنْ أُنشِئَ رِجَالًا مِّنْ نَّشْأَةٍ يَّرْعَبُونَ مِمَّا جَاءَنَّهُمْ وَهُمْ فِي عَدْوٍ مُّحَرَّرٍ وَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَّالِيٍّ﴾ (١٣٨). الأنعام: ١٣٨.

(٢) ﴿قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ قَاتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفَرَأَىٰ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠). الأنعام: ١٤٠.

(٣) الآيات: (١٢، ٢٥، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٨٤، ٨٦، ٩٠، ١٠٥، ١١٤، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤).

(٤) ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (١١). النازعات: ٢٤.

(٤) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرٍ﴾. القصص: من الآية ٣٨.

هذا بالإضافة إلى ما في السورة من بيان معاني الربوبية كالرحمة بالخلق، وخلق السموات والأرض، ومنن الله تعالى على موسى، وتمهيد الأرض، وإنزال المطر من السماء، والإحياء والإماتة والبعث، ونصر المؤمنين، وتأيدهم، والمغفرة لهم، وإهلاك أعدائهم، ونسف الجبال، ونحو ذلك مما يشهد أنها ليست في مقدور أحد من الخلق.

واعنت السورة عناية كبيرة بتقرير قيام الساعة ^(١)، والبعث ^(٢)، والحشر ^(٣) والحساب ^(٤)، والجنة ^(٥)، والنار ^(٦)، وهو ما أصر على إنكاره المشركون في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً: ملامح تتعلق بموقف المشركين من الرسالة ودلالات السورة عليها:

اختار الله تعالى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لحمل القرآن وأمره بتبليغه للناس، فما كان من المشركين تجاه هذا الكتاب إلا الإنكار والمواجهة، والتعنت، فطلبوا الآيات الحسية، وجعلوها شرطاً لإيمانهم، ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠]

- (١) ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ ﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٨﴾ ﴾.
- (٢) ﴿ وَمِنهَا نَخْرُجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾.
- (٣) ﴿ يَوْمَ يُفْخَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١١٢﴾ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١١٣﴾ ﴾.
- (٤) ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾.
- (٥) ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ ﴾.
- (٦) ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧١﴾ ﴾ ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ ﴾ ﴿ وَالْعَذَابُ الْأَخْرَجُ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾.

(٧) الإسراء: ٩٠.

﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفٌ فِي السَّمَاءِ وَكَانَ نُؤْمِنُ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٣].

[٩٠]، تعجيزا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرْحَمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وهنا في هذه السورة يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ۗ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾، واستعانوا باليهود للإيمان بأسئلة تعجيزية .

ومن الشواهد على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فكان المشركون إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله ومن جاء به فأنزل الله ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

وكان بعضهم يحث بعضا على ترك الاستماع إلى القرآن الكريم، بل يدعون إلى التشويش عليه حتى لا يسمع .

وفي محاولة يائسة لإيهام الناس بأن القرآن من كلام البشر، بعد وضوح إعجازه قال الوليد بن المغيرة إرضاء لقومه: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر: ٢٥] بل نفى المشركون أن يكون الله قد أنزل شيئا على رسله فحكى الله مقاتلهم موبخا لهم بقوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ۗ ﴾ وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم: ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَوهُ فِرَاطِيْسَ تَبْدُوْنَهَا وَتُخْفُوْنَ كَثِيْرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوْا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُوْنَ ﴾ [الأنعام: ٩١]، وأعرض المشركون عن الذكر واتهموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسحر، والافتراء.

ونزلت سورة «طه» في هذا الجو لتعالج الانحراف من خلال حكاية قصة إيمان السحرة

(١) فأشار اليهود عليهم بسؤالهم إياه عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح.

(٢) صحيح البخاري، برقم: ٤٤٤٥، ولباب النقول، للسيوطي: ١/١٤٢.

(٣) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ . فصلت: ٢٦.

إثر معجزة موسى الحسية بعد أن كانوا مستشعرين الثقة بالنصر، والغلبة على موسى، حتى كان من فرط ثقتهم أن أقسموا إنهم لهم الغالبون، ﴿ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤]،

وفي السورة تتجلى أثر المعجزة القرآنية غير الحسية حيث كان مطلعها سببا في إسلام عمر رضي الله عنه بعد أن كاد أن يكون ميؤساً منه.

وفي قصة موسى أيضاً: بيان إعراض فرعون وملاه عن الإيمان بما جاء به موسى من البينات، وتكذيب فرعون بأية موسى ، واتهامه بالسحر ، وهو نفسه ما وقع من الكفار للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد أعرضوا عن رسالته، واتهموه بالسحر، وكذبوه.

- ويبرز في السورة الاعتناء بمعجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأبانت الآيات أن القرآن منزل من عند الله تعالى الذي خلق السموات والأرض، وأنه تعالى قد صرف فيه من الوعيد، وأن متبعه ينال سعادة الدارين بعيداً عن الشقاء، وأن المعرض عنه هو الذي له المعيشة الضنك، وهو وحده الحامل لوزره يوم القيامة ^(١).

ثالثاً: ملامح تتعلق بموقف المشركين من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودلالات السورة عليها.

قست قلوب المشركين فقسوا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يدعوا أسلوباً أو طريقة إلا سلكوها في إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجمعوا له بين الإيذاء النفسي

- (١) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ (٦١)
- (٢) ﴿ قَالَ أَجئتُنَا لِنُخْرِجَنَّهُ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ (٥٧)
- (٣) ﴿ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ (٤) ﴿ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ (١٠٠) ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لِمَا ذُكِّرُوا ﴾ (١١٣) ﴿ قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٢) ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٥)

والمعنوي والجسدي، في الوقت الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً أشد الحرص، على إيمانهم وإنقاذهم، ويمكن إجمال ذلك في المظاهر التالية:

* السخرية والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، والضحك منهم والغمز واللمز .^(١)

* الإشاعة في الناس أنها أنزل عليه القرآن ليشقى، وأنه كان سبياً في شقائه.

* لقي من أبي جهل إيذاء وشتماً إلا أنه لم يصل إليه الإيذاء بيده لمنع الله تعالى له منه ومن كل الناس .^(٢)

* اتهموه باتهامات باطلة لصد الناس عنه، فاتهموه بالجنون^(٣)، والسحر، والكذب^(٤) والأتیان بالأساطير^(٥)، ونفوا أن يكون القرآن من الله تعالى^(٦)، واتهموا المؤمنين بالضلالة^(٧).

* هم أبو جهل أن يطأ رقبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي عند الكعبة فمنعه الله بملائكته^(٨).

* يغشاهم رسول الله في أسواقهم، وهو ينادي (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) وأبو

(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ المطففين: ٢٩-٣٠.

(٢) ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

المائدة: ٦٧.

(٣) ﴿يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ القلم: من الآية ٥١.

(٤) ﴿وَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٤﴾﴾ ص: ٤.

(٥) ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ الفرقان: ٥.

(٦) ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ النحل: ١٠.

(٧) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضٰلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ المطففين: ٣٢.

(٨) قال صلى الله عليه وآله وسلم «لو دنا مني لاخطفتني الملائكة عضوا عضوا». رواه مسلم في الصحيح،

باب قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآكْفِرٌ ﴿٦﴾﴾ أن رآه أشتقى ﴿٧﴾، برقم: ٢٧٩٧.

(١)
 جهل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبه وهو يقول «يا أيها الناس لا تطيعوه فإنه كذاب»^(١).
 وهم يnehون الناس عنه، وأبو جهل خلفه يسفي عليه التراب.

* خنقه عقبة بن أبي معيط بردائه وهو يصلي، فدفعه عنه أبو بكر الصديق، وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»^(*).

* ألقى المشركون على ظهره الشريف سلى بعير^(٢)، فأماطته ابنته فاطمة رضي الله عنها عن ظهره، ودعت على من صنع ذلك، ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصرعوا يوم بدر.

* اجتمعت كلمة كفار قريش على النيل من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فطلبت إلى أبي طالب أن يخلي بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو يأمره بالكف عن سب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، أو ينازلوه وإياه في ذلك، وكثرت مراجعتهم له في ذلك، ولكنه أبى عليهم ذلك، لعلمه بصدقه صلى الله عليه وآله وسلم، وكان مما قاله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم «أذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك أبدا»^(٣).

(١) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة: ١٢٨/٨، وقال: إسناده صحيح.

(*) صحيح البخاري (٣٦٧٨).

(٢) اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية المشيمة.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (السيرة النبوية): ١٥٠.

وقال أبو طالب في ذلك شعراً:

حتى أوسد في التراب دفينا
 أبشر وقرّب ذاك منك عيوننا
 فلقد صدقت وكنت قدما أمينا
 من خير أديان البرية ديننا
 لوجدتني سمحا بذاك ميينا

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
 فامض لأمرك ما عليك غضاضة
 ودعوتني وزعمت أنك ناصحي
 وعرضت ديننا قد عرفت بأنه
 لولا الملامة أو حذاري سبة

* شق عتية بن أبي لهب قميصه وتفل في وجهه إلا أنه لم يقع الزقاق عليه فدعى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسلط عليه كلبا فذبحه السبع وهو في الزرقاء في الشام.

* آذاه أهل الطائف، وسخروا منه، وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم.

ونزلت سورة «طه» لتعبر تصريحاً وتلميحا عما لقيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خلال الآيات التي فيها التسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والأمر بالصبر، فنفى الله في افتتاحيتها أن يكون تنزيل القرآن عليه شقاء، وإنما هو تذكرة لمن يخشى، وهي دعوة لهم للتذكر والخشية، كما تضمن إشعاره صلى الله عليه وآله وسلم بالأنس - في غمرة أهل الشرك - لأن الله تعالى معه بعلمه إذ يعلم الجهر والسر، بل يعلم ما هو أخفى من السر.

وفي حكاية الله تعالى لنبيه قصة موسى تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الفترة العصبية التي اشتد فيها أذى الكفار بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين معه، وهم مع ذلك منعوا من القتال، بل أمروا بالكف والصبر والعفو، واتهموه بالسحر، وهو عين الاتهام لموسى، وتضمنت قصة موسى عليه السلام صوراً من بطش فرعون ببني إسرائيل واستعبادهم، مع عدم تكليفهم بقتال فرعون، ثم بيان ما آل إليه أمرهم - بعد ذلك - من النصر والنجاة من فرعون، وهزيمة فرعون، ثم غرقه، وأوضحت السورة أن موسى عليه السلام لم يكن ساحراً، وذلك من خلال وضوح معجزته التي ألقى السحرة سجداً، وجاء في القصة حكاية حال السحرة، وأن الساحر لا يفلح أبداً.

وفي السورة تهديد للمشركين المكذبين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم المفهوم من قوله تعالى: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٧) إشارة إلى سوء عاقبة الكفار ذلك أنهم أسرفوا في الكفر وأوغلوا في الشرك، وإن لهم في قصص من قبلهم لعبرة، كما أن بذكر القرون الأولى إعدار لهم

(١) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ (١٨)

رابعاً: ملامح تتعلق بموقف المشركين من المؤمنين ودلالات السورة عليها

ولئن اشتد الأذى بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإن المسلمين قد نالهم أيضاً من الأذى الجسدي والمعنوي والاقتصادي عناءً كثيراً، ويمكننا معرفة ذلك من خلال المظاهر التالية:

* كان الصحابة في خوف من قريش فإذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم.

* فر المسلمون بدينهم إلى أرض يتمكنون فيها من العبادة، حين اشتد إيذاء قريش لهم، بعد أن أعلنوا إسلامهم وجهروا بالدعوة إلى الله تعالى، فتركوا أوطانهم، ولم يستطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يمنعهم.

* قام أبو بكر خطيباً في المسجد الحرام فضربه المشركون ضرباً شديداً.

* ضرب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه لما جهر بالقرآن، وكان أول من جهر بالقرآن من الصحابة.

* اعتدي على عمر لما أسلم حتى كاد يقتل.

* أوزي عثمان بن مظعون، وكان من ذلك أن ضربه رجل من كفار قريش على عينه فحضرها.

* ضرب أبو ذر الغفاري لما جاء إلى مكة يسأل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أغشي عليه.

* عذبت قريش الموالي فألبسوهم الحديد وصهروهم في الشمس.

* كانوا يجرون في بطحاء مكة في اليوم الشديد الحر.

* كان آل ياسر يعذبون أشد العذاب.

* أعلنت قريش المقاطعة العامة، لبني هاشم، فتعاهدت قريش وكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على ألا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، فأصابهم الجهد

حتى أكلوا الخبط ^(١) ، وورق السمر، وكان أبو طالب قد جمع بني هاشم وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعبيهم ويمنعونه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً.

ونزلت سورة «طه» بدلالات وإشارات فيها تثبيت للمسلمين على الدين، ومن ذلك ما يلي:

* أمر الله تعالى بإقامة الصلاة في هذه السورة ^(٢) في الوقت الذي كان المسلمون يستخفون بها في الشعاب.

* حكى الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما يشير إلى خروجه إلى مدين، ثم رجوعه إلى وطنه بعد هجرته فراراً من بطش فرعون، ثم هجرته بعد ذلك مع بني إسرائيل فراراً بدينهم، وما أعقبه من نجاتهم من بطشه وجبروته وإهلاك عدوهم، وكأن في ذلك إيماء إلى هجرته صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وهجرة الصحابة قبله إلى الحبشة، ثم هجرتهم - من بعد - معه إلى المدينة.

* حكى الله تعالى خبر تعذيب فرعون لبني إسرائيل ^(٣) ونجاتهم بالخروج من مصر، في الوقت الذي كان المسلمون يعذبون بمكة، وكان في ذلك إيماء إلى أن عاقبتهم ستؤول إلى النجاة، وعاقبة معذبيهم إلى الهلاك.

* في السورة تسلية للمؤمنين، وتثبيتاً لهم، وإنذار ووعيد للمشركين، من خلال ما تخلل السورة من الترغيب والترهيب ^(٤) ، وبيان عاقبة المجرمين ^(٥) ، وإيضاح حال المؤمنين من السحرة الذين ثبتوا على إيمانهم غير آبهين بتوعد فرعون الشديد.

(١) الخبط: ورق العضاء يضرب بالعصي ليتناثر فتعلفه الإبل. غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام: ٢٣٥/٢.

(٢) ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ .

(٣) ﴿وَلَا تَعْدِبْهُمْ﴾ .

(٤) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ .

(٥) ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ .

أهداف السورة الأساسية

إن ما سبق من عرض ملامح المجتمع في وقت نزول السورة، وما سيأتي من بيان أهدافها يعطي الصورة الإجمالية لما سيقف عليه القارئ في ثنايا السورة من موضوعات قبل أن يدخل في مفرداتها، وإليك بيان أهم أهداف هذه السورة:

* إبراز عناية الله بالرسول وأتباعهم، والرفق بالمدعوين، وهذا الهدف قد تميزت به السورة عن كثير من السور المكية، مما دعانا إلى جعله المحور الذي تدور حوله السورة، وسيأتي في ثنايا مقاطع هذه السورة بيان العلاقة بين محورها ومقاطعها إن شاء الله تعالى.

* إثبات رسالة محمد ﷺ، وتأييده بالمعجزات، وأنها رسالة تماثل رسالة أعظم رسول قبله، شاع ذكره في الناس «موسى الكليم».

* التعريض - بما قصه الله من شأن موسى - بأن مآل بعثة محمد ﷺ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى الكليم من النصر على معانديه.

* الدعوة إلى استعمال اللين في الدعوة إلى الله تعالى مهما بلغ عتو المدعوين وعنادهم.

* تعميق معنى التوكل على الله، مع اتخاذ الأسباب، والثقة به، واستشعار معيته.

* الدعوة إلى الاهتمام بالصلاة وتخصيصها بالعناية من بين العبادات الأخرى.

* بيان عاقبة الأقوام المكذبين للمرسلين قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

* تسلية النبي ﷺ، وتثبيتته على الدين، تسلية المؤمنين وتبشيرهم بحسن عاقبة المواجهة بين الرسل وأقوامهم.

* بيان أهمية الالتزام بالهدي الإلهي في تحقيق السعادة في الدارين.

* التنويه بشأن المسلمين، بأنهم من أهل الخشية لما تذكروا بالقرآن.

* بيان أهمية التذكير والوعظ بالقرآن في الدعوة إلى الله تعالى.

- * بيان وظيفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحدود تكاليفه.
- * بيان ضرورة طلب العون من الله تعالى في أداء التكاليف.
- * بيان أهمية الوفاء بعهد الله تعالى والتحذير من عاقبة نكثه.
- * تهويل يوم القيامة ببيان ما يتقدمه من الحوادث والأحوال.
- * التنبيه على خطورة الفتنة في الدين، والتحذير منها.
- * تقرير قضية توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته.
- * بيان أهمية التأدب مع الله تعالى، ومع مقدساته.
- * بيان إعداز الله إلى الخلق بإرسال الرسل.
- * بيان أثر الترهيب والترغيب في المدعويين.
- * الدعوة إلى اتباع هدي الله سبحانه.
- * ترسيخ الإيمان باليوم الآخر.
- * التنويه بعظمة الله تعالى.
- * التنويه بشأن القرآن.
- * إثبات البعث.

وبعد هذا العرض الإجمالي لأهداف السورة، وبيان ملامح المجتمع في وقت نزولها، يمكننا الشروع في تفسير السورة تفسيراً موضوعياً، وقد رأيت أن أقسم السورة إلى افتتاحية وخاتمة وبينهما خمسة دروس لكل منها عنوان يعبر عن مضمونه.

الافتتاحية

- يقول الله تعالى: ﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِمَنْ يَحْشَى ﴿٣﴾
تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجَهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ ﴿

المعنى الإجمالي للافتتاحية :

افتتحت هذه السورة بحرفين من حروف الهجاء أعقبها ذكر القرآن الكريم كما هو الشأن في السور التي بدت بحروف الهجاء، وذلك بياناً لإعجاز القرآن، وإثباتاً بأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها^(١)، غير أن الإمام الطبري رجح بأن حرفي هذه السورة ليسا من الحروف المقطعة المجهولة المعنى وإنما هما حرفان لهما معنى في لغة العرب، إذ يعنيان في لغة عك «يا رجل»^(٢)، أو «يا حبيبي» وهو ما روي عن

(١) وهو ما رجحه الشنقيطي واستدل عليه بالاستقراء بأن كل السور المبدوءة بحروف الهجاء يأتي بعدها ذكر القرآن أو الاحتجاج له. ينظر كتابه أضواء البيان: ١٦٦/٢-١٧٧، عند تفسير مطلع سورة هود.

(٢) وقيل: هي كذلك باللغة السريانية، أو النبطية، أو الحبشية، أو العبرانية، وقد روي نحو ذلك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبي مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبيزى وغيرهم. جامع البيان، للطبري: ١٦/١٣٥-١٣٦، وتفسير ابن كثير: ٣/١٤٢، وأضواء البيان: ٤/٣، والكشف والبيان: ٦/٢٣٦، روح المعاني، للألوسي: ١٦/١٤٨ والجامع لأحكام القرآن، للطبري: ١١/١٦٥.

وقال القرطبي: «والصحيح أنها وإن وجدت في لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا وأنها لغة بيانية في عك وطوي وعكل أيضاً». الجامع لأحكام القرآن: ١١/١٦٦.

وقال الشوكاني: «ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل» فتح القدير: ٣/٣٥٥.

وقال أيضاً: «وإذا تقرر أنها لهذا المعنى في لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التي قدمنا بيان كونها من المتشابهة في فاتحة سورة البقرة، وهكذا إذا كانت لهذا=

عبدالله بن عمرو أنها كذلك بلغة عك^(١).

لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قومه العنت والمشقة بسبب إعراضهم عما جاء به من الذكر، في الوقت الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً أشد الحرص على إسلامهم، فكان يتحسر ويأسف عليهم أنهم لم يتبعوا الحق الذي جاء به، وكان مما لقيه منهم أن قال بعضهم: إنك شقي حين تركت دين آبائك وأن القرآن نزل عليك لتشقى، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۖ ﴾^(٢) ملاطفة للنبي ﷺ وتسلية بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك بفرط التأسف عليهم وعلى كفرهم، والتحسر على أن يؤمنوا، وهو القائل له: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا ۗ ﴾ [فاطر: ٨]، وبهذا يكون الله

= المعنى في لغة من لغات العجم واستعملها العرب في كلامها في ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب العزيز، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب. فتح القدير: ٣/٣٥٦.

وقال ابن الأنباري: إن لغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا لأن الله تعالى لم يخاطب نبيه (ﷺ) بلسان غير لسان قريش. ذكره الألويسي في روح المعاني: ١٦/١٤٨، ورجحه، وقيل: إنها معربة. ذكره ابن كثير عن أبي صالح. تفسيره: ٣/١٤٢.

(١) ذكره الشنقيطي في أضواء البيان: ٤/٣، وعزاه إلى الغزنوي.

وجاء في معنى هذين الحرفين أقوال أخرى ضعيفة. ينظر: بحر العلوم، للسمرقندي: ٢/٣٨٩، والكشف والبيان، للثعلبي: ٦/٢٣٦-٢٣٧، ومعالم التنزيل، للبغوي: ٣/٢١١، وزاد المسير، لابن الجوزي: ٥/٢٦٩-٢٥٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٥٦، وأضواء البيان: ٤/٤، وقد نبه الرازي على ترك الاعتماد عليها. التفسير الكبير: ٤/٢٢، وضعفها الشنقيطي، ووصف بعضها بالتعسف والبعد عن الظاهر. أضواء البيان: ٤/٤.

(٢) وجاء أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فأنزل الله ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۖ ﴾ أي تنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة. فنكفك ما لا طاقة لك له من العمل. ينظر: جامع البيان، للطبري: ١٦/١٣٧، وتفسير أبي السعود: ٦/٣، ولباب النقول، للسيوطي: ١/١٤٦، وأضواء البيان، للشنقيطي: ٤/٤.

تعالى قد نفى عن نبيه جميع أنواع الشقاء في الدنيا والآخرة لأنه أنزل عليه القرآن الذي هو سبب^(١) سعادته .

ثم بين الله تعالى أن هذا القرآن تذكرة لمن شأنه أن يخشى ويتأثر بالإنذار لرقعة قلبه، أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف، وأن مهمته صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي التذكير والبلاغ، وقد بين الله في آيات أخرى ما يؤكد بأنه صلى الله عليه وآله وسلم ليس إلا مذكراً بالقرآن، وأن ذلك هو غاية ما كلف به، وأنه لم يرسل جباراً يجبر الناس على الإيمان، قال سبحانه: ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۗ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝٢٢ ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقال: ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥ ﴾ [ق: ٤٥].

ثم ذكر الله تعالى أن هذا القرآن إنما نزل من^(٢) خلق الأرض والسموات العلى^(٣)، تنوياً بعظمته، فإنه لما كان منزل القرآن بهذه العظمة، لا جرم أن القرآن شيئاً عظيماً .

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٠، التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦. وقال ابن عاشور: «ووقع فعل (أنزلنا) في سياق النفي يقتضي عموم مدلوله. لأن الفعل في سياق النفي بمنزلة النكرة في سياقه. وعموم الفعل يستلزم عموم متعلقاته من مفعول ومجرور، فيعم نفي جميع كل إنزال للقرآن فيه شقاء له، ونفي كل شقاء يتعلق بذلك الإنزال، أي جميع أنواع الشقاء فلا يكون إنزال القرآن سبباً في شيء من الشقاء للرسول ﷺ».

(٢) يقول ابن عاشور: «والعدول عن اسم الجلالة أو عن ضميره إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من تحتم إفراجه بالعبادة، لأنه خالق المخاطبين بالقرآن وغيرهم مما هو أعظم منهم خلقاً». التحرير والتنوير: ١٦/ ١٨٦.

ويقول البيضاوي: «والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام وتفخيم المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث أنه كلام من هذا شأنه». تفسير البيضاوي: ٤/ ٤١.

(٣) وفائدة وصف السموات بالعلو الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها. الكشاف، للزمخشري: ٣/ ٥٣، والتفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥-٦.

(٤) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥، تفسير أبي السعود: ٦/ ٤، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦.

ثم شرع سبحانه بالتعريف بنفسه بذكر بعض أسمائه وصفاته الدالة على سعة رحمته وعظمة ملكه، وإحاطة علمه فأثبت لنفسه الاستواء على عرشه، ودقة علمه بحيث لا يخفى عليه شيء بل هو يعلم السر وأخفى.

وُلِيْعَلِمَ بِأَنَّ الْأَصْلَ فِيهَا وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ نَبِيَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «أَنَّ يُوصَفُ بِهَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِهَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ - ﷺ - نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا، فَيُثْبِتُ اللَّهُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَيَنْفِي عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلْفِ الْأُمَّةِ وَأَثْمَتَهَا إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ... فَطَرِيقَتُهُمْ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَعَ نَفْيِ مِمَّا ثَلَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ: إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهِ وَتَنْزِيهِهَا بِلَا تَعْطِيلٍ»^(١).

(١) والفرق بين التمثيل والتكليف: أن التمثيل: ذكر كيفية الصفة مقيدة بمماثل، ومثاله: أن يقول قائل: يد الله كيد الإنسان. قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من الآية ١١) والتكليف: ذكر كيفية الصفة غير مقيدة بمماثل، ومثاله: أن يتخيل ليد الله كيفية معينة لا مثيل لها في أيدي المخلوقين فلا يجوز هذا التخيل، وهذا لا يمكن للبشر لأنها مما استأثر الله تعالى بعلمه فلا سبيل إلى الوصول إليه، لأن الصفة تابعة للذات، فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كيفيةها، فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كيفيةها. ولهذا لما سئل الإمام مالك - رحمه الله - فقيل له: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٥) كيف استوى فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وهذا يقال في سائر الصفات. شرح لمعة الاعتقاد، لمحمد بن صالح العثيمين: ٧.

والتحريف: نوعان:

النوع الأول: تحريف اللفظ وهو العدول به عن جهته إلى غيرها إما بزيادة كلمة أو حرف أو نقصانه، أو تغيير حركة كقول أهل الضلال في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٥) أي: استولى، فزادوا في الآية حرفاً. وكقولهم في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمر ربك، فزادوا كلمة. وكقولهم في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ بنصب لفظ الجلالة فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع إلى النصب.

النوع الثاني: تحريف المعنى، وهو العدول به عن وجهه وحقيقته وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر كقول المبتدعة: إن معنى الرحمة: إرادة الإنعام. وإن معنى الغضب إرادة الانتقام.

والتعطيل: المراد به هنا نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى.

وعليه فيجب الإيمان بأنه سبحانه استوى على عرشه استواء يليق بجلاله على كيفية «لا نعقلها بل نجهلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به، لا نتعمق ولا نتحلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفيًا ولا إثباتًا، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقينًا مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً^(١)، وقد قال الإمام أحمد: «نحن نؤمن بأن الله تعالى على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد^(٢)» .

ثم أتبع الله تعالى بيانه لصفاته بيانه بأنه مالك لما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى لا يشاركه في ملكه أحد، وهو مدبر ذلك كله ومصرف جميعه^(٣)، وبأن علمه محيط بجميع ما ملك سبحانه، يعلم ما أعلنوه من القول، وما أسروه لغيرهم أو في أنفسهم، وما هو أخفى من السر مما علم الله وأخفاه عن العباد ولم يعلموه مما هو كائن ولم يظهره لأحد، فهو مما

= والفرق بين التحريف والتعطيل: أن التحريف هو نفي المعنى الصحيح الذي دلت عليه النصوص واستبداله بمعنى آخر غير صحيح.

والتعطيل: هو نفي المعنى الصحيح من غير استبدال له بمعنى آخر، كفعل المفوضة. فكل محرف معطل وليس كل معطل محرفاً.

(١) كتاب العلو، للذهبي: ١٠٤، ونص على أنه قول أهل السنة قاطبة.

(٢) نقله القاسمي في محاسن التأويل: ٧/ ١٠٤، ١٠٥.

وروي عن سفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ومكحول ومالك، وإسحاق وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة: أمرها كما جاءت بلا كيف. التمهيد، لابن عبد البر: ٧/ ١٤٩، فتح الباري، لابن حجر: ١٣/ ٤٠٧.

(٣) «وتقديم المجرور في قوله (له ما في السماوات) للقصر، رداً على زعم المشركين أن لألهتهم تصرفات في الأرض، وأن للجن اطلاعاً على الغيب، ولتقرير الرد ذكرت أنحاء الكائنات، وهي السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى». التحريير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٨.

لا يعلمه إلا الله^(١). وكان ذلك بطريق الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم^(٢) لطمأته قلبه بأن ربه معه يسمعه ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن، ويواجه الكافرين بلا سند^(٣). وهذا الذي هذه صفته هو الذي أنزل القرآن، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦].

ثم يختتم مطلع السورة بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته وملكيته وعلمه سبحانه وأن من اتصف بتلك الصفات الجليلة الذي له الأسماء الحسنى^(٤) هو المستحق للعبودية المختصة بالألوهية، وأن ما دونه من الآلهة والأوثان ليست أهلا للعبادة^(٥).

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٤١، وتفسير أبي السعود: ٥/٦. ويقول سيد قطب: «وينسق التعبير بين الظل الذي تلقيه الآية ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ والظل الذي تلقيه الآية بعدها ﴿وإن تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ينسق بين الظاهر الجاهر في الكون، والظاهر الجاهر من القول. وبين المستور المخبوء تحت الثرى والمستور المخبوء في الصدور: السر وأخفى على طريقة التنسيق في التصوير. والسر خاف. وما هو أخفى من السر تصوير لدرجات الخفاء والاستتار، كما هو الحال تحت أطباق الثرى». في ظلال القرآن: ٤/٢٣٢٨.

ويقول ابن عاشور: (وإن تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) عطف على جملة ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لدلالة هذه الجملة على سعة علمه تعالى كما دلت الجملة المعطوف عليها على عظيم سلطانه وقدرته. التحرير والتنوير: ١٦/١٨٨.

(٢) فالخطاب في قوله (وإن تَجَهَّرَ) يجوز أن يكون خطابا للنبي ﷺ وهو يعم غيره. ويجوز أن يكون لغير معين ليعم كل مخاطب. التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/١٨٩.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/٢٣٢٨.

(٤) يقول ابن عاشور: ﴿أَللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ تذييل لما قبله لأن ما قبله تضمن صفات من فعل الله تعالى ومن خلقه ومن عظمته فجاء هذا التذييل بما يجمع صفاته. التحرير والتنوير: ١٦/١٩١.

(٥) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٤١، ويقول أبو السعود: «وقوله تعالى ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماء وصفاته من غير تعدد في ذاته تعالى، فإنه روي أن المشركين حين سمعوا النبي ﷺ يقول يا الله يا الرحمن قالوا اينهاننا أن نعبد إلهين وهو يدعو لها آخر» تفسير أبي السعود: ٦/٥-٦.

الإشارات والهدايات المستنبطة من الافتتاحية

* قوله تعالى: ﴿لَذِكْرَ لِمَنْ يُحِشَى﴾ «تنويه بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما اذكروا بالقرآن»^(١) وهو في الوقت نفسه دعوة لغيرهم ممن سمع هذا القرآن - بطريق الإيحاء- أن يكونوا من أهل الخشية.

* إن الله تعالى عظم القرآن ببيان أنه نزل ممن خلق السموات العلى، وإنما عظم القرآن ترغيباً في تدبره والتأمل في معانيه وحقائقه، واستنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية إلى التذكرة والإيمان^(٢)، وهو خطاب لهم بما يسلمون به من خلق السموات والأرض، ليكون حجة عليهم في صحة إنزال القرآن منه.

* لما كان هذا القرآن من خالق قوي قدير اتصف بصفات الكمال والجلال فإن الذي يتخذ هذا التنزيل الكامل الخالد مرشداً وهادياً سوف يصل بإذن الله تعالى إلى سعادة الدارين «وأين من هذا التنزيل مذاهب أرضية قاصرة، تحمل في طياتها جهل واضعيتها، وقصورهم، وأهواءهم التي تضطرب بها أحوال البشر فلا تستقر على حال من القلق»^(٣).

* في قوله تعالى: ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ دلالات علمية يحسن الإشارة إليها هنا؛ ذلك أن الآية جاءت في سياق تفخيم القرآن لكونه نزل ممن خلق الأرض والسموات العلى المالك لما فيها وما بينهما وما تحت الثرى، وهذه الدلالات تدل على عظمة خلق الله تعالى، وهذا فيما أدركه البشر منها بما هياه الله له من الأسباب والوسائل العلمية، وما وراء ذلك أعظم مما استأثر الله بعلمه، حتى إذا شاء كشفه، كشفه لمن يشاء متى يشاء، وكيف يشاء سبحانه.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٤.

(٢) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/ ٥، تفسير أبي السعود: ٦/ ٤، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ١٨٦.

(٣) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٣.

وقد توسع في بيانها الدكتور زغلول النجار^(١) حفظه الله، فذكر القدر المدرك من السموات بالسنوات الضوئية^(٢)، وذكر سرعة اتساعه^(٣)، ودقة بنائه، ومكوناته، وكيفية تجمعها وتكونها^(٤)، ومراحل حياة النجوم من الميلاد والطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة والاحتضار لتعود إلى دخان السماء.

كما بين ما يتعلق بحجم الأرض^(٥)، ومكونات كل أرض من الأرضين السبع، وتطرق إلى بيان ما بين الأرض والسماء، وما يتركب منه ذلك الفاصل من الغازات بنسب مختلفة وفق تقدير العزيز العليم^(٦).

وختم بذكر ما يتضمنه تحت الثرى، من مجموعات من النباتات الدقيقة ومن البقايا الدقيقة

(١) (<http://www.islamicmedicine.org/zaghlool/99.htm>)

(٢) حيث قدره بأكثر من أربعة وعشرين بليوناً من السنين الضوئية ٢٤ بليوناً ٥.٩ مليون مليون كم = ٢٢٨ الف مليون مليون مليون كم.

(٣) وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَأْتِيُهَا وَهَابٌ وَإِنَّا لَمَوَسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الذاريات: ٤٧)

(٤) وهذا الجزء المدرك من الكون مبني بدقة بالغة، وعلى نمط واحد، يبدأ بتجمعات عدد من الكواكب، والكويكبات، والأقمار والمذنبات، والشهب، والنيازك حول كل نجم من النجوم التي تنتظم بملايين الملايين في مجرات، وتنتظم المجرات في مجموعات محلية، ثم في الحشود المجرية، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية، ثم في حشود مجرية عظمى، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية العظمى إلى ما هو أكبر من ذلك في تصاعد إلى نهاية لا يعلمها إلا الله (سبحانه وتعالى).

(٥) حيث قدر بهائة وثمانية ملايين كيلو متر مكعب، ومتوسط كثافتها بحوالي ٥٢.٥ جم/سم^٣، تقدر كتلتها بحوالي الستة آلاف مليون مليون مليون طن، والأرض بداخلها ست أرضين.

(٦) فهو يتكون من جزئيات النيتروجين (بنسبة ١.٧٨٪ بالحجم)، والأكسجين (بنسبة ٢١٪ بالحجم)، والأرجون (بنسبة ٩٣.٠٪ بالحجم)، وثنائي أكسيد الكربون (بنسبة ٠.٣٪ بالحجم)، وذلك بالإضافة إلى نسب ضئيلة من بخار الماء، وأثار طفيفة من كل من غازات الميثان، وأول أكسيد الكربون، وأكاسيد النيتروجين، والأيدروجين، والهيليوم، والأوزون، وبعض الغازات الخاملة مثل الأرجون. وهذا التركيب مغاير تماماً لتركيب المادة بين الكواكب الأخرى والنجوم، ومغاير لتركيب الدخان الكوني الذي خلقت منه السماوات والأرض ابتداءً.

للنباتات الكبيرة^(١)، ومن مجموعات من الحيوانات المتباينة الأحجام والصفات^(٢).

وإن ازدهار الحياة فيما تحت الثرى من التربة حقيقة لم تكن معروفة في زمن تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده، ووجود الإشارة إليها في القرآن الكريم يشهد له بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه، وبأنه كان موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السموات والأرض.

* عرف الله تعالى بنفسه بذكر صفات الكمال والجلال والعظمة ليزداد المؤمن اطمئناناً وأنساً به سبحانه، لأنه متعلق بالله الرحمن الذي على العرش استوى، الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، الذي له الأسماء الحسنى.

* لقد اختير وصف (الرحمن) لتعليم الناس به لأن المشركين أنكروا تسميته تعالى الرحمن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ٦٠﴾ [الفرقان: ٦٠] كما إن في ذكره هنا، وكثرة التذكير به في القرآن بعث على أفراده بالعبادة، وشكر على إحسانه بالرحمة البالغة^(٣).

* إن وصف الله تعالى بالرحمانية إثر وصفه بخالقية السموات والأرض للإشعار بأن خلقها من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ للإيدان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة، وللإشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمته تعالى كما

(١) مثل البكتيريا، والفطريات، والطحالب والأنواع وحبوب اللقاح، وغيرها بمختلف أشكالها وهيئاتها، ومن البكتيريا ما يعمل على تثبيت النيتروجين، أو الأيدروجين، أو ثاني أكسيد الكربون أو الكبريت، أو الحديد، أو المنجنيز أو غير ذلك من العناصر والمركبات التي تزيد من خصوبة التربة، ومنها ما يقوم بتكسير المواد الكربوهيدراتية، أو السيليلولوزية، أو البروتينية، أو الدهنية في البقايا العضوية الموجودة بالتربة فثريها بما يحتاجه النبات النامي فوقها من غذاء.

(٢) منها الدقيقة مثل الأوليات (الطلائعيات)، والمتوسطة إلى الكبيرة مثل الديدان، والرخويات، والحشرات ويرقاتها، والعناكب، وبعض القشريات، والفقاريات الحفارة، وغيرها.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٨٦/١٦.

ينبئ عنه قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۗ﴾ [الرحمن: ١-٢] ^(١).

* قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ دليل على إحاطة علمه بخفايا الذات الإنسانية ليرتدع المرء عن ارتكاب المعاصي الخفية، وليكون دائماً على حذر ويقظة، ودوام الرقابة لله تعالى، وليزداد أنسا بقربه من ربه. «والقلب حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسرّه ونجواه يطمئن ويرضى، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين، ولا يشعر بالغرابة بين المخالفين له في العقيدة والشعور» ^(٢).

* ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۗ﴾ توحيد ختم الله بها افتتاحية هذه السورة وحيًا إلى نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أول ما ابتدأ به - سبحانه - وحيه إلى موسى فقال له: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۗ﴾ [١٣] ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾.

علاقة الافتتاحية بمحور السورة:

المحور الذي تدور حوله هذه السورة، هو عناية الله تعالى بالرسول والمدعوين، وقد افتتحت بملاطفة النبي ﷺ بأن الله لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك ^(٣) مع تضمن السياق الرد على كل زاعم يزعم بأن إنزال القرآن كان شقاءً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال سبحانه: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۗ﴾ ^(٤) ومفهوم ذلك أن القرآن إنما أنزل لسعادته صلى الله عليه وآله وسلم، وسعادة من اتبعه .

ثم بين تعالى أن هذا القرآن إنما أنزله تذكرةً للمدعوين، رجاء أن يتذكروا فتلين قلوبهم لذكر الله تعالى وما أنزل من الحق، فكان هذا الإنزال للقرآن، وهذا الإرسال للرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) تفسير أبي السعود: ٦/٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٢٨.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٨٤/١٦.

(٤) يقول ابن عاشور: «وفي هذا تنويه أيضاً بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما اذكروا بالقرآن». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٨٤/١٦.

(١) وسلم من عنايته تعالى ولطفه بالمدعوين حيث لم يتركهم يتخبطون في ظلمات الجاهلية والضلال .
 وإن في تعريف الله تعالى بنفسه بصفات الكمال والعظمة والجلال، والملك تحبيب
 للمدعوين، وتذكير لهم بأن الله تعالى عظيم جليل رحيم وسعت رحمته المؤمنين والكافرين
 فيزداد المؤمنون حبا لله تعالى، واستشعارا لمنتهم عليهم لما يرونه من مظاهر الرحمة الشاملة لهم .
 وإن في اختيار لفظ «التنزيل» للقرآن الكريم لدلالة على الترفق بالمدعوين بتنزيل القرآن
 تدريجيا «إزالة لشبههم، وشرحا لصدورهم، وتسكيننا لنفوسهم، ومدامدة البركة فيهم بتردد
 الملائكة الكرام إليهم» .

الدرس الأول: قصة موسى عليه السلام

العلاقة بين قصة موسى والافتتاحية :

ذكر سيد قطب رحمه الله أن قصة موسى عرضت في القرآن بما يناسب موضوع السورة
 التي تعرض فيها، وجوها، وظلها، واتجاهها ، ثم ذكر مناسبة عرض قصة موسى هنا بمطلع

(١) اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الانباء: ١٠٧)، ﴿ وَلَكِن رَّحِمَةً
 مِّن رَّبِّكَ يُنذِرُ فَوْقَ مَا أَنذَرَهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص: من الآية ٤٦)
 ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)
 (القصص: ٨٦) ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ (٦) ﴾ (الدخان: ٥-٦).
 ﴿ الرَّكَّةَ كُنتَ أَتْرُكْنَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
 الْحَمِيدِ ﴿ (١) ﴾ (ابراهيم: ١).
 ﴿ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ (١)
 (الحديد: ٩).
 ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾
 (الطلاق: ١١).

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ٢٦٧/١٢.

(٣) قال رحمه الله: «وقصة موسى أكثر قصص المرسلين ورودا في القرآن، وهي تعرض في حلقات تناسب=

السورة فقال: «أما هنا في طه: فقد سبقها مطلع السورة الذي يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفئهم لحمل رسالته، وتبليغ دعوته، فجاءت القصة مظلمة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة وتضمن نياح من رعاية الله لموسى عليه السلام، وتثبيته، وتأنيده، وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة، فقد كانت ترافقه في طفولته، فتحرسه وتتعهده: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾^(١).

ويقول ابن عاشور رحمه الله: «أعقب تثبيت الرسول على التبليغ والتنويه بشأن القرآن بالنسبة إلى من أنزله ومن أنزل عليه بذكر قصة موسى عليه السلام ليتأسى به في الصبر على تحمل أعباء الرسالة ومقاساة المصاعب . وتسلية له بأن الذين كذبوه سيكون جزاؤهم جزاء من سلفهم^(٢)».

= موضوع السورة التي تعرض فيها، وجوها، وظلها... ففي المائة كان حلقة واحدة: حلقة وقوف بني إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين.

وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة: حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة... وفي البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه في الملائكة الأعلى، وعهد الله إليه بخلافة الأرض ونعمته عليه بعد ما غفر له، فجاءت قصة موسى وبني إسرائيل تذكيرا لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم، وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه، واستقائهم وتفجير الينابيع لهم، وإطعامهم المن والسلوى، وذكر مواعدة موسى وعبادتهم للعجل من بعده، ثم غفرانه لهم، وعهدهم إليهم تحت الجبل، ثم عدوانهم في السبت، وقصة البقرة.

وفي الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى - عليه السلام - فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة، وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل، وخاتمة فرعون وملئه المكذبين، ثم ما كان من بني إسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل في غيبة موسى، وتنتهي القصة بإعلان فيها وراثة رحمة الله وهداية للذين يتبعون الرسول النبي الأمي.

وفي يونس سبقها مصارع المكذبين. فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة، وعرض مشهد السحرة، ومصراع فرعون وقومه بالتفصيل. في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٩.

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٩.

(٢) ويبدو أن ابن عاشور أخذ هذا القول عن البيضاوي فقد قاله في تفسيره: ٤/ ٤٢، وتعقبه أبو السعود=

من المكذبين، ولذلك جاء في عقب قصة موسى قوله تعالى ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ ﴾^(١).

ولما كانت قصة موسى قد شغلت أكثر من نصف هذه السورة، حيث بلغ عدد آياتها ٩٠ آية من ١٣٥ آية رأيت أن أقسمها إلى مشاهد ستة: مشهد المناجاة في الوادي المقدس، ومشهد التكليف والرعاية، ومشهد الحوار والجدال مع فرعون، ومشهد المباراة بين موسى والسحرة ومشهد خروج موسى ببني إسرائيل، ومشهد المناجاة إلى جانب الطور الأيمن وموقف موسى مما أحدث قومه من بعده.

وفيما يلي عرض لتلك المشاهد، وبيان لما تضمنته من معان ودلالات وهدايات:

= رحمه الله بقوله: «وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبي ﷺ في الاتساء بموسى عليه الصلاة والسلام في تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاق» تفسير أبي السعود: ٦/٦.

(١) التحرير والتنوير: ١٦/١٩٣.

المشهد الأول: مشهد المناجاة في الوادي المقدس

﴿ وَهَلْ أُنْتَكِ حَدِيثُ مُوسَى ٩ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ١٠ فَلَمَّا أَنْهَا نُودِيَ بِمُوسَى ١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٢ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ١٣ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ١٤ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ١٦ وَمَا تَلَكَ بِسَمِينِكَ بِمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ١٨ قَالَ أَلْقَاهَا بِمُوسَىٰ ١٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ٢١ وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ٢٢ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ٢٣ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ٢٤ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ٢٥ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ٢٦ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ٢٨ وَأَجْعَل لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ٢٩ هَٰذِهِنَّ آخِي ٣٠ أَشَدُّ بِهِ ٣١ أَزْرَىٰ ٣١ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ٣٢ كَيْ تُسْحِكَ كَثِيرًا ٣٣ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ بِمُوسَىٰ ٣٦ وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ٣٨ أَنْ أَدْفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْبَيْرِ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهٗ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِيُضَنِّعَ عَلَىٰ عَيْبِي ٣٩ إِذْ تَسْتَشِيءُ أَخْتَاكَ فَفَقُولْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَجَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُؤَادًا فَلَيْتَ سِينٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ بِمُوسَىٰ ٤٠ وَأَصْطَفَعْنَاكَ لِنَفْسِي ٤١ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا بَيْنِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ٤٢ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ٤٤ ﴾

يتضمن هذا المشهد أمر رجوع موسى بأهله من مدين، ورؤيته النار بجانب الطور والذهاب إليها اقتباسا من نورها، وتدفقة من برد الشتاء، إضافة إلى طهي شيء من الطعام، أو التماسا هاد يهديه الطريق بعد أن ضل، ثم خبر نداء الله تعالى له، وما تضمن ذلك النداء من الأوامر لموسى بخلع نعليه والاستماع لما يوحى إليه من أمر التوحيد، والعبادة، وإقامة الصلاة، وشأن الساعة والإيمان بها، ومعجزتي العصا واليد، وأمره بالذهاب إلى فرعون الطاغية، وما

طلبه موسى من ربه من شرح صدره، وتيسير أمره، وفك عقدة من لسانه، وجعل هارون وزيراً له، ثم تذكير الله له بمننه عليه، حيث حفظه صغيراً، وأحاطه بعنايته التي رافقته منذ ولادته إلى هجرته إلى مدين، ثم عودته ليلقى اليوم الذي قدره الله تعالى له، ليوحى إليه بالرسالة والتكليف بالذهاب إلى فرعون مع أخيه ليلبغاه ما أمرهما الله تعالى به بقول لين لعله يتذكر أو يخشى.

المعنى الإجمالي:

أخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة الاستفهام بـ «هل أتاك» وهو نوع من الاستفهام يستعمل في تشويق السامع إلى الخبر، وبفعل النداء «نودي» المبني للمجهول، الذي به يزداد الأمر تشويقاً إلى استطلاع القصة، فإبهام المنادي يشوق سامع الآية إلى معرفته فإذا فاجأه ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ علم أن المنادي هو الله تعالى فتمكن في النفس كمال التمكن^(١).

يحكي الله تعالى لنبيه محمد ﷺ قصة موسى «مسليه عما يلقي من الشدة من مشركي قومه، ومعرّفه ما إليه صائر أمره وأمرهم، وأنه معلية عليهم، وموهن كيد الكافرين، ويحثه على الجّد في أمره، والصبر على عبادته، وأن يتذكر فيما ينوبه فيه من أعدائه من مشركي قومه وغيرهم وفيما يزاول من الاجتهاد في طاعته ما ناب أخاه موسى صلوات الله عليه من عدوّه، ثم من قومه، ومن بني إسرائيل وما لقي فيه من البلاء والشدة طفلاً صغيراً، ثم يافعاً مترعراً، ثم رجلاً كاملاً»^(٢).

وهذا المقطع هو المشهد الأول من هذه القصة في هذه السورة إنه مشهد رجوع موسى من مدين إلى وطنه مصر، والآية تبثنا عن سبب التماس موسى النار، فقد كانت ليلة باردة ضل فيها الطريق، وكل ذلك بقدر من الله تعالى حتى يصل موسى إلى الوادي المقدس حيث التكليف بالرسالة، فكانت هذه النار التي رآها موسى، واستبشر بها، فمنها يقتبس قبساً، أو

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/١٩٣، ١٩٥.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٤١-١٤٢.

يجد هاديا يهديه الطريق، فأمر أهله بالموث، ومضى هو لوحده «فريدا في تلك الفلاة، والليل دامس، والظلام شامل، والصمت مخيم، وهو ذاهب يلتمس النار التي أنسها من جانب الطور» فإذا بندااء الله تعالى له بخلع نعليه «ليباشر بقدميه بركة الوادي^(١) إذ كان مقدسا^(٢) استعدادا لتلقي أمر الشريف بالاختيار للرسالة، وأوامر التكليف بأسس الرسالة الثلاثة، وهي الاعتقاد بالوحدانية، والوحدانية هي قوام العقيدة، والتوجه له بالعبادة، والعبادة تشمل التوجه لله تعالى في كل نشاط الحياة^(٣)، ويخص منها إقامة الصلاة، لأهميتها^(٤)، ثم الساعة^(٥)، والساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العادل الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق^(٦)، «وقد أبهم الله وقت الساعة فلم يطلع عليه أحد

(١) واسمه «طوى». جامع البيان، للطبري: ١٦/١٤٧.

(٢) وهو ما رجحه الطبري، ورد قول من قال: لأنها من جلد حمار، وعلل ذلك بقوله: «لأنه لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعهما من أجل أنها من جلد حمار ولا لنجاستها، ولا خبر بذلك عمن يلزم بقوله الحجة، وإن في قوله {إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ} بعقبه دليلاً واضحاً، على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا». ينظر جامع البيان للطبري: ١٦/١٤٤.

(٣) يقول ابن عاشور: «ثم فرع على ذلك الأمر بعبادته. والعبادة تجمع معنى العمل الدال على التعظيم من قول وفعل وإخلاص بالقلب». التحرير والتنوير: ١٦/١٩٩-٢٠٠.

(٤) «وإقامة الصلاة: إدامتها، أي عدم الغفلة عنها» التحرير والتنوير: ١٦/١٩٩-٢٠٠، والمعنى: «وأقم الصلاة لتذكرني فيها. جامع البيان، للطبري: ١٦/١٤٨، ورجح ابن جزري «أن المراد أقم الصلاة عند ذكره كقوله ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ ﴾ أي عند دلوك الشمس، وذلك لأن النبي ﷺ استدل بالآية على وجوب الصلاة على الناسي إذا ذكرها». بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: وأقم الصلاة لذكرك». رواه الإمام أحمد. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/١١،

(٥) «وجملة (إن الساعة آتية) مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدين بعد أصل التوحيد، وهو إثبات الجزاء». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/٢٠١.

(٦) ينظر في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣٣.

حتى أنه كاد أن يخفي وقوعها لإبهام وقتها ولكنه لم يخفها إذ أخبر بوقوعها»^(١).

ثم أعقب سبحانه خبره عن الساعة بقوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ والمعنى «فلا يردّك يا موسى عن التأهب للساعة، من لا يؤمن بها، أي: من لا يقرب بقيام الساعة، ولا يصدّق بالبعث بعد الممات، ولا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً. ﴿وَأَتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: اتبع هوى نفسه، وخالف أمر الله ونهيه ﴿فَتَرَدَّى﴾ أي: فتهلك إن أنت انصددت عن التأهب للساعة، وعن الإيمان بها، وبأن الله باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصدّ من كفر بها»^(٢).

ثم يوجه الله تعالى سؤالاً إلى موسى عليه السلام عما في يده فيفهم موسى عليه السلام أن السؤال إنما عن وظيفتها معه، فأجاب بأنها عصاه يتوكأ عليها، ويضرب بها أوراق الشجر لتساقط فتأكلها الغنم، وقد كان راعياً.

ولكن ما وراء السؤال أن يقرره بأنها خشبة، ولينظر موسى بعينه إلى قدرة الله تعالى في تحويل العصا حية تسعى، لتكون في يد موسى آية إلى فرعون، فانقلبت العصا حية، فخاف موسى، إلا أن الله أزال عنه ما عراه بأمره إياه ألا يخاف وأن يأخذها فإنه سعيدها عصا كما كانت بقدرته سبحانه، وبهذا عرف موسى كيف يتعامل مع العصا حين يريد لها حية تسعى أو عصا في يمينه.

ثم أشفعه الله بآية أخرى فأمره أن يضم يده ويضعها تحت عضده لتخرج بيضاء من غير برص أو مرض، زيادة في أمنه واطمئنانه.

(١) وهو ما صححه ابن جزي، ونص أنه اختيار المحققين، ثم قال: «فالأخفى على معناه المعروف في اللغة وكاد على معناها من مقاربة الشيء دون وقوعه». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١١-١٢.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٥٣، وقال ابن كثير: «المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين. أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر {فتردى} أي تهلك وتعطب، قال الله تعالى: {وما يغني عنه ماله إذا تردى}. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٦٢.

وكان موسى يتربص من وراء ما شاهد أمراً ما يجمله، فإذا بالأمر تكليف بالذهاب إلى فرعون الذي طغى، وقد فارقه موسى، وهو يعلم طغيانه وجبروته، فأحس بعظم المسؤولية، فسأل ربه الذي أكرمه بالرسالة، وأكرمه بالمعجزات طمعا في مزيد كرمه أن يعينه في مهمته التي انتدب لها فبسط حاجته بين يدي ربه في مقام التكريم، فسأله بقوله: ﴿ رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ لأعي عنك ما تودعه من وحيك، وأجترىء به على خطاب فرعون .^(١)

﴿ وَيَتَرَىٰ لِي أَمْرِي ﴾^(٢) أي: وسهل عليّ القيام بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة ، وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله ، وطلب أن يعينه بمعين من أهله، هارون أخيه، لأنه يعلم عنه فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وهدوء الأعصاب ليشد به ظهره، وطلب أن يشركه بالنبوة ليكون ذلك العطاء عوناً لهما على تعظيم الله وتسبيحه، وكثرة ذكره، لأنها مقدمات على أمر جليل يحتاج إلى التسييح الكثير والذكر الكثير، والاتصال الكثير ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾^(٣) تعرف حالنا وتطلع على ضعفنا وقصورنا وتعلم حاجتنا إلى العون والتدبير.

فما أن انتهى موسى من طلبه حتى من عليه الكريم بالإجابة وهو في موقف التكريم والامتنان فناداه باسمه: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾^(٤). وأي تكريم أكبر من أن يذكر

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٥٩، في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٤.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٥٩.

(٣) وقد روي أنه كانت بلسانه حبسة. «وإنما قال عقدة بالتنكير لأنه طلب حل بعضها ليفقهوا قوله ولم يطلب الفصاحة الكاملة» «ولو سألت أكثر لأعطي، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿ أَمْرًا نَحْنُ حَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾^(٥) أي يفصح بالكلام». ينظر التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٦٥، وفقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٦.

(٤) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

(١)

الكبير المتعال اسم عبد من عباده .

وبعد هذا العطاء يذكر الله تعالى موسى عليه السلام بمننه عليه قبل أن يصير رسولا، وأنه إنما رعاه وهو صغير، ولم تفارقه عناية الله تعالى حتى بلغ أشده، واختير للرسالة، ليزداد موسى بذلك اطمئناناً، وأسناً، لأن ربه معه وهو صغير، ولن يتخلى عنه وهو اليوم رسول ^(٢)، وهو سبحانه الذي أوحى إلى أمه من قبل أن تقذفه في التابوت ^(٣)، وتلقيه في اليم، ليلقيه اليم بالساحل، فيأخذه فرعون الذي كان يقتل أبناء بني إسرائيل، وهو الذي ألقى عليه محبة منه هبة وعطاء، فلم تنله يد فرعون بالضر والأذى، وهو الذي أعاده إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، ذلك حين منعه قبول الإرضاع إلا من أمه بتدبير من الله تعالى ليعيش موسى مع أمه آمناً مطمئناً، ولتقر عينها دون خوف من فرعون وبطشه، فبأمره أَرْضَعْتَهُ، وعلى مرأى من فرعون وبصره ترعرع ^(٤) ونما .

(٥)

وكان ختام ذلك الامتنان أن نجاه الله تعالى من الغم الذي أصابه بسبب قتله نفس ^(٥)، «فربه يذكره هنا بنعمته عليه إذ هداه إلى الاستغفار، فشرح صدره به، ونجاه من الغم، ولم يتركه

(١) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

(٢) وآية ذلك اليقين بعون الله تعالى ورعايته، وتلك الثقة بتأييده أن قال لقومه واثقا: «إن معي ربي سيهدين» لما قالوا له {إنا لمدركون} بسبب قرب فرعون وجنده منهم، وقد كان أن أمره ربه أن يضرب بعصاه البحر، فنجوا جميعا، وأهلك الله فرعون وجنده فأغرقهم في اليم.

(٣) «وأطلق» القذف» هنا على الوضع في التابوت. تمثيلا لهيئة المخفي عمله، فهو يسرع وضعه من يده كهيئة من يقذف حجرا ونحوه». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٦.

(٤) يقول ابن جزري: «ولتصنع على عيني» أي تربي ويجسن إليك بمرأى مني وحفظ. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٣.

(٥) وهو ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شَيْعِنِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْنَى الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُؤْمِنٌ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (القصص: ١٥).

مع هذا بلا ابتلاء^(١) ليربيه، ويعدده لما أراد فامتحنه بالخوف، والهرب من القصاص، وامتحنه بالغبرة ومفارقة الأهل والوطن، وامتحنه بالخدمة ورعي الغنم... وفي المقدر في علم الله تعالى جيء بموسى من أرض مدين، وهو يظن أنه هو الذي جاء ﴿فَلَيْتَ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدْرٍ يَمْؤُوسِي﴾ أي «ثم جئت للوقت الذي أردنا إرسالك إلى فرعون رسولاً ولقذاره» .

﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(٤١) «أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن اجتباء مني لك، واختيار الرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمرني ونهبي»^(٣) . ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(٤١) خالصا مستخلصا محضاً لرسالتي ودعوتي... فامض لما اصطنعتك له ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون ﴿يَتَأْتِي﴾ «أي: بأدلتني وحججتي، اذهب إلى فرعون بها إنه تمرد في ضلاله وغيه، فأبلغه رسالاتي» .

﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ «أي: ولا تضعفا في أن تذكراني فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إياي يقوي عزائمكما، ويثبت أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتماني، ذكرتما مني عليكما نعمة جمة، ومننا لا تحصى كثرة»^(٥) .

اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ^(٦) يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٤٤)...

(١) يقول ابن جزى: «وفتناك فتونا» أي اخترناك اختباراً حتى ظهر منك أنك تصلح للنبوة والرسالة وقيل خلصناك من محنة بعد محنة لأنه خلصه من الذبح ثم من البحر ثم من القصاص بالقتل. التسهيل لعلوم التنزيل: ١٣/٣ .

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦٧/١٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى: ١٣/٣ .

(٣) جامع البيان، للطبري: ١٦٩/١٦ .

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦٩/١٦ .

(٥) جامع البيان، للطبري: ١٦٩/١٦ .

(٦) يقول الطبري: «معنى لعل ههنا كي. ووجهوا معنى الكلام إلى ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^(٤٢) فادعوا وعظوا ليتذكر أو يخشى، كما يقول القائل: اعمل عملك لعلك تأخذ أجرك، بمعنى: لتأخذ أجرك». جامع البيان: ١٦٩/١٦ .

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته.. راجيين أن يتذكر ويخشى^(١). فيرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: {لمن أراد أن يذكر أو يخشى^(٢)} ، وقال الحسن البصري: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٣) يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه .

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* «في سياق هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة، وتحمل أثقائها ومقاساة خطوبها، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله»^(٤).

* ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾^(٥) استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد الذي إليه ينتهي مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء كابرًا عن كابر، وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾^(٦) وبه ختم ﷺ مقاله

(١) ينظر في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٥-٢٣٣٦.

(٢) فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٢٧٦/٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٢٧٦/٥. ثم نقل شعر زيد بن عمرو بن نفيل، ويروى لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق:

وأنت الذي من فضل منّ ورحمة	بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له: فاذهب وهارون فادعوا	إلى الله فرعون الذي كان باغيا
فقولوا له: هل أنت سويت هذه بلا	وتد حتى استقلت كما هيا
وقولوا له: أأنت رفعت هذه بلا	عمد أرفسق إذن بك بانيا
وقولوا له: أأنت سويت وسطها منيراً	إذا ما جنه الليل هاديا
وقولوا له: من يخرج الشمس بكرة	فيصبح مأمست من الأرض ضاحيا
وقولوا له: من ينبت الحب في الثرى	فيصبح منه البقل يهتر رابيا
ويخرج منه حبة في رؤوسه؟	ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

(٤) فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٣٥٨.

- بعد إبطال ألوهية العجل بإحراقه، فقال: ﴿إِنكُمُ اللَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(١).
- * إن اجتلاب موسى إلى الوادي المقدس لتلقي الوحي باستدعائه بنور في ظلمة رمز على أنه سيتلقى ما به إنارة ناس بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد^(٢).
- * «أجرى الله على لسان موسى معنى قوله ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ إلهاما إياه أنه سيجد عند تلك النار هدى عظيماً، ويبلغ قومه منه ما فيه نفعهم^(٣)، «أتى النار ليُقْبَسَ أهلها منها ناراً أو يجد عندها هدى، فمنح من هدى الدارين والنصرة على الأعداء»^(٤).
- * إن الإخبار عن ضمير المتكلم بأنه رب المخاطب^(٥) لتسكين روعة نفسه من خطاب لا يرى مخاطبه فإن شأن الرب الرفق بالمربوب^(٦).
- * قوله: ﴿وَأَنَا أَخْفَرْتُكَ﴾ يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله: ﴿فَأَسْتَعِجْ﴾ يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الأول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف^(٧).
- * لله سبحانه أن يقدس ما شاء من الأمكنة والأزمنة، وعلى المسلم أن يعظم ما عظمه الله تعالى، وأن يراعي الأدب مع الله تعالى ومقدساته، وهاهو موسى يأمره ربه بخلع نعليه «تعظيماً منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلام الإلهي»^(٨)، و«ليتأدب ويعظم البقعة

(١) تفسير أبي السعود: ٦/٦.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/١٩٥.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/١٩٥. وتدبر كيف أجرى الله على لسانه التعبير بلفظ «هدى» ولم يقل «هادياً» فكان أن قد وجد الهدى.

(٤) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/٢٧١.

(٥) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾.

(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/١٩٦.

(٧) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/١٧.

(٨) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/١٩٦-١٩٧.

المباركة ويتواضع في مقام مناجاة الله^(١) . فيفعل .

* إن في تعريف الله تعالى بنفسه لموسى «إشارة إلى أن أول ما يتعارف به المتلاقون أن يعرفوا أسماءهم. فأشار الله إلى أنه عالم باسم كليمة^(٢) وعلم كليمة اسمه^(٣) ، وهو الله^(٤) ، ثم إن الأخبار عن ضمير المتكلم باسمه العلم الدال على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد وذلك أول ما يجب علمه من شؤون الإلهية، وهو أن يعلم الاسم الذي جعله الله علما عليه لأن ذلك هو الأصل لجميع ما سيخاطب به من الأحكام المبلغة عن ربهم^(٥) .

* ﴿وَأَنَا أَخْتَرُكَ﴾ ومن كان هو اختيار الله تعالى فقد نال أعلى مراتب التشريف والتكريم، لأن الله إنما يختار من عباده المصطفين الأخير ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: من الآية ٧٥] ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: من الآية ١٢٤].

* ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ «إن انفراده تعالى بالإلهية يقتضي استحقيقه أن يعبد»^(٦) .

* ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ تخصيص للصلاة بالذكر مع كونها داخلية في العبادة المأمور بها^(٨) ، لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر، لأنها

(١) المحرر الوجيز، لابن عطية: ٣٩/٤، «واستحسنه ابن جزى». التسهيل لعلوم التنزيل: ١١/٣ .

(٢) ﴿تُودِي بِمُوسَى﴾ .

(٣) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ .

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٩٩/١٦ - ٢٠٠ . ثم قال: وجملته (لا إله إلا أنا) خبر ثان عن اسم

(إن). والمقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانية الله تعالى.

(٥) حيث قال له: «إنني أنا الله» .

(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٩٩/١٦ .

(٧) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٩٩/١٦ - ٢٠٠ .

(٨) في قوله سبحانه: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ .

تتمحض لهذه الغاية، وتتجرد من كل الملابس الأخرى؛ وتتهياً فيها النفس لهذا الغرض وحده، وتتجمع للاتصال بالله^(١)، «ولأنها تجمع أحوال العبادة»^(٢).

* التأكيد على الإيمان بالساعة وما يترتب على قيامها من الجزاء العادل، لما فيه من انعكاس إيجابي على الفرد بدوام الاستعداد لمستقبل حتمي وهو الحساب والجزاء، ولأن «الساعة هي الموعد المرتقب للجزاء العادل الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب، وتحاسب، وتحشى الانزلاق»^(٣).

* إن إخفاء الساعة يغرس في نفس العبد أنها من اختصاص الله تعالى، فهو الذي يقيمها متى شاء^(٤) ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾، وليس على العبد إلا العمل، وقد سأل سائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: متى الساعة؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «ما أعددت لها»^(٥).

* ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾^(٦) «وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله»^(٧).

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/٢٣٣٣.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/١٩٩-٢٠٠.

(٣) ينظر في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣٣.

(٤) وقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ (لأعراف: من الآية ١٨٧) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾^(١٣) ﴿الْأَحْزَابُ: ٦٣﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾^(١٤) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾^(١٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْهَا نَازِعَاتٌ﴾^(١٦) (النازعات: ٤٢-٤٤).

(٥) البخاري في صحيحه، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، برقم: ٣٤٨٥، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في صحيحه، باب المرء مع من أحب، برقم: ٢٦٣٩، وفي مواضع أخرى من صحيحه.

(٦) الكشاف، للزمخشري: ٣/٥٨، ونظم الدرر، للبقاعي: ١٢/٢٧٩.

- * سأل الله تعالى موسى عما في يمينه ليعرفه بعظيم قدرته سبحانه على قلب العصا حية^(١) وفيه إيناس له، وبسطه بالكلام^(٢).
- * بسط موسى الكلام في بيان منافع العصا استئناساً بلذيد المخاطبة، وخوفاً من الأمر بإلقائها كالنعل^(٣) الذي أمر بخلعها في أول اللقاء.
- * «ولما كان موسى أكمل أهل ذلك الزمان، خاف التطويل على الملك فقطع على نفسه ما هو فيه من لذة المخاطبة كما قيل: «اجلس على البساط وإياك والانبساط»، وطمعاً في سماع كلامه سبحانه وتعالى، فقال مجملاً: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ﴾ أي حوائج ومنافع يفهمها الألباء^(٤). أو أنه إنما «فصل ثم أجمل لينظر مقدار اقتناع السائل حتى إذا استزاده بيانا زاده»^(٥).
- * إن الغرض من إظهار قلب العصا حية لموسى أن يعرف أن العصا تطبعت بالانقلاب حية فيتذكر ذلك عند مناظرة السحرة لثلاثيحتاج حينئذ إلى وحي^(٦).
- * طلب موسى من ربه أربعة عوامل من دواعي أداء الرسالة، لما كلفه بالذهاب إلى فرعون الطاغية «بدأها بشرح الصدر ﴿رَبِّ أَشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، ثم تيسير الأمر ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾^(٧) وهذا من عوامل ذاتيان^(٧)، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون، وهو اللسان في الإقناع ﴿وَأَحْلُلْ عُقْدَةً

(١) جامع البيان، للطبري: ١٥٤/١٦.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ١٢/٣.

(٣) نظم الدرر، للبقاعي: ٢٨٠/١٢.

(٤) نظم الدرر، للبقاعي: ٢٨٠/١٢.

(٥) لتحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٠٥/١٦.

(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٠٧/١٦.

(٧) «وزيادة (لي) بعد (اشرح) وبعد (يسر)... لأن الشرح والتيسير متعلقان به فكان قوله (لي) فيها زيادة بيان كقوله (ألم نشرح لك صدرك) وهو هنا ضرب من الإلحاح في الدعاء لنفسه». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢١١/١٦.

مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾^(١) ثم العامل المادي أخيراً في المؤازرة ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا﴾^(٢) .

* إن «انشرح الصدر ينسجم به الإنسان مع وظيفته، فإذا هي أمر محبب إليه، أثير لديه، فإذا ما زاول هذه الوظيفة لم يبال بما يواجهه من صعاب، وما يتحمل من أثقال، لأنه لا ينهض بهذه الأعمال بساعده وطاقته المادية، ولكن بهذا المدد الوارد إليه من الله سبحانه وتعالى»^(٣) .

* إن انشرح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه إلى لذة ويجعله دافعاً للحياة لا عبئاً يثقل خطى الحياة^(٤)

* إن انشرح الصدر مدد إلهي «يحرك الجسم إلى ما يريد الله، وانقطاعه يسخر الجسم إلى ما يريد

(١) لم يقل هنا: «واحلل لي عقدة من لساني»، لأن ذلك سؤال يرجع إلى رسالة الله إلى فرعون فليست فائدتها راجعة إليه حتى يأتي لها بلام التبيين». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٢.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٠. ويبدو أن عمارة أفاد هذا من كلام الإمام الشنقيطي حيث قال رحمه الله «فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل بدأها بشرح الصدر ثم تيسير الأمر وهذان عاملان ذاتيان ثم الوسيلة بينه وبين فرعون وهو اللسان في الإقناع واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ثم العامل المادي أخيراً في المؤازرة واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته لأنه به يقابل كل الصعاب ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم وقد بين تعالى من دواعي انشرح الصدر وإنارته ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقي تلك التعاليم من الوحي كقوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وكقوله والكاسطين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين مما لا يتأتى إلا من شرح الله صدره

ومما يعين الملازمة عليه على انشرح الصدر وفعلاً قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة وتلقى كل ذلك بصدر رحب، وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله أن يكون رحب الصدر هادىء النفس متجعلاً بالصبر أضواء البيان - الشنقيطي ج ٨/ ص ٥٧٤-٥٧٥.

(٣) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٩.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٢.

الجسم، ويجعله عبدا لشهواته... وضيق القلب المحروم من نور الله يشوش على الخواطر ولا يمكن صاحبه من إصابة الهدف»^(١).

* إن تيسير الأمر، إنما هو التوفيق، وكل مجتهد مسلوب التوفيق لا محالة أنه لا يفلح ولا ينجح في الوصول إلى مراده، وإنما الفلاح لمن صاحبه توفيق الله تعالى وتيسيره، لذلك كان هذا الدعاء من موسى في هذه المهمة الصعبة، ومثله أيضا لكل من يتصدى للدعوة إلى الله فإن من لم ييسر الله له أمره خاب.

إذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجني عليه اجتهاده^(٢).

* إن تيسير الله لعباده هو ضمان النجاح. وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول؟!^(٣).

* لما كان البيان من لوازم التبليغ حتى يفهم عن الداعية ما يريد تبليغه سأل موسى أن يحل الله عقدة من لسانه، لتصل الكلمة إلى «قلب فرعون موزونة خالية مما يثير سخريته في نبرة تحمل على التأثير»^(٤)، ولتحقيق كمال التبليغ طلب موسى من ربه أن يرسل إلى هارون، وبين العلة في ذلك لما قال: ﴿وَإِنِّي هَكَرْتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤].

* إن للفصاحة في بيان الحق وتبليغه أهمية كبرى، لذا كان واجبا على الداعية أن يأخذ من اللغة ما يقيم به لسانه ويعينه على بيان الحق الذي معه، وقد أرسل الله الرسل باللسنة أقوامهم ليبينوا لهم ما أمروا بتبليغه، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٥) [ابراهيم: ٤]، وإن هذا القرآن بيان عربي لا يتسنى حسن إبلاغه إلا باللفظ العربي المبين، فمطلوب لنجاح

(١) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٠.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١١.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٣٢/٤.

(٤) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١١.

الداعية» طيب الكلام، وصدق النوايا، وسلامة في التعبير، ورقة في الأسلوب... ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾^(١).

* طلب موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه، وأن يشرکه في أمر النبوة، حبا منه لأخيه ما أحبه لنفسه، وشعورا بأهمية أن يكون معه من يعينه في مهمته الصعبة هذه، فكلما كثر الأنصار كلما قوي الرجاء في بلوغ الغاية، ولذا يكاد أن يكون الاجتماع على الدعوة لنصرة الدين والحق أمر لازم، خاصة في ظل اجتماع الباطل المنظم ضد الحق وبالضدين تتحقق سنة التدافع، ليحق الله الحق، ويبطل الباطل، ويتحقق بإذن الله وعد الله الحق ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ولا بد من الصحبة على طريق الدعوة، لأن حملها ثقيل يخففه الرفقة الصالحة المتجانسة في الفكر والهم، وتشد الحاجة إليها حين يكون العدو طاغية مستبدا، «وإن في التعاون على أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة، إذ يمكن أن يقتسم العمل الضروي لحياتها فيقل زمن اشتغالها بالضروريات وتتوفر الأوقات لأداء الرسالة. وتلك فائدة عظيمة لكليهما في التبليغ»^(٢).

* إن في طلب موسى وزارة أخيه حتى يتكامل الاثنان في طباعهما بين شدة موسى وحدة طبعه وسرعة تأثره، وبين سعة صدر هارون وترويه، وكل منهما له مكانه في وسط الدعوة. «لأن المزاج الحاد يحقق نجاحا ولا شك.. وهو أمر مطلوب في زمان تضغط فيه الرذائل بثقلها البغيض، ولا يفيل حديدتها إلا دفاع قوي، بيد أن مصلحة الدعوة تفرض ألا ينفرد هذا المزاج بتصريف الأمور-التي لا غنى لها عنه- بل لا بد مع ذلك من وجهة النظر الهادئة المعتدلة تستثمره لصالح الدعوة، وتوجهه إلى حيث يفيد، وبذلك يتكامل الدعاة على الطريق.. بلا نزاع أو تصادم، وما أحوجنا إلى أن نعي هذا الدرس جيدا»^(٣).

(١) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١١٦.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢١٤/١٦.

(٣) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام: ١٢٤.

* إن الاستعانة بالمخلصين الأكفاء أمر مطلوب لإبلاغ الدعوة، وقد طلب موسى من ربه معينا فقال: ﴿ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۖ هَٰزُونَ أَحْسَنُ ۗ أَشَدُّ بِهِ زَرًّا ۚ ﴾ (٣١)، ليكون ذلك سببا في إقامة الشعائر: ﴿ كَىٰ سُبْحَكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْرَكَ كَثِيرًا ۚ ﴾ (٣٢).

* إن «فيما سأله موسى لأخيه تشريكة في الدعوة ولم يكن لأخيه من قبل، وذلك يجعل من أخيه مضاعفة لدعوته، وذلك يبعث أخاه أيضاً على الدعوة. ودعوة كل منها تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه فهي مشتملة على التسبيح»^(١). ﴿ كَىٰ سُبْحَكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْرَكَ كَثِيرًا ۚ ﴾ (٣٢).

* ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ۚ ﴾ (٣١) هذه استجابة فورية لطلبه ﷺ، والله سبحانه لا يرد سائلا مخلصا في دعائه، فهو الذي أمر بالدعاء ووعد بالاستجابة بقوله: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۗ فَكَانَ لَأَبَدٍ لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَمِيَّ أَمِيَّةِ الدَّعَاءِ، ويدرك أثره في إنجاح دعوته، مع ما يتضمنه الدعاء من معاني العبودية والتذلل لله تعالى، ولذا كان الدعاء هو العبادة كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الدعاء هو العبادة»^(٢).

* «إن جملة ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ۚ ﴾ (٣١) تتضمن منة عليه، فعطف عليها تذكير بمنة عليه أخرى في وقت ازدياده بقوله ﴿ وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰكَ ﴾ ليعلم أنه لما كان بمحل العناية من ربه من أول أوقات وجوده فابتدأه بعنايته قبل سؤاله فعنايته به بعد سؤاله أخرى، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاضطفاء والرسالة، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه، فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيداً في سائر أحواله المستقبلية، كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۗ أَلَمْ يَجِدْكَ

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢١٤/١٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه: ٣/١٧٢، برقم: ٨٩٠، والنسائي في سننه الكبرى: ٦/٤٥٠، ١١٤٦٤، وأبو داود في السنن: ٢/٧٦، برقم: ١٤٧٩، والترمذي في سننه: ٥/٢١٢، برقم: ٢٩٦٩، وقال: حسن صحيح.

يَتِيَسًا فَتَاوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ [الضحى: ٥-٨]،
ثم إن تأكيد الخبر بـ «لام القسم» و«قد» في قوله: «ولقد» إنها هو لتحقيق الخبر، لأن موسى
عليه السلام قد علم ذلك، فتحقيق الخبر له تحقيق للزامه المراد منه، وهو أن عناية الله به دائمة لا
تنقطع عنه زيادة في تطمين خاطره بعد قوله تعالى ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾^(١).

* ذكر الله تعالى موسى بصور العون والرعاية له منذ طفولته وصباه، ليزداد ثقة بربه، وليزداد
شكراً له، ولينشط للدعوة، ويشدد عزمه على تبليغ التكليف، فإن الذي حفظه ورعاه قبل
التكليف، هو القادر على نصره وتأييده بعد التكليف، ولذا لما ضاق السبيل بقومه فقالوا
﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ قال لهم موسى واثقاً بهداية ربه له: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فهداه بضرب
البحر بعصاه.

* إن فيما أوحاه الله تعالى إلى أم موسى من وضعه في التابوت وقذفه في اليم، تعليم للعباد أن
يعتقدوا بأن عاقبة ما أمر الله به خير لهم، وإن لم يتبين ذلك في أول الأمر، وهو أيضاً حث
للعباد أن يتوكلوا على الله بعد أن يتخذوا لذلك ما تيسر لهم من الأسباب، ويتركوا الأمر من
بعد الله تعالى، ثقة به، فإن من توكل على الله كفاه، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

* إن في جعل اليم مأموراً بإلقاء موسى هو أحد جوانب العناية حيث سخره الله ليلقيه على
ساحل فرعون، فيلتقطه آل فرعون، ليتربى في كنف فرعون - بلا خوف ولا وجل - فيكون
لهم عدواً وحزناً.

* إن من دلائل إلقاء الله المحبة على موسى أن حبيه إلى «آسية» امرأة فرعون، حتى تبنته وغذته
وربته، وإلى فرعون، حتى كف عنه عاديته وشره. وقد قيل: «إنما قيل: وألقيت عليك محبة
مني، لأنه حبيه إلى كل من رآه»^(٢). ولعل من إلقاء المحبة عليه أن أعجبت بنت شعيب بقوته

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/٢١٥.

(٢) وهو اختيار الطبري. جامع البيان، للطبري: ١٦/١٦٢.

- وأمانته، فأومات إلى رغبتها فيه، فأواه شعيب وزوجه إحدى ابنتيه.
- * ﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٤١) تعبير عن «الكرامة والتقريب؛ أي: استخلصتك وجعلتك موضع صنيعتي وإحساني» .
- * «بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى كيف حفظ موسى في التابوت رضيعاً، وما يثمره ذلك من يقين ثابت بالله تعالى وبنصره يكلفه الله سبحانه وتعالى بمواجهة فرعون في صحبة هذه الثقة الوطيدة الناشئة عن سابق فضله تعالى عليه ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ (٢) .
- * «إن أمر الله تعالى لموسى وهارون بالألا يفترأ في ذكر الله، وخاصة في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له» (٣) .
- * إن طغيان فرعون وجبروته، لم يمنع من الذهاب إليه لتبليغ الدعوة، بل إن هذا الطغيان أقوى دواعي المبادرة إذ جعله الله علة للذهاب حيث قال ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤) .
- * قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ احترام للعقل الإنساني، «فهذا تعليل للأمر بالذهاب، أي أن الأمر لا ينصب حاسماً ليتنفذ بلا أسباب ولا مناقشة، وإنما هو المنهج القرآني الذي يحترم العقل الإنساني ويقدره، وآية هذا الاحترام أن يعرض عليه القضية مشفوعة بدليلها، لتنشط أجهزة الإنسان كلها عاملة داعية إليها، وليكون لنا درساً يفيدنا في عرض قضاياها على الآخرين عرضاً يدخل في حسابنا أن للآخرين عقولاً وقلوباً لها ذاتيتها، ولها اعتزازها بأرائها، ولها أيضاً طبعها الذي ينفر من كل عرض تشتم منه رائحة الضغط أو الإكراه، وإنما هو تجلية الحق وتوضيح الدليل، وبعد ذلك ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (٥) .

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ١٣/٣ .

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٤٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٥/٢٢٧٥ .

(٤) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٨ .(٥) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٠٩ .

* ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٤٤) «لأن القول اللين لا يثير العزة بالإثم؛ ولا يهيج الكبرياء الزائفة الذي يعيش به الطغاة. ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان» (١).

* «واللين من شعار الدعوة إلى الحق، أمر الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وهو يدعو عتاة قريش وطغاتهم، فقال له: ﴿أَدْخُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٥٩]، ومن اللين في دعوة موسى لفرعون قوله تعالى ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَهُ﴾ (١٨) و﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشَى﴾ (١٩) [النازعات: ١٨-١٩]. وقوله ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَنْبَعِ الْأَهْدَى﴾، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى، فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه، قال تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (٢) وقال تعالى عن موسى ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٢١).

* إن من حكمة الله تعالى في أمره موسى عليه السلام بمخاطبة فرعون بالقول اللين، أنه رباه، وقد قال له: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِتْنًا وَلِبَدًا وَلَبِثْتَ فِتْنًا مِنْ عَمْرِكَ سِتِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، فكان من رعايته لحقه ألا يغلظ عليه في القول، هذا بالإضافة إلى أن من عادة الجبابة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عتوا وتكبرا، فيكون ذلك سبباً في أن ينهي حياة الداعية في غمضة عين، لأنه يملك من وسائل القوى ما يمكنه من ذلك، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر (٣).

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/٢٣٣٦،

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/٢٢٥.

(٣) التفسير الكبير، للرازي: ٢٢/٥١، وفقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٤٦.

* «إن هذه الآية^(١) فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»^(٢).

* على الداعية أن يعي أهمية القول اللين، ليلتزمه في دعوته إلى الله تعالى، «إذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولاً لنا، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه»^(٣). «وعليه أن يفهم أيضاً نفوس العصاة الذين يعنى بدعوتهم، وأنه سيواجه نفوساً تطبعت بطباع تحجب النفوس فلا ترى الحق، وتصرف القلوب فلا تتجه إليه، فيصعب حينها الدخول إلى نفوسهم وإقناعهم بالحق الذي معه، ما لم يستعمل اللين في دعوتهم، وقد قيل: «ولا تخاشن العاصي وأنت تدعوه إلى الحق فتجمع عليه مرارتين: مرارة التخلي عن عادة أنس بها زمناً، ثم مرارة الشدة المزعجة له»^(٤).
ومما ينبغي أن يعيه الداعية في دعوته العصاة:^(٥)

* أنه يقف ضد ميولهم ونزعاتهم المندفعة نحو الشر، وأن عوامل الشر أظهر من دواعي الخير.
* أنه يعدهم بحياة أبدية، لكنها متوقعة، وليست بواقعة، وانتظار المتوقع مقلق للنفوس.
* سهولة الحصول على المتع الدنيوية المتاحة، والنفوس أقرب إلى المحسوس منها إلى المعقول.
إن القول اللين أثمر في دعوة فرعون ثمرات هي:^(٦)

* تراجع فرعون، فبعد أن كان يقول «أنا ربكم الأعلى» اتسع صدره ليتصور إلهاً غيره، فصار يخاطب موسى وهارون بأسلوب الحوار ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْؤِسِي ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿ فَمَا بِالْقُرُونِ ﴾

(١) ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْتَسِبُ ﴾.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٢٧٦/٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠٠/١١.

(٤) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٤٧.

(٥) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٤٣.

(٦) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٧١.

﴿الْأُولَى﴾

* أنه لم يبطش بموسى وهارون ولم يبدأهما بالعدوان، واستعمال القوة، وهو ما كان يخافان منه ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾

* أنه قد تحقق التذکر والخشية من فرعون، وإن كان بعد فوات الأوان. يقول القرطبي: «وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشي فقال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن لم ينفعه ذلك^(١)».

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة: محور السورة العناية بالرسل والمدعوين، والرعاية لهم.

ومن مظاهر تلك الرعاية والعناية في هذا المشهد ما يلي:

* التلطف مع موسى - ﷺ - بإيناسه حين أخبره الله بأن الذي يخاطبه هو ربه، ثم أمره بلزوم الأدب معه بخلع نعليه، ليباشر بهما الوادي المقدس، ثم تفضل عليه باختياره للرسالة، وتأيبده بمعجزتي العصا واليد، وتعليمه كيفية استخدامها عند الحاجة إلى ذلك.

* إن من عناية الله تعالى برسوله موسى - ﷺ - أن أذهب عنه ما في نفسه من الخوف حين انقلبت العصا حية تسعى حين أمره أن يأخذها وألا يخاف، وبين له بأنه سيعيدها كما كانت، فقال له في غير هذه السورة: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

* «والسياق هنا لا يذكر ما ذكره في سورة أخرى من أنه ولي مدبراً ولم يعقب. إنما يكتبني بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى - ﷺ - من خوف: ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة، فلا يشوبه بحركة الفزع والجري والتولي بعيداً، واطمأن موسى - ﷺ - والتقط

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١١/٢٠١.

الحية، فإذا هي تعود سيرتها الأولى! عصا" (١).

* أن الله تعالى أتى موسى - ﷺ - ما طلبه من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفك عقدة من لسانه، ووزارة أخيه هارون، فقال له: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ وهي أمور لا بد منها في تبليغ دعوته على الوجه الأكمل.

* ذكّر الله تعالى موسى - ﷺ - بصور العون والرعاية له منذ طفولته وصباه، ليزداد ثقة بربه، وشكرا له، ولينشط للدعوة، ويشند عزمه على تبليغ التكليف، فإن الذي حفظه ورعاه قبل التكليف، هو القادر على نصره وتأييده بعد التكليف، ولذا لما خاف قومه أن يدر بهم فرعون وجنده قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ فقال لهم موسى - ﷺ - واثقا بهداية ربه له-: قال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فهده بضرب البحر بعصاه.

* «إن جملة ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (٣٦) تتضمن منة عليه، فعطف عليها تذكير بمنة عليه أخرى في وقت ازدياده بقوله ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ﴾ ليعلم أنه لما كان بمحل العناية من ربه من أول أوقات وجوده فابتدأ بعنايته قبل سؤاله فعنايته به بعد سؤاله أخرى، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاضطفاء والرسالة، فالكرم يقتضي أن الابتداء بالإحسان يستدعي الاستمرار عليه، فهذا طمأنة لفؤاده وشرح لصدره ليعلم أنه سيكون مؤيداً في سائر أحواله المستقبلية، كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضَىٰ ۝٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٥-٨]، ثم إن تأكيد الخبر بـ «لام» القسم و«قد» في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ إنما هو لتحقيق الخبر، لأن موسى ﷺ قد علم ذلك، فتحقيق الخبر له تحقيق للازمه المراد منه، وهو أن عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه زيادة في تطمين خاطره بعد قوله تعالى ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (٢).

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٣٢.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢١٥.

* إن في جعل اليم مأموراً بإلقاء موسى - ﷺ - هو أحد جوانب العناية حيث سخره الله ليلقيه على ساحل فرعون، فيلتقطه آل فرعون ليتربى في كنف فرعون، ليكون لهم عدوا وحرزنا، ولعل من عناية الله به أن أوحى إلى أم موسى - ﷺ - أن تلقيه في اليم حتى يبقى التردد في نفس فرعون في قتله، لعدم تيقنه أهو من القبط أم من بني إسرائيل، لأنه لو علم أنه من بني إسرائيل لقتله.

* إن الله تعالى ألقى المحبة على موسى، فحبيه إلى آسية امرأة فرعون، حتى تبتته وغذته وربته، وإلى فرعون، حتى كف عنه عاديته وشره. وقد قيل: إنما قيل: «وألقيت عليك محبة مني، لأنه حبه إلى كل من رآه»^(١)، وأعجبت بنت شعيب بقوته وأمانته، فأومات إلى أبيها بالإفادة منه في العمل، فأواه شعيب وزوجه احدى ابنتيه.

* تهيئة الله تعالى موسى وهارون بتعريفهما بطغيان فرعون وتجره، وأنها إنما أرسلت إليه من أجل ذلك ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^(١٣)، ومن لطفه بهما أنه سبحانه علمهما أسلوب مخاطبة فرعون، فأمرهما باستعمال القول اللين، استمالة لقلبه، ودرءاً لبطشه، ورجاء أن يتذكر أو يخشى.

(١) وهو اختيار الطبري. جامع البيان، للطبري: ١٦٦/١٦٢.

المشهد الثاني: مشهد التكليف والرعاية

﴿ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ١٥ ﴾ قَالَ لَا تَخَافْ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ١٦ فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ ١٧ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى ١٨ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبِ ١٩ وَتَوَلَّى ٢٠

تضمن هذا المشهد: حكاية الله تعالى لخطاب موسى وهارون ربهما بإبداء ما في نفوسهما من التخوف من بطش فرعون، استجلاباً لتأمينه سبحانه لهما، فكان أن من الله عليهما بالأمن حين نهما عن الخوف، لأنه سبحانه معهما، يسمع شكواهما، ويرى مكانهما، فاطمأنت -عندها- أنفسهما، ثم أعقب الله لهما بالوحي إليهما بما يتضمنه إرسالهما من إعلام فرعون بأنها رسولا ربه، يطلبان منه إرسال بني إسرائيل معهما، والكف عن تعذيبهم، مبينين أنها قد جاء بأية تدل على صدقهما، ثم استعملا مع فرعون أسلوب الترغيب والترهيب بعيداً عن الخطاب المباشر له بقولهما: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى ١٧ ﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبِ ١٩ وَتَوَلَّى ٢٠

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

بعد ما أتم الله تعالى لموسى -عليه السلام- المناجاة، وختمها بالأمر بالذهاب إلى فرعون الطاغية لدعوته إلى التذكر والخشية، أعقبه بحكاية ما رفعه موسى وهارون -إلى ربهما- من التخوف من طغيان فرعون وبطشه، فكان فزعهما إلى الله تعالى مناسباً لما سبق من بيان الله تعالى لهما بأن فرعون طغى، لأن من شأن الطاغية أن يفرط ويطنى، فخافا أن «يفرط» عليهما فرعون بتعجيل العقوبة قبل إبلاغ ما كلفا به، أو أن يطنى فيستكبر، فخاطبا ربهما بذلك استجلاباً لتأمينه لهما، فأمنهما حين قال لهما: ﴿ لَا تَخَافْ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾.

المعنى الإجمالي:

هذا هو المشهد الثاني ^(١) من مشاهد قصة موسى - عليه السلام - في هذه السورة: مشهد التكليف، فقد أمر الله تعالى موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون الطاغية، فكان لا بد من الذهاب إلى فرعون الطاغية، على خوف منه، وقبله كان لا بد أن يتوجها إلى الله بما في نفوسهما من الخوف.

« يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام، أنها قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيتين إليه: ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَى ﴾ يعنيان أن ييدر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك... فكان الرد من الله تعالى بتأمينهما ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ أي لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأيدي». ^(٢) . وابتدأه بإيضاح قاعدة رسالتها ﴿ إِنَّا رَسُولًا رَبِّكَ ﴾ أرسلنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة ^(٣) ، ليشعر فرعون منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلها هو ربه، ثم إيضاح لموضوع رسالتها بإرسال بني إسرائيل معهما، ورفع العذاب عنهم ثم استشهد على صدقهما في الرسالة: ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ^(٤) على أنه أرسلنا

(١) «وهنا يطوي السياق المسافات والأبعاد والأزمان، فإذا هارون مع موسى. وإذا هما معا يكشفان لربها عن خوفهما من مواجهة فرعون... والسياق القرآني يطوي الزمان والمكان، ويترك فجوات بين مشاهد القصص، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس". في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٧٧. وينظر جامع البيان، للطبري: ١٦/١٧٠.

(٣) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٧١.

(٤) «وإنما وحدهما وهما آيتان لأنه أراد إقامة البرهان وهو معنى واحد». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/١٣.

إليك بذلك، إن أنت لم تصدقنا فيما نقول لك أريناها ^(١).

ثم ترغيب واستماله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أي: «والسلامة لمن اتبع هدى الله وهو بيانه» ^(٢)، ثم تهديد وتحذير غير مباشر ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ^(٣). «أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته» ^(٤).

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* إن تأمين الله تعالى لموسى وهارون بقوله: {لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} منحهما الثقة في الانطلاق في الدعوة، وأزال عنهما الخوف من بطش فرعون، لأن من كان الله معه أمن واستغنى عن سواه، وليأمن السالكون سبيل الدعوة إلى الله تعالى، فهم على هدى الأنبياء ماضون.

* «إن في تكرار لفظ الربوبية مضافا إلى فرعون كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ﴾ ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَآئِفَةٍ مِّنْ رَبِّكَ﴾ ^(٥) ترغيب وتحبيب في جو من السلام والأمن لا يسمح لخواطر الانتقام أن تثور في نفس فرعون».

* يظهر أن استعباد بني إسرائيل كان إجراءً سياسياً خوفاً من تكاثرهم وغلبتهم. وفي سبيل الملك والحكم لا يتحرج الطغاة من ارتكاب أشد الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، وعن الخلق والشرف والضمير. ومن ثم كان فرعون يستأصل بني إسرائيل، ويذلمهم بقتل المواليد الذكور. واستبقاء الإناث؛ وتسخير الكبار في الشاق المهلك

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٧١.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٧١.

(٣) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٧٨.

(٥) فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، لمحمود محمد عمارة: ١٩٦.

(١) من الأعمال» .

- * ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ﴾ استعداد الداعية بحجته في الجدل والحوار ليدحض حجة خصمه.
- * إن في قوله تعالى: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ بعد قولها ﴿وَأَسْلَمْنَا عَلَىٰ مَنْ أَتَبَعَ أَهْدَىٰ﴾ ترغيب يسبق الترهيب، ثم هو ترهيب بأسلوب غير مباشر، فلم يواجه فيه موسى - ﷺ - فرعون بالخطاب، وإنما استعمل الاسم الموصول الذي يفيد الإبهام والعموم، وهذا متسق مع ما أمرًا به من استعمال اللين مع فرعون، استمالة لقلبه، وسنة القول اللين وتقديم الترغيب على الترهيب سنة ينبغي على الدعاة الحرص عليها لإنجاح دعوتهم.
- * فزع موسى وهارون إلى رهبا خوفا من سرعة بطش فرعون وطغيانه، وكان لذلك الخوف مسوغاته، وأسبابه، منها: (٢)
- أ- أن موسى ﷺ تربى في قصر فرعون، ورأى بعينه صور النكال بأفراد الشعب داخل القصر.
- ب- أنه قاس قدرته كداعية إزاء قدرة المدعو، وما يملك من قوى وطاقات... فهو وأخوه هارون في جانب، والدولة كلها في جانب آخر.
- ج- كان فرعون وقومه على غاية ما تكون العنجهية والاستكبار في الأرض.
- د- أن فرعون وملاه منعمون بنعم يتقلبون فيها، مما يثير في أنفسهم مشاعر الزهو والخيلاء.
- هـ- أن موسى وهارون كانا من طبقة الأنباع، فكيف يرضخ لها فرعون فيكون تابعا لها.
- و- تفرد فرعون بالرأي، واعتبار رأيه هو الحق، وهو القائل: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ .

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٠.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ، لمحمود محمد عمارة: ١٨٧-١٨٨، ١٩٢.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة:

محور السورة العناية بالرسول والمدعوين، والرعاية لهم.

ومن مظاهر تلك العناية والرعاية في هذا المشهد ما يلي:

* بعد أن فزع الرسولان إلى ربهما جاءهما تأمين ربهما من طغيان فرعون ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ وقد قال لهما في موضع آخر ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

* تأييد الله تعالى الرسولين بالمعجزة ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾.

* أعقبا التصريح برسالتهم الإدلاء ببيئتهما على صدق ما صرحا به من الرسالة، احتراماً لعقله وإلزاماً للحجة، فقالا: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾.

* من عناية الله تعالى بفرعون أنه أمر موسى وهارون أن يخاطباه بأسلوب الاستعطاف بالربوبية، حيث قال له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، ليتذكر أن ما هو فيه من الملك والنعيم إنما هو من عطاء ربه الذي أرسلهما.

* مخاطبته بلفظ السلام استعطاف وترغيب له: ﴿وَالسَّلَامُ عَلٰى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدٰى﴾

* تخويفه بالعذاب بلفظ الموصول «من»، وعدم مواجهته بالخطاب لثلا يستفز فيستكبر عن الحق، فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلٰى مَن كَذَّبَ وَقَوْلِي ﴿٤٨﴾﴾، وبهذا الأسلوب اللين جمعا له بين الترغيب والترهيب استمالة لقلبه، ورجاء أن يتذكر أو يخشى.

* إن من أهم أولويات موسى وهارون إنقاذ بني إسرائيل، ورفع العذاب عنهم، لذا ضمنا حديثهما إلى فرعون أن يرسل بني إسرائيل معهما، ويرفع عنهم العذاب.

المشهد الثالث: مشهد الحوار والجدال مع فرعون

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ. ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُّوْا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَفِيهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُمْ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَسْنَا بِتِنَّاكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ. فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ. نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد الحوار والجدل بين موسى وهارون من جانب، وفرعون من جانب آخر، وقد تناول هذا الحوار الربوبية، وما رافق ذلك من الأدلة والحجج البينة على إثباتها وشأن القرون الأولى التي علمها عند الله، والتحدي بالمعجزة من قبل فرعون، وطلبه موعد المباراة، وتحديد موسى - ﷺ - الموعد مكاناً وزماناً.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

لما تضمن المقطع السابق إبلاغ موسى وهارون لفرعون بمهمتهما، وأنها رسولا ربه يطلبان إليه إرسال بني إسرائيل، ورفع العذاب عنهم، ناسب أن يعقب ذلك جواب فرعون عن قولها هذا، فكان هذا المشهد الذي ابتدأه فرعون بالسؤال عن الرب الذي أرسلها، وهو ما كان ينكره فرعون حتى قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ ﴾ وقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ وهذا المشهد يعرض الحوار والجدل المشفوع بالأدلة الدامغة الدالة على ربوبية الله تعالى مما هو مشاهد معين عنده، من الأرض وسبلها، والماء المنبت للنبات، والأنعام وأقواتها، وهو ما لم يستطع فرعون إنكاره، ليتهيء المشهد بالتحدي من قبل فرعون، فيطلب من موسى - ﷺ - تحديد زمان ومكان المباراة، فكان التحديد من قبل موسى يوم عيدهم في ضحوة من النهار.

المعنى الإجمالي:

ذهب موسى وأخوه هارون بما أمرهما الله أن يذهبا به إلى فرعون فبلغاه ما كلفا به، وهنا يحكي الله تعالى ما دار بين موسى وفرعون من حوار، ومن ذلك أن فرعون وجه سؤالاً إلى موسى عن رب موسى وهارون^(١)، فأجابه بما لا يستطيع إنكاره أو ادعائه فقال: «ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجدها وفطره عليها»^(٢). ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمهه بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها^(٣).

وثنى فرعون بسؤال آخر عن شأن القرون الأولى.. أين ذهبت؟ ومن كان ربها؟ وما يكون شأنها وقد هلكت وهي لا تعرف إلهها هذا؟

وعندها أحال موسى -ﷺ- ذلك الغيب البعيد في الزمان، الخافي عن العيان، إلى ربه الذي لا يفوت علمه شيء، ولا ينسى شيئاً. فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كله. في ماضيها وفي مستقبلها. والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله^(٤).

«أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى -ﷺ- بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا الله؛ أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره»^(٥)، فقال له موسى في جواب ذلك،

- (١) فقال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ وأفرد موسى بالنداء بعد جمعه مع أخيه هارون، لأن المجاوبة إنما تكون من الواحد وإن كان الخطاب بالجماعة لا من الجميع، أو لأن موسى الأصل في النبوة وأخوه تابع له. ينظر: جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٧١، التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٣.
- (٢) وقيل: «المعنى أن الله أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه فخلق على هذا المعنى بمعنى المخلوقين، أي أعطى مخلوقاته، واستحسنه ابن جزي. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ١٣.
- (٣) أو هداهم إلى التوصل إلى أعطاهم وعلمهم كيف يتفعلون به. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٤.

(٤) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٥) «يتمثل أن يكون سؤاله عن القرون الأولى محاجة ومناقضة لموسى أي ما بالها لم تبعث كما يزعم موسى،»

هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أي لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً؛ يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، وتنزهه، علم المخلوق يعتره نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك^(١).

ثم يستطرد موسى^(٢) ليعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون فيختار بعض هذه الآثار المحيطة بفرعون، المشهودة له في مصر ذات التربة الخصبه والماء الوفور والزرع والأنعام^(٣).

ويختم الاستطراد ببيان أنها آيات عظيمة، ولكن المعتبر بها هم أولو النهى.. أصحاب العقول السليمة الذين يتأملون بها هذا النظام العجيب ليطلعوا فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ويكمل السياق حكاية قول موسى -عليه السلام- بقول مباشر من الله جل وعلا.. من هذه الأرض التي جعلناها لكم مهدياً وسلكننا لكم فيها سبلاً وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا به أزواجا من نبات شتى، للأكل والمرعى.. "أخرجناكم ولم تكونوا شيئاً خلقا سويا، وسنخرجكم منها بعد مماتكم مرة أخرى، كما أخرجناكم منها أول مرة"^(٤).

= أو ما بالها لم تكن على دين موسى، أو ما بالها كذبت ولم يصبها عذاب كما زعم موسى في قوله ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ١٤/٣.

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٨٠.

(٢) يقول ابن عاشور: «ولا يحتمل أن تكون من كلام موسى إذ لا يناسب ذلك تفريع قوله (فأخرجنا به أزواجا)». التحرير والتنوير: ١٦/٢٣٥.

(٣) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣٨.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٧٥.

ثم «يقول تعالى ذكره: كلوا أيها الناس من طيب ما أخرجنا لكم بالغيث الذي أنزلناه من السماء إلى الأرض من ثمار ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيها هو أرزاق بهائمكم منه وأقوات أنعامكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن فيها وصفة في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات: يعني لدلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره ﴿لَأَوَّلُ آلَتِهِنَّ﴾ يعني: أهل الحجى والعقول»^(١).

ويخبر الله تعالى عن موقف فرعون من الآيات كلها آيتي العصا واليد، والآيات الكونية التي حاجه فيها موسى عليه السلام، بأنه كذب بها وأبى: «فيقول تعالى ذكره: ولقد أرينا فرعون آياتنا كلها، يعني أدلتنا وحججنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولينا، موسى: وهارون إليه ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ أن يقبل من موسى وهارون ما جاء به من عند ربهما من الحق استكبارا وعتوا». «كما قال تعالى: ﴿وَحَدِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية»^(٢).

وبعد أن أخبر الله تعالى أنه أرى فرعون آياته كلها أتبعه بحكاية قول فرعون لموسى عقبه، فقال: "أجئتنا يا موسى لتخرجنا من منازلنا ودورنا بسحرك هذا الذي جئتنا به ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴿لا نتعداه، لنجيء بسحر مثل الذي جئت به، فننظر أين يغلب صاحبه، لا نخلف ذلك الموعد ﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى﴾ أي: بمكان عدل بيننا وبينك ونصف"^(٣).

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٧٥. وقال: «وخصّ تعالى ذكره بأن ذلك آيات لأولي النهي، لأنهم أهل التفكير والاعتبار، وأهل التدبير والاتعاظ».

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٧٥، «وتأكيد الكلام بلام القسم (وقد) في «ولقد» مستعمل هنا في التعجيب من تصلب فرعون في عناده، وقصد منها بيان شدته في كفره وبيان أن لموسى آيات كثيرة أظهرها الله لفرعون فلم تجد في إيمانه، وأجمت وعممت فلم تفصل، لأن المقصود هنا بيان شدة تصلبه في كفره». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٤١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٠.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٧٦.

وكان جواب فرعون عن آية العصا واليد بأن ذلك سحرا، لأن السحر أقرب خاطر إلى فرعون لأنه منتشر في ذلك الوقت في مصر؛ وهاتان الآيتان أقرب في طبيعتها إلى المعروف من السحر، فلذلك طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة.. وترك له اختيار ذلك الموعد: للتحدي، وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي... وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف مبالغة في التحدي^(١)!

وقبل موسى - ﷺ - تحدي فرعون له؛ واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة، يأخذ فيه الناس في مصر زيتهم، ويتجمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة، وطلب أن يجمع الناس ضحى، ليكون المكان مكشوبا والوقت ضاحي، فقابل التحدي بمثله وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدّها تجمعا في يوم العيد، لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية^(٢).

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* لما قال موسى وهارون ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ لم يستفهم فرعون عن ربه، فلم يقل لهما «فمن ربي» وإنما قال: «فمن ربكما» «إعراضا عن الاعتراف بالمربوبية ولو بحكاية قولهما، لكلا يقع ذلك في سمع أتباعه وقومه فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربه، أو أنه اعترف بأن له ربا^(٣)». وهو الذي كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾.

* بادر فرعون موسى وهارون بطرح الشبهات عليهما، فسألها عن ربهما، وعن القرون الأولى، وكان الجواب من موسى مباشرة، ما حكاه الله تعالى هنا، وفي ذلك ما يدعو الدعاة أن

(١) وهو ما عبر عنه بـ ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾ والمراد: مكان مستوى في القرب منا ومنكم وقيل: مستوى الأرض

ليس فيه انخفاض ولا ارتفاع». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ١٥/٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٣٨.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/٢٣٢.

يكونوا دائما على أتم الاستعداد للإجابة عن شبه الجاحدين الذين يتكررون عبر الأزمنة والأعصار.

* ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ بهذا الوصف «يلخص موسى -عليه السلام- أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود: هبة الوجود لكل موجود.. وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها. وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها»^(١)، والعلم الحديث اليوم يكشف ما في هذه الآية من إعجاز علمي يأخذ بالألباب، فالله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى كل شيء (من إنسان ونبات وحيوان وكائنات حية دقيقة وجماد) صورته اللاتقة بخاصته ثم أرشده إلى ما يصلح له، وقد بين الدكتور نظمي خليل أبو العطا ما تضمنته هذه الآية من إشارات لطيفة تتعلق بما أثبتته العلم الحديث في عالم النبات مما يدل على أنه سبحانه خلق النبات في أحسن صورة وأكمل خلقة ثم هدى كل نبات إلى ما يصلح له معيشتة، ومن ذلك: التزاوج والتكاثر والحفاظ على الحياة في عالم النبات، ومواجهة الأخطار، والتعامل مع تقلبات البيئة وتغير الطقس من برودة أو حرارة، كما أن الله تعالى خلقها على هيئة تساعد على الانتشار بحثا عن الرزق، وأودع فيها أحاسيس ومشاعر، فهي تحس بتغير البيئة من حولها، فتشعر بالحرارة والبرودة، وتتكيف معها، وتشعر بالشمس ونور الصباح، وتشعر بالظلام، فتراها حين تشرق الشمس تستيقظ، وحين تغيب تنام، إنه عالم جدير بالتدبر تحققت فيه هداية الله تعالى لخلقه إلى ما يصلحه، فسبحان الله رب العالمين الذي خلق فسوى وقدر فهدى، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى^(٢).

* إن انتقال فرعون من السؤال عن الرب إلى السؤال عن القرون الأولى كان يرمي منه إشغال موسى -عليه السلام- عن الدعوة إلى التوحيد لأنه أخوف ما يخافه هو التوحيد خشية أن يحرك

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٢) ينظر موقع: www. 55a. net عن كتاب «آيات معجزات من القرآن وعالم النبات» للدكتور نظمي خليل أبو العطا.

قلوب الحاضرين نحوه، أو ربما أراد أن يكسب ود الحاضرين، ويشير حميتهم الجاهلية لتوقعه أن موسى -عليه السلام- سيجيب بذكر مصيرهم وهو النار، فيشير ذلك سنخط الحاضرين عليه، أو أنه يجاملهم ببيان أنهم يستحقون الاحترام، وعليه يحتج فرعون بأنهم كانوا على عقيدتي، وأنت معترف باحترامهم^(١)، ولكن جواب موسى -عليه السلام- لم يحقق توقع فرعون حيث أجابه بقوله: ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ثم استمر يعدد صفات الله التي كان يتهرب منها فرعون، فهو سبحانه الذي جعل الأرض مهذا وسلك فيها السبل وأنزل من السماء ماء فأحى به الأرض، وأنبث به الزرع مما يأكلون منه هم وأنعامهم^(٢).

* قطع موسى -عليه السلام- على فرعون أي إمكانية في المغالطة أو الإيهام حين «وصف الله تعالى بأوصاف لا يمكن فرعون أن يتصف بها لا على وجه الحقيقة ولا على وجه المجاز ولو قال له هو القادر أو الرازق وشبه ذلك لأمكن فرعون أن يغالطه ويدعي ذلك لنفسه»^(٣).

* إن الإنسان مرتبط بهذه الأرض فهو «مخلوق من مادة هذه الأرض. عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالاً، ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفس. وهو ابنها وهي له مهد. وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتا يختلط بترابها، وغازا يختلط بهوائها. ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى، كما خلق في النشأة الأولى»^(٤).

* قوله تعالى ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ «دليل على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعية

(١) «ويحتمل أن يكون قال ذلك قطعاً للكلام الأول وروغاناً عنه وحيرة لما رأى أنه مغلوب بالحجة ولذلك أضرب موسى عن الكلام في شأنها فقال علمها عند ربي ثم عاد إلى وصف الله رجوعاً إلى الكلام الأول». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ١٤ / ٣.

(٢) ينظر: فقه الدعوة من قصة موسى -عليه السلام-، لمحمود محمد عمارة: ٢١٠-٢١١، عن كلام الندوي بتصرف.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ١٤ / ٣.

(٤) في ظلال القرآن: ٤ / ٢٣٣٨.

لمواراة الموتى سواء كان شقا في الأرض أو لحداء، لأن كليهما إعادة في الأرض؛ فما يأتيه بعض الأمم غير المتدينة من إحراق الموتى بالنار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مخالف لسنة الله وفطرته، لأن الفطرة اقتضت أن الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها. وكذلك كانت أول موارد في البشر حين قتل أحد ابني آدم أخاه. كما قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَبُخٌ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ الْغُرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ أَخِي ۗ ﴾ [المائدة: ٣١] فجاءت الشرائع الإلهية بوجوب الدفن في الأرض^(١).

* ليس على الداعية إلا البلاغ، ومن أُنذر فقد أعذر، ولا يشغلن الداعية نفسه -كثيرا- بالتناجج، وليترك أمرها إلى الله، فهو سبحانه يحققها متى شاء وكيف شاء، ألا ترى أن موسى وهارون قد بلغا، وأرى الله فرعون على أيديهما آياته: ﴿ وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ ومع ذلك كذب وأبى.

* قول فرعون ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ استشارة لنفوس الحاضرين واستفزازها بتذكيرهم بالانتفاء إلى وطنهم وخطورة إخراجهم منه حتى يزدادوا تمسكا به^(٢)، وكم هو ثقيل على النفس أن تنتزع من أرضها، بسبب سحرهم أعلم الناس به وأقدر عليه، «وحتى يزيل -بقوله ذلك- ما يخالج نفوس الناس من تصديق موسى -عليه السلام- وكونه على الحق، لعل ذلك يفضي بهم إلى الثورة على فرعون وإزالته من ملك مصر». وليظهر لهم حرصه عليهم.

* ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ قالها فرعون إيهاما للسامعين بأن ما جاء به موسى -عليه السلام- ليس إلا سحر، يمكن أن يقابل بمثله، ثم خير موسى -عليه السلام- في تحديد الموعد المناسب

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٤٠-٢٤١.

(٢) فقه الدعوة من قصة موسى -عليه السلام-، لمحمود محمد عمارة: ٢٢١.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٤٥.

للمناجزة والمبارزة، وكأنه أراد أن يوهم السامعين بقوة سحره، وثقته به، بيد أن ثقة موسى -عليه السلام- بربه وبنصره فاقت ثقة فرعون بسحره حيث قبل موسى -عليه السلام- تحدي فرعون مباشرة، «وزاد عليه اختيار الوقت في أوضح فترة من النهار وأشدّها تجمعا في يوم العيد، لا في الصباح الباكر حيث لا يكون الجميع قد غادروا البيوت، ولا في الظهيرة فقد يعوقهم الحر، ولا في المساء حيث يمنعهم الظلام من التجمع أو من وضوح الرؤية»^(١)، وكان هذا الاختيار لهذا الوقت «ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهراً ضحى»^(٢)، «وقصد موسى أن يكون موعدهم عند اجتماع الناس على رؤوس الأشهاد لتظهر معجزته ويستبين الحق للناس»^(٣). وهذا كله يؤكد ثقته العظيمة بنصر الله تعالى.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة

تتجلى في هذا المشهد عناية الله تعالى بموسى وهارون حيث منعها من بطش فرعون وطغيانه حتى بلغا ما كلفا به، وألهمها الأجوبة الدامغة على شبهات فرعون، الداحضة لحججه، ومنحها الثقة بتأكيد التحدي لفرعون حين بادرها بالتحدي، ليكون ذلك كله لطفاً آخر بفرعون ومن معه، حيث أزال عنهم الشبهات، وأقام عليهم الحجة، فكان المعقول منهم أن يعودوا إلى الحق ويرعوا وإليه، هذا بالإضافة إلى ما يحمله التذكير بمنن الله تعالى من اللطف والعناية بهم، فالله سبحانه هو جعل لهم الأرض مهدياً، وسلك لهم فيها سبلاً، وأنبت فيها الزرع، لهم ولأنعامهم.

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٥.

المشهد الرابع: مشهد المباراة بين موسى - ﷺ - والسحرة

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۖ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ ۖ ﴿٦١﴾ فَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأُوا التَّجْوَىٰ ۖ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ بَرِيدٌ إِنْ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ ۖ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ ۖ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ أَلْقَىٰ ۖ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقَوْتُ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۖ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ۖ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۖ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۖ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۖ ﴿٧٠﴾ قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِطَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ حِلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۖ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۖ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ۖ ﴿٧٦﴾ ﴾

تضمن هذا المشهد موعظة موسى - ﷺ - للسحرة، وإصرار السحرة على المواجهة مع قوة الموعظة، ثم وقوع المنازلة، والنتيجة التي أسفرت عنها المباراة، وأثر هذه النتيجة في صفوف المهزومين، وتهديد فرعون وتوعده للسحرة المؤمنين بالقتل والصلب، وبيان قوة إيمانهم في إصرارهم على الموت على الإيمان، طمعا في أن يغفر الله لهم ما قد أكرهوا عليه من السحر، مع ما تضمنه السياق من وصف الوقوف أمام الله تعالى لمن أتاه مجرما ولمن أتاه مؤمنا، وجزاء كل منهما.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

بعد أن انتهى المشهد السابق من الإجابة عن شبهات فرعون، وختم بتحدي فرعون وقبول موسى - ﷺ - التحدي وتهديد الموعد، ناسب أن يعقبه بيان موقف فرعون من تلك

الحجج وذلك التحدي، أيرعوي فيسلم، أم يعرض ويأبى، فكان من بيان حاله أنه اختار التولي عن قبول الحق، والاستعداد لمواجهة موسى، ثم مضى المشهد يحكي قصة المباراة، والمبارزة ونتائجها.

المعنى الإجمالي:

يقول الله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ أي: فأدبر فرعون معرضاً عما أتاه به من الحق ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي: فجمع مكره، وذلك جمعه سحرته بعد أخذه إياهم بتعلمه، ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ أي: ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته^(١).

تصوّر هذه الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات: ذهاب فرعون، وجمع كيده، والإتيان به، وهي آية تضمنت بإجمال كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتمميس ووعد بالمكافأة، وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه^(٢).

رأى موسى - ﷺ - قبل الدخول في المباراة أن يبذل لهم النصيحة، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله، لعلهم يثوبون إلى الهدى، ويدعون التحدي بالسحر، والسحر افتراء.

"يقول تعالى ذكره: قَالَ مُوسَىٰ لِلْسَحْرَةِ لِمَا جَاءَ بِهِمْ فِرْعَوْنُ: ﴿ وَيَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾، أي لا تختلقوا على الله كذبا، ولا تتقولوه ﴿ فَيَسْجِتْكُمْ بَعْدَابِ ﴾ أي: فيستأصلكم بهلاك فيبيدكم... ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى ﴾، فلم يظفر بحاجته التي طلبها به، ورجا إدراكها به"^(٣).

ويبدو أن الموعدة أثرت فيهم فصار أمرهم إلى التنازع في شأن موسى وهارون،

(١) جامع البيان، للطبري: ١٧٧/١٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٣٤١/٤.

(٣) جامع البيان، للطبري: ١٧٨/١٦-١٧٩.

فتنازعوا أمرهم بينهم، وأسروا النجوى وكانت تلك النجوى قولهم: «إن كان هذا ساحرا فإنا سنغلبه وإن كان من السماء فله أمر، أو أن قولهم: ما هذا القول بقول ساحر، أو قولهم الذي ذكر الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾^(١).

وإنما أردوا بقولهم هذا: «أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم^(٢) أو يذهبا بمذهبكم الذي هو أمثل المذاهب»^(٣).

وفي هذه النجوى تحميس من المصريين على المواجهة للمترددین فيها، ثم تابعوا تحميسهم بدعوتهم إلى إحكام كيدهم والعزم عليه وأفصحوا عن طريقتهم في المواجهة فقالوا: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾^(٤) وفرعون معهم يعدهم ويمنيهم مبشراً إياهم بالفلاح وهم في غمرة الاغترار بسحرهم وأمل الفوز بجائزة فيقول لهم: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ أي: قد ظفر بحاجته اليوم من علا على صاحبه فقهره^(٤).

ولم يكن بد من المواجهة بعد هذا التحميس وذاك الغرور، فتقدم السحرة إلى موسى -عليه السلام- بتخيره بين أن يبدأ أو أن يبدووا، فأذن لهم بأن يبدووا، «فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٧٩-١٨٠.

(٢) نقل الشوكاني عن الفراء قوله: العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم» فتح القدير، للشوكاني: ٣/٢١.

(٣) والمثل: تأنيث الأمثل، وهو الأفضل، يقال فلان أمثل قومه: أي أفضلهم، وهم الأمائل. فتح القدير، للشوكاني: ٣/٢١، وينظر جامع البيان، للطبري: ١٦/١٨٢. وقيل: المعنى: ويغيرا ستكم ودينكم الذي أتمت عليه، وهو قول لم يستجز الإمام الطبري القول به وإن كان له وجه في لغة العرب. ينظر تفسيره: ١٦/١٨٣.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٨٤.

والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الحبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً»^(١).

«فأوجس في نفسه خيفة موسى» أي أحس، أو وجد، أو أضمر، أو خاف، وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه، وقيل خاف أن يفتن الناس قبل أن يلقي عصاه، وقيل إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا»^(٢)، «وقال: والله إن كانت لعصياً في أيديهم، ولقد عادت حيات، وما تعدو عصاي هذه»^(٣).

فأذهب الله ما به من الخوف لما قال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ على هؤلاء السحرة وعلى فرعون وجنده، والقاهر لهم»^(٤)، لأن معك الله الذي هو الأعلى ولا يعلى عليه.

ثم أمره أن يدخل في المباراة بأن يلقي عصاه التي في يمينه، ليشهد مشاهد العلو والمعجزة فألقاها «فإذا هي تلقف ما صنعوا، فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصبيهم، وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها، تتلعها حية حية، حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهره نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَنَ﴾ أي: ولا يظفر الساحر بسحره بما طلب أين كان»^(٥). «ووقع السحرة سجداً، قالوا: آمنا بربِّ هارون وموسى، لو كان هذا سحر ما غلبنا»^(٦).

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٨٦.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ٣/٢٢، وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٨٢.

(٣) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٨٧-١٨٨.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٨٦.

(٥) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٨٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٨٢.

(٦) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٨٨.

فتثور نائرة فرعون وينكر على السحرة إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم ويتهمهم بالتواطؤ مع موسى وأخذهم السحر عنه فقال: ﴿ءَأْمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ﴾ أي أصدقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم إليه من قبل أن أطلق ذلك لكم ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَرِيمٌ﴾ أي: إن موسى لعظيمكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾^(١)، وإنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي لتظهره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣] .

فتوعد وهدد وقال: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ [الأعراف: ١٢٤] أي: فلأقطعن أيديكم وأرجلكم مخالفا بين قطع ذلك، وذلك أن يقطع يمنى اليدين ويسرى الرجلين، أو يسرى اليدين، ويمنى الرجلين، فيكون ذلك قطعاً من خلاف، وكان فيما ذكر أول من فعل ذلك فرعون^(٢). «ولتعلمن أيها السحرة أينما أشد عذاباً لكم، وأدوم، أنا أو موسى»^(٤).

وبالرغم من قوة التهديد والوعيد إلا إنهم لم يأبهوا بوعيده لعلمهم بأن قضاء فرعون فيهم لا يتعدى هذه الحياة الدنيا، وليس لهم الآن وقد تجلت لهم الحقيقة، أن يؤثره على ما جاءهم من البيئات فقد رأوا شواهد الحق بأعينهم، وهم بإيمانهم يطمعون أن يغفر الله لهم خطاياهم. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥١) [الشعراء: ٥١] ويرجون أن يلقوا الله على الإيمان لينالوا ما وعدهم الله تعالى من الجزاء، الذي قالوا عنه في سياق موعظتهم لفرعون وملئه: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾^(٧٥) جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾^(٧٦).

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٨٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٤.

(٣) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٨٨.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٨٩.

«يقول تعالى ذكره: قالت السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به: ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ﴾ فتتبعك ونكذب من أجلك موسى على الذي جاءنا من البيئات يعني من الحجج والأدلة على حقيقة ما دعاهم إليه موسى، ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: ولن نؤثرك على الذي فطرنا: أي خلقنا. ويحتمل أن يكون معنى قوله «والذي فطرنا» قسم فيكون المعنى: والله فأقض ما أنت قاض أي: فاصنع ما أنت صانع، واعمل بنا ما بدا لك إنما تقضي هذه الحياة الدنيا يقول: إنما تقدر أن تعذبنا في هذه الحياة الدنيا التي تفتنى»^(١).

ثم إنهم أفصحوا عن علة إيمانهم بالله تعالى بقولهم: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ أي: إنا أقررنا بتوحيد ربنا، وصدقنا بوعدته ووعدته، وأن ما جاء به موسى حق ليغفر لنا ذنوبنا، وتعلمنا ما تعلمناه من السحر، وعملنا بالسحر الذي أكرهتنا على تعلمه والعمل به. «وذكر أن فرعون كان أخذهم بتعليم السحر»^(٢). أو أن المعنى: «أنه أكرههم على تحديهم موسى بسحرهم فعملوا أن فعلهم باطل وخطيئة لأنه استعمل لإبطال إلهية الله، فبذلك كان مستوجبا طلب المغفرة»^(٣).

«وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يقول: والله خير منك يا فرعون جزاء لمن أطاعه، وأبقى عذابا لمن عصاه وخالف أمره»^(٤).

ثم يخبر الله تعالى عما قالته السحرة لفرعون: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ﴾ من خلقه ﴿مُجْرِمًا﴾ أي: مكتسبا الكفر به، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾ مأوى ومسكنا، جزاء له على كفره ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فتخرج نفسه ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ فتستقر نفسه في مقرها فتطمئن، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم، ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ موحداً لا يُشرك به ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: قد عمل ما أمره به ربه،

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٨٩.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٨٩.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٦٧.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٩٠.

وانتهى عما ناه عنه ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ أي درجات الجنة العلىٰ ^(١) .

وقوله: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أي: وهذه الدرجات العلىٰ التي هي جنات عدن على ما وصف جلّ جلاله ثواب من تزكى، أي: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يندس نفسه بمعصيته فيما ناه عنه ^(٢) .

وهكذا انتهت المعركة بعلو موسى وهارون، وهزيمة فرعون وجنده، وظهور الحجة البالغة، التي ألقى بسببها السحرة ساجدين إيانا بالله رب موسى وهارون، ثم استقبلهم للابتلاء بالرضى والصبر، راجين أن يغفر الله لهم ما قد سلف، وطامعين في نيل ما عند الله فإن ما عند الله خير وأبقى، وقد كان، فإنهم أصبحوا سحرة وأمسا شهداء، يقول ابن كثير^(٣) والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك، وفعله بهم رحمة لهم من الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسا شهداء ^(٤) .

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* إن موقف فرعون الراض للحق، والمصر على المواجهة -مع وضوح الحق- يشير إلى عمق الاستكبار الذي استولى على نفس فرعون، ولم يكن رفضه ذلك إلا علوا واستكبارا، وقد قال تعالى في حقهم: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

* تقدم موسى عليه السلام بالموعظة للسحرة، والإنذار بعذاب الله تعالى، وحذرهم من الخيبة إن هم افتروا على الله الكذب، وبذلك يكون أعذر إلى الله تعالى، حتى إذا ما وقع عليهم العذاب لم يكن لهم حجة عليه، ومن أنذر فقد أعذر، وسرى أثر هذا الترهيب إلى قلوب بعض السحرة، وكذا شأن الكلمة الصادقة حين تلمس القلوب وتنفذ فيها، فقد تأثر بعضهم بالكلمة المخلصة،

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٩٠.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٩٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٥.

فتلجج في الأمر^(١)، وحصل التنازع في صفوفهم قبل دخول حلبة الصراع ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُم بِئِنَّهُمْ﴾ وحتى أولئك المصريين من السحرة على المواجهة بقي أثر الموعظة في قلوبهم، فلما غلبوا وتحقق النصر لموسى عليه السلام آمنوا، وثبتوا على الإيمان.

* إن من عوامل التأثير في موعظة موسى أنه عليه السلام استعمل اللين في موعظتهم، فلم يوجه الخطاب إليهم بالخبية، فلم يقل "وقد خبتهم" مع أنه معلوم لديه أنهم مفترون، وهذا من حسن الإنذار، حيث لم يباشرهم به، وإنما قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾^(٢).

* ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ «إعلان بأنه-عليه السلام- لا يتقول على الله ما لم يأمره به لأنه يعلم أنه يستأصله بعذاب، ويعلم خيبة من افترى على الله، ومن كان يعلم ذلك لا يقدم عليه».

* ﴿أَجْتَنَّا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ يَمُوسَى﴾ كلمة قالها فرعون، ورددها أتباعه أسوة به فقال بعضهم لبعض ﴿إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا﴾ وكلمة أخرى قالها فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] ومثلها ردد الأتباع هنا حين قالوا في التحذير من موسى وهارون: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنَى﴾ ليعلم بهذا أن الأتباع المتفعين يتأسون بمتبوعهم في التأكيد على أن النظام القائم هو الأصلح والأفضل، وأن الخروج عليه شطط عن الحق يجب الوقوف أمامه، ومواجهته.

* أراد السحرة إرهاب الناس وإرهاب موسى وهارون، فحمس بعضهم بعضا بأن يأتوا صفا، «لأن ذلك أهيب لهم، ولم يزل الذين يرومون إقناع العموم بأنفسهم يتخبرون لذلك بهاء الهيئة وحسن السمات وجلال المظهر. فكان من ذلك جلوس الملوك على جلود الأسود وربما لبس الأبطال جلود النمر في الحرب»^(٤)، كما أن الإتيان صفا يشير إلى أهمية توحيد

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٣٤١.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/٢٥٦.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/٢٥٠.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/٢٥٦.

- الجهود، وأنه ذو أثر قوي في تحقيق النصر.
- * ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَلَى﴾ هذه تمنية بالجوائز إن هم علوا وغلبوا، وهكذا شأن المتسلطين يمنون أنصارهم بالمكافآت والجوائز، والعطايا.
- * إن أمر موسى -عليه السلام- لهم بالإلقاء ربما للتعرف على قوة سحرهم، أو لإبراز قوة معجزته أمام سحرهم العظيم وهو أقصى ما علموه من السحر، فإنه لو سبقهم لربما أحجموا عن الإلقاء بسبب قوة معجزته، فتضيع فرصة إقامة الحجة البينة عليهم أمام الناس.
- * أذن الله تعالى للسحرة أن يؤثروا بسحرهم على موسى -عليه السلام- حتى خيل إليه حبالهم وعصيهم من سحرهم أنها تسعى، وربما كان ذلك ليعلم هو أن الناس قد رأوا ما رآه فيستشعر منة الله عليه وعلى الناس حين تعلقو معجزته على سحر السحرة.
- * ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ هذا دليل على عظمة هذا السحر حتى بلغ إلى أن أوجس موسى في نفسه خيفة، ليري الله موسى من بعد أن قوة المعجزة أعظم مما جاءوا به من السحر، وهذا أيضا "من أقوى الدلائل على صدقه -عليه السلام- في النبوة لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه البتة"^(١) فلما لم يكن موسى -عليه السلام- ساحرا وقع الخوف في نفسه، أو «إنها خاف موسى من أن يظهر أمر السحرة فيساوي ما يظهر على يديه من انقلاب عصاه ثعبانا، لأنه يكون قد ساواهم في عملهم ويكونون قد فاوه بالكثرة»^(٢) ، فأوحى إليه ربه أن يلقيها ليري كيفية فعلها بحياتهم، فيستشعر منة الله تعالى عليه، ويظمن إلى نصره.
- * ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ هذه الجملة رد على كل من يعتقد في السحر الفلاح والغلبة وهي في سياق القصة هنا إشعار بأن السحر مهما بلغ في القوة والتأثير فمآله إلى الهزيمة والخذلان، فكان كما قال الله تعالى، ﴿فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَنَعِينَ﴾^(٣) وَأَلْقَى السَّحْرَةَ

(١) نقله الرازي عن أبي القاسم الأنصاري. التفسير الكبير: ٢٢ / ٢٥.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦ / ٢٥٩.

سَكِّدِينَ ﴿١٣٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٩﴾ [الأعراف: ١١٩-١٢١].

* ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سِجْدًا قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴾ ﴿٧٠﴾ بني الفعل للمجهول ليشعر بقوة المعجزة، وكان ملق قد ألقاهم سجدا، ليعلنوا إيمانهم - على الفور - برب موسى وهارون لما عرفوا الحق، فلم يتنازعا كما تنازعا من قبل.

* لقد كان «تعبيرهم عن الرب بطريقة الإضافة إلى هارون وموسى، لأن الله لم يكن يعرف بينهم يومئذ إلا بهذه النسبة لأن لهم أربابا يعبدونها ويعبدها فرعون»^(١).

* «لما رأى فرعون إيمان السحرة تغيظ ورام عقابهم ولكنه علم أن العقاب على الإيمان بموسى بعد أن فتح باب المناظرة معه نكت لأصول المناظرة فاخترق للتشفي من الذين آمنوا علة إعلانهم الإيمان قبل استئذان فرعون ﴿ قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ ﴾، فعد ذلك جرأة عليه وأوهم أنهم لو استأذنه، لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنهم تواطؤوا مع موسى من قبل فأظهروا العجز عند مناظرته ﴿ إِنَّهُ، لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾».

* ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأن موسى - عليه السلام - لم يأت بما يعجز السحرة إدخالا للشك على نفوس الذين شاهدوا الآيات. وهذه شنشنة من قديم الزمان اختلاق المغلوب بارد العذر. ومن هذا القبيل اتهام المحكوم عليهم الحاكمين بالارتشاء، واتهام الدول المغلوبة في الحروب قواد الجيوش بالخيانة»^(٢).

* هدد فرعون وتوعد بالقتل والصلب، وهكذا هو فعل الطغاة حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح، وعن إقناع الناس بباطلهم يلجؤون إلى التهديد بالعذاب الغليظ على الجسوم والأبدان^(٣)، ولكن جواب السحرة المؤمنين، كان جواب الثابت على الحق، فعلى

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٦١/١٦.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٦٣-٢٦٤/١٦.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٤٣/٤.

قدر وضوح المعجزة لهم كانت قوة إيمانهم و يقينهم بالله فأجابوه بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَمِينِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ثم بينوا علة إصرارهم على الإيـان، فقالوا: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيَّهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٧٣) ، وأظهروا بقولهم هذا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه، إذ أصبحوا أهل إيمان و يقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسـل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيـان وثباته. «ولنا في عمر بن الخطاب ونحوه من آمنوا بمحمد ﷺ مثل صدق» (٧٢) ، ثم ألقوا موعظتهم على السامعين فقالوا: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) وهي موعظة نابعة من قلوبهم يوقنون بها، ويطمعون أن ينالوا الدرجات العلى، وقد حقق الله لهم ذلك، فقد أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة: محور السورة العناية بالرسـل والمدعويـن والرعاية لهم، وإن من عناية الله تعالى بموسى ﷺ أن أذهب عن موسى الخوف، حين نهاه عن الخوف، وأنزل السكينة على قلبه حين بشره بأنه هو الأعلى، وكان الأمر كما بشره ربه، فعلت قوة المعجزة على كيد الساحرين علوا بينا، وأقر الله عينه بإيـان السحرة على مرأى من فرعون وملئه، وحماه من فرعون و بطشه رغم شدة تغيبه في هذا الموقف.

كما تجلت عناية الله تعالى بالمدعويـن حين ألهم نبيه موسى ﷺ أن يتقدم إلى السحرة بالموعظة التي أثرت فيهم، فأوقعت في نفوسهم التردد قبل المباراة، فتنازعوا في شأن موسى

(١) حين قال لهم من قبل: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ . التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٦٧/١٦.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٦٦/١٦.

(٣) يستبعد ابن عاشور أن يكون هذا القول من كلام أولئك المؤمنين، لأنه لم يحك نظيره عنهم في نظائر هذه القصة. التحرير والتنوير: ٢٦٨/١٦.

- الطغية - بين التصديق والتكذيب، فلما تبين صدقه بالغلبة والنصر، أيقنوا حينها أن ما جاء به موسى - عليه السلام - هو الحق فأمنوا إيماناً صادقاً، واتصلت رعاية الله لهم بعد إيمانهم بتبشيتهم على الإيمان مع قوة تهديد فرعون، وكذلك ﴿ يَشِدُّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

المشهد الخامس: مشهد خروج موسى ببني إسرائيل

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا مَخْشَىٰ ٧٧ ﴾ فَأَنبَعَثَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَاشِيَهُمْ ٧٨ ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ٧٩ ﴾ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ ٨٠ ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ٨١ ﴾ وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ٨٢ ﴾

تضمن هذا المشهد تذكير الناجين من بني إسرائيل بمنة الله عليهم، وتحذيرهم من الطغيان، وقصة إهلاك فرعون وجنوده، ونجاة بني إسرائيل، ثم المواعدة جانب الطور، وإنزال المن والسلوى عليهم، وختمه بالترهيب بالتهديد بالغضب على من طغى من بني إسرائيل وبسط الأمل بالمغفرة ﴿ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ ليعتبر المؤمنون، ويستمروا على شكر المنعم.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله:

«إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة. فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر؛ وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب، والتهديد والوعيد. فالآن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود.

والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول. فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير؛ وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.. إن للحق والإيمان حقيقة متى تأكدت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فأما إذا ظل الإيمان مظهرًا لم يتجسم في القلب، والحق شعارًا لا ينبع من الضمير فإن الطغيان والباطل قد يغلبان، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان.. يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان.. وهذا هو الذي كان في موقف موسى - ﷺ - من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه. ومن ثم انتصر الحق في الأرض كما يعرضه هذا المشهد في سياق السورة»^(١).

إن السامع للمشهد السابق بما فيه من غلبة القلة المؤمنة الضعيفة، وبما فيه من التهديد والوعيد من قبل فئة متسلطة متعطرسة ليرقب الخبر عما يحدث بعد، فكان هذا المشهد الذي يحكي الله تعالى فيه نجاة بني إسرائيل، وهلاك فرعون وقومه، فتكتمل الصورة لدى السامع من بداية المعركة إلى هزيمة الطغاة ونصر المؤمنين، ﴿ثُمَّ نَجَّيْنَا رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣].

المعنى الإجمالي:

«يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا ﴿٢﴾ إِلَىٰ نَبِيِّنَا ﴿مُوسَىٰ﴾ إِذْ تَابَعْنَا لَهُ الْحَجَّجَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، فَأَبَىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَطَغَىٰ وَتَمَادَىٰ فِي طَغْيَانِهِ ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ لَيْلًا ﴿بِعِبَادِي﴾ أَيَّ بَعْبَادِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أَيَّ: فَاتَّخَذَ لَهُمْ فِي الْبَحْرِ طَرِيقًا

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٤٤.

(٢) يقول ابن عاشور: «افتتاح الجملة بحرف التحقيق للاهتمام بالقصة ليلقي السامعون إليها أذهانهم».

التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٦٩.

يابساً»^(١) ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ أي: لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك ولا تخشى غرقاً من بين يديك ووحلاً^(٢). «وهو وعد لموسى دون بقية قومه لأنه قدوتهم فإذا لم يخف هو تشجعوا وقوي يقينهم، فهو خبر مراد به البشري»^(٣).

«فسرى موسى ببني إسرائيل إذ أوحينا إليه أن أسرهم، فأتبعهم فرعون بجنوده في الطريق الذي سلكوا حين قطعوا البحر، فغشي فرعون وجنده من اليم ما غشيهم، فغرقوا جميعاً» ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾^(٤) أي: وجاوز فرعون بقومه عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غير استقامة، وذلك أنه سلك بهم طريق أهل النار، بأمرهم بالكفر بالله، وتكذيب رسله ﴿وَمَا هَدَى﴾ أي: وما سلك بهم الطريق المستقيم، وذلك أنه نهاهم عن اتباع رسول الله^(٥) موسى، والتصديق به، فأطاعوه، فلم يهدم بأمره إياهم بذلك، ولم يبتدوا باتباعهم إياه.

«فلما نجا موسى بقومه من البحر، وغشي فرعون وقومه من اليم ما غشيهم، قلنا لقوم موسى: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْبَيْتَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون ﴿وَوَعَدْنَاكَ بِجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾^(٦) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: كلوا يا بني إسرائيل من شهيوات رزقنا الذي رزقناكم، وحلاله الذي طيبناه لكم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: ولا تعتدوا فيه، ولا يظلم فيه بعضكم بعضاً»^(٧). «... فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به»، أو أن المراد «النهي

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٩١.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٩١.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٧٠.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٩٢.

(٥) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٩٣.

«ثم إنه تعالى وأعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل» تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٧.

(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٨٧.

عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعم»^(١). ﴿فِيحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: فتنزل عليكم عقوبتي... ومن يجب عليه غضبي، فينزل به ﴿فَقَدَّ هَوِي﴾، أي فقد تردى فشقي»^(٢).

﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ أي: وإني لذو مغفرة لمن تاب من شركه، فرجع منه إلى الإيمان لي ﴿وَأَمَّنَ﴾، أي: وأخلص لي الألوهية، ولم يشرك في عبادته إياي غيري. ﴿وَعَمَلٌ صَالِحًا﴾ أي: «وأدى فرائضي التي افترضتها عليه، واجتنب معاصي». ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أي: ثم لزم ذلك، فاستقام ولم يضيع شيئا منه»^(٤).

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد:

* أيد الله تعالى نبيه موسى ﷺ بمعجزة العصا حين أمره أن يضرب بها البحر ليسلكوه في أمان من الدرك بعد أن قالوا إنا لمدركون.

* إن «الإضافة في قوله ﴿بِعِبَادِي﴾ لتشريفهم، وتقريبهم، والإيحاء إلى تخليصهم من استعباد القبط وأنهم ليسوا عبيدا لفرعون».

* «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٧٥/١٦.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٩٣/١٦-١٩٤.

(٣) حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٢٨٨/٥.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٩٤/١٦-١٩٥. وقد اختار الطبري هذا القول في معنى {ثم اهتدى} ثم قال: «وإننا اخترنا القول الذي اخترنا في ذلك، من أجل أن الاهتداء هو الاستقامة على هدى، ولا معنى للاستقامة عليه إلا وقد جمعه الإيمان والعمل الصالح والتوبة، فمن فعل ذلك وثبت عليه، فلا شك في اهتدائه» وقيل: ثم اهتدى: أي ولزم الإيمان والعمل الصالح، وقيل: لم يشكك في إيمانه، وقيل: ثم استقام. وقيل: أصاب العمل، وقيل: عرف أمر مثيبه: إن خيرا فخييرا، وإن شرا فشرا». جامع البيان، للطبري: ١٩٤/١٦-١٩٥.

(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٧٠/١٦.

لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة. فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلاً واستكانة وخوفاً. فأما حين استعلن الإيثار في قلوب الذين آمنوا بموسى، واستعدوا لاحتفال التعذيب وهم مرفوعوا الرؤوس يجهرون بكلمة الإيثار في وجه فرعون دون تلجلج ودون تخرج، ودون اتقاء للتعذيب. فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة. وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب... هذه هي العبرة التي يبرزها السياق بذلك الإجمال، وتتابع المشهدين بلا عائق من التفصيلات. ليستيقنها أصحاب الدعوات ويعرفوا متى يرتقبون النصر من عند الله وهم مجردون من عدة الأرض. والطغاة يملكون المال والجند والسلاح" ^(١).

* «هكذا يجمل السياق كذلك ما غشي فرعون وقومه، ولا يفصله، ليبقى وقعه في النفس شاملاً مهولاً؛ لا يحدده التفصيل.

* وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر، وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار" ^(٢).

* إن في إيثار السحرة وثباتهم على الحق درس بليغ للدعاة إلى الله في الثبات، وقد كان من قبل تثبيت لأولئك المؤمنين في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقت نزول هذه السورة.

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة:

محور السورة العناية بالرسول والمدعوين، والرعاية لهم، وتأمل حال القوم الذي حكاها الله بقوله: ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١].. ولك أن تستشعر ما تحمله جملة «إنا لمدركون» من قوة التأكيد إذ اجتمع فيها حرفا التأكيد «إن» و«اللام»، ولك -أيضاً- أن تتصور بعد ذلك حجم الهم والغم الذي غشي القوم وهم يظنون

(١) في ظلال القرآن: ٤ / ٢٣٤٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٤ / ٢٣٤٤.

أنهم مدركون من قبل فرعون الطاغية، فإذا بلطف الله تعالى يدركهم قبل أن يدركهم بطش فرعون وجنوده، فألهم الله موسى - ﷺ - أن يطمئنهم بلسان الواثق بالله ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقد هداه. وهنا في هذه السورة يخبرنا الله تعالى بما أوحاه إلى موسى من الأمن والاطمئنان حين قال: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى ﴾ (٧٧)، « وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله - بني إسرائيل - ليلاً. فيضرب لهم طريقاً في البحر يبسا... مطمئناً إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده، ولا يخشى من البحر الذي اتخذ له طريقاً يابساً فيه! ويد القدرة التي أجرت الماء وفق الناموس الذي أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه» (١)، ليقر الله أعينهم بإغراق فرعون وقومه.

«لقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيوان والطغيان فلم يتكلف أصحاب الإيوان فيها شيئاً سوى اتباع الوحي والسري ليلاً. ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع.. موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة، وفرعون وجنده يملكون القوة كلها. فلا سبيل إلى خوض معركة مادية أصلاً. هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة. ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيوان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها. بعد أن استعلن الإيوان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه؛ لا يهرب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده» (٢).

وتتابع من الله تعالى على بني إسرائيل عناية بهم ورعاية لهم، فواعدهم الله جانب الطور «ومواعدتهم جانب الطور الأيمن يشار إليها هنا على أنها أمر واقع؛ وكانت مواعدة لموسى - ﷺ - بعد خروجهم من مصر - أن يأتي إلى الطور بعد أربعين ليلة يتهيأ فيها للقاء ربه، ليسمع ما يوحى إليه في الألواح من أمور العقيدة والشريعة، المنظمة لهذا الشعب الذي كتب له دورا

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤ / ٢٣٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤ / ٢٣٤٥.

يؤديه في الأرض المقدسة بعد الخروج من مصر" (١). ونعمة نزول الشريعة نعمة عظيمة وردت هنا في موضع التذكير بها إذ هي منة من الله تعالى عليهم.

وأُنزل عليهم المن والسلوى: «وتنزيل المن؛ وهو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر. والسلوى وهو طائر السمانى يساق إليهم في الصحراء، قريب المتناول سهل تناول، كان نعمة من الله ومظهرا لعنايته بهم في الصحراء الجرداء. وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد" (٢).

المشهد السادس: مشهد المناجاة إلى جانب الطور الأيمن

وموقف موسى -عليه السلام- مما أحدث قومه من بعده

﴿ وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّىٰ ۖ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَنزَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۚ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٤﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٥﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٦﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٧﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٨٩﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩٠﴾ قَالَ يَهتَرُونَ بِمَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩١﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٢﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٣﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعِي ﴿٩٤﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٥.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٤٥.

قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِي نَفْسِي ﴿١٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ، وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾ ﴿

تضمن هذا المشهد عتاب الله لموسى -عليه السلام- لتعجله لقاء ربه، وتركه قومه، وفتنة السامري حين صنع لهم عجلا جسدا له خوار، ودعاهم إلى عبادته، فعبدوه بعد فراق موسى -عليه السلام- لهم، وموقفه من قومه بعد رجوعه إليهم غضبان أسفا، ولومه لهم على عبادتهم العجل، وموقفه مع أخيه، ولومه على عدم اتباعه حين تيقن ضلال قومه، وحواره مع السامري، ثم ما صار إليه السامري من العقوبة بالإبعاد، وما آل إليه العجل المصنوع من الإحراق والنسف في اليم، ليختتم المشهد بالتأكيد على ألوهية الله تعالى بعد إثبات أن العجل لا يستحق أن يعبد من دون الله وقد نسف في اليم نسفا.

المناسبة بين هذا المشهد والمشهد الذي قبله.

الاستفهام بقوله ﴿ وَمَا أَصْحَابُكَ ﴾ «استفهام مستعمل في اللوم، وذلك أن موسى -عليه السلام- تعجل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبان الذي عينه الله له، اجتهادا منه ورغبة في تلقي الشريعة حسبا وعده الله قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلا السابق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، فلامه الله على أن غفل عن مراعاة ما يحف بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم الله بالمحافظة على العهد ويحذرهم مكر من يتوسم فيه مكرًا^(١). ولما كان الأنبياء أعلى مقاماً وقع اللوم لموسى -عليه السلام- في أمر اجتهاد فيه مريداً الخير، فاحتاج اجتهاده ذلك إلى الاستغفار، إذ لم يقع على ما أراده الله منه، فناسب أن يساق هذا اللوم هنا بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَلْفَقَارُ ﴾ ليشعر السامع بأن الله تعالى غفر لنبيه، لأنه غفار لمن استغفره، وقد

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٧٧/١٦.

استغفره موسى من بعد حيث قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي﴾.

هذا بالإضافة إلى أن هذا السؤال «عن سبب استعجاله دون قومه ليخبره موسى - ﷺ - بأنهم يأتون على أثره، فيخبره الله بما صنعوا بعده من عبادة العجل»^(١). والذي أفاض المشهد ببيان أحداثه.

ولما كان المشهد السابق تضمن عرض المنن الكثيرة التي من الله بها على بني إسرائيل، وختمها بالوعيد بغضب الله لمن لم يشكرها ناسب أن يعقبه هذا المشهد الذي تحقق فيه ذلك الوعيد لما طغى القوم، وكفروا بنعم الله تعالى، ولم يراعوها حق رعايتها، فعبدوا العجل واتخذوه إلهاء، فحق عليهم اللوم والتبكي، وحققت على السامري العقوبة، وباجتماع المشهدين درس للسامع بأن يلزم الشكر، فبالشكر تدوم النعم، وبكفرها تحل العقوبة والنقم، والله أعلم.

المعنى الإجمالي:

يقول تعالى ذكره: وما أعجلك؟ وأي شيء أعجلك عن قومك يا موسى، فتقدمتهم وخلفتهم وراءك، ولم تكن معهم؟ ﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي﴾، أي: قومي على أثري يَلْحَقُونَ بي. ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: وعجلت أنا فسبقتهم رب، كيما ترضى عني.

ثم «قال الله تعالى ذكره لموسى: فإننا يا موسى قد ابتلينا قومك من بعدك، -أي: من بعد فراقك إياهم- بعبادة العجل، وذلك كان فتنتهم من بعد موسى. ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ وكان إضلال السامري إياهم دعاءه إياهم إلى عبادة العجل. ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي: فانصرف موسى - ﷺ - إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة ﴿عَضَبْنَاهُ سَيْفًا﴾ متغيظاً

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ١٧/٣.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦٠/١٩٥. ثم قال الطبري: «وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلك عن قومك؟ لأنه جل ثناؤه، فيما بلغنا، حين نجاه وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وقطع بهم البحر، وعدهم جانب الطور الأيمن، فتعجل موسى إلى ربه، وأقام هارون مع بني إسرائيل، يسير بهم على أثر موسى».

على قومه، حزينا لما أحدثوه بعده من الكفر بالله^(١). « وهو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم، وهم قوم قد عبدوا غير الله، ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه، وسخافة عقولهم وأذهانهم^(٢) » .

﴿ قَالَ يَقْوَرِ أَلَمَ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا ﴾ ألم يعدكم ربكم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، ويعدكم جانب الطور الأيمن، وينزل عليكم المن والسلوى، فذلك وعد الله الحسن بني إسرائيل الذي قال لهم موسى: ألم يعدكموه ربكم^(٣) .

أو أن المعنى «أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله^(٤)» .

﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، أي: أفتال عليكم العهد بي، وبجميل نعم الله عندكم، وأياديه لديكم ، أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم: أي: أم أردتم أن يجب عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل، وكفركم بالله، فأخلفتم موعدي. وكان إخلافهم موعده، عكوفهم على العجل، وتركهم السير على أثر موسى - ﷺ - للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى: ﴿ لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾^(٥) ، فقال قوم

(١) جامع البيان، للطبري: ١٩٦/١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٨٩.

(٣) جامع البيان، للطبري: ١٩٦/١٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/١٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٨٩.

(٥) يقول ابن جزي: وهذا الكلام تويخ لهم. التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/١٧.

(٦) «أم ههنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٨٩.

(٧) جامع البيان، للطبري: ١٩٦/١٦-١٩٧.

(١) موسى لموسى: ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾، يعنون بموعده: عهده الذي كان عهده إليهم» .

وقولهم: ﴿ بِمَلِكِنَا ﴾ يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة .

«ثم شرعوا يعتذرون بالعدر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر» . فقالوا: ﴿ وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أي: ولكننا حملنا أثقالاً وأحمالاً من زينة القوم، يعنون من حلي آل فرعون وذلك أن بني إسرائيل لما أراد موسى -عليه السلام- أن يسير بهم ليلاً من مصر بأمر الله إياه بذلك، أمرهم أن يستعبروا من أمتعة آل فرعون وحليهم، وقال: إن الله مغنمكم ذلك، ففعلوا، واستعاروا من حلي نسائهم وأمتعتهم، فذلك قولهم لموسى -عليه السلام- حين قال لهم ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴿ (٩٢) .

«وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله يعني الحسين، وهم يسألون عن دم البعوضة» .

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٩٧.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٩٧، ١٩٨. وقال: أيضاً: وقيل: بأمرنا، وقيل: بطاقتنا، وقيل: بهوانا. «وكلّ هذه الأقوال الثلاثة في ذلك متقاربات المعنى، لأن من لم يهلك نفسه، لغلبة هواه على ما أمر» .

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٨٩.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/١٩٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٩٠.

«وقوله: ﴿فَقَدَّفْنَهَا﴾ يقول: فألقينا «فنبذنا» تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة
﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾

أي: فكما قذفنا نحن تلك الأثقال، فكذلك ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر
فرس جبريل^(١).

ثم «يقول تعالى ذكره موبخا عبدة العجل، والقائلين له ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى
فَنَسِيَ﴾»، وعابهم بذلك، وسفه أحلامهم بما فعلوا ونالوا منه: أفلا يرون أن العجل الذي
زعموا أنه إلهكم وإله موسى لا يكلمهم، وإن كلموه لم يردّ عليهم جوابا، ولا يقدر على ضرر
ولا نفع، فكيف يكون ما كانت هذه صفته إلهًا^(٢).

و«لما فرغ موسى -عليه السلام- من خطاب قومه ومراجعتهم إياهم على ما كان من خطأ فعلهم
انتقل إلى خطاب أخيه هارون، فقال: يا هارون أي شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ١٩٩. «وقيل بل خلق الله منه العجل من غير أن يصنعه السامري ولذلك
قال لموسى قد فتنا قومك من بعدك». التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٧.

وقال الطبري: «والذي هو أولى بتأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن هؤلاء، وهو أن ذلك خبر من الله
عزّ ذكره عن السامريّ أنه وصف موسى بأنه نسي ربه، وأن ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي
أخرجه السامري، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرا من
السامريّ عنه بذلك أشبه من غيره» جامع البيان: ١٦/ ٢٠١.

(٢) وإنما «صنع لهم السامري صنما على صورة عجل لأنهم كانوا قد اعتادوا في مصر عبادة العجل «إيبس»،
فلما رأوا ما صاغه السامري في صورة معبود عرفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأن له خوارا رسخ في
أوهامهم الآفة أن ذلك هو الإله الحقيقي الذي عبروا عنه بقولهم ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾،
لأنهم رأوه من ذهب أو فضة، فتوهموا أنه أفضل من العجل «إيبس»، وإذ قد كانوا يشتون إلهها محجوبا
عن الأبصار وكانوا يتطلبون رؤيته، فقالوا لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَهُ جَهْرَةٌ﴾، حينئذ توهموا أن هذه ضالتهم
المنشودة». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٦/ ٢٨٧.

(٣) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢٠٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٠.

(١) فكفروا بالله وعبدوا العجل ألا تتبعني» .

قيل: عدله على تركه السير بمن أطاعه في أثره على ما كان عهد إليه. وقيل: بل عدله على

تركه أن يصلح ما كان من فساد القوم» (٢)

(٣) وقيل: «ألا تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر لمن عبد العجل، وقتلهم بمن لم يعبد» .

(٤) وقيل: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٣﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع

﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ أي فيما كنت قدمت إليك، وهو قوله: ﴿ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا

تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

فقال هارون عليه السلام: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (أي لو

قاتلت من عبد العجل منهم بمن لم يعبده لقلت فرقت جماعتهم وأدخلت العداوة بينهم» .

وقيل المعنى: خشيت أن تقتل فيقتل بعضنا بعضاً.

وقيل: كان هارون خاف أن يسير بمن أطاعه، وأقام على دينه في أثر موسى، ويخلف عبدة

العجل، وقد قالوا له ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عِدَاةً حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ - فعندها - يقول له موسى:

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٠٣.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٠٣. ثم قال الطبري: «وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي

قاله ابن عباس من أن موسى عدل أخاه هارون على تركه اتباع أمره بمن اتبعه من أهل الإيوان، فقال له

هارون: إني خشيت أن تقول، فرقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم وراءك، وجئت ببعضهم، وذلك بين

في قول هارون للقول ﴿ يَقَوْمِي إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَانصَبُوا أَمْرِي ﴾ وفي جواب القوم

له وقيلهم ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عِدَاةً حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ جامع البيان: ١٦/٢٠٤.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٩١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٩١.

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/١٨.

﴿ فَرَّقَتْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ بسيرك بطائفة، وتركك منهم طائفة وراءك .^(١)

«وقوله: ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أي: ولم تنظر قولي وتحفظه»^(٢)

والقول الذي لم يرقبه هو قوله له: «اخلفني في قومي وأصلح»^(٣)

ولما اشتد غضب موسى وحصل منه أن أخذ برأسه ولحيته يجره إليه «ترقق هارون له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿ يَبْنُوهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ الآية، هذا اعتذار من هارون عند موسى - ﷺ - في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له»^(٤)

«وقوله: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ ﴾: أي: لقد قال لعبدة العجل من بني إسرائيل هارون من قبل رجوع موسى - ﷺ - إليهم، وقيله لهم ما قال، مما أخبر الله عنه: ﴿ إِنَّمَا قُنْتُمُ بِهٖ ﴾ أي: إنما اختر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل، الذي أحدث فيهم الخوار ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب، الشاك في دينه» ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾: أي: وإن ربكم الرحمن الذي يعم جميع الخلق نعمه، فاتبعوني على ما أمركم به من عبادة الله، وترك عبادة العجل، وأطيعوا أمري فيما أمركم به من طاعة الله، وإخلاص العبادة له.

وقوله: قالوا لئن نبرح عليه عاكفين يقول: قال عبدة العجل من قوم موسى: لن نزال على

العجل مقيمين

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢٠٤.

(٢) «من مراقبة الرجل الشيء»، وهي مناظرته بحفظه . جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢٠٤.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/ ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

نعبده، حتى يرجع إلينا موسى»^(١). «ونسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك و حاربوه وكادوا أن يقتلوه»^(٢).

ولما اتجه موسى -عليه السلام- بالخطاب إلى السامري، وقال له ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ ﴾^(٣) قال له: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي: قال السامري: علمت ما لم يعلموه أي: صرت بما عملت بصيراً عالماً^(٤).

وقيل: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ يعني فرس جبرائيل -عليه السلام-^(٥).

«وأما قوله: ﴿ فَكَبَّضْتُ فَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ أي: فأخذت بكفي تراباً من تراب

(١) جامع البيان، للطبري: ٢٠٢/١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/٢٢٩٠.

(٣) من البصيرة.

(٤) جامع البيان، للطبري: ٢٠٤/١٦.

(٥) جامع البيان، للطبري: ٢٠٥/١٦.

قال الطبري: «واختلف القراء في قراءة هذين الحرفين، فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ بالياء، بمعنى: قال السامري: بصرت بما لم يبصر به بنو إسرائيل. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ ﴾ بالتاء على وجه المخاطبة لموسى ﷺ وأصحابه، بمعنى: قال السامري لموسى: بصرت بما لم تبصر به أنت وأصحابك.

والقول في ذلك عندي أنها قراءتان معروفتان، قد قرأ بكل واحدة منها علماء من القراء مع صحة معنى كل واحدة منهما، وذلك أنه جائز أن يكون السامري رأى جبرائيل، فكان عنده ما كان بأن حدثته نفسه بذلك أو بغير ذلك من الأسباب، أن تراب حافر فرسه الذي كان عليه يصلح لما حدث عنه حين نبذه في جوف العجل، ولم يكن علم ذلك عند موسى، ولا عند أصحابه من بني إسرائيل، فلذلك قال لموسى: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي علمت بما لم تعلموا به. وأما إذا قرئ ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ بالياء، فلا مؤنة فيه، لأنه معلوم أن بني إسرائيل لم يعلموا ما الذي يصلح له ذلك التراب» جامع البيان، للطبري: ٢٠٥-٢٠٦/١٦.

أثر حافر فرس الرسول، أي: جبرائيل»^(١).

«وقوله: ﴿فَسَبَّدْتُهَا﴾ أي: فألقيتها ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي: وكما فعلت من إلقائي القبضة التي قبضت من أثر الفرس على الحلية التي أوقد عليها حتى انسبكت فصارَت عجلًا جسداً له حوار ﴿سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي: زينت لي نفسي أنه يكون ذلك كذلك»^(٢).

وعندها «قال موسى -عليه السلام- للسامري: فاذهب فإن لك في أيام حياتك أن تقول: لامساس: أي لا أمس، ولا أمس.. وذكر أن موسى -عليه السلام- أمر بني إسرائيل أن لا يؤاكلوه، ولا يخالطوه، ولا يبائعوه، فلذلك قال له: إن لك في الحياة أن تقول لامساس، فبقي ذلك فيما ذكر في قبيلته»^(٣).

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ﴾ «بمعنى: وإن لك موعداً لعذابك وعقوبتك على ما فعلت من إضلالك قومي حتى عبدوا العجل من دون الله، لن يخلفك الله، ولكن يذيقك»^(٤).

«وقوله: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: وانظر إلى معبودك الذي ظلت

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٠٥، ٢٠٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/١٨. وقال الطبري: ورويت القراءة بالصاد «قبصت قبصة» والمعنى: «بمعنى: أخذت بأصابعي من تراب أثر فرس الرسول، والقبضة عند العرب: الأخذ بالكف كلها، والقبضة: الأخذ بأطراف الأصابع»
(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٠٦. وقيل: ألقاها على العجل فصار له حوار. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/١٨.

(٣) جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٠٦. وقيل: «وجعل له مع ذلك أن يقول طول حياته لا مساس أي لا ماسة ولا إذابة وروي أنه كان إذا مسه أحد أصابت الحمى له وللذي مسه فصار هو يبعد عن الناس وصار الناس يبعدون عنه» التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٣/١٨.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٠٦-٢٠٧. وقرئ «لَنْ تُخْلَفَهُ». قال الطبري: «والقول في ذلك عندي أنها قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، لأنه لا شك أن الله موف وعده لخلقه بحشرهم لموقف الحساب، وأن الخلق موافقون ذلك اليوم، فلا الله مخلفهم ذلك، ولا هم مخلفوه بالتخلف عنه، فبأيتها قرأ القارىء فمصيب الصواب في ذلك».

عليه مقياً تعبه»^(١). «لنحرقته»^(٢). «والمقصود بإحراقه بالنار إذايته وإفساد صورته»^(٣).
«ثُمَّ لَنَسِيفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا» أي: ثم لنذرينه في البحر تذرية»^(٤).

ثم ختم كلامه بإثبات ألوهية الله تعالى، واستحقاقه للعبادة، بعد إبطال ألوهية العجل بنسفه في اليم نسفاً، فقال: «إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أي: ما لكم أيها القوم معبود، إلا الذي له عبادة جميع الخلق لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي أن تكون إلا له «وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» أي: أحاط بكل شيء علماً فعلمه، فلا يخفى عليه منه شيء ولا يضيق عليه علم جميع ذلك».

الإشارات والهدايات المستنبطة من المشهد

* يبدو أن سؤال الله لموسى -عليه السلام- «عن سبب استعجاله دون قومه ليخبره موسى -عليه السلام- بأنهم يأتون على أثره فيخبره الله بما صنعوا بعده من عبادة العجل، أو أن سؤاله كان على وجه الإنكار لتقدمه وحده دون قومه»^(٦).

* انشغل بنو إسرائيل بعبادة العجل، بعد أن ألقوا الحلي التي حملوها معهم في النار -تورعا- لأنهم سرقوها من القبط، وبذلك انشغلوا بالذنب الحقيق عن الذنب العظيم، وكم نرى -في

(١) جامع البيان، للطبري: ٢٠٧/١٦.

(٢) بضم النون وتشديد الراء، بمعنى لنحرقه بالنار قطعة قطعة، وقرئ بضم النون، وتخفيف الراء، بمعنى: لنحرقه بالنار إحراقاً واحدة، وصوب الطبري قراءة التشديد. جامع البيان، للطبري: ٢٠٨/١٦.

(٣) وهو ما صححه ابن جزى: ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ١٨/٣.

(٤) جامع البيان، للطبري: ٢٠٨/١٦. يقال: نسف فلان الطعام بالنسف: إذا ذراه فطير عنه قشوره وترابه باليد أو الريح.

(٥) جامع البيان، للطبري: ٢٠٩/١٦. يقال: فلان يسع لهذا الأمر: إذا أطاقه وقوي عليه، ولا يسع له: إذا عجز عنه فلم يطقه ولم يقو عليه.

(٦) «فاعتذر موسى بعذرین أحدهما أن قومه على أثره أي: قريب منه فلم يتقدم عليهم بكثير فيوجب العتاب، والثاني أنه إنما تقدم طلباً لرضى الله» التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى: ١٧/٣.

حياة الناس - من منشغل بكبائر الذنوب، متورعا عن صغائرهما، وما ذاك إلا بتبليس إبليس عليهم.

- * عكف بنو إسرائيل على العجل الذي ﴿الْأَبْرَجُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾^(١) وقالوا عن نبيهم ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ وهذا القول «يضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذي أنقذهم تحت عين الله وسمعته، وتوجيهه وإرشاده. اتهامهم له بأنه غير موصول بربه، حتى ليضل الطريق إليه، فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه»^(٢).
- * لم يتوجه موسى -عليه السلام- باللوم إلى السامري منذ البدء^(٣)، مع أنه هو الذي أضل قومه، وذلك «لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤمن عليهم. فأما السامري فذنبه يجيء متأخرا لأنه لم يفتنهم بالقوة، ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغوا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول، ونصح نبيهم الثاني. فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك. ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرا».

(١) «وقدم الضر على النفع قطعا لعذرهم في اعتقاد إلهيته، لأن عذر الخائف من الضر أقوى من عذر الراغب في النفع». التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٨٩/١٦.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٤٨/٤.

(٣) يقول ابن عاشور: «ولعل موسى لم يغلظ له القول كما أغلظ هارون لأنه كان جاهلا بالدين فلم يكن في ضلاله عجب. ولعل هذا يؤيد ما قيل: إن السامري لم يكن من بني إسرائيل ولكنه كان من القبط أو من كرمان فاندس في بني إسرائيل. ولما كان موسى مبعوثا لبني إسرائيل خاصة ولفرعون وملئه لأجل إطلاق بني إسرائيل، كان اتباع غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمرا غير واجب على غير الإسرائيليين ولكنه مرغّب فيه لما فيه من الاهتداء، فلذلك لم يعنفه موسى لأن الأجدر بالتعنيف هم القوم الذين عاهدوا الله على الشريعة». التحرير والتنوير: ٢٩٣/١٦.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٤٨/٤.

- * قوله ﴿فَأَذَهَبَ﴾ الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمة^(١).
- * مع أن هارون شقيق لموسى إلا أنه ناداه بأمه فقال: {يا ابن أم} «لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف»^(٢)، وفيه إشارة إلى أهمية اختيار الألفاظ المؤثرة في أوقاتها المناسبة طمعا في التأثير على المخاطب، وقد نتج -هاهنا- عن ذلك تأثر موسى -ﷺ- بذلك، فتراه يطلب لنفسه ولأخيه المغفرة «رب اغفر لي ولأخي».
- * قال هارون معتذرا لموسى ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ « وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمة إذ تعارضت عنده مصلحتان مصلحة حفظ العقيدة ومصلحة حفظ الجماعة من الهرج. وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة فرجح الثانية. وإنما رجحها لأنه رآها أديم فإن مصلحة حفظ العقيدة يستدرك فواتها الوقي برجوع موسى -ﷺ- وإبطاله عبادة العجل حيث جعلوا غاية عكوفهم على العجل برجوع موسى^(٣). بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انثلمت عسر تداركها» .

(١) «إما لأنه لم يكن من أنفسهم فلم يكن بالذي تجري عليه أحكام الشريعة، وإما لأن موسى أعلم بأن السامري لا يرجى صلاحه، فيكون ممن حقت عليه كلمة العذاب، مثل الذين قال الله تعالى فيهم (إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)، ويكون قد أطلع الله موسى على ذلك بوحي أو إلهام، مثل الذي قاتل قتالاً شديداً مع المسلمين، وقال النبي ﷺ (أما إنه من أهل النار)، ومثل المنافقين الذين أعلم الله بهم محمداً ﷺ وكان النبي عليه الصلاة والسلام أعلم حذيفة بن البيان ببعضهم. فقوله فاذهب الأظهر أنه أمر له بالانصراف والخروج من وسط الأمة». التحرير والتنوير: ١٦/ ٢٩٧-٢٩٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩١.

(٣) ذكر ابن عاشور هذا الاجتهاد، ثم تعقبه بقوله: «وكان اجتهاده ذلك مرجوحاً لأن حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهم من حفظ الأصول المتفرعة عليه. لأن مصلحة صلاح الاعتقاد هي أم المصالح التي بها صلاح الاجتماع... ولذلك لم يكن موسى خافياً عليه أن هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يفضي إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإن حرمة الشريعة بحفظ أصولها =

* إن لنوازع الشر في النفس البشرية أثر في تصرفات البشر، خاصة حين لا يوجد فيها من الإيمان والتقوى ما يردعها ويكفها عن الشر، وها هنا السامري نموذج لذلك، فقد صرح بأن نفسه هي التي سولت له صناعة العجل الذي عبده بنو إسرائيل في غياب موسى، فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِي نَفْسِي ﴾، ومن قبل طوعت نفس ابن آدم له قتل أخيه، فيما أخبر الله في كتابه حين قال: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣٠)

[المائدة: ٣٠].

* ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْتَحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ أضاف موسى -عليه السلام- الإله إلى ضمير السامري تهكما به، وتحقيرا له، واستدل على بطلان إلهيته بالدليل الحسي الذي لا يحتاج إلا إلى المشاهدة، لأن دلالة المحسوسات أو ضح من دلالة المقولات .

المناسبة بين هذا المشهد ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وهنا يحكي الله تعالى لنا إضلال السامري لقوم موسى بصناعة العجل، فكان من لطف الله تعالى بهم أنه لم يتركهم في ضلالهم، فأطمع هارون أن يعظمهم ويذكرهم بأن ما وقعوا فيه فتنة، وأن ربهم هو الرحمن بما تحمله هذه الصفة من ظلال اللطف والرعاية، ويتصل لطف الله بهم حين عاتب الله موسى -عليه السلام- على استعجاله للقاء، ليعود إليهم موسى، فينكر عليهم هذا الفعل الشنيع، ويثبت لهم بطلان عبادة العجل، وليشاهدوا بأعينهم تحريق العجل الذي اتخذوه إلهًا، فيوقنوا عندها أنه غير مستحق للعبادة البتة، وأنه كما قال الله ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ (٨٩) ثم يصحح لهم موسى -عليه السلام- عقيدتهم، فيثبت الألوهية لله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّمَا إِلْهِكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ

= وعدم التساهل فيها، وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأمة والعمل بها كما بينته في كتاب مقاصد

الشريعة. التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٩٣-٢٩٤.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٩٩/١٦.

﴿ كَلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٨ ﴾

« وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف، يعلن موسى - ﷺ - حقيقة العقيدة. ﴿ إِنَّكَ إِلهَهُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٨ ﴾ .. ويتتهي بهذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى - ﷺ - في هذه السورة تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده. حتى عندما يتلون فيخطئون. ولا يزيد السياق شيئاً من مراحل القصة بعد هذا، لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بني إسرائيل بما يرتكبون من آثام وفساد وطغيان. وجو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين. فمن الحكمة أن لا يكون عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجوّ الظليل» (١).

الدرس الثاني: جزاء المعرضين عن القرآن الكريم

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ٩٩ ﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ١٠٠ ﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ وَجَدًا لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٠١ ﴾ يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ وَنَحْمُسُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ١٠٢ ﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا عَشْرًا ١٠٣ ﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا يَوْمًا ١٠٤ ﴾

تضمن هذا المقطع إنباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأخبار السابقين مما قصه عليه في كتابه الكريم، وتضمن بيان جزاء المعرضين عن الذكر الذين يحملون أوزارهم وحدهم يوم القيامة، وساء لهم حملاً، وبيان كيفية حشرهم، وما يتسارون به بينهم من تذاكر قدر مدة لبثهم في الحياة الدنيا، وإقرارهم بسرعة مرورها حتى قال أعدلهم «إن لبثتم إلا يوماً».

المناسبة بين هذا المقطع والمشهد الذي قبله.

«ولما تمت قصة موسى - ﷺ - على هذا الأسلوب الأعظم، والسبيل الأقوم، متكفلة

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٤٩/٤.

بالدلالة على القدرة على ما وقعت إليه الإشارة من البشارة أول السورة بتكثير هذه الأمة ورد العرب عن غيهم بعد طول التهادي في العناد، والتنكب عن سبيل الرشاد، إلى ما تخللها من التسلية بأحوال السلف الصالح والتأسي بهم، مفصلة من أدلة التوحيد والبعث، وغير ذلك من الحكم، بما يبعث الهمم، على معالي الشيم، كان كأنه قيل: هل يعاد شيء من القصص على هذا الأسلوب البديع والمثال الرفيع؟ فقيل: نعم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا القصص العالي، في هذا النظم العزيز الغالي لقصة موسى -عليه السلام- ومن ذكر معه ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء؛ وأشار إلى جلالة علمه بقوله: ﴿مِنْ أَنْبَاءٍ﴾ أي أخبار ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من الأزمان والكوائن الجليلة، زيادة في علمك، وإجلالاً لمقدارك، وتسلية لقلبك، وإذهاباً لحزنك، بما اتفق للرسول من قبلك وتكثيراً لأتباعك وزيادة في معجزاتك، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة وتأكد الحجة على من عابه»^(١).

ولما كانت قصة موسى -عليه السلام- من القصص التي ما كان لرسول الله ﷺ أن يعلمها من قبل هذا القرآن ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩] ناسب أن يذكر القرآن الكريم الذي قص الله به على نبيه أخبار ما قد سبق، وإن اختيار اسم الذكر للقرآن الكريم -هنا- له دلالة في السياق، «فهو ذكر الله ولآياته، وتذكير بما كان من هذه الآيات في القرون الأولى»^(٢). و«إيحاء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها»^(٣).

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ٣٣٩/١٢.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٢/٤.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٠٢/١٦.

(١)
المعنى الإجمالي :

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك يا محمد نبأ موسى وفرعون وقومه وأخبار بني إسرائيل مع موسى -عليه السلام- ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: كذلك نخبرك بأخبار الأمم التي قد سبقت من قبلك، فلم تشاهدها ولم تعانها» ﴿وَقَدْ آتَيْنَكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾. أي: وقد آتيناك يا محمد من عندنا ذكرا يتذكر به، ويتعظ به أهل العقل والفهم، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله عليه، فجعله ذكرى للعالمين» ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: من ولّى عنه فأدبر فلم يصدق به ولم يقر، ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي: فإنه يأتي ربه يوم القيامة يحمل حملاً ثقيلاً، وذلك الإثم العظيم، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أي: وساء ذلك الحمل والثقل من الإثم يوم القيامة حملاً، وحق لهم أن يسوءهم ذلك، وقد أوردهم مهلكة لا منجي منها»^(١).

﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ﴾ أي: وساء لهم يوم القيامة، يوم ينفخ في الصور، ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي: ونسوق أهل الكفر بالله يومئذ إلى موقف القيامة زرقا، فقيل: عنى بالزرق في هذا الموضع: ما يظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأي العين من الزرق^(٢).

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتهامسون بينهم، ويسر بعضهم إلى بعض: إن لبثتم في الدنيا، يعني: أنهم يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشرة^(٣). لاستقلالهم مدة الدنيا.

ثم يقول تعالى ذكره: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منهم عند إسرارهم وتخافتهم بينهم بقليلهم: ﴿إِنْ

(١) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر: ١٦/٢٠٩، ٢١٠، ٢١١.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/٢١٠.

(٣) وقيل: أريد بذلك أنهم يحشرون عميا، كالذي قال الله {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا}. جامع البيان، للطبري: ١٦/٢١٠.

(٤) جامع البيان، للطبري: ١٦/٢١١. وقيل يعنون لبثهم في القبور. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي:

لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿ لا يخفى علينا مما يتساررونه بينهم شيء ﴾ ﴿ إِذْ يَقُولُ آمَنَّا لَهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ أي: حين يقول أوفاهم عقلاً، وأعلمهم فيهم: إن لبثتم في الدنيا إلا يوماً».

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع

* ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ هذا إثبات بأن القصص وحي من عند الله تعالى وفيه رد على زعم الكفار قديماً لما قالوا ﴿ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أكتتبتها فهي تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ [الفرقان: ٥]، ودحض لكل شبهة تزعم أن هذا القرآن من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

* ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ﴾ إيهاء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصة الزمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها (١).

* أخبر الله تعالى عن الكفار حين يختلفون يوم القيامة في تقدير مدة لبثهم في الدنيا، «وإنما عنى جل ثناؤه بالخبر عن قيلهم هذا القول يومئذ، إعلام عباده أن أهل الكفر به ينسون من عظيم ما يعاينون من هول يوم القيامة، وشدة جزعهم من عظيم ما يردون عليه ما كانوا فيه في الدنيا من النعيم واللذات، ومبلغ ما عاشوا فيها من الأزمان، حتى يخيل إلى أعقلهم فيهم وأذكرهم وأفهمهم أنهم لم يعيشوا فيها إلا يوماً» (٢).

* في الآيات إثبات وقوع القيامة، والجزاء، والنفخ في الصور، والحشر، وهي أمور كان الكفار ينكرونها وقت نزول هذه السورة.

(١) التحرير والتنوير: ٣٠٢/١٦.

(٢) جامع البيان، للطبري: ٢١١/١٦.

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وفي قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ تثبيت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لما في القصص من التثبيت ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِيهِ إِذْ وَجَّاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] وهذا القدر الذي قصه الله في هذه السورة المشار إليه في هذا الموضوع «تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده. حتى عندما يتلون فيخطئون. ولا يزيد السياق شيئاً من مراحل القصة بعد هذا... لأن جو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين. فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجو الظليل»^(١).

وهذا القرآن رحمة بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم الذي أنزل عليه القرآن، وبالأمّة التي أنزل عليها القرآن، لأنه إيتاء من الله تعالى فهو «عطية كانت مخزونة عند الله فخص بها خير عباده»^(٢).

ويجيء القصص القرآني ليلقي في قلوب المؤمنين الطمأنينة والتسلية في وقت يعاني في المؤمنون أقسى أنواع الابتلاء، وهنا رحمة أخرى بأولئك الكفرة العتاة لما يقص الله عليهم من أنباء ما قد سبق ليكون لهم عبرة، وعظة، وزجراً وإنذاراً، وكثيراً ما يرد في القرآن الكريم عقب القصص قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾^(٣).

ومن لطف الله تعالى بالمعرضين عن القرآن أنه تلطف معهم بالتعريض لهم بالإنذار عن إعراضهم عن القرآن باستخدام اسم الموصول المفيد للعموم والإبهام، ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ ولم يوجههم بالخطاب، استمالة لهم، واتساقاً مع جو الرعاية والعناية التي تتسم به السورة.

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٤٩/٤.

(٢) التحرير والتوير: ٣٠٢/١٦.

(٣) وقرأ بتدبر القصص القرآني في سورة الشعراء، وغيرها.

الدرس الثالث: عنوانه: مشاهد يوم القيامة.

﴿ وَسْتَأْتُونَكَ مِنَ الْجِبَالِ فَكُلٌّ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ، قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

تضمن هذا المقطع الإجابة عن أسئلة المشركين بشأن الجبال، وبيان حالها يوم القيامة وحال الناس يوم القيامة، من اتباعهم الداعي إلى الحشر، وخشوع الأصوات للرحمن، وانقطاع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا، وخشوع الوجوه للحَيِّ القيوم، وجزاء الظالمين، وثواب المحسنين، فهو سبحانه لا يظلم أحدا.

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع الذي قبله:

«لما أخبر عن بعض ما سبق ثم عن بعض ما يأتي من أحوال المعرضين عن هذا الذكر فيما ينتجه لهم إعراضهم عنه، وختم ذلك باستقصارهم مدة لبثهم في هذه الدار، أخبر عن بعض أحوالهم في الإعراض فقال: ﴿ وَسْتَأْتُونَكَ مِنَ الْجِبَالِ ﴾ ما يكون حالها يوم ينفخ في الصور»^(١).

و«لما جرى ذكر البعث ووصف ما سينكشف للذين أنكروه من خطئهم في شبهتهم بتعذر إعادة الأجسام بعد تفرق أجزائها، ذكرت أيضا شبهة من شبهاتهم كانوا يسألون بها النبي ﷺ سؤال تعنت لا سؤال استهداء، فكانوا يحيلون انقضاء هذا العالم ويقولون: فأين تكون هذه الجبال التي نراها... وسواء كان سؤالهم استهزاء أم استرشادا. فقد أنبأهم الله بمصير الجبال إبطالا لشبهتهم وتعلما للمؤمنين»^(٢).

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٤٤.

(٢) وروي أن رجلا من ثقيف سأل النبي ﷺ عن ذلك، وهم أهل جبال لأن موطنهم الطائف وفيه جبل =

(١)

المعنى الإجمالي :

«يقول تعالى ذكره: ويسألك يا محمد قومك عن الجبال، فقل لهم: يذريها ربي تذرية ويطيرها بقلعها واستئصالها من أصولها، ودكّ بعضها على بعض، وتصيره إياها هباءً منبثاً ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (١٦) أي: فيدع أماكنها من الأرض إذا نسفها نسفًا، قاعًا: يعني: أرضاً ملساء، صفصفا: يعني مستويا لنبات فيه، ولا نشز، ولا ارتفاع»، ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (١٧) أي: لا ترى فيها ميلاً عن الاستواء، ولا ارتفاعاً، ولا انخفاضاً، ولكنها مستوية ملساء، كما قال جلّ ثناؤه: قاعاً صَفْصَفًا، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ يومئذ يتبع الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، فيحشرهم إليه ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا عوج لهم عنه ولا انحراف، ولكنهم سراعاً إليه ينحشرون. ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: وسكنت أصوات الخلائق للرحمن... فلا تسمع لناطق منهم منطلقاً إلا من أذن له الرحمن. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: وطء الأقدام إلى المحشر، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَا نُنْفَعُ الشَّفْعَةَ﴾ أي عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَى﴾ (١٨)، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنَ خَشِيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾. وقال: ﴿وَلَا

= كرى. التحرير والتنوير: ١٦/٣٠٦-٣٠٧.

- (١) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر: ١٦/٢١١، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٧.
- (٢) وقيل: لا عوج له، والمعنى: لا عوج لهم عنه، لأن معنى الكلام ما ذكرنا من أنه لا يعوجون له ولا عنه. ولكنهم يؤمونه ويأتونه، كما يقال في الكلام: دعاني فلان دعوة لا عوج لي عنها: أي لا عوج عنها. جامع البيان، للطبري: ١٦/٢١٤.
- (٣) فوصف الأصوات بالخشوع. والمعنى لأهلها إنهم خضع جميعهم لربهم. جامع البيان، للطبري: ١٦/٢١٤.
- (٤) مروى عن ابن عباس: جامع البيان: ١٦/٢١٤-٢١٥. يقول الطبري: وأصل الهمس: الصوت الخفي، يقال همس فلان إلى فلان بحديثه إذا أسرّه إليه وأخفاه... وقيل: تخافت الكلام: خفض الصوت

تَنْفَعُ الشَّفْعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٨٣].

ثم يقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ربك يا محمد ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي من أمر القيامة، وما الذي يصيرون إليه من الثواب والعقاب ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ويعلم أمر ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا﴾ أي: ولا يحيط خلقه به علما، ومعنى الكلام: أنه محيط بعباده علما، ولا يحيط بعباده به علما.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ يقول تعالى ذكره: استسرت وجوه الخلق، واستسلمت للحَيِّ القيوم الذي لا يموت، القيوم على خلقه بتدبيره إياهم، وتصريفهم لما شاءوا^(٣). ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: ولم يظفر بحاجته وطلبته من حمل إلى موقف القيامة شركا بالله، وكفرا به، وعملا بمعصيته.

ثم يقول تعالى ذكره وتقدست أسماؤه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ومن يعمل من صالحات الأعمال، وذلك فيما قيل أداء فرائض الله التي فرضها على عباده.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: وهو مصدق بالله، وأنه مجاز أهل طاعته وأهل معاصيه على معاصيهم.

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٥.

(٢) كقوله: [ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٥. يقول ابن جزري: «والصحيح عندي أن المعنى لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله ولو أراد المعنى الأول لقال ولا يحيطون بعلمه ولذلك استثنى إلا بما شاء هناك ولم يستثن هنا». التسهيل لعلوم التنزيل: ٣/ ٢٠.

(٣) وأصل العنوا: الذل، يقال منه: عنا وجهه لربه يعنوا، يعني خضع له وذل، وكذلك قيل للأسير: عان لذلة الأسر، وقيل: وضع الجبهة والأنف على الأرض. جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢١٥-٢١٧.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي: فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليه.

﴿وَلَا هَضْمًا﴾ أي: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها.

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع.

* إن التعبير بالنسف للجبال بعد التعبير بنسف العجل دلالة على قدرة الله الذي ينسف الجبال نسفًا، وعجز العجل عن دفع النسف عنه، فكانت هذه القدرة وذلك العجز دليل على استحقاق الله تعالى الألوهية، وامتناعها عن العجل.

* وكأنها تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية؛ وتنصت الجموع المحشودة المحشورة، وتخفت كل حركة وكل نامة، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين، لا يتلفتون ولا يتخلفون - وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون - ويعبر عن استسلامهم بأنهم ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾^(١) تنسيقا لمشهد القلوب والأجسام مع مشهد الجبال التي لا عوج فيها ولا نتوء .

* إن التعبير بنفي العوج عند اتباع الداعي، ليدكرهم باعوجاج أنفسهم عن اتباع داعي الحق فكان اتباع الداعي بلا اعوجاج في الآخرة جزاء لامتناعهم عن اتباع داعي الحق في الدنيا.

* إنهم كانوا في الدنيا يقولون ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِرِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] وهامهم يوم العرض في خشوع الأصوات لا تسمع منهم إلا همسا.

* إنهم كانوا يعبدون مع الله آله أخرى يعتقدون فيها الشفاعة عند الله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأما اليوم فقد انقطعت شفاعة الشافعين إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة، ورضي له بالقول، ولا يأذن الله إلا لمن ارتضى، وهؤلاء الآلهة ليسوا أهلاً للرضى.

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٢/٤.

- * أحاط الله بكل شيء علماً، وامتنع أن يحيط أحد بالله علماً.
- * المؤمنون يوم القيامة أولئك لهم الأمن، اطمأنت نفوسهم إلى عدل الله تعالى فلا يخافون ظلماً ولا هضماً.

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وإن من العناية بالخلق والرحمة بهم أن يبين لهم من الحجج والآيات على قدرته تعالى المطلقة، ليقرأوا له باستحقاق العبادة وحده، فإن الذي نسف الجبال نسفاً هو المستحق للعبادة، وليس العجل الذي نُسف في اليم نسفاً.

ومن الرحمة بالخلق أن أخبرهم بيوم الحساب، وأن الملك فيه لله وحده، ولا شفاعاة إلا لمن أذن له ورضي له قولاً، ليجتهد العبد أن يكون من أهل الشفاعاة والرضى، ويختتم المشهد ببيان عدله سبحانه، ليطمئن العبد بأنه أمام رب رحيم عادل، لا يظلم أحداً مثقال ذرة، فعندها لا يخاف ظلماً ولا هضماً.

الدرس الرابع: محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُرُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۗ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۗ ﴾

تضمن هذا المقطع تقرير عروبة القرآن، وبيان الحكمة من تضمينه الوعيد، ثم إرشاد الله نبيه إلى كيفية تلقي القرآن، وأمره بطلب زيادة العلم.

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع الذي قبله

«يقول الله تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان عربي مبين، فصيح لا لبس فيه ولا عي»^(١)، و«كما رغبتنا أهل الإيمان في

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٦.

صالحات الأعمال، بوعدنا إياهم ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيد أهل الكفر بالمقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا، فأنزلنا هذا القرآن عربياً، إذ كانوا عربياً^(١).

ولما اشتملت الآيات السابقة على حسن المعاني، فبشرت ويسرت، وأنذرت وحذرت، وبينت الخفايا، وأظهرت الخبايا، مع ما لها من جلاله السبك وبراعة النظم، كان كأنه قيل تنبيهاً على جلالتها: أنزلناها على هذا المنوال العزيز المثال ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي ومثل هذا الإنزال ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي هذا الذكر كله بعظمتنا ﴿قُرْءَانًا﴾ جامعاً لجميع المعاني المقصودة ﴿عَرَبِيًّا﴾ مبيناً لما أودع فيه لكل من له ذوق في أساليب العرب^(٢).

المعنى الإجمالي:

«يقول تعالى ذكره: كما رغبتنا أهل الإيمان في صالحات الأعمال، بوعدنا إياهم ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيد أهل الكفر بالمقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا، فأنزلنا هذا القرآن عربياً، إذ كانوا عربياً ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فينباه: أي: وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: كي يتقونا، بتصرفنا ما صرّفنا فيه من الوعيد «فيتركون المآثم والمحارم والفواحش» ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة، فيعتبرون ويتعظون بفعلنا بالأمم التي كذبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله^(٣).

﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي تنزهه وتقدهس الملك الحق الذي هو حق، ووعدده حق، ووعيدده حق ورسله حق، واللجنة حق والنار حق وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب

(١) جامع البيان، للطبري: ٢١٩/١٦.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ٣٤٩/١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٢٩٦/٥.

(٤) «وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات». تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٢٩٦/٥.

(٥) جامع البيان، للطبري: ٢١٩/١٦.

أحدًا قبل الإنذار وبعثة الرسل، والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة»^(١).

ثم يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: «ولا تعجل يا محمد بالقرآن، فتقرئه أصحابك، أو تقرأ عليهم، من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه، فعوتب على إكتابه وإملائه ما كان الله ينزله عليه من كتابه مَنْ كَانَ يُكْتَبُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ مَعَانِيَهُ، وَقِيلَ: لَا تَتْلُهُ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا تَمْلُهُ عَلَيْهِ، حَتَّىٰ نَبَيِّنَ لَكَ»^(٢).

وقيل: المعنى: «إذا أقرأك جبريل القرآن فاستمع إليه واصر حتى يفرغ وحينئذ تقرأه أنت فالآية كقوله ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾»^(٣).

ويشهد لهذا التفسير ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ، كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية يعني أنه ﷺ كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٤) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(٥) أي أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ﴾^(٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^(٧).

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٨) أي: زدني منك علماً، قال ابن عيينة رحمه الله: «ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل».

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٢٩٦/٥.

(٢) جامع البيان، للطبري: ٢١٩/١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٢٩٦/٥، ونص ابن جزي على أنه الأشهر. التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٠/٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ﴾، برقم: ٤٦٤٥، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في صحيحه، باب الاستماع للقراءة، برقم: ٤٤٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٢٩٦/٥.

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع:

* إن قوله تعالى: ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ بعد قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إشارة إلى أن القرآن قانون ذلك الملك، وأن ما جاء به هو السياسة الكاملة الضامنة صلاح أحوال متبعية في الدنيا والآخرة^(١).

* كما أن في وقوع جملة ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ معترضة بين جملة ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وبين جملة ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ﴾. «إنشاء ثناء على الله منزل القرآن، وعلى منة هذا القرآن، وتلقين لشكره على ما بين لعباده من وسائل الإصلاح، وحملهم عليه بالترغيب والترهيب، وتوجيهه إليهم بأبلغ كلام وأحسن أسلوب»^(٢).

* إن في وصفه سبحانه نفسه بأنه الملك الحق «إيحاء إلى أن ملك غيره من المتسمين بالملك لا يخلو من نقص كما قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾»^(٣). وانتفاء أي منازع له في ملكه سبحانه يوم القيامة، وقد كانوا يدعون الملك في الدنيا.

* إن النهي عن التعجل بالقرآن ليشعرنا بأهمية التأني في تلاوته، والتمعن في قراءته، وتمكين القلب من فهمه وتدبره. وقد جاء عن مجاهد وقتادة أن معناه: لا تعجل بقراءة ما أنزل إليك لأصحابك ولا تمهله عليهم حتى تتبين لك معانيه^(٤).

* ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ «فيه تلميح مع النبي ﷺ؛ إذ أتبع نبيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، فإن ذلك يجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن، أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعاً وفهماً، إيحاءً إلى أن رغبته في التعجل رغبة صالحة»^(٥).

(١) التحرير والتنوير: ٣١٦/١٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٣١٥/١٦.

(٣) التحرير والتنوير: ٣١٥/١٦.

(٤) التحرير والتنوير: ٣١٧/١٦.

(٥) التحرير والتنوير: ٣١٥/١٦.

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة :

محور السورة الرعاية والعناية، وإن من عناية الله تعالى بالمدعوين أن أنزل عليهم هذا القرآن بلسان عربي مبين، لئلا يكون لهم حجة في دعوى عدم فهمه، وكذا من رحمته بهم أن ضمن كتابه صنوفا من الترغيب والترهيب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

وتأمل قوله تعالى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ بعد ذكر الإنزال والتصريف ليتبين لك «أن ذلك الإنزال والتصريف ووسائل الإصلاح كل ذلك ناشئ عن جميل آثار يشعر جميعها بعلوه وعظمته وأنه الملك الحق المدبر لأمر مملوكاته على أتم وجوه الكمال وأفذ طرق السياسة»^(١).

الدرس الخامس: آدم وعداوة إبليس له ولذريته :

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءٌ تُهْمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْفَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَنْ يَحْشُرْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَنتَ مَا كُنَّا نَمْسِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾﴾

تضمن هذا المقطع حكاية نسيان آدم لعهد الله، واجتباؤه له بعد توبته، وتكريم الله له

(١) التحرير والتنوير: ٣١٥/١٦.

بإسجاد الملائكة له، والتصريح له بعداوة إبليس له، ومكره به، وسعيه إلى إخراجه وزوجه من الجنة، والتفصيل بما أعد الله لآدم في الجنة من نعيم، وإغراء إبليس لآدم وزوجه بالملك الدائم إن هما أكلا من الشجرة، حتى وقعا في المعصية، وبيان ما نتج عن المعصية من العقوبة، من بدو سواتهما، وإهباطهما إلى الأرض، ثم ما كان من لطف الله تعالى بآدم بالاجتباء والتوبة، لينتهي المقطع ببيان جزاء من أعرض عن منهج الله وثواب من اتبعه.

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع الذي قبله :

لما سبق ذكر القرآن وتصريف الله فيه من الوعيد للمشركين الذين لم ينتفعوا بذلك الوعيد ولم يتذكروا بهذا القرآن، أعقب الله تعالى هنا بذكر قصة آدم، فكان الله يقول: «وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّف لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي ويتبعوا أمر عدوّهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقديما ما فعل ذلك أبوهم آدم»^(١).

«ولما كانت قصة موسى ﷺ مع فرعون ومع قومه ذات عبرة للمكذبين والمعاندين الذين كذبوا النبي ﷺ وعاندوه، وذلك المقصود من قصصها... فكان النبي ﷺ استحباب الزيادة من هذه القصص ذات العبرة رجاء أن قومه يفيقون من ضلالتهم... أعقبت تلك القصة بقصة آدم ﷺ وما عرض له به الشيطان، تحقيقا لفائدة قوله ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. فالجملة عطف قصة على قصة»^(٢).

«وبمناسبة حرص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء

(١) جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٢٠.

(٢) «فلما كان النبي ﷺ حريصا على صلاح الأمة شديد الاهتمام بنجاتهم لا جرم خطرت بقلبه الشريف عقب سماع تلك الآيات رغبة أو طلبية في الإكثار من نزول القرآن وفي التعجيل به إسراعا بعظة الناس وصلاحهم» فنهاه الله بقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ وأن يكمل الأمر إليه فإنه أعلم بحيث يناسب حال الأمة العام». التحرير والتنوير: ١٦/٣١٦.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/٣١٨.

الوحي خشية النسيان يعرض السياق نسيان آدم لعهد الله^(١) .

«ولما قرر سبحانه بقصة موسى عليه السلام ما أشار إليه أول السورة بما هو عليه من الحلم والتأني على عباده، والإمهال لهم فيما هم عليه من النقص بالنسيان للعهود والنقض للمواثيق، وأتبعها ذكر مدح هذا الذكر الذي تأدت إلينا به، وذم من أعرض عنه، وختمه بما عهد إليه عليه السلام في أمره نهياً وأمراً، أتبع ذلك سبحانه قصة آدم عليه السلام تحذيراً من الركون إلى ما يسبب النسيان، وحثاً على رجوع من نسي إلى طاعة الرحمن، وبياناً لأن ذلك الذي قرره من حلمه وإمهاله عادته سبحانه من القدم، وصفته التي كانت ونحن في حيز العدم، وأنه جبل الإنسان على النقص، فلو أخذهم بذنوبهم ما ترك عليها من دابة»^(٢) .

«وقصة آدم هنا تجيء بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان، فيذكر في قصة آدم نقطة النسيان. وتجيء في السورة التي تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتنبهم من عباده، فيذكر في قصة آدم أن ربه اجتباها فتاب عليه وهدهاه. ثم يعقبها مشهد من مشاهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة. وكأنها هي العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه»^(٣) .

وقصة آدم هنا معطوفة على قصة موسى عليه السلام - من قبل، لما بينها من التناظر من حيث: التفريط في العهد، لأن في القصة الأولى تفريط بني إسرائيل في عهد الله، كما قال فيها ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾، وفي قصة آدم تفريط في العهد أيضاً. وفي كون ذلك من عمل الشيطان كما قال في القصة الأولى ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ وقال في هذه ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾. وأن في القصتين نسياناً لما يجب الحفاظ عليه وتذكره

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥١.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/ ٣٥٢-٣٥٣.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٣.

فقال في القصة الأولى ﴿فَنَسِيَ﴾ وقال في هذه القصة ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١).

المعنى الإجمالي^(٢) :

« يقول تعالى ذكره: وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّف لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمر عدوّهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقديماً ما فعل ذلك أبوهم آدم ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا﴾ إِلَيْهِ أَي: ولقد وصينا آدم وقلنا له: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ فوسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حلّ.

وعنى جلّ ثناؤه بقوله: ﴿مِن قَبْلِ﴾ هؤلاء الذين أخبر أنه صرف لهم الوعيد في هذا القرآن وقوله:

﴿فَنَسِيَ﴾ يقول: فترك عهدي^(٣). ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أَي: «ولم نجد له عزم قلب على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه».

ثم يقول تعالى ذكره معلماً بنيه محمداً ﷺ، ما كان من تضييع آدم عهده، ومعرّفه بذلك أن ولده لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا من عصمه الله منهم: واذكر يا محمد ﴿وَلِإِذْ

(١) التحرير والتنوير: ٣١٨/١٦.

(٢) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر: ٢٢٠/١٦، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) وقيل: ﴿عَهِدْنَا إِلَيْكَ أَدَمَ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢٠/٣.

(٤) وهو ما اختاره الطبري، واستدل له بلسان العرب فقال: وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلب، على الوفاء بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه. جامع البيان، للطبري: ٢٢٢/١٦.

للتوبة، فوققه لها، ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: فإن يأتكم يا آدم وحواء وإبليس مني هدى: أي: بيان لسبيلي، وما أختاره لخلق من دين ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ أي: فمن اتبع بياني ذلك وعمل به، ولم يزع منه ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ أي: فلا يزول عن محجة الحق، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة بعقاب الله، لأن الله يدخله الجنة، وينجي من عذابه، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ الذي أذكره به فتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزع عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: فإن له معيشة ضيقة^(١).

قيل: الضنك المراد هو الضيق أو الشقاء، وقيل: في جهنم، وقيل: المعيشة الحرام في الدنيا، وقيل: الرزق في معصيته، وقيل: الكسب الخبيث، وقيل: في البرزخ بعذاب القبر يضيق بهم حتى تختلف أضلاعه ورجحه الطبري^(٢).

(١) والذنك من المنازل والأماكن والمعاش: الشديد يقال: هذا منزل ذنك: إذا كان ضيقاً، وعيش ذنك، الذكر والأنثى والواحد والاثنتان والجمع بلفظ واحد ومنه قول عنتره:
وإن نزلوا بذنك أنزل.

جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢٢٥.

(٢) فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر، وساق بسنده إلى أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى أَتَدْرُونَ ما المَعِيشَةُ الضَّنْكَ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «عَذَابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيَسَلُطُ عَلَيْهِ تَسْعَةٌ وَتَسْعُونَ تَبِينًا، أَتَدْرُونَ ما التَّبِينُ: تَسْعَةٌ وَتَسْعُونَ حَيَّةٌ، لِكُلِّ حَيَّةٍ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ، يَنْفُخُونَ فِي جِسْمِهِ وَيَلْسَعُونَهُ وَيُخَدِّشُونَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢٢٨.
[قال ابن كثير: «رفعه منكر جدا» ثم أورد رواية أخرى تذكر أن المراد بها: عذاب القبر، وقال عقبه: «إسناده جيد». تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٠.

وأضاف الطبري فقال: وإن الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ فكان معلوماً بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى معنى مفهوم، لأن ذلك إن لم يكن تقدّمه عذاب لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشد منه، بطل معنى قوله وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى. فإذا كان ذلك كذلك، فلا تخلو تلك المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم من أن تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في=

وفسره ابن كثير بقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي «ضنكا في الدنيا، فلاطمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة»^(١)، ﴿وَمَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ أي: «يحشر أعمى عن الحججة ورؤية الشيء كما أخبر جل ثناؤه، فعَمَّ ولم يخص»^(٢)، ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾^(٣)... أي: قال: رب لم حشرتني أعمى عن حجتي ورؤية الأشياء، وقد كنت في الدنيا ذا بصر بذلك كله»^(٣). ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِينَهَا﴾ قال الله حينئذ للقائل له: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾: فعلت ذلك بك، فحشرتك أعمى كما أتتك آياتي وهي حججه وأدلته وبيانه الذي بيّنه في كتابه، ﴿فَنَسِينَهَا﴾: أي: فتركتها وأعرضت عنها، ولم تؤمن بها، ولم تعمل. وعنى بقوله ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ﴾ هكذا أتتك.

= قبورهم قبل البعث، إذ كان الأوجه أن تكون في الآخرة لما قد بيّنا، فإن كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كل من أعرض عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيرا منهم أوسع معيشة من كثير من المقبلين على ذكر الله تبارك وتعالى، القائلين له المؤمنون في ذلك، ما يدل على أن ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القول في ذلك من هذين الوجهين صح الوجه الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ». جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٢٨.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/٢٢٩٩. يقول الطبري: «وإنما قيل لمعيشة الدنيا ضنك وإن كانت واسعة، لأنهم يتفقون ما يتفقون من أموالهم على تكذيب منهم بالخلف من الله، وإيأس من فضل الله، وسوء ظن منهم بربه، فتشتد لذلك عليهم معيشتهم وتضيق». جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٢٧.

(٢) وهو ما صوبه الطبري. جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٢٩، وقيل: أعمى البصر. ينظر المرجع نفسه.

(٣) وهو ما صوبه الطبري. جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٢٩.

«فإن قال قائل: وكيف قال هذا لربه: لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى مع معايته عظيم سلطانه، أجهل في ذلك الموقف أن يكون لله أن يفعل به ما شاء، أم ما وجه ذلك؟ قيل: إن ذلك منه مسألة لربه يعرفه الجرم الذي استحق به ذلك، إذ كان قد جهله، وظن أن لا جرم له، استحق ذلك به منه، فقال: رَبِّ لَأَيِّ ذَنْبٍ وَلَأَيِّ جَرْمٍ حَشَرْتَنِي أَعْمَى، وقد كنت من قبل في الدنيا بصيرا وأنت لا تعاقب أحدا... بدون ما يستحق منك من العقاب». جامع البيان، للطبري: ١٦/٢٢٩-٢٣٠.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى﴾ ^(١) «أي: فكما نسيت آياتنا في الدنيا، فتركتها وأعرضت عنها فكذلك اليوم نساك، فترتك في النار» .

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي﴾ وهكذا نجزي: أي نثيب ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ فعصي ربه، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا في البرزخ. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْقَى﴾ أي: ولعذاب في الآخرة أشد لهم مما وعدتهم في القبر من المعيشة الضنك وأبقى، أي: وأدوم منها لأنه إلى غير أمد ولا نهاية.

الإشارات والهدايات المستنبطة من المقطع:

* ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ ^(١١٨) «إنما قرن بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ ^(١١٩) وهذان أيضاً متقابلان، فالظما حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر» .

* إن «عهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة يمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة، وتأكيد الشخصية، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد؛ فلا تستعبدتها الرغائب وتقهرها. وهذا هو المقياس الذي لا يخطئ في قياس الرقي البشري. فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري. وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى. من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته، وتنبهه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب

(١) وهذا كقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنسئهم كما سئوا لِقَاءَ يَوْمهم هَذَا﴾ فإن الجزء من جنس العمل «تفسير

القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٣٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٢٢٩٧-٢٢٩٨.

التي يزينها الشيطان، وإرادته وعهده للرحمن»^(١).

* «إن في تذكيرنا هنا بنسيان أبينا آدم العهد بسط الأمل لنا نحن بني آدم في العذر في نسيان الالتزام بالتكاليف، وقد رفع الله عنا الخطأ والنسيان»^(٢).

* «﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾» بهذا لمس الشيطان في نفس آدم الموضوع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة. من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان، و آدم مخلوق بفضرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة.. ومن ثم نسي العهد، وأقدم على المحذور»^(٣).

* «اعلم أن واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغبه في دوام الراحة، وانتظام المعيشة بقوله: ﴿فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى^(١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى^(١٩)»، ورغبه إبليس أيضا في دوام الراحة بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وإبليس وقفه على الإقدام عليها، ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعتن بسبب عداوته، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي. ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٤.

(٢) وقد قال الله عقب قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قد فعلت. مسلم في الصحيح، باب أنه سبحانه وتعالى لا يكلف إلا ما يطاق، برقم: ١٢٦.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٤.

مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره»^(١).

* ﴿ قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، بذلك أعلنت الخصومة في الثقلين، فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنها أخذت على غرة ومن حيث لا أدري. فقد درى وعلم؛ وأعلن هذا الأمر العلوي في الوجود كله: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾.

* ومع هذا الإعلان الذي دوت به السماوات والأرضون، وشهده الملائكة أجمعون. شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى. قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم. فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس، أنه آتيهم بهدى منه، فمجاز كلاً منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى: ﴿ فَأَمَّا يَا أَيُّدِيكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۚ ﴾^(١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۚ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَد كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَنَا فَسَبِّحْنَا بِحَمْدِكَ الْيَوْمَ نُنسئ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِنَا رَبَّهُ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾^(٢).

* «إن إثبات العصيان لآدم دليل على أنه لم يكن يومئذ نبياً. ولأنه كان في عالم غير عالم التكليف وكانت الغواية كذلك، فالعصيان والغواية يومئذ: الخروج عن الامتثال في التربية كعصيان بعض العائلة أمر كبيرها، وإنما كان شنيعاً لأنه عصيان أمر الله، وليس في هذه الآية مستند لتجويز المعصية على الأنبياء ولا لمنعها، لأن ذلك العالم لم يكن عالم تكليف»^(٣).

* ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢٨﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٩﴾ ﴾ هذا إثبات العصيان لآدم

(١) التفسير الكبير، للرازي: ١٠٩/٢٢.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/٢٣٥٥.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٢٧/١٦.

(١) دون زوجته، وهو يدل على أن آدم كان قدوة لزوجته فلما أكل من الشجرة تبعته زوجته» .
كما أن فيه بسط لأمل العاصي في قبول توبته، وقد قبلها من أبيه، فإنما نحن أبناءه، ويعترينا من النسيان والعصيان ما اعترى أبونا وزيادة، والله سبحانه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

محور السورة الرعاية والعناية، ولقد خلق الله آدم ﷺ ليجعله خليفة في الأرض، فاعتنى به عناية عظيمة منذ بدء خلقه، حيث أسجد الملائكة، وعلمه الأسماء، وأنعم عليه بنعيم الجنة، ولما عصاه تاب عليه فاجتباها، وفي هذه السورة تتجلى مظاهر العناية الربانية بآدم ﷺ، من وجوه:

أ- عرضه لتجربة الابتلاء بالأمر بالأكل، والنهي عنه ^(٢) «لاختبار إرادته، وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان، وإرادته، وعهده للرحمن. وها هي ذي التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ ^(٣) .

ب- تذكيره بنعمة التفضيل بإسجاد الملائكة له: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ هكذا في إجمال يجيء هذا المشهد الذي يفصل في سور أخرى لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية.. فيعجل بمظاهر النعمة في الرعاية» ^(٤) .

ج- حذره له عدوه، وحذره منه: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ^(٥) وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٢٧/١٦.

(٢) ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٣٥) . البقرة: ٣٥.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٣/٤.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٣-٢٣٥٤/٤.

عقب نشوزه وعصيانه، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه" ^(١) .

د- تذكيره بنعمه عليه في إساكنه الجنة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ

فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

هـ- «الاجتباء والهداية إلى التوبة، ثم قبولها: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَّ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ ثم

أدركت آدم وزوجه رحمة الله، بعدما عصاه، فقد كانت هذه هي التجربة الأولى: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ

فَأَبَّ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ بعدما استغفر آدم وندم واعتذر. ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله في

الجو وحدها" ^(٢) ، وخاصة أن جو السورة جو الرحمة والرعاية «لمن يجتبيهم من عباده، فيذكر في

قصة آدم أن ربه اجتباها فتاب عليه وهداه» ^(٣) .

- وفي جو من الرعاية واللطف والرحمة يذكر الله تعالى عقب الحكم بإنزال آدم وحواء

وإبليس إلى الأرض أنه منزل منهجا من عنده فمن اتبعه فلا يضل ولا يشقى، ومن يعرض عنه

فله معيشة ضنكا، وهو هنا تذكير لأولئك الذين تنكبوا منهج الله وأبوا اتباع النبي صلى الله عليه

وآله وسلم، وفي الوقت نفسه تبشير للذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتزموا

منهج الله تعالى في وقت نزول السورة وما بعدها.

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٥.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٣٥٣.

الخاتمة : إنذار للمشركين واعدار، وتوجيه

للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاد

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَبَاقٍ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَمَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِّلَ وَنُخْرِجَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مَتْرَبٍصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

تضمنت هذه الخاتمة إنذار وتهديد لأهل مكة بالإهلاك، بذكر إهلاك من سبقهم، وإعذار لهم، حيث أرسل الله إليهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، فبشرهم وأنذرهم، وما بين الإنذار والإعذار توجيهات ربانية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يتعلق بتعامله مع المشركين، أو ما يتعلق بخصوص نفسه من التسبيح والصلاة.

المناسبة بين الخاتمة وما قبلها :

«ولما كان ما مضى من هذه السورة وما قبلها من ذكر مصارع الأقدمين، وأحاديث المكذبين بسبب العصيان على الرسل، سبباً عظيماً للاستبصار والبيان، كانوا أهلاً لأن ينكر عليهم لزومهم لعماهم فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ أي يبين ﴿ هُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ أي كثرة إهلاكنا لمن تقدمهم ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ بتكذيبهم لرسولنا، حال كونهم ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ ﴾ ويعرفون خبرهم بالتوارث خلفاً عن سلف أنا نصر أوليائنا ونهلك أعدائنا ونفعل ما شئنا» .

(١) نظم الدرر، للبقاعي: ١٢/٣٦٤-٣٦٥.

(١)
المعنى الإجمالي :

«يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين. يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفاً أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما صابهم»^(٢). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي: إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائنا بالأمم المكذبة رسلها قبلهم، وحلول مثلثاتنا بهم لكفرهم بالله لآيات أي: لدلالات وعبراً وعظات لأولي النهى: وهم أهل الحجى والعقول، ومن ينهاه عقله وفهمه ودينه عن مواجهة ما يضره». ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا محمد أن كل من قضى له أجلاً فإنه لا يخترمه قبل بلوغه أجله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ووقت مسمى عند ربك، ساء لهم في أم الكتاب وخطه فيه، هم بالغوه ومستوفوه ﴿لَكَانَ لِرِزَامًا﴾ أي: للازمهم الهلاك عاجلاً.

ثم يقول جل ثناؤه لنبية: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله من قومك لك إنك ساحر، وإنك مجنون وشاعر ونحو ذلك من القول ﴿وَسَيَحِبُّ مُحَمَّدٌ رَّبِّكَ﴾ أي: وصل بشناك على ربك .
وقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ وذلك صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وهي العصر ﴿وَمِنْ

(١) هذا المعنى الإجمالي مما أجمله ابن جرير في تفسيره جامع البيان: ينظر: ١٦/ ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٨.

(٢) جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢٣١. ثم قال الطبري: «وقد كانت قريش تتجر إلى الشام، فتمرّ بمساكن عاد وثمود ومن أشبههم، فترى آثار وقائع الله تعالى بهم، فلذلك قال لهم: أفلم يجذّرههم ما يرون من فعلنا بهم بكفرهم بنا نزول مثله بهم، وهم على مثل فعلهم مقيمون».

(٣) وقال: بحمد ربك. والمعنى: بحمدك ربك، كما تقول: أعجبتني ضرب زيد، والمعنى: ضربي زيدا. جامع البيان، للطبري: ١٦/ ٢٣٣.

﴿أَنَايَ اللَّيْلِ﴾ وهي ساعات الليل ^(١) ... والمراد: صلاة العشاء الآخرة، لأنها تصلى بعد مضي آناء من الليل. وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾: يعني صلاة الظهر والمغرب ^(٢). ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ ^(٣) أي: كي ترضى.

ثم يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ولا تنظر إلى ما جعلنا لضرباء هؤلاء المعرضين عن آيات ربهم وأشكالهم، مُتَّعَةً في حياتهم الدنيا، يتمتعون بها، من زهرة عاجل الدنيا ونضرتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهَا﴾ أي: لنختبرهم فيها متعناهم به من ذلك، ونبتليهم، فَإِنَّ ذَلِكَ فَإِنَّ زَائِلٌ، وَغُرُورٌ وَخُدَعٌ تَضْمَحَلُّ ﴿وَرِزْقٌ رَّبِّكَ﴾ الذي وعدك أن يرزقك في الآخرة حتى ترضى، وهو ثوابه إياه ﴿حَبِيرٌ﴾ ^(٤) لك مما متعناهم به من زهرة الحياة الدنيا. ﴿وَأَبْتَى﴾ أي: وأدوم، لأنه لا انقطاع له ولا نفاذ .

(١) واحدها: إنِّي. جامع البيان، للطبري: ٢٣٣/١٦.

«ووجه الاهتمام بآناء الليل أن الليل وقت تميل فيه النفوس إلى الدعة فيخشى أن تتساهل في أداء الصلاة فيه» التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٣٨/١٦.

(٢) جامع البيان، للطبري: ٢٣٣/١٦. وقيل: أطراف النهار، والمراد بذلك الصلاتان اللتان ذكرنا، لأن صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأول، وفي أول طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث: غروب الشمس، وعند ذلك تصلى المغرب، فلذلك قيل أطراف، وقد يحمل أن يقال: أريد به طرفا النهار. وقيل: أطراف، كما قيل صَعَتْ قُلُوبُكُمَا فجمع، والمراد: قلبان، فيكون ذلك أول طرف النهار الآخر، وآخر طرفه الأول.

(٣) قرئت بفتح التاء من «ترضى» وبضمها، «والصواب من القول في ذلك عندي: أنها قراءتان، قد قرأ بكل واحدة منها علماء من القراء، وهما قراءتان مستفيضتان في قَرَأَةَ الْأَمْصَارِ، متفقتا المعنى، غير مختلفين وذلك أن الله تعالى ذكره إذا أرضاه، فلا شك أنه يرضى، وأنه إذا رضى فقد أرضاه الله، فكل واحدة منهما تدل على معنى الأخرى، فبأيتها قرأ القارىء فمصيب الصواب». جامع البيان، للطبري: ٢٣٤/١٦ - ٢٣٥.

(٤) جامع البيان، للطبري: ٢٣٥/١٦. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٣٠٢/٥. وقال الطبري: وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ، من أجل أن رسول الله ﷺ بعث إلى يهودي يستسلف منه طعاما، فأبى أن يُسلفه إلا برهن، فحزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أي: ﴿ وَأْمُرْ ﴾ يا محمد ﴿ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أي: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت ﴿ لَا نَسْأَلُكَ مَالًا، بَلْ نَكْفِكَ عَمَلًا بِبَدَنِكَ، نُوْتِيكَ عَلَيْهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَثَوَابًا جَزِيلًا ﴾ ﴿ تَحْنُ نَزْرُقُكَ ﴾ أي: نحن نعطيك المال ونكسبكه، ولا نسألكه. ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ أي: والعاقبة الصالحة من عمل كل عامل لأهل التقوى والخشية من الله دون من لا يخاف له عقابًا، ولا يرجو له ثوابًا.

ويقول ابن كثير: « وقوله: ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا تَحْنُ نَزْرُقُكَ ﴾ يعني إذا أقمتم الصلاة أتاكم الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۗ ﴾ [الذاريات: ٥٦]- إلى قوله - ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ولهذا قال: ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا تَحْنُ نَزْرُقُكَ ﴾ ^(١).

ثم يختم الله تعالى السورة بالرد على الكفار، وإنذارهم بسوء العاقبة، لما أبوا أن يتذكروا بهذا القرآن، وتبشير المؤمنين بحسن العاقبة لما كانوا من أهل الذكر، فيقول سبحانه مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿ لَوْلَا يَا تِينًا يَتَابِعُ مِنْ رَبِّهِ ۗ ﴾ والمعنى: هلا يأتينا محمد بأية من ربه، أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله ^(٢)؟ قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ والبينة: القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أُمِّي لا يحسن الكتابة، ولم يدرس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين ^(٣) بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافق عليه الكتب المتقدمة

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٣٠٣/٥.

(٢) كما أتى قومه صالح بالناقة وعيسى بإحياء الموتى، وإبراهيم الأكمه والأبرص. جامع البيان، للطبري: ٢٣٨/١٦.

(٣) من أنباء الأمم من قبلهم التي أهلكتناهم لما سألوا الآيات فكفروا بها لما أتتهم كيف عجلنا لهم العذاب، وأنزلنا بأسنا بكفرهم بها، فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم حال أولئك. جامع البيان، للطبري: ٢٣٧/١٦.

الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين الخطأ المكذوب فيها وعليها وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١] .^(١)

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزَلَ وَنُحْزَىٰ ﴾ ﴿١٣٤﴾ أي: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذبون بهذا القرآن من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعياً يدعوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعداب ننزله بهم بكفرهم بالله، لقالوا يوم القيامة، إذ وردوا علينا، فأردنا عقابهم: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يدعونا إلى طاعتك، فتتبع آياتك يقول: فتتبع حجتك وأدلتك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن نذلّ بتعذيبك إيانا ونحزى به.

﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿ كُلُّ مُّرْتَبِصٍ ﴾ أي منا ومنكم منتظر لمن يكون الفلاح مصيره، وإلى ما يؤول أمرى وأمركم كل متوقف ينتظر دوائر الزمان ﴿ فَرَبِّصُوا ﴾ أي فارتقبوا وانتظروا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴾ فستعلمون من أهل الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، أنحن أم أنتم؟ ﴿ وَمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴾ أي: وستعلمون حينئذٍ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم.

«وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وقال: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِيرِ ﴾ ﴿١٣٦﴾»^(٢)

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٣٠٤/٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢٣٠٥/٥.

الإشارات والهدايات المستنبطة من الخاتمة :

- * ﴿ أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكَئِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ (١٢٨) « هذا الاستفهام استفهام إنكاري تعجيبى، تعجيباً من حال غفلة المخاطبين المشركين عما حل بالأمم المماثلة لهم في الإشراك والإعراض عن كتب الله وآيات الرسل فضمائر جمع الغائبين عائدة إلى معروف من مقام التعريض بالتحذير والإنذار بقرينة قوله ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسْكَئِهِمْ ﴾، فإنه لا يصلح إلا أن يكون حالاً لقوم أحياء يومئذ^(١) .
- * قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ جاء في موضع التعليل، وذلك للإنكار والتعجيب من حال غفلتهم عن هلاك تلك القرون. فحرف التأكيد للاهتمام بالخبر وللإيدان بالتعليل... وفي هذا تعريض بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنهم عديمو العقول^(٢) .
- * لما كانت الدنيا حلوة نضرة، وما فيها من النعم نعم زائلة «شبهها الله بالزهر، وهو النوار، لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل»^(٣) .
- * ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾. «فأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم؛ وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله، فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة. وما أرواح الحياة في ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله»^(٤) .
- * ﴿ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾.. على إقامتها كاملة؛ وعلى تحقيق آثارها. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وهذه هي آثارها الصحيحة. وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها هذه في المشاعر والسلوك. وإلا فما هي صلاة مقامة. إنها هي

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٣٤/١٦.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٣٥/١٦.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: ٢١/٣.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٧.

(١)
حركات وكلمات .

* ﴿لَا سَتْلَكَ رِزْقًا تَحْنُ نَزْرُقُكَ وَالْعَنْبِيَّةُ لِلنَّقْوَى﴾ هذه الصلاة والعبادة والاتجاه إلى الله هي تكاليفك والله لا ينال منها شيئاً. فالله غني عنك وعن عبادة العباد، إنما هي العبادة تستجيش وجدان التقوى ﴿وَالْعَنْبِيَّةُ لِلنَّقْوَى﴾. فالإنسان هو الرابع بالعبادة في دنياه وأخراه. يعبد فيرضى، ويطمئن ويستريح. ويعبد فيجزى بعد ذلك، الجزاء الأوفى. والله غني عن العالمين" (٢).

المناسبة بين هذه الخاتمة ومحور السورة:

محور السورة العناية والرعاية، وفي الخاتمة هنا نلمح العناية بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم في توجيه الله تعالى له إلى ما يعينه في دعوته إلى الله تعالى، وإلى ما يقوي قلبه وإيمانه فأمره أولاً بالصبر على ما يقوله الكفار، والصبر صفة أولى العزم من الرسل، وأمره بالتسبيح، والتسبيح تنزيه لله تعالى عما لا يليق به تعالى مما يقوله الكافرون، وأمره بالاصطبار على الصلاة ودعوة أهله إلى المحافظة عليها، والصلاة صلة بينه وبين ربه، وهو الذي كان يقول من بعد: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها» (٣).

وللمدعوين من أهل الشرك لطف آخر، فقد لطف الله بهم، إذ قدم لهم بين أيديهم من نذر السابقين من القرون الأولى ما يغنيهم لو كانوا يؤمنون ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، «وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة، والعاقبة بيد الله» (٤).

وقطع عليهم دعوى الاحتجاج بعدم إرسال الآيات بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ومن عليهم مرة أخرى إذ سبقت كلمته ألا يعاجلهم بالعذاب قبل انقضاء آجالهم.

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٧.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢٣٥٧.

(٣) أخرجه أبوداود في السنن، باب في صلاة العتمة، برقم: ٤٩٨٥.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/٢٣٥٨.

الفهرس

الصفحة	السورة
١	إبراهيم
٩٣	الحجر
١٣١	النحل
٢٠٥	الإسراء
٢٨٣	الكهف
٤٠٣	مريم
٤٨٥	طه



مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS

Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O. Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com